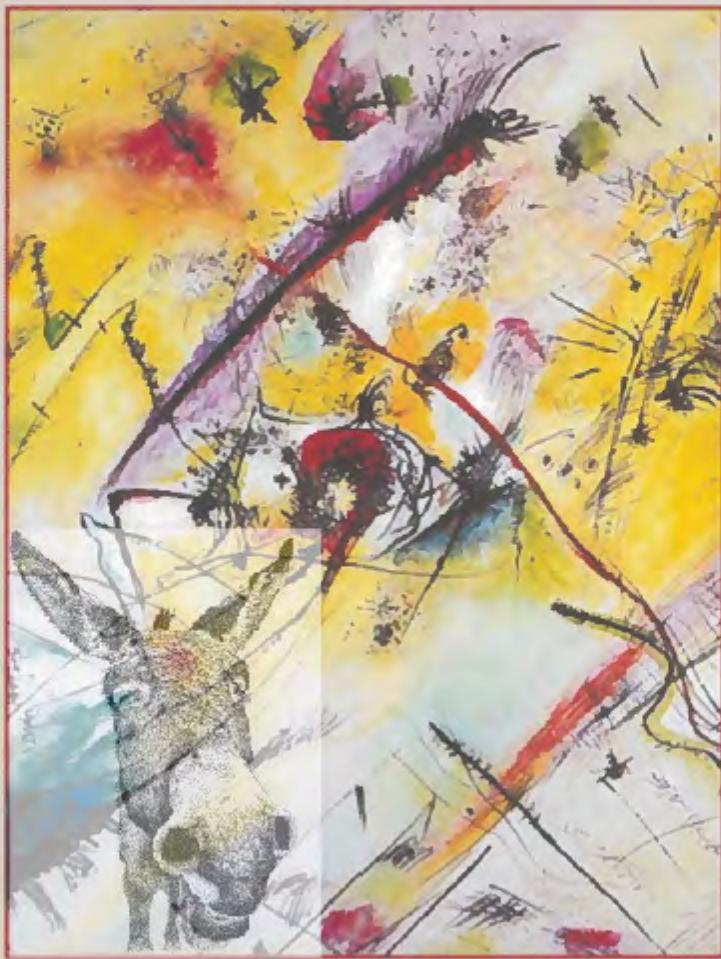


مجاناً مع دعم الثقافة

جداريات الشام نمنوما

رواية



نبيل سليمان

106
د. ن. الطالب

كتاب

دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 106



تareق سعيدان

المذيع العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مذيع التحرير
نوااف يونس

مذيعة

مذيع النطاط

محمد شيرين

المذيع الفائز
أيمن ديسينس

المذيع والباحث

محبوب سعير

مذيع المذاهب الالكترونية

محمد بن مسعود

مؤلفي دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

الصحافة والتلفزيون والتوزيع

مطبخ المجلة

www.al-sadi.com

- كاتب عمود وائل العبدلي
- الكاتب الشهير عصام العقاد
- سلطان العبدالله ناصر العتيقي
- عاصي العبدالله
- دكتور عاصي العبدالله
- لوثي عاصي العبدالله
- دكتور عاصي العبدالله
- العلامة الدكتور عاصي العبدالله
- دورة طارق العتيقي زوج العقاد
- درج العدد ١٠٦ عدد ٢٠١٣ ص ٢٢٦
- هاتف ٩٧٤٢٣٣٣٣٣٣
- فاكس ٩٧٤٢٣٣٣٣٣٣
- الإلكتروني: al-sadi@al-sadi.com
- مكتب العدد ١٠٦
- مكتب العدد ١٠٦
- مكتب العدد ١٠٦

جداريات الشام لمعلوما

رواية

الصفحة الأولى: غابر ٢٠١٤

حقوق الملك محفوظة دار الصدى

هذا الإصدار

بِقَلْمِ سَيْفِ الْمَرْيَ

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «جداريات الشام - نمنوما» للناقد والروائي نبيل سليمان، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار وأضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنوع في شتى مشارينا الثقافية، تعميمًا للنفع، وحرصًا على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد، وكل ما ننتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة
الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا
عند وجود أي تقصير.
والله من وراء القصد



«فلنذهب إلى أعلى الجداريات»

«الواقعي هو الخيالي الأكيد»

«هزمنتَك يا موتُ الفنونُ جميها»

من جدارية محمود درويش

«الثورة تنجز في يومين عمل مائة سنة، وتخسر في سنة
إنجاز خمسة قرون»

بول فاليري

عارية وناعمة مثل الشفرة

كما لو أنها الليلة الأولى لعروسين: تتم صباح بشفتين مطبقتين، بالأحرى متعانقتين؛ وربما تمطّى أو تثاءب، لكنه لم ينقلب على جنبه الأيمن متلذاً، كما تعود أن يفعل كلما أفاق.

أطال المؤذن في ذيول الأذان، وربما كان ذلك ما شوش على صباح حلمه. وما إن تلاشى زعيق المؤذن في الميكروفون المشروخ، حتى لفحت صباح هبة ساخنة مُيامنة، من قمة رأسه إلى باطن قدميه، فلبد هنيهة قبل أن يتحلّب ريقه. وعندما ضاعف الريق حلوته، تنهد صباح مسترزاً، فلبتّه لفحة أكبر سخونة. وسرعان ما تبارت بين جنبيه، فخاف من أن يحترق، لذلك تسابقت كفاه تدرآن النار الموقدة، فإذا بيمناه تمتلئ من ورك أو إليه، وإذا باليسرى تقلبه على جنبه لتتطوي في صدره وفي حنایاه هذا الجسد الرافل بالغبطة والعطّر.

بين الوسادة وعنقه تسللت ذراع عارية وناعمة مثل الشفرة. أسلم عنقه مثل ذبيحة. وبلا عينين، وفي سويداء العتمة، رأى بياض الذراع يسطع، فنسى عنقه، وأقبل على الأنف الدقيق يتشمّمه، ثم أقبل على الوجنتين الغافيتين مسبحاً. وربما كان

سيطوف بين الحاجبين أو حول الأذن التي أومأت له، لكن
نمنوما همست: حبيبي، فغاب في ومضة فوضضة من ضياء
وعتمة، من خوف وأمان، من لذة ومن وجع. وودّ لو يقدر على
أن يملأ هذا الفجر ضحكاً وبكاءً معاً. لكنه عجز كما يعجز
الوليد أو الميت. وطال به العجز ريثما تماثل له بربخ مما يقال
إنه يقوم بين الحياة والموت، أو بين الجنة والجحيم. ولما
حرك إحدى قدميه ليتبين موقعه من البربخ، تمسحت القدم
بساق عارية وناعمة مثل الشفرة. وعلى هون التفت الساق على
الساق، وهمست نمنوما: حبيبي.

نهر العاصي يتضرج على غرق العروسين

على وقع الهمسة أفاق، فراحت تدور به، وظلت تدور حتى
أصاب الدوار بيت راتب وينان، حيث حلّ صباح ونمّوماً منذ
المساء. وكاد الدوار أن يصيب النهر نفسه، بل كاد أن يصيّب
حماة كلها، لو لا أن صباح صحا فجأة.

وعلى هديٍ من ذبالة الضوء الذي بالكاد يفلت من المدفأة،
رأى شقرة نمّوماً تتقدّ، ليس فقط فيما ارتمى من الشعر الطويل
على اللحاف، ولا في الخصلة الغافية على خد، أو الخصلة
الغافية على جبين. كانت الشقرة تتقدّ فيما لا يظهر من نمّوماً،
ولم يره صباح حتى في الحلم. لكن ريقه ظل يتحطّب حتى
تسدل الضوء من النافذة المسورة بصورتين ملونتين وكبيرتين
لمحمية البلعاس ولمحمية التليلة، بلا ستارة، فإذا بالصالون
الصغير يضيق بالصوفا المدابرة لصوفاً، وبالمدفأة المقابلة،
وبالطاولة الخفيضة المستطيلة اللامعة، وبالمكتبة الصغيرة
المعلقة وسط الجدار الأصم المقابل للمدفأة.

مثل الضوء أيضاً تسدل صوت المطر كأنه عاشق يوشوش.
لكنه انقلب فجأة إلى خطبٍ غاضبٍ، كما فعل مراراً خلال السهرة،
فتجدد خوف صباح من أن يهشم صوت المطر زجاج النافذة.

ترجعت ملء الصالون سخريّة راتب من هلع صباح، فأدار ظهره احتلاقيه سخريّة أكبر تسأله: لماذا اخترت يا عفلق زمانك أن تناما هنا؟ لماذا رفضت يا عفلق زمانك أن تناما معاً على الفراش الذي هيأته بنان في هذه الغرفة التي تتلخص عليها الآن، كما تلخصت عليها البارحة، قبل أن تفاجئ بنان كما فاجأت نفسك بصوتك يهمس:

الغرفة باردة، شنام في الصالون وترك المدفأة تهدّر.
قالت بنان مستطحّةً ما حسبته مزاحاً:

وكل واحد على صوفاً
فقال متظاهراً باللذابة:

عليك نور، كل واحد على صوفها.

تقدمت بنان في الممر قائلةً:
في المطبخ سخانة كهربائية، س أحضرها. السخانة
صغريرة، لكنها تكفي لهذه الغرفة.

تمعن صباح في الفراش العريض الذي يتوسط البلاط
العاري. ولما طال صمته التفت بنان إليه، وعمّرت قائلةً:
عاشقان في فراش فمن أين يأتي البرد حتى لو ناما
عارضين؟ لن أحضر السخانة.

قال صباح وهو يلتفت نحو الصالون خوفاً لأن تسمعه

نمنوما أو يسمعه راتب:
عاشق، نعم. من قال لك: عاشقان؟ من قال إننا سننام
عاريين أو..؟

وتقدم حتى حاذى بنان، فجرته من يده إلى المطبخ
وصوتها يسابقها:

لماذا قطعتماً إذاً تحت المطر كل هذه المسافة من اللاذقية
إلى حماة؟ لتقول لي: الحمد لله على سلامتك؟ مبروك العاصي
يا بنان؟ لا والله. مشتاق لراتب؟ صدقتك. لماذا شرفتنا نمنوماً
خانم؟ لتتعرف على صديقك وصديقتك؟ شو القصة يا صباح؟
جلس هنا على كرسي الاعتراف، وهات.

كان المطر قد عاد عاشقاً يوشوش، فانقلب كرسي الاعتراف
إلى سرير، وبدلأ من أن يعترف صباح غرق في النوم. وبينما
أن غرقه طال حتى عاد المطر يخطب غاضباً. ولأن صباح
لم يحفل، ضاعف المطر من خطبه ومن غضبه حتى فاض
النهر، تماماً كما يليق بالأحلام أو الكوابيس. ولأن صباح
لم يحفل أيضاً، ضاعف النهر من فيضانه، فجرف السرير
وصباح والصوفا ونمنوماً وسريراً آخر يضيق ببنان وراتب.
وعندما أخذ الفيضان ينحسر ماضياً بحمولته حتى استوقفته
الناعورة، تناهت ضحكةُ الوليد ملء الأسماع، فالتفتت

الأعناق، وإذا بالوليد على الضفة يضحك ويعاشر حبات المطر
الذى عاد عاشقاً يوشوش. عندئذٍ قفزت بنان، فبلغت بقفزة
واحدة مطرح ابنها، وانتظرت ريثما قفز راتب قفزة واحدة،
ووقف خلفها. ولما تناولت بنان الوليد من على بلاط الضفة
هتفت: سميتك العاصي، وهتف راتب: سميتك العاصي، بينما
كان النهر قد جرف نمنوماً وصباح بعيداً، ثم لبث يتفرج سعيداً
على غرقتهم.

هذه نمنوما، وهذه حكاية اللقاء الأول

بين رفوف المطبخ المغلقة والمشروعة، قلب صباح نظراته،
ثم أطرق ليحبسها بين كفيه، كأنه خائف، أو يغالب الحياة،
وقال:

بنان: قدمت نمنوما لك: قاضية. أضيفي: حمصية، تعيش
في الشام منذ دخلت الجامعة. أظن أنها امرأة مفعمة بالجحيم
ومفعمة بالجنة معاً. نمنوما امرأة متمردة وعزباء، لكنها
شجاعة فيما أظن.
وماذا أيضاً؟

نمنوما مطلقة، بكسر اللام. لا تقبل أن تقولي مطلقة
بالفتحة. لها بنت سنة ثانية في الأدب الفرنسي: ليليا. أصغر
إخوة نمنوما، يامن، يعيش معها، سنة رابعة في كلية التربية.
وماذا أيضاً؟

والد ليليا درس الحقوق مع نمنوما التي أرادته محاميًّا
أو قاضيًّا، لكنه فضل أن يكون ضابط شرطة. تزوجا قبل أن
يتخرجا من الجامعة، ولم يكملوا معاً سنتهما الرابعة. كانت
هي تذهب يساراً، أو قولي تزداد تمرداً، بينما أسرع هو إلى كلية
ضباط الشرطة. هو الآن في درعا: العقيد واصل أبيضاني، ولا

يرى ابنته إلا في المناسبات.

ترك صباح شفتيه تنطبقان، بالأحرى تتعانقان، كما فعل عندما قدمت له نمنوما هذا الشاب الطويل الممتلئ حليق الرأس والذقن: أخي يامن، ثم قدمت هذه الشابة الشقراء النحيلة التي لا تهدأ عينها ولا أطراف أصابعها: بنتي ليليا. قولي: نمنوما في شبابها. لكن نمنوما تجاوزت الأربعين: همس صباح، فتبسمت بنان مشفقة، وسألت:

بأية صفة قدمتك لبنتها؟

قال محاذراً:

قالت: صديقي الأستاذ صباح خليل. لماذا تسألين؟
مرحبا صديقتي ومرحبا صديقي. من منكما يجرؤ على أن
يقدم الآخر: حبيبي أو حبيبتي؟

كان صوت بنان يتلون بالسخرية والتحدي، ولعل ذلك ما أخرسه حتى خرجت تلبي بكاء العاصي. ولما تيقن من أنه بات وحيداً، اختلط عليه سؤال بنان بخط المطر على زجاج نافذة المطبخ. ولعل ذلك ما سرّه حتى عادت بنان بال العاصي يملأ حضنها. وتراءى لصباح أنها الآن تفيض رضاً، كأنها ليست من غادرت للتو، فأحسّ أنه قادر على أن يحكى لها، ولل العاصي، ولنفسه، حكاية لقائه الأول بنمنوما. لكنه تريث،

ربما لأن فراشة مرقطة نادت عينيه إلى رفوفتها حول النبیون
الدائري، وربما لأن فستان نمنوما في ذلك اللقاء قد ناداه إلى
لون قرنفلة تنزف عطرها، فترنح مثل السکران. ولما انتبهت
بنان إليه سمت باسم الله الرحمن الرحيم: شو صار لك يا
صباح؟ وخرجت، فتقدم إلى الباب الزجاجي الصغير المفضي
إلى الشرفة الصغيرة المزينة بحبل الغسيل وملاقط الثياب
ومساحة وجّة غاز.

* * *

حين ألصق جبينه بالزجاج البارد والمرقش بحببيات
المطر، رأى نفسه ينزل عن منصة الاحتفال بذكرى غسان
كتفاني، ورأى ممیز بسمرتها الخلاسية وشعرها الفاحم الذي
يسور وجهها المریع، تلوح له في نهاية القاعة قرب باب
الخروج، فهرع إليها. وقبل أن يقف إلى يمينها، أشارت إلى
شابة شقراء طويلة تقف إلى يسارها، وقالت باعتزان:
نمنوما.

وليهرب مما اعتبراه رجفة ریما، بل ربما صعقة تأتا:
هذا أنت إذا! كم حدثتني ممیز عنك!
وهذا أنت أخيراً؟

قالت مبتسمة، وكانت عيناها تشفان زرقة وبهجة،

بل غواية، بل براءة، وكان أنطوان زوج ممیز يقترب بكتفيه
النحيلتين المندفعين إلى الأمام. وعندما حاذها تأبطة
ذراعه، وأعلنت أن السهرة في بيتها: شرفونا.

الآن أقبلت نمنوما بثوب بدّل لون القرنفلة النازفة عطرًا
بصفرة الموصلين الشعشاعية المبللة. وعلى جبين صباح
أرخت جبينها، كأن الباب الزجاجي ما عاد يفصل بينهما،
فبات قادرًا على أن يحكى حكاية اللقاء الأول، وإن لم يكن
ثمة من يصغي للحكاية، فما همّه هو أن هذه الشرفة الصغيرة
تنقلب إلى السماوية الرحبة أمام بيت ممیز وأنطوان، وتکاد
تمتلئ بمن توافدوا وتتوافدن، فتلف الغربة صباح، إذ لم يكن
قد التقى بأحد هم أو بإحداهن، من قبل. ولم يكن لعينيه إذاً
إلا أن تناجيا نمنوما، بحيرة ولھفة، وكانت النساء الخريفية
الباردة قد أخذت تعابث شعرها وحدها.

كانوا جميعاً يصغرون صباح بعشر أو بعشرين. وسرعان
ما تدافت الأصوات، فراحـت أذنـاه تلهـان خلفـها.

كانت النساء قد ضاعفت عبـتها بـشعر نـمنومـا، فـوـدـ صباح
لو أنه يجاورـها، ليـدرـأ عنـها هذا العـبـث وـهـذـه البرـودـة. ولاـقتـ
نـمنومـا نـظرـتهـ هذهـ المـرـةـ فيـ منـتصفـ الطـرـيقـ، وـتـبـسـمتـ،
وهـامـسـتـ جـارـهاـ الـذـيـ أـوـمـأـ لـهـ مـبـتـسـمـاـ، فـهـرـبـ صباحـ منـهـماـ

إلى أنطوان وممین، وإنما بأحدھم يخاطبھما:
صوت: أم کوز حول عينيه کحل أسود، وصدره برتقالي.
جمال فتّان.

صوت: وأبو کوز؟
صوت: الذکر اسمه أم کوز أيضاً. أم کوز السوري.
أصوات: مهمة مستحسنة.
صوت: هذه هي المساواة.

صوت: عشه مثل جرة مقصوصة ولصقة على ريف
صخري.

صوت ممین: وما الشبه بيننا وبينه؟
صوت: جماله فتّان مثلك، صوته أكبر من حجمه كصوت
أنطوان. عيناه حبتا سمسم كعينيك، منقاره إبرة كأرببة أنف
أنطوان.

عندئذٍ تتم صباح في سره: أم کوز ممیز! أم کوز أنطوان!
وابتسم مستملحاً الاسم، وقرر ألا ينادي صديقيه من بعد،
بغيره. وحضرت كفاه كأسه، وحدق فيه ليسأله عن أسماء
 أصحاب الأصوات. وعصر الكأس شاكياً له سوء الذاكرة، ثم
عصر الكأس شاكياً له سوء السمع، إذ لابد أن كلاماً كثيراً،
وريماً مهماً، قد فاته، ولو لا ذلك ما كانوا قد قهقهوا مراراً.

وفجأة انتشله صوت يتموج ويرسل سحره.

وحين توقف الصوت، وأخذ الآخرون يرددون ما سحرهم
به، رفع صباح رأسه، فإذا بمنوماً تحدق به، ولا بد أنها هي
إذاً من كانت تغنى،وها هي تؤمئ أمرةً بأن يشارك الآخرين،
فخطف نظرة من وجوههم، فهاله ما تقدّم به من بهجة وحرارة.
وكانت أصواتهم قد غدت صوتاً واحداً يتتموج ويرسل سحره،
كانه صوت نمنوماً، فأصابته العدوى، لكنه لم يكن، بل راح
يتهجد وقد تعلقت عيناه بمنوماً، وإذا بها تنأى بجبينها عن
جبينه، فيرتّد هو عن الباب الزجاجي الصغير البارد المرقش
بحبيبات المطر، ويفرك أجفانه، ويتساءل: هل هذه هي حقاً
حكاية اللقاء الأول؟

نمنوما قتحدث عن رجالها بينما تطير وصباح إلى حماة

ضحي الأربعاء جاء صوتها أكبر نداوة:
سوف أرافق ليليا غداً في زيارتها لأهل أبيها في بانياس.
ستبقى نمنوما إذاً حتى الأحد على مرمى حجر من اللاذقية،
أي على مرمى حجر منك. وللوهله الأولى سيلاعبك الوسوس:
ماذا تفعل نمنوما عند أهل سيادة العقيد واصل أبيضاني؟
ستلاعب أنت الوسوس: الرجل كان زوجها، سيادة العقيد
واصل أبيضاني والد ليليا يا أستاذ صباح.

ولكن إذا كانت ليليا متعلقة بجدها وجدتها فلتذهب
إليهما وحدها. إذا كانت ليليا مجنونة ببحر بانياس فلتتجنّب
به وحدها.

حاضر يا أستاذ صباح، يا من أصابه الجنون وحده.
ولكن ما شأنك أنت إذا ما زارت نمنوما أهل واصل أو واصل
نفسه؟ ما شأنك حتى لو نامت في حضنه؟ لماذا تنغص فرحة
اتصالها بك؟ مازا تتمنى أكثر من أن تبشرك: أنا حرة ثلاثة
أيام، ربّب اللقاء؟

هي إذاً لن تبقى في بانياس إذا نفذت الأمر. نادها فوراً.

تعالي فوراً جملتها (رتب اللقاء) تعني يا عفلق زمانك ستكونان معاً ثلاثة أيام. لن تستضيفها في الأوتييل، لأنك لن تستطيع أن تنفرد بها فيه. لن تستضيفها في بيتك، لأنك تخشى عيون جيرانك. لماذا لا ينطمر إذاً هذا العاشق مع معشوقته في أي شاليه من شاليهات الشاطئ الأزرق الفارغة في مثل هذه الأيام من الشتاء؟

تببل صباح وهو يرى نفسه ونموما حبيسين في أي جحر من اللاذقية. أية خطوة يخطوها خارج أي جحر، ستفضح العاشق الذي يكبر جبنه كلما كبرت أعوامه، وعليه إذاً أن يطير بمعشوقته حتى يحظى بالأمان: إلى بيت راتب وبنان، إلى حماة.

أسرع صباح بالاقتراب، فتساءلت نموما عما إن لم يكن في الأمر من حرج:

هذه ليست زيارة فنجان قهوة، هذا يوم بطوله.

قالت، فصح:

هذا يومان أقصر من زيارة فنجان قهوة.

فسرقت بالضحك، ثم بدت تفكير هنيهة، قبل أن يأتي صوتها حازماً:

إذا وجدنا أي عكر في حماة، فسوف نتابع.

إلى أين؟

تساءل ببله، فشرقت ثانية بالضحك وهي تقول:
إلى بيتي. سأستضيفك وأمرني لله.

وسرعان ما سكرت سيارة صباح الكولت الصغيرة، مثله،
بعقب نمنوما، بينما السماء تواصل إصرارها منذ البارحة على
أن تُغرق الأرض والبحر. بل بدلت تزداد إصراراً كلما اقتربت
حمس: ها هنا استراحة الغداء: مطعم التوليدو، الطابق الثاني،
الدفء، السلطنة الأرمنية التي تؤثرها نمنوما كما تؤثر الرغيف
المدور السمين الصغير المرضع بشرائح اللحم.
قالت نمنوما وهي تستطلع ما يظهر من الطابق الأول من
المطعم:

بعد الطلاق ندر أن دخلت إلى مطعم. أظنك تعرف أن البيت
هو المكان المناسب لطعام القاضي، وخصوصاً القاضية.
ولكن من يلتزم بذلك؟

ومنذ اللقمة الأولى بدا كأن شهوة الكلام ليست أقل
اضطراماً من شهوة الطعام، ونمنوما تطوي خمس عشرة
سنة من الطلاق، تبارك الحرية، تأتلق وهي تحكي حكايتها
مع المخرج السينمائي الذي لا تسميه: ثلاث سنوات من الحب
الجنسى.



غالب صباح استياءه من إخفاء نمنوما لاسم صديقها،
ومن أن تكون تستثير غيرته هو. وقلب في سرّه ما يعرف من
أسماء المخرجين: سينما، مسرح، تلفزيون. وسأله أن لم يهتد
إلى سرّ نمنوما، فجأة سأله مستنكراً:

ماذا تعنين بالحب الجنسي؟

فسرحت للتلميذ الذي يفخر فمه بلاهةً وعجبًا:

الحب الجنسي ليس الجنس وحده، ولكن الكثير منه، الكثير
جداً. جوع ليس مثله جوع، وشبع ليس مثله شبع، مع قليل
من الحب، قليل من الصدقة. خفة بالغة. لو أن صديقي رحمة
الله، معنا، لشرح لك. الحب الجنسي من مخترعاته. أنت كاتب،
درست الأدب العربي القديم وذرسته لطلابك. على ذمة المرحوم
ليس أكثر ولا أروع من أدب الحب الجنسي في تراثنا الأدبي.
ما رأيك؟

قال صباح كأنه لم يكن يسمع نمنوما:

كيف انتهى بك هذا الحب العظيم؟

كان يمكن أن يدوم ما وسع الجسدان من السنين، لو لا أن
صديقى أخذ يبهت وينحل فجأة! وبسرعة مريعة كان السرطان
قد قذفه إلى باريس للعلاج، حيث طال صراعهما وبلغ ما بلغ
ضراوةً وشراسةً. رحمة الله.

قالت بأنة وتأثر، ولبث صباح واجماً وهو يتبع ما
امتلأت نمنوما به بعد مرض صديقها، خوفاً وسخطاً وحزناً،
وكيف ارتهنت بعد موته لليلا، والأضابير القضايا التي صار
لها ركن مكين في البيت، فلم يبق من القضية، لا للحب ولا
للجنس، بقية.

تشاغل صباح بلقمة وهو يتخيّل نمنوما وقد غطت
الباروكة رأسها، وخلا وجهها من أي تعبير، لتبدو قضية
إنكليزية بامتياز، وهمس:
ليتنى أراك في المحكمة، وأنت غارقة في الروب الأسود
الفضفاض، وعلى صدرك يلمع الوشاح.
قالت باسمة:

لو التقينا قبل عشر سنوات أو أكثر لرأيتني في هذا الروب
الذى تذكّرنا به الإدارة كل سنة، ولكن لا حياة لمن تنادي.
تابع صباح الطعام وهو يتتساءل: لماذا تبدو فخورة وهي
ترميك بأشتاتها، ليس فقط عن صديق بلا اسم، ضاجعها ربما
مئات المرات، وهي القضية الفاضلة؟ بل هي ترميك أيضاً
بأشتاتها عن العقید واصل أبيضاني، الرجل الثاني أو الثالث
في درعا الآن، ووالد ليليا: لا تننس.

قالت نمنوما:

كنا عاشقين رومانسيين طوال سنواتنا الجامعية. لكننا بعد التخرج سبقي بسنة التهب الجسدان دون أن نفكر بزواج. وربما ما كنا لنتزوج لو لا أنني أخطأت مرة، مرة واحدة فقط، في العدّ، فحملت، وخاف واصل، وليس أنا، من الإجهاض. هكذا جاءت ليлиا. لكن كلية ضباط الشرطة انتزعت واصل مني ومن ليлиا. وعلى الرغم من أن الطلاق ليس بشارارة للارتقاء في سلم القيادة، كما قال فيما بعد، فقد مضى مباشرة من كلية الشرطة إلى المخابرات. ويبدو أنه برهن سريعاً على أحليته للارتقاء، لذلك كوفئ بإسناد أمر القامشلي إليه.

القامشلي منطقة حساسة ومعقدة وخطيرة، وفيها من هو أقدر مني، وأقدم، وأعلى رتبة، لكنني صرت رجلها الأول: شرح الرائد واصل لمطلقته، ممهداً لمحاولته استعادتها.

قال واصل ساء صوت نمنوما في تقليده، وربما كان سمع صباح هو ما ساء:

حظنا ضرب بالسما بعد احتلال أمريكا للعراق. كلما جاء أمر منطقة أمريكي إلى الحدود، يغزل معنا الاتفاق: هو يأتينا بشهاريج النفط، ونحن ننعم عليه بالشاحنات المدججة بكل ما تحتاجه منطقته، من علبة البسكويت إلى كيس الطحين. من حلب إلى الموصل تعبر كل يوم سبع معاية شاحنة. العربات

الأمريكية تحتاج إلى الغاز السوiber. حاضر. هاتوا وخذوا.
ليلة القدر يا نمنوما. لا تعبر نملة الحدود قبل أن تأخذ لي
التحية. تعالى أنت وليليا. سنكون أسعد أسرة في سوريا. انسى
الماضي. انسى بذلة الضابط، كما نسيتها أنا بنفسي.
وسائل واصل نمنوما عما إذا كانت لا تزال تكره البذلة،
فunft لصباح أنها كرهتها يوماً، لكنها لم تحبها يوماً، ولا
يمكن لها أن تعيش معها في بيت واحد. يكفيها أنهما معها في
كل مكان خارج البيت، منذ أفاقت على الدنيا. ولم يزدها ما
حاول واصل أن يغيرها به إلا نفوراً. وسرعان ما أدركه نحس
الطلاق: مباراة كرة القدم بين فريق الفتوة القادم من دير الزور
وفريق القامشلي: الجهاد. هل تذكرها؟

سألت نمنوما، فأسرع صباح:

من ينساها؟ أظن: آذار سنة ٢٠٠٤.

فقالت وهو يسكب ما تبقى من زجاجة الماء في كأسها:
إذا أنت تعرف أن مشجعي نادي الفتوة لوحوا بصور صدام
حسين بدلاً من رايات فريقهم، فلُوح مشجّعوا نادي الجهاد،
أي الأكراد، بنجوم وشرائط أمريكية. وهكذا، بدلاً من أن تبدأ
المباراة بالكرة، بدأت بالحجارة والسكاكين، وأمر واصل
 بإطلاق الرصاص، واندفع الأكراد في المدينة: حرقوا محطة

القطار، حرقوا المدارس، وسقط منهم عشرون قتيلاً على الأقل، وسقط عدد كبير من الجرحى. كل الدمامل اتفاقات معاً. حتى لجان المعارضة والمجتمع المدني التي أسرعت إلى المنطقة لتساعد في إطفاء الحريق، وقفـت عاجـزة.

كان صباح يتلقـف صوت نمنومـا وهو يهز رأسه مؤمنـاً ومتـأسـياً. وفجـأة أـجهـلهـ أنـ أـذـنـيهـ قدـ انـفـصـلتـ عنـهـ لـتـلـذـذاـ بـماـ تـسـمعـانـ،ـ حتـىـ مـنـ صـمـتـ نـمـنـوـمـاـ أوـ أـنـفـاسـهـ،ـ وـكـانـتـ تـنـسـبـ إـلـيـ واـصـلـ كـلـ مـاـ تـحـدـثـ بـهـ،ـ وـبـدـتـ كـأـنـمـاـ تـنـأـيـ بـعـيـداـ،ـ خـارـجـ المـطـعـمـ،ـ ليـبـلـلـهـاـ المـطـرـ وـهـيـ تـهـمـسـ:

كان صوت واصل كـسـيرـاـ كـمـاـ لـمـ أـسـمـعـهـ مـنـ قـبـلـ.ـ حـمـلـتـهـ الـقـيـادـةـ الـمـسـؤـولـيـةـ،ـ وـراـحـ يـعـدـ الـلـيـالـيـ بـاـنـتـظـارـ الـعـقـابـ،ـ فـالـمـظـاهـرـاتـ الـكـرـديـةـ،ـ كـمـاـ تـعـلـمـ،ـ اـنـدـلـعـتـ فـيـ حـلـبـ وـفـيـ الشـامـ.ـ الـمـعـتـقـلـونـ مـنـهـمـ صـارـوـاـ آـلـافـ،ـ وـمـسـعـودـ الـبـارـازـانـيـ نـفـسـهـ رـاحـ يـتـحـدـثـ مـنـ أـرـبـيلـ عـنـ كـرـدـسـتـانـ سـوـرـيـةـ.ـ كـانـ صـوتـ واـصـلـ يـرـجـفـ مـعـاتـبـاـ بـمـرـارـةـ:ـ ماـ ذـنـبـيـ إـذـاـ كـانـ إـحـصـاءـ سـنـةـ ١٩٦٢ـ قـدـ تـجـاهـلـ تـسـعـينـ أـلـفـ كـرـديـ،ـ صـارـوـاـ آـلـانـ،ـ مـائـيـ أـلـفـ أوـ أـكـثـرـ؟ـ ماـ ذـنـبـيـ إـذـاـ كـانـ الـكـرـديـ مـنـ هـؤـلـاءـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـتـعـلـمـ،ـ فـيـ مـدـرـسـةـ وـلـاـ فـيـ جـامـعـةـ،ـ بـلـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـنـزـلـ فـيـ أـوـتـيـلـ،ـ أـوـ يـسـافـرـ حـتـىـ مـنـ القـامـشـلـيـ إـلـىـ الـحـسـكـةـ،ـ فـكـيفـ بـالـسـفـرـ إـلـىـ

خارج البلاد؟ ما ذنبي إذا كان محافظ يمنع تسجيل المولود باسم كردي، ومحافظ يمنع الغناء باللغة الكردية، لا في عرس ولا في مأتم؟ ما ذنبي إذا كانت القيادة لم تنفذ ما وعدت به الأكراد بـ إنتهاء مشكلة الجنسية السورية المعلقة منذ أربعين سنة؟ ومع ذلك نظم واصل مظاهره تأييد للقيادة في القامشلي بعدما أطلق سراح مئات المعتقلين الأكراد، آذار ٢٠٠٥، إن كنت تذكر.

وصمت نمنوما قليلاً، ثم التفت إلى صباح قائلة بحيداً: كان ذلك آخر لقاء طويل لي مع واصل. صارت لقاءاتنا متباude وخطافة، صارت مُكْرِية، ولكن لابد منها بسبب ليليا. هو يزور أهلي في حمص كلما عبر بها. صداقته مع أخي الأكبر فاخر كانت ولم تزل وطيدة. وأنا أزور أهله مع ليليا، من حين إلى حين. هل تتعجب إذا قلت لك: واصل لم يتزوج حتى اليوم؟ أنا واثقة أن نجمة سيلمع في درعا كما لمع في القامشلي، مع أنه نقل من المخابرات إلى الشرطة.

وكان المساء يبدل المطر بحبات البرد التي تنقر زجاج المطعم، مذكرة بما تبقى من الطريق إلى حماة، فأشار صباح إلى ساعته وإلى الزجاج، يحثّها على النهوض، لكنها حدقت إليه مليأً، ثم قالت بصوتٍ محайд وبارد:

حدثني عن نسائك.

ويلاه يا نمنوما! هل هذا هو صوت القاضية؟

قال وهم بالنهوض، فتابعت مصطنعة الرقة في صوتها:

لا تهرب.

نسائي يا نمنوما؟ من تظنين هذا المتهم المسكين الواقف

بين يديك؟ دون جوان؟ شهريار؟

سؤال وهو يقف مكررا الإشارة إلى ساعته وإلى الزجاج،

فرفرفت نمنوما كفيها مثل جناحي طائر. ومن باب المطعم

إلى باب السيارة، ثم في السيارة، لم تفترق أصابع نمنوما

وصباح حتى أخذت السيارة تتباطأ وهي تدخل إلى حماة.

لكن الأضواء الشحيدة وندرة العابرين، وربما الشوق أيضاً،

كل ذلك عاد بالأصابع إلى الالتحام، منذ أقبلت السيارة على

ساحة العاصي، إلى أن اهتدت إلى بيت راتب وبنان في بداية

هذا الشارع المنفلت من طريق حلب، والمظلل بعراء الزنزلخت.

راتب عدلة وبناء عرجون: من أوقع بمن؟

كانت نمنوما تعرف النزر عن المهندسة الحموية بنان عرجون، وعن مدمن التخفي والاعتقال راتب عدلة، لكنها لم تكن قد التقت بأيٍّ منها من قبل.

حين شرعت بنان ترضع العاصي، ارتعشت نمنوما وهي ترى الوليد الذي لم يكمل أربعينيته بعد، يصير ليليا، وهي تصير بنان، ليتفجر ثديها بالحليب، ولتطوي تسعة عشرة سنة مضت على فطام ليليا في رفة جفن، فتسري الرعشة في نسغها حتى لتكاد تبكيها، لو لا أن العاصي نأى عن ثدي بنان، وأنعم على نمنوما ببسمة، ثم عاد يرضع.

بعد قليل استوت السهرة، وتدفقت بنان بما جعلها تصرّ على أن يحمل الوليد اسم النهر الحموي، فقاطعتها نمنوما بحبون: النهر الحموي الحمصي، فاندفع راتب يعدد: والاسكندروني السوري اللبناني التركي. وتساءلت نمنوما وهي تشير إلى الوليد الغافي في سرير مثل السلة:

لماذا سميت العاصي وليس عاصي؟
ولابد أن بنان قد أجابت، وربما أجاب راتب أيضاً، لكن

صباح كان قد أوقف سمعه على نبض نمنوما وأنفاسها، على الرغم مما يفصل بين مجلسيهما. ولأن ذلك لم يفت نمنوما، فقد كافأت العاشق الغير ببنظرة حّرى.

بعد قليل صاح صباح على نمنوما ترجو راتب أن يحدثها مفصلاً عن مازا؟

تساءل صباح بينما تدفق راتب متباهياً بإدمانه في السنوات الأخيرة على تأسيس الجمعيات أو المنظمات، وعلى الانتقال بينها ومغادرتها. وفجأة انقلبت المباهاة سخرية وهو يحدث أنه عمل في جمعية حقوق الإنسان. لكن راتب غادر الجمعية عندما أخذ رئيسها المعمر يلوّن انتقاده للنظام بتأييده للسلطة، فسأل صباح مقاطعاً:
متى كان ذلك؟

قال راتب وقد ساعده أنْقرأ في مقاطعة صباح تشكيكاً:
بعد احتلال أمريكا للعراق بقليل، بشهور

وتتابع محدثاً عن انضمامه إلى حركة الوطنيين الأحرار الحلبية، على الرغم من أنه ليس تاجراً ولا ملائكاً ولا حرفيأ، شأن أعضاء الحركة. وكما هامسه أحدهم: قد يكون ما يسرّ له الانخراط في الحركة، رغم صغر سنّه، هو أن أباه من وجهاء جسر الشغور المعدودين، ومن ملاكيها الكبار. ولأن ثوب

الحركة كان فضفاضاً عليه، ولأنه كان قد سئم المقام بين أهله في حلب، فقد أسرع إلى مغادرة الحركة. ولم ينتظر طويلاً قبل أن يقتل الحبل بينه وبين مركز الدراسات الاستراتيجية.

لكن راتب الذي انقطعت دراسته الجامعية لعلم الاجتماع بسبب التخفي والاعتقال، ولم تكتمل من بعد، خاف من لا يصلح كباحث، فغادر المركز بأسرع من مغادرته لحركة الوطنيين الأحرار، وكان قد اختار الإقامة في دمشق، بعدها جرب أن يقيم صيفاً بطوله في جسر الشغور التي سكنته منذ غادرها قبل أن يدخل المدرسة، ولم تغادره على الرغم من أنه نذر أن عاد إليها، وفي إحدى تلك العودات، أثناء التخفي، التقى بصباح.

كان العاصي قد أخذ يغمغم، فأمرت إشارة بنان بالسكتوت، وأكبت على السلة، فاختفت في حضنها ثوان قبل أن تحملها وتنسحب من الصالون، بينما تابع راتب:

في الشام بدأت بمركز التدريب على حقوق الإنسان.

قال صباح مقاطعاً:

الذي مؤله الاتحاد الأوروبي.

قال راتب وقد ساءه أنقرأ في مقاطعة صباح تشكيكاً:

لم يطل مسامي فيه. خفت من التيه بين الجحافل التي



يدريها المركز من المحامين والصحافيين، ومن نشطاء المجتمع المدني في حقوق الإنسان، ومن المنظمات النسائية أيضاً.

وكان انسحابي من المركز في نهاية سنة ٢٠٠٥ خاتمة مرحلة من حياتي.

ومن باب الصالون جاء صوت بنان وهي تقترب مبتهاجة: مرحلة جديدة في عمرك يا عمري بعد عشر سنين من التخفي، وبعد سبع سنين من السجن وعشر من الإفراج، ورثنا منها هذه الذقن الحلوة.

انتظر راتب حتى عادت بنان إلى مجلسها، ثم تابع بينما كانت نمنوما تدقق فيما يوشى ذقن راتب الفاحمة من الشعيرات البيضاء:

كان الرهق قد هدني. في بداية تلك السنة استطعنا أن نؤسس لجنة التنسيق الوطني التي جمعت ما جمعت: لجان إحياء المجتمع الوطني الديمقراطي، لجان الدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان، لجان الدفاع عن السوريين المجردين من الجنسية، اتحاد الشعب الكردي، حزب العمل الشيوعي، حزب يكيتي الكردي..

قالت نمنوما ممازحة وهي تنقل نظرتها بين صباح وراتب:

ما شاء الله! اللهم زد وبارك.

قال راتب متجاهلاً:

من تلك السنة قضيت ما قضيت في الخطوات الأولى لإعلان دمشق. كنت مسكوناً بما جاء في الإعلان من الكلام عن عقد اجتماعي جديد يؤدي إلى دستور جديد، سيجعل المواطنـة هي المعيـار. وبلغ بي الأمر أن حـشت نفسـي بين أكثر من مئـتي مثقـف، أرسلـوا رسـالة إلى مؤـتمر حـزب الـبعث الذي انـعقد في صيف تلك السنة، وكان عنـوان الرـسالـة: دعـوا رـبيع دـمشـق يـزـهـرـ.

وـخصـصـ صباحـ بالـقولـ:

لم يكن لك اسم بين الموقعين على الرـسالـةـ.

قالـ صباحـ سـاخـراـ وهو يـنـقلـ نـظـراتـهـ بـيـنـ نـمـنـومـاـ وـبـنـانـ: سـقطـ سـهـواـ.

وهـجـمـ بكـاءـ العـاصـيـ مقـاطـعاـ، فـغـابـ بـنـانـ قـلـيلـاـ، وـخـيمـ الصـمتـ رـيشـماـ عـادـتـ بـالـعـاصـيـ وـنـاـولـتـهـ لـرـاتـبـ. وـفـكـرـ صباحـ فـيـ أـنـ كـلـ مـاـ سـاقـهـ رـاتـبـ تـعـرـفـهـ نـمـنـومـاـ رـيـماـ أـكـثـرـ مـاـ يـعـرـفـهـ هوـ. وـأـسـعـدـهـ أـنـ العـاصـيـ شـغلـ أـبـاهـ وـأـمـهـ، وـأـنـ نـمـنـومـاـ وـقـفتـ، فـنـشـبـ قـوـامـهاـ فـيـ عـيـنيـهـ، وـلـوـىـ بـصـرـهـ خـجلـاـ مـنـ أـنـهـ عـرـىـ ذـرـاعـيهـ وـهـيـ تـتـمـطـىـ، وـأـغـمـضـ كـيـ تـتـمـسـحـ نـظـراتـهـ بـالـإـبـطـينـ الـلـذـينـ لـابـدـ أـنـ يـكـونـاـ أـكـثـرـ بـيـاضـاـ وـسـخـونـةـ وـلـدـونـةـ مـنـ الـحـلـيبـ،

لحظة هَطْلِهِ من حلمة، بل من حلمتين. وكأنما أدركت نمنوما
ما اعتراه فأنزلت ذراعيها سريعاً، ورمته نظرتها باللوم على
زعرنته، فالتفت إلى العاصي يشهده على براءاته، ونهض راتب
بابنه بينما خاطبت بنان نمنوما، كأنها تستأنف حديثاً فات
أوله صباح:

كان الأميركيان قد احتلوا بغداد. لا أعرف من دعا إلى
المظاهره. ما أعرفه أننا خرجنا من المدينة الجامعية، وفجأة
ظهرت مجموعة من الشباب، واحدهم كأنه جني. راتب كان
مثل الجني. ناولني القميص الذي تملاً صدره صورة غيفارا.
فجأة ملأت صور غيفارا صدورنا كلنا، وفجأة صرنا أمام
السفارة الأمريكية، «وكلاشينات» الأمن في صدورنا. حملني
الجنى الأزرق على كتفيه، فأصابني بالعدوى. جُننت. لم أكن
أهتف. كنت أجن. هل عرفت الآن كيف أوقع راتب بي؟
والله العظيم هي التي أوقعت بي.

أقسم راتب وهو ينقل نظرته بين بنان وصباح، ويؤرجح
ابنه، وتابت بنان:

ومع ذلك لم نلتقي بعد تلك المظاهره حتى جمعنا الاعتصام
 أمام محكمة أمن الدولة بعد سنتين. كانوا يحاكمون المعتقلين
 في الداخل، ونحن كنا نهتف في الخارج. فجأة أحاط بنا

شباب من اتحاد الطلبة ومن اتحاد الشبيبة يحملون اللافتات
ويهتفون: الله سوريا بشار ويس. حملني راتب على كتفيه
وليته لم يحملني. لم أكن قد نطقت بكلمة عندما هرست رأسني
عصا لافقة، وبدأوا يضربوننا بعصيّ اللافتات. جرّني راتب،
حملني، حُوَطْنِي، لا أدرى ماذا فعل قبل أن أراه بين ذراعي
في مدخل مسرح القباني، والدم نافورة من رأسه. ساعتها قلت
لحالي: يا بنت يا بنان هذا رجلك. هذا وحده من يفديك بدمه
ويحميك من شرور الدنيا كلها.

جلس راتب على الكرسي الوحيد القريب من المدفأة وهو
يحضن العاصي كأنه سيرضعه، وقال:
فضل ذلك اليوم على كبير. لولا ما كانت الدنيا أنعمت
على بهذه النعمة وبهذه النعمة.
وأشارت عيناه إلى العاصي وبينان التي تخرج خداها،
والتمعت عيناهما، ثم رامقت عيناه لوحتي المحميتين، ورسمت
شفتاه ابتسامة أسيانة، وهو يقول:
وبهذه النعمة.

أيهما؟
سؤال صباح ساخراً.
محمية التليلة. أما محمية البلعاس فهي نعمة بنان.

قال راتب ساخراً أيضاً، فشرحت بنا نمنوما وصباح:
الأستاذ راتب عدلة يعذّ عمله في محمية التلليلة نفحة، وهو
يعرف جيداً كم تعذبت حتى دبرت له هذا العمل.

قال راتب مقاطعاً ومصطنعاً الفخر:
حارس ليئر المياه الكبريتية، أسوأ مكان في المحمية.
قوليها.

تابعت بنا نمنوما الشرح:
حارس، ولكنه يعمل ثلاثة أيام في الأسبوع.
لا يغادر خلالها المحمية ليل نهار. قوليها.

قال راتب وهو ينھض، بينما بدا صباح ساهماً، فأشارت
أصابع نمنوما إليه مسألة، فتململ وابتسم. ونهضت بنا نمنوما
أمراً إلى النوم، وكانت نمنوما تعقد ذراعيها تحت ثدييها،
فاغمض صباح، وخَيَّل إليه أن نمنوما توسد صدرها، وأنه
يمرّغ وجهه بين الثديين. عندئذٍ أخذت نقرات حبات المطر على
زجاج النافذة توقع له بوادحة من أهزو杰ات الطفولة، وأخذت
السننة النار تهمس له بوادحة من حكاياتها التي تسكن روحه،
ربما منذ كان مثل العاصي. وما كاد يغفو حتى أخذ نومه يبرق
بجديلتين من الشمس، هما بالضبط جديلتا نمنوما. وبعد لأي
أسفر البرق عن كومة من أمشاط من المرجان الأحمر، تكاد

تملاً حضن صباح، كي يسرّ بها جميعاً شعر نمنوما. وعندما هم بذلك، خيل إليه أنهم مستلقيان في وادٍ أزرق على ما يشبه هذه الصوفا وهذه الصوفا، ومتلأن بالظلال والكلس.

يُطيران من حماة

قبل أن يبدأ صباح بالكلام كان قد سرق من نمنوما نظرة فنظرية، وتمنى لو أنها لم تضبطه في أي منهما. وأربكه أنه لم يستطع أن يبادلها الابتسامة، وأنه لم يعد متيقناً من أن اثنتين أو ثلاثة من حبات النمش البالغة الدقة حتى لكان الواحدة أثر لإبرة تستكئن في ودهة الأنف اليسرى أو اليمنى.

هرباً مما به، راح يفرك كفيه، ثم توقف خشية أن يكشف ذلك لنمنوما ما يضم. ولم تطق أصابعه صبراً، فتسلاطت مثل أصابع اللص إلى إحدى جيوبه، ثم إلى جيب آخر، فجيب ثالث، لتعود بالموبايل، وتصطنع طلب رقم ما.

تركت الأصابع لصبح أن يلصق الموبايل بأذنه، وأن ينتظر قليلاً قبل أن يرد تحية، بلا حرارة ولا برودة. وراح يدير الحوار الذي كان قد نسجه، وأعاد نسجه، وهو يساعد راتب في إعداد الفطور: على صوت أن يأتيك مؤكداً أن عليك أن تعود إلى اللازقية فوراً، ثم عليك أن تذكر للآخرين نمنوما وراتب وبينان والعاصي أن صاحبة الصوت هي زوجتك الشرعية الوحيدة. وسوف تبتسم معجبًا بمزحتك المفاجئة والمدهشة، فالقاصي مثل الداني يعرف أن صباح خليل هو العازب الذي يتبااهي بأزلية عزوبيته.

بعد صمت قصير يقطب وهو يذكّر صاحبة الصوت لنفترض أنها واحدة من شقيقاته، وربما والدته بأنه قد أخبرها بغيابه يومين أو ثلاثة في حماة. وبعد صمت أقصى، يقاطع صاحبة الصوت بانفعال، معلناً أنه سيقطع رحلته، وسيكون في اللاذقية قبل...

لكنَّ مالم يكن في الحسبان أنَّ الموبايل لن ينتظر حتى يحدد صباح موعد وصوله إلى اللاذقية، وسيخرق أذنه بنغمة رنين لا عهد له بها، فتجفل أصابعه، وترتد بالموبايل لينظر إليه صباح مكذباً، ثم ينهض كأنَّ لاسعة لسعته، ويدير ظهره للآخرين، ويقطع الاتصال الذي داهمه.

لا لا، ليس هذا ما حصل.

وعلى صباح إذاً أن يحك صدغه، وأن يبطئ من سرعة الكولت الصغيرة، ويهدئ من اضطرابه، كي يتمكن من استعادة ما حصل:

نمnomما كانت نائمة، وكان راتب وبنان والعاصي لا يزالون نائمين. وصباح كان قد أعدَّ القهوة في المطبخ متمهلاً ومستمتعاً. ولما عاد على رؤوس أصابع قدميه إلى الصالون، وقف أمام وجه ننموما الذي تشرب بياضه الحليبي حمرة شفيفة. وكانت أهدايبها مرخية بدلال على طولها، وشفتهاها

تكاد ان تفتران عن ابتسامة، وربما عن قبلة، بل ربما كانتا
تقطران عسلاً، لذلك رنا لسان صباح مرتلاً:
نمنوما: أنت أحلى من الورد

جسدك نسرین

يكاد يتقطر من فرط طراوته

فانفرجت أ Gefan نمنوما جذلی، ليطمر صباح وجهه في
شعرها وقد انقلب ترتيله فحيحاً:

تنورک حرّان

ينادي الخبز إليه

الآن

عندئذ رمته نمنوما بنظرة لائمة، فتراجع، فثنت بنظرة
راغبة، وهمست: حبيبي.

* * *

قد يكون ذلك حقاً ما كان، وقد لا يكون سوى واحدة من
أخيولات صباح. لذلك ليس مهمأ، من بعد أن يذكر أو ينسى ما
كان قبل أن تهمس نمنوما:

خلّنا نتابع إلى الشام. البيت هنا ضيق. أشعر أنني مكبلة.
لاقى صباح الاقتراح بحرارة. وبينما شغل العاصي بنان
وراتب، وغيب الحمام نمنوما، أخذ صباح يلوّن خلوته بنمنوما

بعد ثلاث ساعات بألوان فاقعة تارة، وبألوان ناعمة تارة: موسيقا، حوارات، رقص، كؤوس من الجين أو ال威يسكي، غناء، عناق، دفع، نار، مطر، وربما ثلج يقطع الطرق كي تزيد خلوة نمنوما وصباح يوماً أو يومين.

عندما عادت نمنوما من الحمام، داهم صباح ظل من الخوف، فدافعه حتى نأى. لكن الظل سرعان ما عاد وقد ازداد غموضاً وقوة، فدافعه صباح، فنأى، وكان صوت بنان يأمر الرجلين بإعداد الفطور، فلحق صباح براتب في المطبخ، وإذا بالخوف من اقتراح نمنوما قد سبقه، ورابط خلف الباب تماماً. وفجأة أطبق الخوف على صباح، ولم يفلته حتى استسلم وأقسم أنه لن يرافق نمنوما إلى الشام.

* * *

قد يكون ذلك ما حصل حقاً، لكنه ليس بالتهم، ما دام الموبايل قد فضح صباح، فشترت نمنوما راتب وبينان والعاصي على حُسْن الضيافة، ودعتهم إلى زيارتها في دمشق، وأعلنت أن صباح سيفارقها في حمص، ليعود إلى اللاذقية، بينما تتبع هي إلى دمشق.

لا لا، ليس هذا ما حصل. وما يمض صباح أنه ما عاد يذكر إلا أن الصمت قد غلّه ونمنوما من حماة إلى حمص، سوى ما تناثر بعض:



هو يعتذر عن اضطراره إلى العودة إلى اللاذقية،
هي تبحث عن أغنية في الراديو،
هو يسألها عن موعد آخر في الشام أو في اللاذقية،
ولما اقتربت حمص عاد المطر ملفوعاً بهبات الريح. وقالت
نمنوما:

رياح حمص مجنونة، أنا بنت حمص وأعرف رياحها.
وغافلت صباح أصابعه التي تسللت إلى أصابعها، لكن
الأصابع ما كادت تتعانق حتى انفك، بينما توافت الماسحة
التي تمسح المطر عن الزجاج أمام صباح.
عندما صعدت نمنوما إلى البولمان الذي سيقلّها من حمص
إلى دمشق، سرى النّمال في صباح، من قذاله أو من ظهره حتى
باطن فخذيه. وعندما جلست نمنوما وأومأت له من خلف
الزجاج الأغبشه، أحسّ أنه يكاد يسقط من ضعفه. وظلّ واقفاً
تحت المطر حتى ابتلّ وسار البولمان. وظلت نمنوما تومض له
باسمة كل حين بعدما غادر حمص، فيزداد حيرة بين أن تكون
البسمة غفراناً لذنب، أو عقاباً على ذنب، أو حنان أمّ، وربما
حنان أخت، أم تراها باسمة عاشقة ما، لم يعرف صباح مثلها،
لذلك خاف من مرافقة نمنوما، وفرّ عائداً لا يكاد يبصر أمامه،
على الرغم من أن النهار لم ينتصف بعد؟

كان المطر لا يكاد يتوقف حتى يهمي، ورياح حمص
ظللت تلاحق صباح، والماسحة التي أمامه أصابت بالعدوى
الماسحة المجاورة، حتى أبرقت زرقة البحر، عندئذٍ توقفت
السيارة، وتوقف المطر، وتوقفت الرياح، وتعلقت عيناً صباح
بالبحر وقد امتلأتا بالدموع.

الصديقان

بين يدي بهنان رمى صباح بحمله، وصبر بهنان على ما سبق لصديقه أن صدّعه به:
ليس حبًّا من أول نظرة، بل من أول سهرة في بيت مميز
 وأنطوان، في بيت أم كوز وأم كوز
قال صباح، فعقب بهنان:
ليست هذه أول حمرنة لك، فأنت...

قاطع صباح صديقه منبهًا كعادته كلما تلفظ بكلمة تسيء للحمار أو قد تُشتمّ منها إساءة. فبهنان صديق حميم لصباح، بل حميم جداً، ولو كان لصباح صديق أول بين البشر، لكان بهنان. لكن صديقه الأول هو الحمار، منذ كان صغيراً. صحيح أنه قد ينساه شهوراً، وقد امتد به النسيان طوال سنوات دراسته في القاهرة. لكن ذلك لا ينال من الصداقة الوطيدة. ولذلك ندر أن ذكر بهنان الحمار بسوء منذ عرف أية مكانة له عند صباح، قبل قرابة عشرين سنة، حين علق صباح في صدر صالون بيته هذه اللوحة الغرافيكية التي ما فتئت تراوغ عيني بهنان بحمارين واقفين، وجهاهما متقابلان، ونظراتهما عميقـة، أذنا أكبرهما مُكـبـتان إلى الأمام من فـرـط انتـصـابـهـما، بينما أذنا

الأصغر من حيث ارتفاعه في لا مبالاة مذهبة، وفضاء الحمارين
مرشوش ببقاء مذهبة، متطاولة ومدورة ومثلثة وصغيرة
وكبيرة، ويتضاعف إشعاعها بفعل بقع سوداء مشابهة، لكنها
أقل، ويفعل ما تبقى من اللوحة من البياض.

بعد سنوات من تعليقها تبين بهنان أن اللوحة تحمل في
إحدى وكناتها، وبخط مبهم لا يكاد يُرى، توقيعاً. وبعد حين
وكل حين لبهنان يحسب بالسنين تبين أن ما كان يراه حماراً
صغيراً، ليس غير حماراً ترمي الحمار بنظره والهة، كما ترمي
من خلفه وليس من قدام عيني بهنان باستدارة ناعمة ولا تكاد
تبين: مؤخرة فاتنة كما سوف يردد من بعد الاكتشاف العظيم.
عبر كل تلك السنين كانت صدقة بهنان وصباح قد توطدت،
وهي التي بدأت ببرود، بعيد عودة بهنان من بودابست حاملاً
الدكتوراه في الاقتصاد، بينما كان صباح يدرس في الجامعة
اللغة العربية لغير المختصين. وقد قدر صباح على الدوام أن
بهنان قد يكون بدا حين رأى اللوحة الحمارية، متسائلاً، أو
معجباً، أو فرحاً، أو مدهوشًا، لكنه لم يبد ساخراً ولا مستنكراً.
وسرعان ما صار بهنان يفاجئ صديقه كل حين: قصاصة
تقصر أو تطول عن الحمار في خبر أو قصيدة أو حكاية أو
رواية أو مثل. لكن بهنان احتاج إلى الدربة، وإن تكن لم تطل،

كيلًا تناول كلمة له من الحمار أمام صديقه، كما كان عندما عاد صباح من حماة، ولجأ إلى صديقه ليقص عليه فضيحة الموبایل التي جعلته ونمنوما يطيران من حماة، ولكن كلُّ في سماء.

* * *

ضحك بهنان عاليًا، وأعاد بنفسه تمثيل الفضيحة. ثم أخذ صباح يستعيد خطأه الأول بالطبع تحاشى أن يقول الحمرنة الأولى مع نمنوما:

هذه المرة كنت مشاركاً في ندوة في جامعة دمشق حول الرواية والحضارة. هاتفت نمنوما مساء اليوم الأول، وأسعدني أن تدعوني إلى العشاء غداً في بيتها. كنت أيضاً سعيداً بمن جمععني الندوة بهم، لا فرق بين من عرفته من قبل وبين من عرفته للتو، ومن أولاء بخاصة ناقد تونسي قادم من طوكيو. عصر موعدي مع نمنوما هاتفتها معتذراً، وتعللت: لا أستطيع في أيام الندوة أن أتخلص من صحبة المشاركين والمشاركات. وكأنها أدركت أنني أتمنى ألا تقبل اعتذاري، وأن تفوضني باصطحاب من أشاء. وضحت في سري ظافراً عندما ردت: البيت بيتك، ادع من تشاء. لكنني لم أدع إلا التونسي. لا تسألني لماذا كان صباح قد نهى بهنان عن السؤال

عندما قصّ عليه أول مرة ما يكرره الآن وإذا بها قد أعدت لي
مفاجأة سارة: أم كوز وأم كوز قد سبقانا ما عدت أنا ديهما إلا
باسميهما الجديدين. وحين أوشكـت السهرة على الانتهاء تنبهـت
إلى أن التونسي يغازل نمنوما، فاستـأتـ، لكنـي كـتمـتـ استـيـائـيـ،
بينـما فـاجـانـاـ أمـ كـوزـ أـنـطـوانـ بـنـكـتـةـ، وأـمـ كـوزـ مـمـيـزـ بـأـغـنـيـةـ،ـ وإـذـاـ
يـنـنـوـمـاـ تـدـنـدـنـ بـاسـمـةـ دونـ أـنـ تـرـفـعـ عـيـنـيـهاـ عـنـيـ:

عايسـةـ وـحـدـاـ بـلـاـكـ

وـبـلـاـ حـبـكـ يـاـ وـلـدـ

حـاجـةـ تـحـكـيـ عنـ هـوـاـكـ

ضـحـكـتـ عـلـيـكـ الـبـلـدـ

رـدـدـنـاـ وـرـاءـهـاـ الأـغـنـيـةـ وـأـنـاـ أـتـسـأـلـ:ـ هـلـ الأـغـنـيـةـ رسـالـةـ
نـمـنـوـمـاـ لـيـ؟ـ هـلـ كـانـتـ الدـعـوـةـ لـيـ وـحدـيـ إـذـاـ؟ـ تـرـانـيـ أـضـعـتـ
فرـصـةـ لـاـ تـتـكـرـرـ؟ـ

ـبـاـنـتـظـارـ سـيـارـةـ أـجـرـةـ هـامـسـتـ أـمـ كـوزـ مـمـيـزـ.
ـلـمـ تـذـكـرـ لـيـ نـمـنـوـمـاـ أـنـهـاـ دـعـكـمـاـ.ـ حـضـورـكـمـاـ أـنـقـذـنـيـ.
ـمـنـ مـاـذـاـ؟ـ سـأـلـتـ.
ـلـأـدـريـ:ـ أـجـبـتـ.

ـلـمـاـ حـاـولـتـ أـنـ تـعـذـرـ؟ـ سـأـلـتـ وـهـيـ تـغـمـزـ كـأنـهـاـ تـقـولـ:ـ يـاـ
ـحـمـارـ.

هذه المرة قرعته نظرة من بهنان على ما يمكن أن يكون
إساءة للحمار، فصمت قليلاً، ثم تابع:
مالي أتهاوى أمام نمنوما من خطأ إلى خطأ؟ كم كنت
أتمنى أن تكون في بيتها وحيدين، لكنني أضعت الفرصة أول
مرة، ثم ضيعتها هذه المرة.
حكم بهنان على صباح بأنه خائف من الحب. وفي
حيثيات الحكم شدد على أن هذا الخوف طبيعي لمن هو في
عمرك يا صديقي، فأسرع صباح إلى القول:
وفي مثل عمر الدكتور بهنان فتح الله.

لكن بهنان قال:

كم مرة سأذرك بالفارق بين خوفينا؟ أنا متزوج وأنت..
قال صباح مقاطعاً بسخرية:
عاذب. عازبُ لو تكلما / نطق النار والدما. عازب إلى الأبد.
وانطوى على ضيقه، بينما شرع بهنان يقلب القنوات
الفضائية، وإذا بأغلبها يومض بحناجر وقبضات ولافتات
وغازات مسيلة للدموع، فتوقف عند قناة أومضت بصور
تترى للرئيس التونسي زين العابدين بن علي، ولشاب تونسي
يحرق، ولخريطة تونس.

العاشرة

لماذا يا صباح؟

كانت نمنوما تساهر السؤال كل ليلة، بلا حساب. وكان
الجواب يزداد حَرَنَا ليلة بعد ليلة، فتداوره نمنوما كما تدور
السؤال: هل أكون أَسْأَتُ إِلَى صباح أمام راتب وبنان وأنا غافلة؟
لا، لم أَسْئِ إِلَيْهِ ولا هو أَسْءَ إِلَيَّ. ربما نَفَصَ عَلَيْهِ استئثار راتب
بالكلام خلال السهرة، وربما استاء راتب من اعترافات صباح
عليه، لكن البِشْرُ كان يغمرنا كلنا في الصباح.

لماذا اصطنعت إِذَا الكذبة السخيفة؟

لماذا لم تستشرني في العودة إِلَى اللاذقية؟
ربما كنا خططنا معاً ليومينا الموعودين فيها أو في
غيرها.

ماذا يمكن أن تكون كذبتك الفضيحة، إِلا هرباً مني؟

لماذا يا صباح؟

هل تكون رجولتك أهيئت لأنك لم تضاجعني في ليتنا
الأولى معاً؟

هل تكون ذكورتك قد جرحت لأننا لم ننم على فراش واحد،
على الأقل؟

لأنك أنت من خطّط ونفذّ. وعلى الرغم من أنك لم تستشرني،
وعلى الرغم من أنني كنت لهفى على فراش يضمنا، إلا أنني
قدرت لك أنك لم تهرول إلى: افتحي ساقيك. لا أنكر أنني غضبت
للحظة، حين أعلنت بنان قرار اختيار المدلل: الأستاذ صباح
خليل الذي يخاف من البرد، بأنه سينام فوق المدفأة اللاحبة!
لكنْ ضحك بنان وضحك راتب، بل وضحكك أنت، مسح على
غضبي، وضحكت مثل أي منكم من قلبي لهذا القرار الطريف.
وحين رأيتكم وأنا مغمضة تقترب حاملاً فنجاني القهوة، ما
ابتهجت. وحين تراقص صوتكم: صباح الخير يا حبيبتي، ما
عدت أعرف كيف أصبحوا من الحلم، فها أنت تقولها لأول مرة:
حبيبتي، فيتراقص قلبي لأقول لأول مرة: حبيبتي.
تراني قلتها؟

لا أعرف ما اعتراني. فرحت ووعدت نفسي باليومين
القادمين، ولكن ليس في بيتي أحد، بل في بيتي. أردت أن نبدأ
من هناك، لولا كذبتك الساذجة.

لم ينم في بيتي رجل بعد واصل إلا أخي يامن. ثلاث سنوات
مع صديقي أحمد الذي لم أسمّه لك، ولن أسميه رحمة الله، لم
يدخل خلالها بيتي، وليس فقط بسبب ليлиها.
كان يمكن أن أغتنم فرصة غيابها في المدرسة. كانت

ليليا تكثر من الذهاب إلى جدها وجدتها في بانياس. ربما
تحاشيت استقبال المرحوم أحمد لأن عنوان علاقتنا كان كما
حدثتك: الحب الجنسي.

معك رجوت حباً آخر، حباً أكبر، ليس الجنس إلا أقله أو
بعضه. تراني رجوت معك ما رجوت مع واصل، فتزوجنا،
 وأنجبنا، وطلقنا، لتكون خيبي أكبر، فهل أسرعت النهاية
إليّ معك لتسبق البداية؟ تراني أخطأت باختياري لك؟ أنت لا
تعلم أسرار هذا الاختيار. أنت لا تعلم أن كل ما عرفته عنك من
آخرين، غير مميز وأنطوان، كان منفراً: كاتب فظّ وكتابة فظة،
وكان هو أيضاً مما دفعني إليك. وحين دعوتك إلى العشاء في
بيتي لأول مرة، كنت قد حسمت أمري.

لم يكن غياب ليليا ويامن ما زين لي دعوتك. ربما كان
سبباً من أسباب. ربما أردت اختبارك. وعلى الرغم من أنني
غנית لك عameda ما يقطع عليك الطريق إليّ، فقد كنت سعيدة
بنجاحك في الاختبار. لم تتلهف على أن تخلو بي في بيتي. لم
تهرب إليّ: افتحي ساقيك، لذلك حرصت على أن أتصل بك بعد
تلك السهرة ضحي كل جمعة: تلفون بطول لقاء حول فنجان
قهوة، ما كان أحلاه!

بعد واصل ترهبت يا صباح حتى صادفت المرحوم أحمد.

لا تظن أنه قد فاتني ما كتمتَ من الغيظ لأنني لم أبُع لك باسمه.
ولا تظن أنني لم أنتبه لمغالبتك ما لا اسم له عندِي إلا ذكرِيتك،
عندما حدثتك عن علاقتي بـأحمد، بلا مواربة. مالم أقله لك هو
أنني كنت قد أخذت أضيق بالرهبنة، وما عاد ينفعني أن أغرق
في عملي أو في التسخّع بين سينما الشام ومكتبة الأسد ولا...
كنت لم أعد أطيق صبراً على الجوع. الجوع إلى رجل يا
رجل. وبعد محمد ترهبنت حتى صادفتك، فما عاد ينفعني
لهافي خلف ليлиها في دنيا الكمبيوتر والإنترنت والواقع
المحجوبة. التقينا وأنا ما أعدت أطيق صبراً على الجوع، لكنك
جعلتني أرفض اللقمة الأولى.

لماذا يا حبيبي؟

لسنا في طلاق ولا في موت. أنت لست واصل ولست أحمد،
وأنا لم أعد نمنوما العشرينية أو الثلاثينية. أنا وأنت في
خصام، على الرغم من اعتذارك، ومما لم يخف عليّ من ندمك،
بينما كانت سيارتكم تهرّب بين حمص وحمادة. لنأغلق أبوابي
دونك، لكنني لن أخطو نحوك خطوة واحدة. لا أعرف ما إذا
كنت مثلٍ تخاف من العجلة أم لا. أنا أخاف أيضاً من الندامة.
وأنت، ممّ تخاف؟

* * *

بالسؤال الجديد اختفى السؤال عن فضيحة الموبايل.
لكن السؤال الجديد رمى نمنوما بالسؤال عن سر اختيارها
صباح. ويدلاً من أن تبحث عن جواب، أسرعت إلى السؤال عن
يكون هذا الذي اسمه صباح خليل؟ ويدلاً من أن تبحث أيضاً
عن جواب، ظلت أياماً تسخر من نفسها: بعد شهور ولقاءات
وهوائف، وبعد يوم حماة، تسألين عن يكون؟

هكذا باتت تحدث نفسها كلما انفرد بها المكتب نهاراً،
وكلما انفرد بها البيت ليلاً، عن الأربعيني القصير في مثل
طولها الممتليء، الأسماء، ذي العينين الباسمين الكبيرتين
الشهلاوين، ذي الخدين الناعمين، والشفتين اللعساوين،
والشاربين الخفيفين، ذي العنق الأعدل والأسنان الرصيفة
والكفين المكتنزيتين. وعلى الرغم من أن نمنوما لم تكن قد رأت
سوى ذلك من صباح، فقد حدثت نفسها عن بطن مستو وفخذين
صلبيين يكسوها كما يكسو الساقين شعر أسود غزير وأجدد.
وندمت نمنوما لأنها لم تنظر إلى صباح عندما بدأ ثيابه قبل
النوم، وتعجبت من أنه لم ينظر إليها هو أيضاً، عندما بدلثيابهما
ثيابها. وأنها لم تصدق ذلك، حكمت بأنهما لم يبدل ثيابهما
البطة. ثم هالها أنها نسيت ما كان بعدما تركهما بنان وراتب
وحيدين، مثل عروسين في غرفة النوم الدافئة: الصالون،



وعلى سريري العرس: الصوفا المدابرة لصوفا، وقررت أن تسأل صباح عما يذكر من تلك الليلة، حين يصطلاحان، فهذا الخصم لن يدوم.

ولأنها اطمأنت إلى ذلك، باتت أقدر على أن تحدث نفسها عن هذا الذي اكتفى بالماجستير في الأدب من جامعة القاهرة، ورفض أن يقطف الدكتوراه الدانية من أطراف أصابعه، كما رفض أن يتقدم إلى الوظائف التي أبرقت بعدما أدى الخدمة الإلزامية: مدرس لدى وزارة التربية، موظف في مديرية التأليف في وزارة الثقافة، موظف في القسم الثقافي في جريدة تشرين: لماذا يا صباح؟

كيلا تستعبدني الوظيفة: أجاب.

والعمل مدرساً في معاهد خاصة أو في الثانويات، بم يفرق عن الوظيفة؟ سأله.
بحريتي: أجاب.

وأضاف في اتصال آخر من اتصالاتها الهاتفية التي بطول فنجان قهوة: حين رضخت إلى نصائح أصدقائي وأهلي، وتقدمت للعمل في الجامعة، رفضتني، لأن جميع فروع الأمن ذات الصلة، رفضتني. حتى عندما تقدمت إلى مسابقة المعيدين، لم أتل موافقة الفروع الأمنية ذات الصلة، فعدت إلى الرصيف.

لكنك الآن تدرس في الجامعة.

بالساعة يا نمنوما. هل تعرفين ما معنى أن تدرّسي في الجامعة بالساعة، لغة عربية لغير المختصين؟ ليس لك أي حق من حقوق العاملين في الجامعة، من كبيرهم إلى صغيرهم. ومع ذلك، ما كانت لتكون لي هذه النعمة لو لا أن أتى صديقي الدكتور بهنان بالموافقة الأمنية من القصر الرئاسي مباشرة. في اتصال آخر اتهمته نمنوما بالكسل أو الدلال، فصمت، وصمت، حتى إذا هم بالكلام، همّت، فانتظر وانتظرت إلى أن اندفع كأنه في شجار: كم ساعة تعملين في اليوم؟ سأفترض أنك لا تضيعين دقيقة، إذا أنت تعملين ثمانين ساعات يومياً، لمدة خمسة أيام في الأسبوع. أنا أعمل ثمانين أو تسع أو عشر ساعات يومياً لمدة سبعة أيام في الأسبوع. صباح خليل موظف عند صباح خليل، ما رأيك؟

أنت قد ألمت إذا عشرين كتاباً حتى الآن، ولكن ليس لك كتاب واحد فيما أعلم: ردت، وقد طاب لها استفزازه.

لأنني أقرأ أضعاف ما أكتب، ولأنني ما زلت أتهيب تأليف كتاب. نمنوما: أنا أتلذذ بما أقرأ وبما أكتب. صباح: قد يجد غيري لذة فيما يقرأ لي، لكنني أنا الذي في هذا. نمنوما: أفضل أن تبقى هذه اللذة لي وحدي: قال بهدوء ومتعة، ربما جاء بفضل



ترديده اسم نمنوما.

إذاً أنت بخيل: قالت وهي تضحك.

فيما يخص الكتابة، ربما. ثم لماذا العجلة في النشر؟ ما زلت مراهقاً على حافة الخمسين: قال وقد أحسَّ أن الاتصال الهاتفي تجاوز طول فنجان القهوة.

* * *

بكل ذلك تعزز ميل نمنوما إلى صباح. غير أن هذا الميل كان يكبر كلما أضافت جديداً إلى ما باتت تعرف عنه، وليس بفضل فنجان القهوة الهاتفي. فصباح حضر إلى دمشق ليشارك في إحياء ذكرى عبد الرحمن منيف، وليدعو نمنوما مساءً إلى نادي المحاربين القدماء. وصباح حضر أيضاً إلى دمشق ليستمع مع نمنوما وأم كوز مميز وأم كوز أنطوان، في مسرح الدراما في دار الأوبرا، إلى سوزان حداد تغنى مع البيانو والتشيللو: أحب دمشق هواي الأرقا، ثم تغنى: أهوا دا اللي صار، ثم... لم يقبل صباح بعد الحفل دعوة أم كوز وأم كوز له ولنمنوما إلى العشاء في بيتهما، كما لم يقبل دعوة نمنوما للجميع إلى العشاء في بيتها، وهكذا حقوا به إلى نادي المحاربين القدماء. وبعد أن بلغ في عدّ الدرج ثلاثة وسبعين، قال مغالباً لهاشه: بعد قليل لن نجد غير هذا النادي في وسط

البلد مكاناً لتشريوا كأس بيرة أو كأس عرق.
وتوقف بينما قالت نمنوما: لا تنس، لا كحول على طاولة
القاضية. وقال أم كوز أنطوان: البركة في أوتيلات الخمس
نجوم. وافتقدت نمنوما لها ثم وعد صباح خلفها، فالتفت،
فرأته يبطرق فيها. وفجأة دوت ضحكته وهو يشير كي تتبع
الصعود. وفجأة قطع ضحكته، وكان أم كوز أنطوان وأم كوز
مميز قد توقفا، وغمز صباح الجميع قائلاً: ما أبدع من روح
تقديم النساء على الرجال، على الأقل في صعود الدرج، وأشارت
أصابعه وحاجباه والتماعنة عينيه إلى الإليتين المكورتين
الممتلئتين، ولم تصدق نمنوما ما اكتشفت في المهدب صباح:
نفحة من البداءة، نعم، لكن: المليحة.

حول الطاولة تجاور ممizar وأنطوان، فسرّ نمنوما أن تبدو
وصباح قبل التهمان كزوجين، وتمتنت لو أن صباح يتبع بدأته
المليحة. لكن أنطوان أغرق الجميع معه في ذكرياته عن
دراسته طب الأسنان في جامعة تشرين في اللاذقية، وعن
خدمته الريفية كطبيب أسنان في جبلة، وعن من عرف من أسرة
صباح قبل أن يتعرف عليه. وفجأة قطع صباح على أنطوان
حبل الذكريات، وتدفق كأنه يلبي ما تمنته نمنوما، وكانت
شاشة المطعم الكبيرة تقذف السهارى برئيس يخطب في حشد

هائل تلو رئيس يخطب في حشدٍ أكبر هولاً: قياداتنا قطعت
شرش الحيا، لسان حلو وقلب أسود، الواحد منها سلح جلدة
طيزه وحطّها على وجهه، إذا سكت جدار وإذا نطق حمار. وما
إن ذكر الحمار حتى تدفق: أنت يا أم كوز يا أنطوان يصح فيك
المثل السرياني: راكب على حمار الشيطان، المعنى؟ أعنده من
عندك، فأمنت أم كوز ممیز على قول صباح، بينما سأل أم كوز
أنطوان مصطنعاً الغضب: وأنت؟ فردَ صباح ضاحكاً: أنا مرّة
مثل حمار فلتان، ومرة مثل الحمار الأزعن، مرة مثل الحمار
المقطوش ذنبه، ومرة مثل حمار الطاحون، فهمت أم أزيديكم
شرحًا؟

في هاتف تالٍ تسأله نمنوما عن سر اهتمامه بالحمار،
فيزيدها شرحًا عما بينه وبين الحمار من وِدٍ قديم. وكانت قد
باتت بفضل أم كوز ممیز وأم كوز أنطوان تعلم أن صباح أولع
بالسباحة، على كبر، ربيعًا وصيفاً وخريفاً، لكنه بالكاف يقطع
خمسين متراً. كما أولع بالمشي في الجبل، على كبر، لكنه ما
شارك مجموعة مرّة في مسيرة جبلي حتى انسحب مبكراً، ولم
يتجاوز قط ست ساعات، وكان يجد دوماً وسيلة ما حتى لو
كانت حماراً تلحقه بالمجموعة في استراحتها وسمرها ليلاً.
من بعد أويتها مخيبةً من حماة، أدبت نمنوما على نثر

ولملمة أشتاتها عن صباح، متلذذة مرة، متقصية ما يسوء مرة. ولما أدركتها السم أرادت أن تسلو، ولو إلى حين، لكنها عجزت منذ الليلة الأولى، فاندفعت في نزال مع نفسها. وفي غفلة منها، بدت تنازلَ مَنْ حولها: ليлиا، ويامن، وهذا المحامي، وتلك المدعية، وهذا القاضي، وذلك الحاجب، وهذا النائب العام، وشقيقها الأكبر فاخر الذي ندر أن زارها كلما قدم إلى الشام، كما ندر أن زارتَه هي كلما زارت ذويها في حمص. وربما كانت منازلات نمنوما ستتفاقم، لو لا أن ليлиا هدرت ملء البيت في ذلك المساء المقرئ لأن الوقت ليس شفاء ونطّت، وصفقت، وتهجد صوتها، وتبالت أجهانها، وعانت نمنوما، وجرّتها إلى أمام التلفزيون متضرعة: انظري يا أمي.



الجمعة ٢٠١١/١٤/

ونظرت نمنوما ولم تصدق عينيها. وعلى الرغم من كل ما تحدثت به ليلاً، ومن كل ما تحدثت به شاشة التلفزيون، قناة تلو قناة، ظلت نمنوما غير مصدقة، حتى انطوى مساء الجمعة الرابع عشر من جانفي / يناير / كانون الثاني ٢٠١١، بعدما تطاول حتى الثالثة بعد منتصف الليل، حين أوت نمنوما إلى غرفتها، وتركت ليلاً ويامن مسمرتين أمام التلفزيون.

في عتمة الغرفة اجتاح نمنوما الحنين إلى صباح. ومع وجع خفيف جراء ما يشبه حكة في الأذافان، أخذت تتبدد ما قدرت أنها غشاوة الأسابيع الماضية، وأخذ يعروها نمّال من الفرح والخوف والذهول والثقة. فهذا الرجل الذي كان للتو رئيساً، هذا الذي تأله في تونس منذ أربع وعشرين سنة، صار الآن لاجئاً في السعودية. ولكي تزداد يقيناً مما تابعت منذ المساء، نادت إلى عتمة الغرفة شاباً تونسياً في مثل عمر يامن، لكنه أنهى دراسته الجامعية منذ سنة أو سنتين، بل ربما منذ أكثر، بينما ما زال يامن يتعكرز في كلية التربية، وبعد ست سنوات ما زالت أمامه سنة أخرى على الأقل، كي يتخرج. وهي تحدق في العتمة، رأت أكفاً حائرة بين النعومة

والصلابة، تصفع الشاب التونسي ذا الثياب المهللة، ورأت
عربة يد مقلوبة عاليها أسفلها، وقد انتشر حولها ما يشبه
التفاح أو الإجاص أو البندورة، كما انتشر حول الشاب ما يشبه
الحطب، وما يشبه زجاجة فارغة وعلبة كبريت. وشمّت نمنوما
رائحة بنزين أو مازوت. ولما شبّت النار في الشاب انتفخت
نمنوما كأنها صحت من كابوس، وتعودت من الشيطان
الرجيم، وسمّت باسم الله الرحمن الرحيم، وأنّت، وكزّت على
أسنانها، وأضطرب فؤادها وصدرها، واحتضن كفاهما وجهها،
وتنمّت لو أنها تقدر على البكاء.

* * *

وكما في المنام أو الكابوس، رأت نمنوما أن ليليا تملأ
القنوات الفضائية جميعاً، لكنها لا تخاطب إلا نمنوما، كي
ترى رئيس الجمهورية العربية التونسية هكذا نطق ليليا،
وقدرت نمنوما أن هذه المذيعة ذات الألسن العشرة قد تيمّنت
بالجمهورية العربية السورية يستقبل والدة محمد بو عزيزي
في قصر قرطاج، ويقدم لها ولأسرة الشهيد الكافر انتحاراً
أو المنتحر كفراً، بيتاً في هذا الحي الراقي: المرسى، وكيساً
صغرياً مليئاً بالأوراق ذات العشرين ديناراً. ولسرّ من أسرارها،
كررت ليليا مرة بعد مرة أن الرئيس الذي ليس في شعره شعرة

شائبة واحدة، على الرغم من أنه خمسيني وستيني وسبعيني
في آن معاً، قال منذ أيام ما كان قد قاله قبل أربع وعشرين
سنة: لا رئاسة مدى الحياة. فسبحان الله تضرعت ليليا وهي
تشعر كفيها الذي ألمه الرئيس بالعبارة نفسها في مبدأه
الرئاسي وفي منتهاه غير الرئاسي،وها نحن يا أمي كما ترين
قالت ليليا نهتف صباح مساء: بن علي ديجاجي،وها نحن
كما ترين نغنى مع الجنرال، لا أقصد الرئيس يا أمي، بل أقصد
جنرال الراب حمادة بن عمر:

يا رئيس شبك مات
الناس بتأكل من الزباله
هاني اليوم نحكي معاك
باسمي وباسم الشعب الكل
اللي عايش بالعام ٢٠١١
ومازال مجبر يموت من الجوع
لكن صوته مش مسموع
اهبط للشارع وشوف

وإذا كنت لا تصدقين يا أمي ما غنى هذا الشاب الصفاقسي
الفقير، فهاك اللاعب: اكسرى الحاجز كما علمتك، وزوري
موقع مايسباس لترى كيف غنى الجنرال منذ أقل من شهرین

ريما عندما كنتُ مع صباح في حماة: فكرت نمنوما وكيف اعتقل، وكيف طالبنا جماعات على الفيس بوك بالإفراج عن جنرال الراب، فأفرجوا عنه بعد ثلاثة أيام وهم يزعقون ملء الإذاعة والتلفزيون والجوابع والجرائد واللافتوبات: الراب غناء المنتحلين المروجين للشغب، هو داء، بل هو وباء جاءنا من الغرب اللعين. وما دام الأمر كذلك فإليك يا أمي هذه الحزورة الفزورقة: لماذا كان الرئيس يمد رقبته المكنوزة مثل خديه وشفتيه وأصابعه، ويردد صباح مساءً: أي نعم فهمتكم؟ أرادت نمنوما ملخصةً أن تبحث عن جواب ما، حتى لولم يكن قاطعاً مانعاً. لكن ليلاً لم تفسح لها: أنت تعرفين يا أمي ولعي بالفنون جميعاً من صغرى، لذلك ما كان لي إلا أن أتنوّس طوال الأسابيع الأربع الماضية، ومن قبلها طوال الشهور الخمسة الستة السبعة الماضية بينما لم يكن لي من شاغل إلا صباح: فكرت نمنوما فأغنى في المظاهرات مع آمال المثلوني، وأنال نصبيبي من الكسر والكلمات والضرب والجر على زفت الشارع وبيلات الرصيف، مثلثي مثل جليلة بكار ونصر الدين السهلي ورجاء ابن عمار والفضل الجعابي ولطفي عبدالنبي ورؤوف بن يغلان ومحمد علي الهندي ونعيمة الحاني وزملائي وزميلاتي في المعهد العالي للفنون الدرامية في تونس.

وشدت ليليا على نمنوما كيلا تنسى أن تصفع على القفا
أمينة فاخت وصابر الرباعي ولطفي بوشناق من بين الفنانين
الذين وقعوا على العريضة التي تناشد الرئيس أن يترشح
للانتخابات الرئاسية سنة ٢٠١٤، لأن ما بين ١٩٨٧ و ٢٠١٤
من الدهور، لا يكفي الرئيس رئاسة وترؤساً واسترئاساً
ومراءسة وإرئاساً ورؤسسة، ولا ضير إذا بل لابد من سبع سنين
أخرى. وقد ينعم الله على الرئيس علينا بسبع من بعد سبع،
لأن الرئيس لا يمكن أن يكون إلا رئيساً حتى لو مات وشبّع
موتاً، فهو خالد مخلد فيها أبداً. لذلك قلت لك يا أمي اتركينا من
قناة الجزيرة ومن قناة السي إن إن، وخلّنا في القناة التونسية،
حتى أقدم لكِ برنامجاً عن البحار وأحيائها، وبرنامجاً عن
الشائعات في صدر الإسلام، وبرنامجاً عن البيئة، سوف أكتفي
فيه بالحديث عما تلقّيه الحيوانات من الفضلات. ولا تأبهي
بهذا الخبر العاجل جداً الذي يلوّن ذيل الشاشة بلون الدم،
معلناً أن حدثاً هاماً سوف يعلن عنه، فالكلمات الهاتفية
التي أجريتها يا أمي مع الجمهور الحبيب، تشكر الرئيس على
رجولته وعنفوانه، وهو يخاطبنا: إيه نعم فهمتكم. ترانني
فهمتكم.

والآن، على أن أفسح للعاجل جداً كي يبرق أسفل الشاشة.
 لكن هذا الصوت الشاب العجوز والمتأنث المستفحلي يرعبني
 وهو يلعلع: يلعن بو المخربين، يلعن بو الشعب المشاغب، يلعن
 بو الشباب المتخدرین، ولعن أبي يا أمي، فشق صوتي الشاشة:
 يعطيك الصحة، ويلعن أبوك وأمك، وببو الرئيس وأمه، وقبل أن
 أعود إليك أنسدت:

وكان في طغيانه يسرفُ
 وكل جبار إذا ما طفى
 فكل جدار بها يقصَفُ
 أرسله الله إلى تونس

* * *

واختفت ليلاً، وصارت شاشة التلفزيون بيضاء مرقشة بلا
 صوت. وقصف الرعد قصفاً شق السماء، وشق سمع نمنوما،
 فانتفضت، وتعودت من الشيطان الرجيم، وسمت باسم الله
 الرحمن الرحيم، واستوت في السرير لاهثة ومنهكة، وبعد قليل
 مضت إلى النافذة.

ولما أزاحت الستارة الكحلية الكتيمة وفتحت الأجاجور،
 هالها صفاء السماء وسكون أشجار الحديقة في الطرف المقابل
 من الشارع العريض الذي تلاصقت السيارات ملء جانبيه.

ولابد أن الساعة كانت قد تجاوزت الثامنة، لذلك هرعت إلى الصالة، فإذا بليليا غافية في الكتبة المقابلة لشاشة التلفزيون التي كانت تتلاطم بمن يتلاطمون ويتلطمن ملء شارع الحبيب بورقيبة.

وفي الزاوية السفلی اليمنى للشاشة كانت الساعة تعلن الثامنة وأثنتين وعشرين دقيقة بتوقيت غرينتش، أي العاشرة وأثنتين وعشرين دقيقة بتوقيت دمشق الفيحاء، وما فات القاضية نمنوما زكي في القصر العدلي قد فات، فلماذا لا ترابط إذا أمام التلفزيون؟

هرمنا، هرمنا من أجل هذه اللحظة، والشعب السوري حرّ

تأخر بهنان في العودة من دمشق. ولما هتف لصباح منبئاً
بوصوله، عاجله:
أمامك ساعة ونصف، نلتقي في الخامسة أمام مقر
المنطقية.

أية منطقية؟

فيه غيرها؟ مقر قيادة الحزب الشيوعي الموحد. أنت تفضل
أن أقول لك: جماعة فلان، وليس منطقية أو قيادة علان. هذه
المرة سأحرمك من هذه المتعة.
وماذا هناك؟

لا شيء يهم يا دكتور: لقاء حواري بين ممثلين لهذا الحزب
مع تجمع اليسار الماركسي (تيم) ومع حزب الإرادة الشعبية.
إذاً ما حشرك وحشرني بينهم؟
اللقاء مفتوح أيضاً لشخصيات مستقلة.
كيف أذهب إذا لم يدعني أحد؟

أنا تعهدت بدعوك إذا عدت من دمشق قبل اللقاء، وهذا قد
عدت. تفضل.

هل تعرف موضوع الحوار؟

نعم يا صديقي نعم. رحم الله عبد الحليم حافظ. هل تذكر أغنية نعم يا حبيبي نعم أنا بين شفافيك نغم؟ سيكون الحوار بين شفافيف الدكتور بهنان فتح الله أحلى نغم. أما الموضوع فهو: الأزمة السورية وطرق الخروج منها.
إذًا في سورية أزمة، وأنا لا علم لي ولا خبراً

* * *

بهذه العبارة ودع بهنان ساخراً. لكنه في اللقاء أفاد فيما عدّه أَسَّ الأَزْمَةِ: الاقتصاد يا جماعة، فقاطعه أحدهم في الصف الآخرين، ما بيننا أحد من الإخوان المسلمين حتى تنادينا: يا جماعة، قل: يا رفاق. فابتسم. وكعادته في التحرز والتحوط، كرر الإشارة إلى الأبحاث والدراسات التي يعدها منذ سنوات، استجابة لتكليف من الجهات العليا، ولم يذكر هذه المرة القصر الرئاسي، ولا رئاسة المخابرات ولا هيئة التخطيط، ولا كلية القيادة والأركان.

في البداية ذكر بهنان صندوق المشرق الاستثماري، فسرّت مهمّة، قدّر أنها تسمى من لم يجرؤ هو على تسميته: رئيس الصندوق، لذلك أسرع إلى الحديث عن شركة الشام القابضة التي يرأسها بيزنس مان منا وفيينا، لكنه مقيم في فيينا منذ

نجح في البكالوريا بتفوق، وينوب عنه في الوطن بيزنس مان أكبر شأناً وأخطر، لكنه أصغر سناً.

لم يسمّ بهنان أيّاً من الرجلين، لكنه ذكر أن مؤسسي هذه الشركة العملاقة هم واحد وسبعون رأسمالياً منا وفيينا، برأسمال وطني بلغ ٣٥٠ مليون دولار أمريكي. ثم ذكر الشركة السورية القابضة التي أسسها ثلاثة وعشرون رأسمالياً منا وفيينا، برأسمال وطني بلغ أربعة مليارات ليرة سورية، أي ما يعادل ثلث رأسمال شركة الشام.

هنا هفت أحدهم من الصنوف الوسطى ساخراً: عاش الرأسمال الوطني عاش، فالتفتت إليه وجوه مستطلعة ووجوه تستحسن كهمهات أصحابها سخرية الهاتف، وأخرى تستذكرها.

أما بهنان فابتسم، وتتابع: اجمعوا عدد مؤسسي الشركتين، هؤلاء هم المائة الكبار، فصحح له ممثل حزب الإرادة الشعبية: المجموع ٩٤ يا دكتور، فخاطبه بهنان مبتسمًا: جبرت العدد يا جماعة إلى المائة كرمى للبلاغة العربية، والتغلب معروف فيها، فاختلطت همهات مستحسنة بأخرى مستهجنة. وتتابع بهنان متسائلاً عن السر المريب الذي يجعل الحكومة تمنع الموافقة المسبقة، لشركة الشام القابضة، على المشاريع

الاستثمارية التي لا تزال قيد الدرس! لكان قيام هذه الشركة وغيرها من الشركات القابضة، هو قيام للشراكة بين الحكومة وبين رجال الأعمال الجدد الذين لا يستثمرون في الصناعة أو الزراعة أو الصحة أو الطاقة، بل فقط في العقارات والمصارف والمجمعات السياحية والخدمية، لا غير. وكان بهنان ينوي أن يختتم مداخلته بما ختم به الدراسة الأخيرة التي قدمها إلى القصر الرئاسي: تحولت الاشتراكية إلى اقتصاد السوق الاجتماعي المستورد من الصين، وهو ما تحول إلى رأسمالية الحبایب والقرایب. لكن الدكتور بهيج عباد الذي يكلف الدكتور بهنان بالدراسات الخاصة بالرئاسة، اقترح شطب عبارة رأسمالية الحبایب والقرایب، وأشارت يداه وغمزته إلى غلظة العبارة أو فجاجتها، ثم شطبها بقلمه لا يستخدم إلا القلم الرصاص وكتب بدلاً منها: الليبرالية.

أما مدير اللقاء الحواري وهو من أسسوا تجمع اليسار الماركسي (تيم)، وكان قبل أكثر من ثلاثين سنة من أسسوا رابطة العمل الشيوعي، ثم اعتقل ستة عشر عاماً فقد قاطع بهنان شاكراً، ومشيراً إلى ساعة يده، كما كان قد فعل من قبل مرتين هامساً: أرجوك اختصر. لكن الاستفاضة كانت قد طابت لبهنان، شأنه غالباً مع المنصة ومع المايكروفون، فسكت على

مضض، ونقل نظراته بين مدير اللقاء وصباح محتاجاً، قبل أن يسلم الميكروفون إلى أحد الأيدي الممدودة إليه.

* * *

قبل أن ينتهي اللقاء انسحب بهنان، فتبعده صباح الذي اقترح أن يجلسا قليلاً في مقهى لاوديسا القريب. وظلا صامتين حتى فاحت أمامهما رائحة القهوة، فأصدر صباح حكمه:

لم تكن يا صديقي موفقاً في مداخلتك الطويلة.
لماذا؟

لأنك حددت الأزمة بالاقتصاد، وحددت الاقتصاد بوحدة من عله: المائة الكبار، أو بالأصح: مائة من صغار الكبار. أليس فوق كل كبير منهم من هو أكبر، كما قلت أنت مراراً وتكراراً، حتى قفعت طبلة أذني؟ السلطة الأمنية، السلطة العسكرية، السلطة السياسية يا صباح، السلطة راكبة على الجميع: رجال أعمال، مشايخ، مثقفون، عاهرات، أليس هذه معزوفتك المفضلة؟

قل لي إذا: ما هو أَسَّ الأزمة السورية إذا لم يكن الاقتصاد؟
كم قلت لك: أَزْمَتنا أَزْمة كرامة!

نحن شعب بلا كرامة، أنا يا أخي بلا كرامة: أليس هذه هي



عياراتك الطنانة المأثورة يا أستاذ صباح؟

هذه المرة سأضيف برهاناً دامغاً جداً وبسيطاً جداً على صواب ما أفسر به أزمننا. أنت يا دكتور، أنت الأستاذ الجامعي العتيق، أنت يا صديق كبار المسؤولين من رئاسة المخابرات إلى القصر الرئاسي إلى... مَنْ من اتحاد الطلبة مسح الأرض بك لأن أخته لم تنجح عندك إلا بـ٤٨ علامة، وبعد ثلاث دورات؟ قل لي يا دكتور: من أي مفرزة من المفارز الأمنية في جامعتك وجامعتي، في جامعة الكرامة، هو ذلك الشاب الذي مسح بك الأرض؟ لماذا؟ لأنك تخلفت عن احتفال كلية بالذكرى العاشرة لانتخاب الرئيس. حسناً، ليس بالمهم أن نعرف من أية مفرزة هو، فهذا سر خطير من أسرار الدولة، ولكن هل قال له أحد بعد ما بهذلك: ما أحلى الكحل في عيونك يا قمر التمام؟ الكرامة مفهوم نسيبي يا أخي صباح، مفهوم غامض، له دوره، لا يمكن أن أتجاهله، لكنه ليس أساسياً أو حاسماً مثل الاقتصاد.

ما رأيك إذاً فيمن سمى من شباب تونس ثورتهم بثورة الحرية والكرامة؟

كما ترى أضافوا: الحرية. ولو استشاروني لأشرت عليهم بالحرية وحدها. الحرية تتضمن الكرامة، وتتضمنها. عندما

تقول: ثورة الحرية، فهذا كلام في السياسة. عندما تقول: ثورة الياسمين أو ثورة الصبار أو ثورة الكرامة، فهذا كلام في الأدب، وهو لك، وليس لي.

أليست الأزمة هنا أزمة حرية وكرامة، كما هي في تونس؟ واقتصاد، لا تنس. قبل عشرين سنة بدأ في تونس عرس اقتصادي، وكان من المستحيل أن تقوم ثورة، لا باسم الحرية ولا باسم الكرامة، رغم أنهم لم تكونوا مصوّنـتين. ماذا جرى بعدما انقض العرس؟ قبل سنتين ثار عمال المناجم والفوسفات في قفصـة، المظاهرات وصلت الليل بالنهار. لم يكن العامل وحده يتظاهر. كانت الأسرة كلها تتظاهر. والآن، لو لا أن شاباً جامعياً عاطلاً عن العمل، أضطر إلى أن يبيع الخضار والفواكه على عربة، هل كانت تونس ثائرة؟ هل أهينـت كرامة الشاب بالبطالة أم لأن شرطـية صفتـه؟ ترى، لو كان شرطـي هو من صفع الشاب، هل كانت كرامته ظلت مصانـة؟ أو على الأقل كانت أقل إهانـة؟

كان صباح يحرص على ألا تفوته عابرة على الرصيف الذي تعزلـه عن المقهى ستارة من النايلون. ولأنـ الستارة غير شفـيفة، بالأـحـرى: عـكـرةـ، فقد كانت تعـيدـ تشـكـيلـ العـابرـةـ علىـ

هو المتصص. وعلى الرغم من عكر المساء وبرده، ومما أورث اللقاء الحواري في مقر المنطقية للمتصص من الرهق، مثله مثل محاورة بهنان هنا، فقد كانت اللمحات من أية عابرة تمسح على رهقه. وربما كان ذلك ما جعله يبحث بهنان على العودة معه إلى بيته مشياً. لكن المشروع الثامن حيث يسكن صباح بعيد، وبهنان ما كاد يتنسم الراحة بعد السفر من دمشق إلى اللاذقية، حتى ناداه صباح الذي داهمته الوحدة الموحشة، بعدهما فارقه بهنان وأخذت الشوارع تضن عليه بأية عابرة. ولما صادف ثلاثة من الشباب متكونتين حول لهب يترافقون وهو يقصد من تنكة مدججة بقطع خشبية ويغيدان، قرر أن أوسطهم هو: معمربوعزيزي؟ فمن يكون الآخرين؟

تباطأت خطوات صباح، والتفت مرتين خلفاً ليدقق النظر في الشابين اللذين يحيطان بمعمربوعزيزي. وفجأة التمعت عيناه بصورة الشاب الذي رش نفسه بالبنزين في ساحة برااغ، وأشعل جسده، كما أخبر ميلان كونديرا في رواية (الحياة هي في مكان آخر). ودار لسان صباح بالعبارة التي حفظها من الرواية: كان الشاب سيعجز عن أن يجعل ضمير الأمة يهتز بصرخته، لو كان قد اختار أن يموت غرقاً. وتوقف صباح ليرى رأي العين شاباً أشقر من برااغ وشاباً أسمراً من سيدي

بوزيد يتبدلان رش البنزين، وعود الكبريت، حتى يشتعل شعر
بلا لون على رأس، وشعر ملون للحية وأهداب ورجلين وعانية
وساعدين. وسرعان ما فرقعتْ وطشتْ الدهون «الللاطية» في
طيات بطن أو خصر، مثلما يفرقع أو يطش دماغ أو بؤبؤ أو
خصية، بينما عواء الذئب يشق الصدر، ولكن..

ولكن صباح التفت خلفاً، فرأى شاباً واحداً ما زال يتکوأ
حول اللهب المترافق الصاعد من التنكة التي لم تعد مدججة.
عندئذٍ أیقن صباح أن الشاب البراغي والشاب التونسي قد تردد،
والدور والباقي إذاً على هذا الشاب السوري الذي سيحرق نفسه
لا ريب بعد حين. وبذلك سيكون لکف صباح أن تمسح على
صلعته المبكرة، ثم يفتح ذراعيه ما وسعاً، ويهتف وهو يدور
في ساحة الشيخ ضاهر: هرمنا، من أجل هذه اللحظة هرمنا،
والشعب السوري حر.

الصديقان

كان بهنان قد أُلف أن يُشغل صباح أحياناً بما يكون هو منشغل به. وقد أجبر صباح على أن يشاركه في متابعة حلقات من المسلسل التلفزيوني (ما ملكت أيمانكم). وكان صباح قد شاهد أشطاراً من حلقات، شأنه مع المسلسلات التي تثير لغطاً، أما سواها فلا يتبعها البتة.

كان محمد رمضان سعيد البوطي العلامة الشيخ الدكتور الروائي كما يضيف بهنان قد طالب بإيقاف المسلسل الذي يقدم شيئاً في مقتبل الصبا، في تناقضاته بين ما يبيحه لنفسه ويحرّمه على أخيه. وقال بهنان:

علل البوطي مطالبته بأنها إلهام من الله الذي تجلّى له،
وعيّن له سبب الجفاف الذي يضرّ البلاد بالمسلسل إياه.
صاح صباح:
فضيحة. مهزلة. لماذا لا تكتب عنها؟
فرد بهنان متأسياً:

لماذا لا تكتب أنت؟ يكفيني ما نالني عندما كتبت ضد
حملة البوطي على الفلسطينيين.
في بيت صباح شاهد الصديقان الحلقة التالية من

المسلسل. وما إن انتهت حتى أغرق بهنان صديقه بما لا بد منه من أجل الكتابة ضد المسلسل: كارثة الجفاف في موطنه الأول: الحسكة التي لم يعد هو إليها إلا لماماً، منذ غادرها قبل تسع وعشرين سنة إلى جامعة دمشق، ثم إلى جامعة بودابست، ثم إلى جامعة اللاذقية.

قبل أن ينتهي عرض المسلسل كان بهنان قد توه صديقه بين الآبار الارتوازية التي ما عادت تحصى، وأخذت تتبالي في الأعماق التي تفرّ المياه إليها، بينما تتعاظم الرشى كي تصير الآبار غير المرخصة شرعية وقانونية.

وليس صحيحاً أن سر الجفاف هو في استنزاف المياه الجوفية، بل هو في آثار ظاهرة الاحتراز العالمي، والإعلام الذي يدّعي بغير ذلك كاذب: امنعوه من الدخول إلى ديار بهنان فتح الله، وطيروا بالدبلوماسيين من مطار دمشق إلى مطار القامشلي ليشهدوا على الكارثة، ولبيتوا بالعواصف الترابية كما يُبيتلى بها هؤلاء المساكين التائدون بين جبل عبد العزيز والشدادي.

أما صباح خليل، فسوف يزداد توهاناً في الكابوس الذي رماه بين خمسة وثلاثين ألف أسرة، أي بين أكثر من مائتي ألف نسمة، هاجرت من عموم محافظة الحسكة. وفي الطريق

كما في المال اندغم فيها واندغمت هي بآلاف مؤلفة من عموم
محافظة الرقة.

أعاد الكابوس صباح من التيه إلى من حلّ من المهاجرين
إلى جواره في اللاذقية: في ساحة اليمن، سوق الهاال، مطعم
البجعة، العمارات الناشبة أمام بيته.

من تيهه أي من الكابوس تحدث صباح عما عرف من أخبار
أهل بنهان لم يقل مهاجري الحسكة في دوما أو حرستا أو
عربين أو داريا من ريف دمشق، وفي إنخل أو الشيخ مسكنين أو
جسم من ريف درعا، بل وفي السويداء نفسها: ورشة بعد ورشة،
على مد البصر، من النساء والأطفال، يجنون البندورة والخيار
والكوسا والملفوف والباذنجان، ثم ينظفون الأرض استعداداً
للموسم الجديد. وقبل أن ينتهي صباح من حكايات كابوسيه
وتيهه، عاجله بنهان راجياً إبداء الرأي بهذه المحاضرة التي
أعدها حول البطالة في سوريا، والتي سوف يلقىها في ندوة
الثلاثاء التي تنظمها جمعية العلوم الاقتصادية في دمشق: خذ
يا صديقي.

* * *

و قبل أن يسافر سلم صباح مسودة كتاب ضمّنه عدداً من
الأبحاث التي نشرها في مجلتي دراسات عربية والمستقبل

العربي اللبنانيين، وعدداً من المحاضرات التي ألقاها في معهد العلوم السياسية وفي كلية القيادة والأركان: اقرأ يا صديقي. في عهتك، كالعادة، التدقيق اللغوي، وعليك، وليس لك، كالعادة، أن ترش ما تراه مناسباً من الملح والبهارات والمنكهات: مثل شعبي، قول سائر، نكتة، آية قرآنية، مما يخفف من جفاف لغة الأبحاث وأسلوبها، فما أحسبه الأهم صرت تعرفه جيداً منذ نصّبتك القارئ الأول الذي يقرأ ما أكتب قبل أن أنشره أو أحاضر به. صحيح أنك قادم من الأدب، لكنك قارئ مثالي لمثلي، بقراءاتك المتنوعة في الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة. مروحة اهتمامك واسعة، ومن لا يعرفك فقد يحكم عليك بالتشتت والسطحية. أما أنا فلست أبحث دائماً عن متخصص ليبدِّي رأيه فيما أكتب. ما أحتاجه هو صباح خليل.

أمام ما يشتق بهنان من مصطلحات، يهز رأسه صباح دوماً بِاعجاب.وها هي مخطوطة بهنان التي بلا عنوان تقتحم عليه ثلاثة ليالٍ في غياب أصحابها:
المكسكة!
يا سلام!

أين هي المكسك يا بهنان؟ هل صحيح أن حزب البعث

المكسيكي ولّى، بعدهما حكم أطول مما حكم حزب البعث السوري أو حزب البعث العراقي أو حزب جبهة التحرير الجزائري أو حزب الدستور التونسي، لا فرق؟

لماذا لا تستنق يـا بهـانـان الصـيـنـنـة على غـرـارـ المـكـسـكـةـ؟
هـذـهـ عـلـىـ وزـنـ فـعـلـةـ وـهـذـهـ عـلـىـ وزـنـ مـفـعـلـةـ، وـهـذـاـ هوـ الحـزـبـ
الـشـيـوـعـيـ الصـيـنـيـ يـتـخـلـدـ باقـتـصـادـ السـوقـ الـاجـتـمـاعـيـ، فـلـمـاـذاـ لاـ
يـتـخـلـدـ حـزـبـ الـبـعـثـ بـالـتـرـيـاقـ عـيـنـهـ؟

أـمـاـ الـلـبـرـلـةـ فـتـسـتـحـقـ لـقـاءـهـاـ تـعـظـيمـ سـلـامـ يـاـ بهـانـانـ. اـسـمـحـ
لـيـ أـصـنـفـكـ بـالـيـسـارـيـ «ـالـمـتـلـبـرـ»ـ.

وـمـاـ سـرـ هـذـهـ الـ(ـمـكـتـومـونـ الـكـبـارـ)ـ؟ـ ماـ عـادـ فيـ سـوـرـيـاـ يـاـ
صـدـيقـيـ منـ لـمـ تـأـسـرـهـ سـجـلـاتـ الـأـحـوـالـ الـمـدـنـيـةـ، لـافـيـ بـادـيـةـ وـلـاـ
فيـ قـرـيـةـ.ـ ماـ عـادـ فيـ الـبـلـادـ مـنـ مـكـتـومـ.ـ لـكـنـ الـدـكـتـورـ بـهـانـانـ فـتـحـ
الـلـهـ عـنـ بـالـمـكـتـومـينـ الـكـبـارـ مـنـ لـيـسـتـ لـهـمـ قـيـودـ ضـرـبـيـةـ، وـهـمـ
يـكـتـمـونـ بـإـحـكـامـ نـشـاطـهـمـ الـمـالـيـ، فـمـاـ رـأـيـكـ يـاـ صـبـاحـ إـذـاـ بـقـولـ
بـهـانـانـ:ـ الـذـئـابـ الـجـديـدـ؟ـ مـاـ قـوـلـكـ بـاستـيرـادـهـ مـنـ روـسـيـاـ لـهـذـاـ
الـمـصـطـلـحـ:ـ الشـبـانـ الرـائـعـونـ؟ـ بـمـاـذـاـ يـمـكـنـ لـبـهـانـانـ فـتـحـ اللـهـ أـنـ
يـصـنـفـ أـوـ يـسـمـيـ أـوـ يـصـفـ رـجـالـ الـأـعـمـالـ الـجـدـدـ الـذـيـنـ يـقـبـضـونـ
عـلـىـ رـقـابـ الـاقـتـصـادـ السـوـرـيـ الـعـتـيدـ، إـلاـ أـنـ يـقـولـ:ـ الـذـئـابـ
الـجـديـدـ أـوـ الشـبـانـ الرـائـعـونـ؟ـ

من آباء أولاء ومن أجدادهم كتب بهنان من هرب بأمواله قبل ثلاثين سنة إلى المصارف التركية واللبنانية والأردنية، حيث كانت الفوائد ترمح حتى تبلغ ٢٠٪. ومن الآباء ومن الأجداد كتب بهنان من كانوا قد غدوا تجوم المصدرين والصادرات قبل عشرين سنة، ثم أخذوا يعلنون إفلاساتهم. وطال الانتظار حتى جاء الأبناء والأحفاد الميامين: المكتومون الكبار والذئاب الجديدة والشبان الرائعون، يحدو لهم حادיהם، فينقل بهنان من الحداء الذي اتلق في موقع مجلة الاقتصاد الإلكترونية: سبيل النهوض بالاقتصاد السوري هو: التجارة أولاً، ثم السياحة وهي نفط سوريا ثم الصناعة. والزراعة يا عباد الله؟ الزراعة يا محسنين: أضاف صباح بخط يده، واستملح ما أضاف، فكافأ أصابعه بفنجان من القهوة، وباستراحة قصيرة امتدت في بدايتها أصابع إلى جهاز التحكم، وإذا بالشاشة تضيق بلقب الرئيس المخلوع الذي بدا كتاج على رأس حسني مبارك وعلى رأس زين العابدين ابن علي، وعلى رأس ثالث تشكل كعلامة استفهام مرصعة بخريطة الوطن العربي، فأزاحت أصابع صباح مخطوطه بهنان جانبًا، وأقبل على الشاشة مستبشرًا.

٢٠١١ مطلع الشتوي في البيات صباح

في مثل هذه الأيام من كل عام يدخل صباح فيما يشبه البيات الشتوي، ولا يخرج منه حتى ينتصف شهر شباط، حين تكون الدروس في الجامعة قد بدأت تتنظم. وبما أن أغلب الطلبة لا يعيرون دروس صباح اهتماماً يذكر على الرغم من أن المادة التي يدرّسها مرتبة فهم يتأخرون في الحضور إلى دروسه. أما من يحضورون، فبينهم الكثير من تجذبهم سمعة هذا الأستاذ الذي لا يحمل الدكتوراه، وليس في عداد الموظفين، أجرته بالساعة، لكنه كاتب معروف، ومحاضر معروف، ومعارض معروف أيضاً، تلتبس نظراته على الطالبات مثل مخاطباته، فلا يعرف ما إن كان يغازل أم يمازح. وكذا كان الطلاب، لا يعرف واحدهم ما إن كان الأستاذ صباح خليل يويخر أم يسخر منه، يثنى عليه أم يحرضه ضد ما يطبق على أنفاس الجميع: الحزب القائد يقولها دائماً بسخرية وفروع الأمان ونقابة المعلمين واتحاد الطلبة، بل وعموم الرفاق والرفقاء يقولها أحياناً بسخرية، وأحياناً بشفقة، وأحياناً بحياء.

في مثل هذه الأيام، وبعد أن تكون الامتحانات الجامعية

قد انتهت، يقضي صباح شطراً من بياته الشتوي في تصحيح دفاتر الطلاب من النادر أن سبقه زميل أو زميلة في إعلان نتائج الامتحان ثم يقضي أياماً في قراءة روايات، أو في الفرجة على أفلام هي غالباً أوسكارية، ولم يبدل هذه العادة منذ عهد الفيديو والشاشة الصغيرة ١٤ إنشاً إلى عهد الذي في دي والكمبيوتر والشاشة الكبيرة ٤٢ إنشاً.

في أيام الروايات والأفلام كان يستعيد اللذة التي كانا ينعمان بها عليه منذ الصبا، وكان يضيف إليها أحياناً لذة الاستماع إلى الراديو: واحدة من محطات الإف إم التركية أو اليونانية. ولكن من النادر أن تستوقفه واحدة من محطات الإف إم السورية التي تناولت في السنوات الأخيرة. أما ما رافقها من ظهور ملاحق الصحف ومن ظهور دوريات إعلانية بخاصة، وسواءها أيضاً، فقد عده من النهوض الإعلامي المزيف، لأنه مقيد بالقيود الحديدية أو البلاستيكية، الصدئة أو الملونة، بل والذهبية أو الفضية أو التنكية التي تبدعها وزارة الإعلام وهيمنة الحزب القائد والأمن القائد.

* * *

في بياته الشتوي أيضاً، كان صباح يطيل السهر ويطيل النوم، وكان يكثر من زيارة والدته في جبلة، حيث تقيم عند

شقيقه الأصغر وليد الذي يتاجر بكل شيء: القهوة والشاي والخشب والزيت والمتنّة. وفي بعض الشتاءات كان بهنان يرافق صباح إلى جبلة، ويقبل يد أم صباح ورأسها، فتضمه وتقبل خديه وتدعوه له، كأنه صباح أو وليد أو أي من أبنائها الستة وبناتها الثلاث.

ومثل وليد، كان صباح يكتم ضحكة ويفلت ضحكة، عندما يتقنع تاجر الجملة والمفرق بالجذ، ويرمي بهنان بالسؤال مثلاً عن أفضل السبل للاستيراد من البرازيل، أو للتصدير إلى إيران. فإذا شرع بهنان بجواب، قاطعه التاجر الشاب ٣٨ سنة ليسأل عن آخر ما أصدرت وزارة الاقتصاد أو وزارة المالية من تحريم أو تحليل في أعمال البنوك الخاصة. ولم يكن ضحك الشقيقين ليتوقف حتى تصلي أم صباح على النبي وتقول: خير اللهم اجعله خيراً ليش عم تضحكوا ياولاد؟ ضحكونا معكم. عندئذٍ كان الشقيقان يتغامزان، فينتبه بهنان، ويصطنع الحرد، ويلعن المزاح السمجي، ويلتفت إلى أم صباح شاكياً. لكن التاجر الذي آثر أن يتزوج في العشرين على أن يكمل دراسته الجامعية بدأ من عادته في الشتاء الماضي، لأن ابنته الكبرى سما التي تشبهها جدتها بعمها صباح ذكاءً وشغفًا بالدراسة رافقت دمر ابن بهنان في مسابقات الأولمبياد العلمي. وكما عاد طالب

الصف الحادى عشر من طوكيو بشهادة تقدير في الكيمياء، عادت طالبة الصف الحادى عشر من كرواتيا بشهادة تقدير في الفيزياء، فكأنما دفع ذلك بوليد إلى أن يتعامل مع بهنان بجدية أكبر، كما شرح بنفسه لصبح.

* * *

وفي بياته الشتوي أيضاً كان صباح يفرد ليالي بطولها و/أو نهارات بطولها، لمن تكون صديقته، قبل أن يقرر ألا تكون له صديقة في دائرة مركزها اللازقية، ونصف قطرها مائة وثمانون كيلو متراً، أي أن يكون مقام الصديقة ابتداءً من حمص فأبعد، أو ابتداءً من حلب فأبعد. أما خارج الحدود، فلا يأس في أن يكون نصف القطر أقصر أنطاكيه مثلاً وأما البحر فهو مستثنى من القرار الذي أصدره صباح منذ سنوات، حين زاوج للمرة الأولى بين العلاقة الأطول في حياته: عائشة التي كان يهيء للاحتفال معها بعد أيام بعيد جبهما السادس، وبين منار التي كان يخرج معها وحيدين للمرة الأولى: استعار من بهنان سيارته الجديدة هونداي أكسانت بنت سنتها وخطط أن يتناولاً الغداء في أحد المطاعم المطلة على بحيرة بللوران على بعد ثلاثة كيلو متراً من اللازقية ثم يختليان إن وافقت في إحدى شاليهات البسيط. ولمَ هذا كلُّه؟ خوفاً من أن تضبط عين



الأستاذ يغازل الطالبة، في هذه المدينة التي جعله إحساسه بضيقها أحياناً يسميهما جحر فارٍ مرة، ومرة إست عقرب. لكن عيني عائشة هما اللتان ضبطتا صباح ومنار على الكورنيش القديم، قبلة نادي الضباط، إذ أقبلت سيارتها الهوندai أيضاً، والأكسانت أيضاً، ولكن بنت ٢٠٠١، ومن بعيد، بعيد جداً، رأت سيارة بهنان، وعرفتها، ثم رأت صباح وعرفته، وحيثه وهي تتفرس في هذه التي تجلس إلى يمينه. لكن صباح تجاهل التحية، وأورثته المصادفة القلق، فاكتفى بالغداء مع منار ليفقد، قبل أن ينطوي النهار، منار وعائشة معاً.

إثر ذلك طوى صباح سنة فسنة دون أن ينعم الله عليه بصدقة بعيدة، كما كرر الشكوى لبهنان. وعبر القحط الذي أنعم الله به عليه، اكتشف أنه قد صار كبيراً على العادة السرية، أما العاهرة فكان قد تاب عنها أثناء إعداده الماجستير في القاهرة، عقب سرقة إحداهن لكل ما كان يملك ٥٧٥ جنيهًا ٣١٠ دولارات.

* * *

في بداية بياته الشتوي هذه المرة، ساط نفسه بالسؤال أناء الليل وأطراف النهار عما مال به إلى نمنوما، أو عنها، وعما مال بها إليه أو عنه. لكن ما ززع البيات هذه المرة بدد السؤال: تونس.

في الرف الرابع اليميني من المكتبة، كان صباح قد أودع رواية رشيد الجلولي: (الخوف)،وها هو الآن ينقض عليها، ويسرع بها إلى الكتبة، ويتصف بها عجلان، ليذكر بطلها عيسى، الشاعر الذي يحمل الدكتوراه في الأدب المقارن، ويعمل ببيع الجزر والفول والفليفلة والبطاطا على عربة يد. إنه الدكتور عيسى بوعزيزى كما سماه صباح ينادي ملء الصباح والضحى: كيلو الجزر بدرهمين، كيلو البطاطس بدينارين، أسرعوا يا من تريدون الحصول على عشاء للصغار. ومن يقف في الرواية بالمرصاد للبائع الدكتور، فيتحول بنعمته إلى كلب؟ إنه الرئيس سفيان الداودي، أي خارج الرواية الرئيس زين العابدين بن علي أو أي صنو من أصنائه الميامين.

كانت شمس الظهيرة قد أخذت تبعث الدفء حيث تبلغ أطرافها من أطراف الصالون ومن أطراف صباح اللابد في الكتبة. وربما كان ذلك ما جعله يحضر رواية (الخوف) وينحرف ليقابل شاشة التلفزيون، فإذا بشارع الحبيب بورقيبة يتلاطم بالمتظاهرين القادمين من الجنوب التونسي بعد تسعه أيام من فرار الرئيس والرئيسة حرمه، كما رشت المذيعة الكلمات، كأنها في سباق. وما كاد السباق ينتهي حتى شق الشاشة هتاف المتظاهرين: يسقط نظام السابع / يسقط عميل وتابع. وظل الهاتف يتكرر حتى عادت المذيعة،

ولكن إلى زاوية الشاشة اليمنى، وبلا عجلة هذه المرة، معلنة أن المتظاهرين جاؤوا من بلد معمر بوعزيزي ليسقطوا بقایا الديكتاتورية. عندئذٍ أعاد صباح رواية (الخوف) إلى مطربها في الرف اليمني الرابع من المكتبة، بينما كان رنين الهاتف يلاحقه. ولما استجاب له جاءه صوت غريب، كأنه صوت عجوز ثمل. ولما عرف أنه صوت راتب عدلة أطلقت ضحكته الدهشة والاستنكار. لكن راتب بتر الضحكة: الإنفلونزا هدّته منذ الخميس، وقد أصابت العدوى بنان والعاصي، وليس هذا بال مهم. المهم أنني الآن متلماً كنت عندما التقينا أول مرة: هل تذكر؟

غامت نظرات صباح بصور حائلة لجسر الشغور، ولبيت زميل الماجستير في القاهرة راغب عدلة، شقيق راتب الأكبر. وفجأة سطعت صورة الشاب المطلوب والمتخفي: راتب عدلة، والذي سيلجأ إلى صباح في اللاذقية عندما ينكشف أمره في بلدته. وسأل صباح:

تركت العمل إذا؟

أجاب راتب:

والحمد لله. رب ضارة نافعة. ولكن اسمع: هذا خبر مهم لك. قبل أن أترك المحمية سمعت أن إدارتها تراسل جهة أردنية من

أجل الحصول على واحد أو أكثر من الحمار البري السوري. ما
هذا الحمار؟

يمكنك أن تقول هذا الحمار هو صباح خليل، أو هو لا تزعلْ
راتب عدلة.

اطمئن. ما عدت أزعُل من شيء ولا من أحد. سمعتهم يقولون
حمارك مهدد بالانقراض.

ليتك لم تترك العمل إذا، ربما كنت سرقت لي واحداً.
أعدك بذلك إذا نجوت برأسِي هذه المرة.
وأنا سأكافئك مقدماً بمخباً أفضل من مخبأ المرة السابقة.
تعال.

ومن أجل هذا أتصل بك، بصراحة، لكنني سأجرب حظي أولًا
في الشام.

قال راتب، وودع، بينما كان صباح يفكر في نمنوما، ما
إن سمع كلمة الشام.

وفجأة حدّق كارهاً في الموبايل، وهدد بأن يباغت نمنوما
أمام بيته: متى يا عفلق زمانك؟

نمنوما.. كل الأسماء

في حمأة سهرة رأس السنة ماد بلاط الممر الطويل بين المطبخ والصالون تحت قدمي نمنوما.

كانت ليلا، بعيداً، أمام باب المطبخ، تتلوى بين ذراعي سراج. وعلى الرغم من أنها كانت قد حدثت نمنوما عن علاقتها بهذا الشاب الذي اختفى رأسها في حضنه، إلا أن نمنوما رأت ليلا تكبر فجأة لتصير امرأة. ولذلك ربما ما إن أغلقت باب الغرفة حتى أحسست أنها ترجمف مرة، وتوشك على البكاء مرة، وتكتم ضحكتها مرة. وحين اكتشفت أنها تدور حول نفسها وسط الغرفة، أسرعت إلى المرأة، وراح تتفرس في وجهها، وصدرها، وذراعيها، بنظراتها وبأصابعها، ثم استرقت نظرة من بطئها، وفخذيها، وساقيها، ونادت صباح كي يشهد على أن نمنوما زكي التي بلغت من العمر واحدا وأربعين عاماً، تتقد صباً، ثم استحيت، فأدارت ظهرها إلى المرأة، وأصفت إلى صحب ليلا وصديقاتها المشتبك مع صحب غناء، ستخبرها غالباً أنه من الراب الذي يغنيه الجنرال التونسي، ومما يغنيه البنديرمان التونسي أيضاً: بيرم كيراني. لم تصح ليلا في اليوم الأول من السنة الجديدة حتى

العصر الذي لاقاها جهماً وراغداً، بينما كان عزم نمنوما على مفاتحتها بما رأت منها ومن سراج قد تبدد. وزاده تبدها في ذلك اليوم، وكلما خطر على بال من بعد، أن ليليا كانت مستغرقة طوال الوقت في ثورة الياسمين الاسم وحده سحرها لأن الموسم ليس موسم امتحانات يستغرقها عادة.

انتهت ليليا من الموسم أو انتهى منها في منتصف نهار الثلاثاء ٢٥/١١/٢٠١١. وكانت قد تواعدت على الاحتفال بالحدث العظيم مع سراج، ومع عدد من زملائها وزميلاتها من شاركوها انتهاء الموسم، ومنهم ليسوا مبالين به، وعلى رأسهم ألمى وحنيف ونذير.

لكن مصر باغتهم يقول نذير: التلفزيون باغتنا بما نقل الموعد من مطعم بوبياتي في باب توما إلى بيت نمنوما في المزة، فيلات غربية قرب قيادة الجيش الشعبي. ويدلاً من الساعة الثامنة مساءً، أخذوا يتواجدون منذ الرابعة عصراً، بعدما اشتبكت هواتفهم الجوالة مع المفاجأة المصرية الصاعقة، كما قال سراج، وكان أول من حضر. ويدلاً من أن يفاجئ حضوره نمنوما ولم تكن قد رأته منذ سهرة رأس السنة أقبلت عليه كما تقبل على شقيقها الأصغر يامن حين يعود من سهرته المتأخرة، أو حين تعود هي مبكرة من القصر العدلي:

قد تصافح بحرارة، قد تقبل خداً على عجل، وقد تكون تحيتها تحية أم، أو تحية الأخت الكبرى. وكما فوجئ سراج فوجئت ليليا، وتبادلنا نظرة متسائلة، فنظرة متشككة، فنظرة جذلية.

كان التلفزيون قد بدأ يحول من حوله إلى كائناته، كما عبر ليليا، حين تكتشف مساء أنه قد شغلها عن الغداء، فتختفي دقائق في المطبخ، بينما عينا نمنوما تترصدان سراج دون أن تنظر إليه، تتمنيان أن يلحق بليليا، وتحذرانه من أن يفعل، تودان لو تضيّطان ليليا في حضنه، ثم تستحيان.

كان المساء قد بكر وضاعف برونته، لكن هذه الأجساد الشابة لم تبال: ألمى اكتفت بقميص خريفي كحلي ذي كميين طويلين، بينما اكتفت ليليا بقميص خريفي أيضاً، لكنه يكشف ساعديها، ويتوشى بشرطيتين أحمرتين رفيعين وطويلين، يعبران بخفة فوق الحلمتين. أما يامن وحنيف فيرفلان في كنزتين غامرتين من أقصى العنق إلى أقصى الرسغين والبطن، بينما اكتفى سراج بقميص شتوي يزهو بمربيعاته الملونة الكبيرة، وبما يكشف من الصدر، حيث تتلامح لمة من الشعر الأسود العابس والغاضب.

منحرفةً عن الشاشة، وأبعد عنها أقرب إلى أصابع الشوفاج جلست نمنوما: من تجاوزت الأربعين عاماً، أي أنها هي وحدها

من بين هؤلاء ما عادت شابة، لذلك راحت تطوي عشرين
سنة بلا رحمة، لتعود إلى الجامعة، ويتحلّب ريقها وسمعها
 وأنفاسها على صوت يهمس: أنت أحلى بنات الحقوق.

بنات الحقوق بس يا واصل؟

تعقب نمنوما وتحرد حقاً، وليس تمثيلاً.

أنت أحلى بنات جامعة دمشق وجامعة حلب وجامعة
اللاذقية، منيحة؛ أنت أحلى بنت في الدنيا: يصبح واصل،
ويقسم بالله، ويمحمد بن عبدالله، على أنه صادق فيما يقول.
وأنا أصدقه تغمض نمنوما عينيها وتتمتم في سرها الكنني
أمثل الحرد حتى يشبك أصابعه بأصابعِي التي ترتد، وتحترن،
وتبتعد، وتتشوّق، وتتباهي، وتخاف، وترعرق، ثم تستكين: ماما
ليليا: هل تفعلين ذلك مع سراج؟

كان أبوكِ ما شاء الله بطول الحورة، طويل طويل ونحيل
نحيل، وعلى العكس مني كان: أنا بيضاء بيضاء، شقراء
شقراء، وهو: كل ما فيه أسمر. أنت لم تعرفيه إلا بعدما ضيّع
لونه. هل رأيت شعراً أسمر؟ هذا ما كان لون شعرك يا واصل،
لون بشرة وجهك الخشنة، أذنيك، عنقك، ظاهر كفيك وباطنهما.
وعندما رأيت صدره عارياً أول مرة، هالنّي بسمرته يا ليليا.
هل تصدقين أن يكون لون فخذدين أو ساقين أو ذراعين هو

الأسماء؟ عيب يا ليليا. لا تسألي عن لون ما تبقى منه. واصل
ما عاد زوجي، لكنه أبوك.

ومن مساء أبكر من هذا المساء إلى مساء أكبر برودة
وازدحاماً، سوف تقيم نمنوما في المطرح نفسه، تتناهباها
أصوات ليليا وسراح ونذير ويامن وألمى وحنيف، وأم كوز
مميز أيضاً، وأم كوز أنطوان، كما تتناهباها أصوات الشاشة،
إلى أن ينتصف الليل على الأقل ويحل الصمت النقي، فتتدثر
بالظلام النقي، وتفسح لصبح الذي سيحضر وهي بعد ساهرة
كي تحكي له حكايات هذه الأيام: الأربعاء ٢٠١١/١/٢٦
مثلاً، بعد جمعة الغضب ٢٠١١/١/٢٨، الخميس ٢٠١١/٢/٣
قبل الثلاثاء ٢٠١١/١/٢٥ أو بعد الجمعة ٢٠١١/٢/١٠ ما
اسم هذه الجمعة يا صباح؟

نمنوما، كل الأسماء نمنوما: كرجمت همسة صباح إلى
عنقها، فحتت إليه، وحنت عليه، وفكت في أنه قد آن الأوان
كي تتصل به.

لماذا يا سراج؟

سراج من جديد قل لي: من تكون؟ ولا تظن أنتي لن أسألك
بعد ذلك عنمن تكون.

صوتكِ أغاظ هذه المرة: أنا سراج بن محمود جليلا. اسألني
عن أبي وجدي في دوما كلها. اسألني في حرستا كلها عن أمي
فاطمة بنت الحاج عبد العظيم نصرت.

سألت، أو لم أسأل، ما كان ذلك مهمًا في أيامنا، فكيف
الآن؟ أنا أسألك عنمن تكون، وليس عن حسبك ونسبك.

صوتكِ أرق هذه المرة: أنا مهندس اتصالات، تخرجت
بمعدل ٩١٪، أعمل في مؤسسة الاتصالات. تفوقى جعل
سمعي تسبقني إلى المؤسسة، فركضت خلفي. إن شاء الله
سننافر أنا وليليا بعد تخرجهما إلى طوكيو ل التابع دراساتنا
العليا. لن نذهب إلى أوروبا ولا إلى أمريكا. هكذا كنت أحلم
وأنا طالب في الثانوي. الحمد لله: ما حكىت لليليا نصف الحلم
حتى «برععت»: رجلي على رجلك. أمي وأبي لن يرضيهما أن
أبعد عنهما، بعدهما صرت وحيداً. كنا ثلاثة شباب، والآن ما
بقي لهما غيري. بعد موت أخي شرف الدين وأخي مصطفى
صرت وحيداً ونجوت من الخدمة الإلزامية. أمي تريدينني أن

أتزوج بكرة قبل بعد بكرة، وأبكي يريديني أن أتزوج هذه الليلة،
ويبدع الله أن يرزقني بتوأمين في الشهر التاسع من زواجي،
حتى يسمى حفيداً شرف الدين وحفيداً مصطفى. صرت على كل
لسان حولي في دوماً: أبو شرف، وأنا لا أريد أن أكون أبو شرف
ولا أبو مصطفى، ليس لأنني كنت دائماً على خلاف معهما،
بل لأنهما لم يموتا ميتة ريهما، بل قُتلا قتلاً يا أم ليлиيا. هل
تفضلين أن أنا ديك نمنوماً أم ليلياً أم حماتي؟

قالت نمنوماً:

نادني بالاسم الذي يحلو لك، ولكن ما حكاية القتل هذه
في عائلتكم؟

قال سراج:

أخي شرف الدين رحمة الله هو أكبرنا أراد منذ صغره
أن يصير شيخاً. ربما كان في العاشرة عندما صار لا يفارق
الجامع بعد أن يعود من المدرسة. أما في العطلة المدرسية
فمتي ما سألت عن شرف الدين فهو في الجامع. كان يحدثني
بعدما كبرنا أن وقوف الإمام في المحراب كان يسحره. إطلالة
الإمام من المنبر على المصليين كانت تسحره. بالطبع لم
يتحقق ذقنه، ودراسته الثانوية كانت في الثانوية الشرعية. أما
دراسته الجامعية فكانت في كلية الشريعة. وقبل أن يتخرج

صار يوم المصلين أحياناً في هذا الجامع أو ذاك. ما كان يغيب المرض أو الحج إماماً حتى ينادي الشيخ شرف. كان رحمة الله مضرب مثل في التقى والدماة، وكانت أمي تدعوا الله دائماً إلى أن يهدي مصطفى ويهديني لنصير مثل الشيخ شرف.

سبحان الله يا نمنوما! أنا نشأت على النقيض من شيخ العائلة: هكذا لقبته أمي.

أما مصطفى فنشأ موزعاً بين أخيه الأكبر وأخيه الأصغر. أحياناً يتمشى وأحياناً يتشرىط. كان مثلاً يصوم رمضان ولا يفوت التراويف، ولكن ما إن يهل هلال العيد حتى يختفي كل مساء، ولا يعود قبل منتصف الليل، فيستقبله غضب أبي وأمي. وقال سراج:

بيتك هنا: في المزة، أينما كان في المزة فأنت تعرفين الأتوستراد جيداً، وأنت إذا تعرفين السفاره الإيرانية، تعرفين مبني الأمم المتحدة، تعرفين بيت من كان نائب رئيس الجمهورية وكان وكان: رفعت الأسد. أنت إذا تذكرين جيداً ذلك المساء الذي قُتل فيه أخي شرف رحمة الله.

متى؟

عندما اجتازت سيارة، نمرتها سعودية، الفيللات والمقر

الجديد لوزارة العدل، واستدارت عند التقاطع مثل لعبة ابن أخي شرف، فانتبه الشرطي المنحوس ابن المنحوس، وحاول أن يعترض السيارة، فأصابته رصاصة في صدره وقالت له: وَدَغْ.

لم أصدق ولن أصدق أن أخي شرف هو من قتل الشرطي.
لا يمكن للشيخ شرف الدين بن محمود جليلاً أن يكون واحداً من هؤلاء الذين حولوا أوتوستراد المزة إلى ساحة معركة. لم أصدق ولن أصدق أن أخي من رمى هذه المرأة المنحوسة بنت المنحوسة، ما دام قد حلا لها أن تتوسط ساحة المعركة في واحدة من تلك الدقائق التي قيل إنها بلغت سبع عشرة دقيقة، مدة الهجوم الذي حرق مبني الأمم المتحدة، وقطع الماء والكهرباء في المنطقة.

متى؟

ما زلت تسألين! حسناً: ماذا كان يوم ٢٧ نيسان سنة ٤٢٠٠؟ أنت نسيت وأنا نسيت. الساعة الثامنة وثلاث وعشرين دقيقة مساءً. حسناً، إذا كنت أنت قد نسيت فأنا لم أنس ولن أنسى الرسالة الجهادية التي أعلنت أن الهجوم هو انتقام لمجزرة حماة قبل اثنين وعشرين سنة. قيل: الرسالة بخط اليد، فلو رأيتها إذاً لعرفت ما إذا كان أخي هو من كتبها، كما

تردد في دوما مساء اليوم الأول لمحاكمة المهاجمين الذين اعتقلوا في نهاية الهجوم، بعدما قُتل أخي وواحد من إخوته المجاهدين.

أنا حضرت المحاكمة يا سراج.

ونحن أهل القتيل المتهم الشهيد البريء، لم يُسمح لأحد منا بالحضور.

لولا وساطة أستاذتي القاضية سلوى كاف ما كان لي أن أحضر، ولا تسألني عما دفعني، لأنني لا أعرف. ربما كنت أريد أن أرى من روّعوا الشام كلها وليس المزة وحدها. والمهم أنني رأيت قائد الهجوم الذي كان قد ترشح قبل سنة لانتخابات مجلس الشعب عن القنيطرة. كان مرهقاً كأنه مريض أو مصاب، ورغم ذلك ما زال صوته يدوّي في أذني: نفذنا الهجوم انتقاماً من إسرائيل وأمريكا وكل الدول الكافرة التي تحارب الإسلام وتتجور على المسلمين. وعندما سأله النائب العام عما إذا كان قد أحرق بنفسه مكتب مجلس المدينة، أقرّ. لكن أنكر أن يكون قد حرق كي تحرق السجلات التي تثبت أنه تلاعب بمال البلدية. لماذا إذا؟ لم يسأله النائب العام فكّدت أنا أسأله. ولكن ريك سترها معى. لم يذكر حماة. لم يذكر إلا القنيطرة.

أما أنا فكنت مدمرة مثل أبي وأمي وأخي مصطفى وأختي

كوكب الصباح، ليس فقط لأننا فقدنا شرف الدين، بل لأن رجال المخابرات ما عادوا يفارقوننا ليل نهار. ما بقي لهم شغل في دوما غيرنا. لا تكاد تغادرنا دورية من أمن الدولة حتى تشرفنا دورية من الأمن العسكري، ولا تكاد تغادرنا دورية من الأمن السياسي حتى تشرفنا دورية من المخابرات الجوية. حتى رجال الأمن الجنائي شرفونا أكثر من خمس مرات. ويعدما اختفى أخي مصطفى شرشونا، بينما كنا نستعد لأربعينية شرف الدين. وبعد فترة ما عادت الدوريات تكتفي بزيارتنا في البيت. صاروا يجرجروننا من فرع إلى فرع. حتى أمي لم يوفروها. أخي لم يوفروها. ولم يفارقونا حتى قُتل مصطفى.

متى؟

عندما شاهدت ساحة الأمويين ذلك السباق الأقصري والأعنف في تاريخ السباقات: سيارة لفرع من الفروع الأمنية تطارد سيارة مدرجة بالمسلحين في بداية الأتوستراد، خلف مبني التلفزيون، وظل الرصاص يطقطق حتى قُتل أخي مصطفى وثلاثة من أخوته المجاهدين.

ما بقي إلا الأستاذ سراج. إياك أن تكون مجاهداً أنت الآخر. لابد أنك تعرفين هذا الذي قاله جميل بثينة: يقولون جاهد

يا سراج بغزوة وأيَّ جهادٍ غيرهنَّ أريد؟ لا تصدقني يا حماتي.
أنا أمزح. أنا لا أريد من النساء إلا ليليا. أما طريقي في الدنيا
فلم تكن طريق شرف الدين ولا طريق مصطفى منذ الصغر.
دائماً كانت طريقي وطريق كوكب الصباح مختلفة.

ما حكاية كوكب الصباح؟

أبي لا يناديها إلا كوكب الصباح، وهذا هو اسمها في
السجلات الرسمية. لا تغري بحجابها. أختي وأنا أدرى بها.
مثلها مثل ليليا، وبفضلها تعرفت على ليليا. ألم تحدثك عن
البنت الدومانية التي صادفتها منذ سنتين في بيت محمد
وأحمد ملص، حيث شاهدتا مسرحية الأخوين: ميلودrama؟
كوكب الصباح درست الصيدلة، لكنها فضلت أن تعمل في
مخبر تاماها، تعرفيه؟ في الطلياني. فضلت أن تبعد عن البيت
وعن دوماً ما استطاعت، لأنها لا تزال في الجامعة. قلت لك
أختي وأنا أدرى بها. هي لا تكتم عنِّي سراً، وكلامها عن ليليا
جعلني أتطلُّ عليهم عندما زارتني أول مرة. ولما سمعتهما
تتواعدان على حضور مسرحية جديدة في بيت الأخوين ملص،
حضرت نفسي بينهما. كوكب الصباح ليست ذكية فقط. هي
خبيرة أيضاً. أدركت غرضي وأشفقت علىي كما قالت أمام ليليا
فخجلت. لاقينا ليليا في العدوِي عند باب العمارة التي تتوجها

غرفة الأخوين، أي المسرح. (حالي لحالي) كان العرض، وأنا
لم أتابعه جيداً. كنت مشغولاً بليليا. كنا عشرين متفرجاً،
وكانت ليلة سعدي. أسأليني: لماذا؟

راتب متخفياً

أخذت حيرة نمنوما تكبر: لماذا لم يتصل صباح حتى الآن؟ ولكن لماذا لا تتصلين أنت؟ ولليليا، لماذا تبدو يوماً فيوماً وأكثر فأكثر تكتم سراً؟ تراه يتعلق بسراج؟ لا، على الأقل، لا يتعلق به وحده، بل ربما بملازمتها للأبتو卜 والتلفزيون والهواتف المحمولة وحنيف وألمى ونذير، حتى ما عاد يعرف لها ميعاد للخروج من البيت أو للعودة إليه، ولا لنوم أو لقيام، وبخاصة بعدما رفع الحجب عن الفيسبوك والتويتر: ما الذي تخبيئنه عن أمك يا حبيبتي؟

كانت نمنوما تنشد ما يخفف عنها وطأة السؤال عندما سمعت نقرات خافتة وحيثية على باب مكتبها في القصر العدلي. وانتظرت حتى فتح الباب بتردد وببطء، وعندما ملأه شاب يعتمر قبعة شتوية رمادية، وتحفي عينيه نظارة قاتمة وكبيرة، حدقت نمنوما فيه باستغراب، فأسرع يهمس وهو يغلق الباب: أنا راتب، راتب عدلة، فوقفت، واشتبك ترحيبها بالسؤال عن الحاجب.

غافلته: قال راتب مبتسماً، فاشتبك ترحيبها بالسؤال: كيف اهتديت إلى مكتبي؟ مكتب القاضية نمنوما ذكي، لا

يحتاج إلى سؤال، خصوصاً لمثلي، فاشتبك ترحيبها بإشارة
أصابعها إلى رأسه وبالسؤال:
ما هذا كله؟ أين ذقتك؟

قال وهو يتلقف إيماءتها إلى الكرسي:
بسلامتك.

قالت محذرة:

إياك أن تكون رجعت إلى التخفي.
للأسف.

فالتصق ظهرها بظهر الكرسي، ويدت تفكّر بصعوبة.
وفجأة ابتسمت وهمست بإعجاب:

المطلوب المتخفي يحضر بنفسه إلى مكتب القاضية!
لا تؤاخذيني. ما أردت إزعاجك أبداً. على العكس. يمكن أن
أخرج فوراً.

قال وهو يقف مرتباً، فوقفت بتأنٍ وقالت:
أفضل.

و قبل أن يفتح الباب تابعت: لماذا لا نخرج ونتغدى معاً؟
أنا أدعوك. أنا مشتاقة للعاصي، مشتاقة لـلبنان ولك. أظن من
الأفضل أن تسبقني. ما المطعم المناسب لغداء من هو مثلك؟
ويقدر من الحذر، ويمثله من التوتّر، مضت إلى المطعم

المتخفي مثل راتب في نهاية الزقاق اليساري الأول المتفرع من باب شرقي.

* * *

أول باب شرقي، آخره، أينما كان، فهذا هو: بلاطة بلاطة، باباً باباً، لسعة هواء باردة فلسعة، لكن الزقاق يضيق كلما تقدمت به نمنوما خطوة، فهل يكون المتخفي قد افتضح؟ هل يمكن أن تكون القاضية التي دعته إلى الغداء قد افتضحت؟ نشادانا للأمان أخذت نظراتها تتارجح بين بلاط الزقاق وما يكاد يتلاطم فوقه من المشربيات، وبدأت تعد: بلاطة، مربع خشبي في الأعلى، بلاطة، مربع خشبي أدنى إلى رأس القاضية لو أن طولها ثلاثة أمتار، بلاطة، مستطيل خشبي طولاني يعانق المربعين كما يعانق المستطيل المجاور الذي يعانق مربعاً يعلوه ومربعاً تحته، ومستطيلاً يجاوره ويعانق المربعين، وهذه سلسلة من أسطوانات الخشب الزاهية، وهذه بلاطة، وهذه سلسلة من نمائم الخشب المزخرفة التي تستبطن بمكر قطع الزجاج الصغيرة الزرقاء والصفراء والخضراء والحرماء، ونمنوما تخشى أن تكون قد تاهت، فما ترى يرجح أنها الآن في القيمية، بل في ساروجا، بل في باب توما، ولكن هذا هو الزقاق اليساري الأول المتفرع من ركن من أركان باب

شرقي، وهذا هو المطعم، وهذا هو راتب عدلة.
لم تستو جلسة نمنوما قبالة راتب حتى أخذت تهز رأسها،
كأنها تطرد وسواساً، وتلخصت يميناً ويساراً، ثم أقبلت على
راتب بنظرات متشكّكة وخائفة. لكن نظراته المطمئنة جعلتها
تهأ، وأخذت تستعيد ما حفظت من ملامحه، بلا نظارة ولا
ذقن، وكان النادل يقترب، فدنا راتب يسأل:
ماذا سنشرب؟

رفعت نمنوما حاجبيها مستنكرة، ثم همست:
ماء. اطلب أي عصير لك.
وتركت لراتب والنادل أن يختارا الغداء. ولما غادرهما
النادل دنا راتب يسأل:

لماذا لم نطلب على الأقل كأس بيرة؟
فكلمت ضحكة وقالت:

حتى هذا الغداء مع شاب مثلك يُسجل على مثلي، لو
ضيّطتنى عين عارفة، فكيف لو تزيّنت الطاولة بكأس نبيذ
مثلاً مع مطلوب؟

أطرق راتب كأنه يعتذر أو يستسلم، وأطرقت نمنوما وهي
تتذكر أنها لم تشرب قطرة نبيذ ولا سواه منذ سهرت مع صباح
راتب وبنان. وداهمها شوق مجبول بالحزن، ففرت إلى راتب،

وحدقت فيه متمنیةً لو أنها تستطيع أن تلجه في البيت، ولكن
ماذا عن ليليا؟ مازا عن يامن بخاصة، وهو الذي لا يخفى
معارضته لكل من يعارض أو تعارض الدولة وقد يحدد بدلاً
من الدولة: السلطة أو الحزب أو القائد ولا يفرق بين نمنوما أو
ليلياً أو أي من عرف من أصدقائهم أو صديقاتهما. وعادت
إليها البسمة فجأة، فتلتفها راتب، وأطلق زفراً حرّى بينما
كانت تسأله:

ما الذي رماك هذه الرمية؟ هات من الأول.

قال:

أسألي تونس، هي السبب. أسألي زين العابدين بن علي
نفسه، هو السبب أيضاً. تونس جعلتني أحوص، وفي حماة لا
أستطيع أن أحوص. الملعب صغير، ورغم صغره أنا لا أعرفه
جيداً. ملعي هو حلب، هو الشام. أنت تعلمين: عملي في
المحمية يترك لي من الأسبوع أربعة أيام. بدأت أتردد على
حلب بعد سقوط الرئيس التونسي مباشرة. التقيت بكثيرين
وكثيرات، رفاق تخفيت في تلك الأيام السوداء مع بعضهم أو
عند بعضهن، منهم من سجنت معه ومنهم من تاب ومنهم من
لا يزال ولا تزال كما كان وكانت. منهم من جمعني بأصدقاء
وصديقات جدد، والسؤال الذي كان الجميع يسألونه: هل يمكن

لما جرى في تونس أن يجري هنا أيضاً؟
خلال أيام أخذ السؤال يفرقنا ويجمعنا: هذا يائس، وهذه
خائفة، وهذا متعدد، وهذه واثقة مئة بالمئة، وهذا يدعوه إلى
التريث، أما أنا فواثق مئة ومئة فوقها بالمئة، خصوصاً بعدما
قامت قيامة أم الدنيا، مصر يا أستاذة نمنوما.

فوجئت نمنوما باسمها ولقبها، وأحسست بالغرابة عنهم،
ولما همت باستنكارهما كان النادل يقترب بحمولته،
فانتظرت حتى غادر، وإذا براتب يسألها عن صباح، فسرت
فيها القشعريرة، وهربت نظراتها إلى حرجها، واجتاحها شوق
عارم إلى صباح، فتنهدت وهمست وهي تعود إلى راتب:
صباح بخير. أكمل.

قال:

قبل أن ينقضي النهار الأول على ميدان التحرير، كنا
اتفقنا على أن ندعوه إلى الاعتصام السلمي في ساحة السبع
بحرات، في طلب، يوم الجمعة الفائت. ثم فضلنا أن نبدأ من
هذا، من العاصمة، فاتفقنا على أن ندعوه إلى الاعتصام في
ساحة المرجة يوم السبت الفائت. لكن أحدهنا، أكبّرنا سنّا، أخذ
الأمر على عاتقه، ودعا إلى الاعتصام أمام مجلس الشعب. هل
سمعت بالدعوة؟

قالت نمنوما:

سمعت ليليا، بنتي، تتحدث عنها بالموبايل. ولما سألتها

قالت: لا شيء.

قال راتب:

للأسف: لا شيء. لم يلب الدعوة أحد، والعاقل منا لا يقولون الأكبر سنًا هو العاقل؟ اعتقل فجر السبت الفائت من منزله، وكان قد اعتقل اثنين عشرة سنة بسبب نشاطه النقابي قبل ثلاثين سنة. وعلى الرغم من أنهم لم يطلبوا غيره حتى الآن، فقد فضلت أن أتخفي ولو لفترة.

وبناءً؟

سألت بينما كانت كفه تمسح على ذقنه، كأنها تذكر بملابسها الطارئة، وقال:

بنان قلقة وغاضبة مني. تتهمني بأنني اغتنمت الفرصة حتى أترك العمل في المحامية. وتتهمني ومن معى بالتسريع. سورية غير مصر وغير تونس: تقول. أرجو أن لا يكون رأيها صحيحاً. وأنت ما رأيك؟ ما رأي صباح؟

في قانون السلطة القضائية مادة تحظر عليّ وعلى أمثالى أن نعمل في السياسة، أو أن نبدى آراءنا وميولنا السياسية. منظرك يجعلني أتحسر على تلك المادة. على الأقل كانت

ستجّب واحدنا بلواك، لكن نظامنا علّق هذه المادة من قبل أن
أُخلق، كما علّق كل ما لا ينسجم معه. وعلى كل حال أنا أوافق
بنان. أما صباح فلا أعرف عنه شيئاً.

قالت بجسم وقوس، ولما ترجم صوتها في أذنيها، أنكرته،
وانتظرت حتى رأت ما تمنّت أن ترى من دهشة راتب، ثم تابعت
كأنما تبتسم ألمًا وسخرية:

بعدما ودعناكم أنا وصباح، افترقنا في حمص، ولم أسمع
صوته بعدها، ولم يسمع صوتي.

ونكّست رأسها خجلة ومنكرة أن ما تسمع هو صوتها الذي
يسحج ويقطع، كأنها تقاوم البكاء. وامتدت كف راتب لتمسح
على كفها التي لبّدت هنيهة، ثم انسحبت، ثم تقدّمت إلى كأس
الماء مستنجدة.

ميدان الأمويين الدمشقي:

من مشروع ليليا في السُّورنة، وهو ما ارتكبته على
الفيسبوك والتويتر والورق والكمبيوتر، وشفافية

يَلَّهُ يَا شَبَابَ،
يَلَّهُ يَا صَبَابَا،
إِلَى سَاحَةِ الْأَمْوَيْنِ:

تَدَافَعَتِ الْأَصْوَاتِ يَحْثُ بَعْضُهَا بَعْضًاً، بَعْدَمَا طَالَ التَّرْدِيدُ
فِي اخْتِيَارِ مَكَانِ الاعتصامِ بَيْنَ سَاحَةِ الْمَرْجَةِ وسَاحَةِ السَّبْعِ
بَحْرَاتِ. وَظَلَّ التَّدَافُعُ مُحْتَدِمًا حَتَّى تَجاَوَزَتِ السَّاعَةَ نَصْفَ
اللَّيلِ، وَأَصَابَ الرَّهْقِ الْإِنْتِرْنَتِ وَالْمُوبَايِلِ، وَعَادَتِ لَيلِيَا إِلَى
الْبَيْتِ، لَتَجِدْ نَمْنُومًا وَيَامِنَ مَرَابطِينَ أَمَامَ التَّلْفِيَزِيُونَ بِانتِظَارِهَا.
صَبَابَا يَتَقَاطِرُونَ وَيَتَقَاطِرُنَ فَرَادِيَ وَأَزْوَاجًا وَمَجَمُوعَاتٍ
صَغِيرَة، لَيْسَ فِي أَكْبَرِهَا أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَة. يَتَظَاهِرُونَ وَيَتَظَاهِرُونَ
بِالْتَّبَكِيرِ إِلَى مَكْتَبَةِ الْأَسْدِ وَإِلَى دَارِ الْأَوْبِرَا، أَوْ إِلَى مَوَاعِيدِ
الْعُشُقِ الصَّبَاحِيَّةِ، أَوْ إِلَى التَّسْكُعِ فِيمَا يَصْبِبُ مِنَ الشَّوَارِعِ فِي
السَّاحَةِ مِنْ جَهَةِ الْجَمَارِكِ، وَمِنْ جَهَةِ الشِّيرَاتُونِ، وَمِنْ جَهَةِ
الرِّيَوَةِ، وَمِنْ جَانِبِيِ الْأَرْكَانِ، وَمِنْ جَانِبِيِ مَكْتَبَةِ الْأَسْدِ، حَتَّى

إذا صاروا مئة أو مائتين، يسرعون في التوحد في الساحة،
حول السيف الدمشقي، ويداؤن بالهتاف. وبالطبع لن ينتظروا
طويلاً رجال الأمن الذين سيكونون قد توافدوا إلى الساحة،
وربما سبقوا إليها، واشتبهوا في البراءة الشبابية، وأخبروا
رؤسائهم الذين أخبروا رؤسائهم حتى بلغ الخبر أعلى عليين،
ربما قبل أن يتناول أحد منهم الإفطار أو قبل أن ينهي أحد
رياضة الصباح.

* * *

حين تبدأ الهتافات تتعالى وتنتظم وتخلع حياءها أو
ترددتها أو خوفها، ستبدأ أفواج رجال الأمن، التي ستتعزز
بأفواج مكافحة الشغب وحفظ النظام والمهام الخاصة،
تصب في الساحة. ولن تطول فرجتها على أفواج الشباب التي
لا تصدق أن هذا الصوت الهدير هو صوتها هديرها، وهذه
القبضات التي تضرب كبد السماء هي قبضاتها. وجراء ذلك
كله سيبدأ العراق بالأيدي وبالهراوات وبالتروس وبالعصي
الكهربائية. وسيكون العراق منذ الصفعة الأولى أو الصعقة
الأولى أو الآلة الأولى حامياً جداً، ثم سيصير بسرعة مضاعفة
وحشياً، فوحشياً جداً لأن هذه الساحة هي ساحة الأمويين،
قلب العاصمة النابض التي هي قلب العروبة النابض، وليس

ميدان التحرير في القاهرة.

لكن ليлиا وسراج يصيحان، شأن كثيرين وكثيرات أن المعجزة السورية يمكن أن تتحقق بعدهما احتشدآلاف الشباب والشباب، على صفحة (كلنا سورية) حتى بلغوا يوم الثلاثاء خمسة عشر ألف مستخدم. كما احتشدتآلاف أكبر في صفحة (الثورة السورية) حتى بلغت يوم الثلاثاء نفسه ثلاثين ألفاً. وبالطبع ترتمي على الأرض أجساد كثيرة، وتتكسر أيد وأرجل، وتتهشم أنوف وأسنان، وتتورم حدود وعيون، ويفقد كثيرون وكثيرات الوعي، وكل ذلك قبل أن تغيب الشمس التي لم تحجبها غيمة واحدة طوال النهار القصير، لأنها لبشت تتفرج غير مصدقة، وبخاصة عندما تلبد الفضاء بالغازات، وأغمي على كثيرين وكثيرات. ولو لا أن أفواجاً جديدة صبت في الساحة، وكانت قد خلت، بعدما تراقصت القنابل المسيلة للدموع فوق الرؤوس وبين الأقدام، بعد الظهر. وعلى الرغم من أن الحاجز الأمنية والشرطية قد قطعت الأنهر والجداول التي تصب في الساحة جميراً، إلا أن الأفواج ظلت تصب حتى غابت الشمس أخيراً، فتحولت أرض الساحة التي توسطها السيف الدمشقي إلى فراش وثير، بينما أذاع التلفزيون الأرضي والفضائي وسائل الإذاعات بيان وزارة الداخلية الذي بدأ بأن

أعمال شغب وتجمهر مخالفة للقانون قد أحدثت شللًا مروريًا في بعض أنحاء الفيحاء لم يقل دمشق أو العاصمة مما أوقع اللبس بأية مدينة حملت لقب الفيحاء: طرابلس اللبنانية مثلاً كما اختلفت منشآت، وجرت تعديات على رجال الأمن والشرطة الذين التزموا ضبط النفس إلى أقصى حد. ولما كان لابد من فض التجمهر فقد تم استخدام الغاز المسيل للدموع إزاء إصرار المتجمهرين على الاستمرار في التحرك، وعدم الاستجابة للنصح والتحذير بالالتزام السبل القانونية. وقد تأكّد لدى الجهات المختصة أن إعداد المتجمهرين قد تم مسبقًا لتصعيد التحرك واستدعاء مجموعات أخرى على نحو يتجاوز مظاهر الاحتجاج إلى التمادي في أعمال الشغب، مما يجرد التحرك من الادعاء بأنه تحرك سلمي. وكانت الحصيلة حتى ساعة إعداد هذا البيان إصابة ثمانية عشر ضابطًا، أحدهم في حالة فقدان وعي، وكذلك إصابة خمسة وثمانين شرطيًا، توفي أحدهم. وقد وجهت النيابة العامة إلى المقبوض عليهم بالجرائم المشهود تهم القتل والشروع في القتل مع سبق الإصرار، وكذلك تهم التجمهر والتظاهر ومقاومة السلطات وإتلاف عدد من المنشآت العامة والخاصة.

اعترض سراج على ما هو نقل حرفي من بيان وزارة

الداخلية المصرية، وذكر ليлиا بالفرق بين النقل الحرفي أو شبه الحرفي عما جرى ويجري في مصر، بل وفي تونس، وبين الصياغة السورية لكل ذلك، وهو ما سُمّته بالسّورّنة، لكن نذير سمّاه ساخراً مرة بالإسقاط الفج، ومرة بالتقليد الأعرج، فلم تأبه ليлиا، بالاعتراض ولا بالسخرية، وتابعت مشروعها الذي أخذ يزداد غواية لها.

* * *

هكذا قفزت إلى يوم آخر، ورشقت سماءه بغيوم بيضاء غير ملبدة ولا ماطرة، ورفعت درجة الحرارة ثلاثة درجات عن معدلها السنوي في مثل هذه الأيام من عز الشتاء، كي تخفف وطأة البرد عن الشباب والصبايا ومن التحق بهم من هم أكبر سنًا، من مثقفين ومثقفات، ومعتقلين سابقين ومعتقلات، وفنانين وفنانات. ونصبت في مفرق الريوة شاشة عملاقة لقناة الجزيرة، وأخرى لقناة العربية، وثالثة لقناة المصرية، ورابعة لقناة الـ C.N.N، وأسندت ليлиا إلى سراج أن ينصب شاشات عملاقة أو أقل لقنوات كثيرة أخرى سوف تتتسابق على نقل الحدث السوري الجلل. لكنّ شباباً يصعب تمييزهم عن شباب المظاهره والاعتصام، وربما كانوا من اتحاد الطلبة أو اتحاد الشبيبة، أخذوا يضربون بالهراوات والأيدي طاقم قناة

الجزيرة، ثم أبطلوا بثها، فأمرت ليليا قنوات المنار والجديد
والمستقبل والأقصى والـ N.B.B بأن تعطي هواءها للجزيرة،
فنفذت القنوات الأمر بحماسة، وتواصل النقل الحي من ساحة
الأمويين التي صار اسمها ميدان الأمويين، ابتداءً من هذه
اللحظة، كما اقترح سراج. وقد كافأت ليليا سراج على هذا
الاقتراح بأن نادت به قائداً لشبان ميدان الأمويين، وكانت
النيران قد استعرت في مقر القيادة القومية للحزب القائد
اقتداءً بالنيران التي لم تبق ولم تذر من مقر الحزب القائد في
مصر على كورنيش النيل المؤدي إلى جاردن سيتي.
وسرعان ما هدرت مكبرات الصوت في أنحاء ميدان
الأمويين:

سيد درويش يصدق: قوم يا سوري سوريا دايماً بتنديك.
وبعد سيد درويش صدحت شادية: يا حبيبتي يا سوريا.
ثم صدح محمد قنديل وقد عاد شاباً، مثلما كان بعد ثورة
١٩٥٢ بشهور، عندما صدح: ع الدوار ع الدوار راديو
بلدنا فيه أخبار.

ثم صدح عبد الحليم حافظ: أحلف بسمها ويتراها أحلف
بدروبها وأبوابها أحلف بالمادنة وبالمدفع بولادي بأيامي
الجایة ما تغيب الشمس العربية طول ما أنا عايش فوق الدنيا.

ثم صدح محمد عبد الوهاب: أخي جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدى.
وهنا صدح صوت أم كلثوم: أنا الشعب أنا الشعب لا أعرف
المستحيلا.

فصدح الشيخ إمام:
سوريا يمّة يا بهية
يا أم طرحة وجلاحية
الزمان شاب وأنت شابة
هورايج وانت جاية.

وهنا صدحت صباح وكثيرون وكثيرات: وطني حبيبي
الوطن الأكبر، فاعتراض راتب عدلة الذي كان قد خرج من
عتمة التخفي إلى ضياء ميدان الأميين، إذ افتقد صوت أي
مطرب سوري أو مطربة سورية، فصدح الميدان كله:
بكتُب اسمك يا بلادي ع الشمس الما بتغيب
لا مالي ولا ولادي على حبك مالي حبيب.

* * *

كانت نمنوما قد اغتنمت فرصة سفر يامن إلى حمص،
وأوْت راتب ليلتين، وقدمته إلى ليлиها، التي سألت نمنوما عندئذٍ
لسبِّ ما عن صباح، فأربكها السؤال، لكنها بلعت ريقها سريعاً

وأجابت: راتب صديق صباح، ويبدو أن جوابها زادها إرباكاً،
ولم يخف كل ذلك على راتب.

أمام سراج تباهت ليلاً بشجاعة أمها، فحضر من مغامرة
القاضية، وانتظر حتى جمعه الميدان براتب قرب المنصة التي
نصبَت أمام باب مديرية الإذاعة والتلفزيون، حيث استمعا إلى
البيان الرابع للجيش المصري: حرية التعبير بالطرق السلمية
مكفولة للجميع، والقوات المسلحة على وعي ودرأة بالمطالب
المشروعة للمواطنين الشرفاء، ولن تلجأ إلى استخدام القوة
ضد هذا الشعب العظيم، وهي الدرع الواقي له.

هنا اعترض راتب: كأن الجيش يمن علينا بحرية التعبير
ويبدرايته ويرفضه استخدام القوة، وانظر يا سراج: الجيش
يحدد ما إذا كنت أنت مواطناً شريفاً، وما إذا كانت مطالبك
مشروعه! فاعترض سراج أيضاً، ولكن على ما هو نقل حرفياً
من بيان الجيش المصري، وحمل ليلاً المسئولية، فنبتت
ليلاً مثل الجنية باسم الله الرحمن الرحيم وأشارت إلى اللواء
الفنجري الذي كان يملأ الشاشات جميعاً ويلفظ بجلال الكلمة
الشهداء، ثم يؤدي التحية العسكرية. وكانت ليلاً آثئذ في غمرة
انشغالها ببدء ما سمته الكرنفال السوري في ميدان الأميين،
أسوة بالكرنفال المصري في ميدان التحرير. ومن أجل ذلك

صدقت أن العاصي ابن راتب عدلة وبنان عرجون صار في
السابعة: يا أهلاً يا عاصي، أنا العاصي وليس عاصي: صاح
الطفل بليليا، بينما كان طفل أصغر محمولاً على كتفي شاب،
ربما كان أباً، وربما كان أخاه، يحمل لافتتين صغيرتين،
واحدة بيمناه، وبها كان يهتف: أنا كنت بخاف وبقيت سوري،
واحدة بيسراه، تنتظر من يكتب عليها. وكان العاصي قد
وقف بين ليلاً وسراج يهتف: الشعب والجيش إيد واحدة.
لكن اختراق طائرتي ميع ٢٣ سماء الميدان، على ارتفاع
منخفض، أجهل العاصي، فانكم هتافه، وعاد إلى شهره
الثالث، لتحمله واحدة من أمهات الميدان إلى زاوية مكتبة
الأسد المقابلة لرئاسة الأركان، حيث تحلق عدد من الأمهات
والأطفال حول الغاز الذي تعلوه قطعة تنك مستديرة صغيرة
محمرة. ولما سرى الدفء في العاصي، ترك الأمهات وراح
يتمرغ مع أقرانه فوق الحصر والبسط التي تغطي الرصيف.
ولما بلغ الأطفال كومة البطانيات التي ستغطيهم بعد قليل،
هالهم ما رأوا من رقائق قمر الدين وعناقيد التين اليابس،
وسندويشات المرتديلا والفلافل والجبنة الموشاة بالنعناع
الأخضر، واللبننة الموشاة بالنعناع اليابس وشرائح البندورة،
وإلى اليمين تراكب صناديق البونجورنو برتقال وعلب الكولا

وعبوات ماء صغيرة، فهجم الأطفال جمِيعاً إِلا أصغرهم وأصغرهن اللذين صدَّوا الهجوم، وأمراً بالوقوف في الدور، وأخذوا يوزعان سندويشة واحدة وعلبة واحدة لكل يد، بينما كانت هناك في طرف الساحة الأقصى المقابل، شابة يغطي حجابُ زاهي البياض شعرها، ويسوّر وجهها، تدعو من على المنصة إِلى أن يتحدى الناس منع التجول، وأن يخرجوا إِلى الشوارع والساحات.

ثم تناول الميكروفون شاب أقصر منها، وكان يقف بجوارها، وصاح محذراً من التجار الذين يُفرغون الأن دكاكيتهم، وينقلون ما فيها إِلى البيوت. ثم دعا الناس إِلى أن ينظموا الحراسة أمام العمارتَين وفي الشوارع والساحات، وشدد على أن يتسلحوا بالعصي أو السكاكين، فكثير من السجناء بجرائم القتل والسرقة والاغتصاب وشهادة الزور فروا من سجونهم أو فُتحت لهم الأبواب ليفرّوا، بينما لا تزال السجون السياسية تغضُّ بما لا يحصيه إِلا الله سبحانه وتعالى من السجناء.

وقاطعت الشاب الخطيب شابة تذكّر بالسجينات السياسيات وغير السياسيات، فقاطعها شاب يذكّر بسجن القنطر وسجن طرّه، فقاطعه صوت يذكّر بسجن المزة وسجن عدرا وسجن

صيادنايا وسجن تدمر وسجن حلب المركزي. وسادت الفوضى دقائق قبل أن يهدأ الميكروفون في يد شابة عباء زادها المعطف الشتوي الفضفاض عباء، وأعلنت أن أقسام الشرطة قد خوت، والضباط خلعوا بزاتهم وغادروا مخلفين السلاح والموتورات والسيارات للموقوفين، فصح لها شاب من الخلف: للباطجية، فأفسحت له وناولته الميكروفون، فتابع: من لا يصدق ما عليه إلا أن يسرع إلى أرصفة ساحة المرجة، حيث قامت سوق لبيع الرصاص والكلاشينات المنهوبة من أقسام الشرطة: الكلاشين بعشرين ألف جنيه والرصاص بعشرين. هنا اعرض سراج، وطالب ليلاً بأن تنتبه إلى التفاصيل، فالبيع بالجنيه المصري يجري في ميدان التحرير القاهري، أما في ساحة المرجة الشامية، فيجب أن يكون البيع بالليرة السورية. ولم تتبيّن الآذان ما ختم به سراج اعتراضه، لأن طائرتي هليكوبتر تراقصتا فوق الميدان على ارتفاع منخفض، ولما ابتعدتا أشارت ليلاً إلى سراج، فلحق بها، ولحق آخرون بهما، وراحوا يتسابقون حتى ابتعدوا عن ميدان الأمويين.

* * *

ثمة، في مداخل الحالات ورؤوس الأزقة والشوارع وفي المفارق، توزعوا إلى لجان، وتزئرت سواعد كثيرة بشارات

ثورية، وشرع بعضهم يفتش ما يعبر من سيارات أو موتورات، وأخرون يدققون في البطاقات الشخصية لمن يقودونها ولمن قد يكونون فيها. وسرعان ما صار اسم اللجان الشعبية شائعاً ومهاباً، كما أخذ يسري الهمس بأن الأمان أهم من الديمقراطية. وسمعت أصوات الرصاص متقطعة، وبخاصة على طريق المطار، حيث كان الأجانب يتسابقون، دون حجز مسبق. وفي المطار كانت قد حُولت الرحلات القادمة أثناء منع التجول إلى مطارات شرم الشيخ والغردقة والأقصر، بينما أخذت مصر للطيران تسير رحلات طارئة إلى عمان وموسكو وصنعاء واسطنبول والرياض وبيروت. أما الرحلة الطارئة إلى دمشق، فلولاها ما كان لراسم شقيق نذير أن يعود بعدما تعذر افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب، وعاد كل ناشر إلى أهله سالماً، ولكن غير غامن.

ونحن إذاً لسنا في سوريا: صاحت أصوات عديدة بينها صوت سراج الذي كان قد تكون أمام باب الدخول الرئيسي لمكتبة الأسد، يائساً من فرط ما أخطأت ليليا في السورة التي ابتدعتها وتحلم بها وتكتبها أو ترتكبها، وبخاصة أنها أخذت تبالغ بما بدأت به في خلط الأيام والواقع والأماكن ببعضها، فما عاد بوسع المرء أن يفرق بين امتلاء ميدان

التحرير وامتناع ميدان الأمويين ليلة تنحى جمال عبد الناصر
سنة ١٩٦٧، أو نهار جنازته، بل نهار جنازة أم كلثوم، بل نهار
جنازة عبد المنعم رياض، بل ليالي ونهارات الاحتفال بعيد
الوحدة السورية المصرية وقيام الجمهورية العربية المتحدة
سنة ١٩٥٨.

* * *

وعلى حين غرة أطبقت على الميدان جحافل من الجمال
تطير بفرسانها الذين اندفعت سيوفهم ورمادهم ونبابيthem
إلى الأجساد والأرواح التي رماها حظها التعيس بين أخافاف
هذا الجمل الأملح الذي يتبااهى بوبره الأسود، وهذا الجمل
الأوضح الذي يتبااهى بوبره الأبيض، وهذا الجمل الأشعل الذي
يتبااهى بوبره البني الغامق، وهذا الجمل الأشكه الذي يتبااهى
بوبره الرمادي، وهذا الأزرق والأصفر والأحمر، وهذه الناقة
الحايل وهذه الناقة الفاطر العجوز التي لن تحبل بعد اليوم،
وهذا الجمل الفحل الذي أصابته غلمنته بالجنون، وهذه الناقة
الأم جسر التي أصابتها غلمنتها بالجنون، وهذه الناقة العطرة
التي يسيل حليبها وهي تطير، وهذا الجمل الهرش، وهذه الناقة
التي أصابها الجرب...

وفي لحظة خاطفة حول المهاجمون ميدان المعركة إلى

ميدان للسباق، فتقدمت النوق العمانية والحرة والأرثية، وكل واحدة كأنها غزالة: رأس صغير كأنه رأس ليليا، فتحتا أنف صغيرتان كأنهما فتحتا أنف الممى، أذنان تميلان إلى الطول كأنهما أذنا كوكب الصباح، عينان كبيرتان كأنهما عينا نمنوما. وبينما طارت النوق الثلاث، انتهى عدد من الفرسان بعدد من نوq الركوب والأحمال: الذلول والرحول، وحمل كل فارس سطلاً بلاستيكياً، ووضعه في المكان المناسب بانتظار ما سيملأ السطل من البول. ولما امتلأت السطول خباءً فارس سلطه، لتفسل الداية بما يكتنز من البول طفله الذي سيولد بعد موقعة الجمال مباشرة، وأخذ فارس يغسل شعره بالبول كي يقتل القمل، وأخذ فارس يمضمض ويغسل يديه بالبول، وشرب فارس من البول حتى ارتوى، إذ إن العطش كان قد أرمنه الفرسان، ولا ماء في الميدان.

* * *

وما إن انتهت موقعة الجمال حتى فشا في الميدان أن قناد روسيا اليوم الفضائية عدّت ثورة ٢٥ يناير/جانفي / كانون الثاني ٢٠١١ مؤامرة خارجية، وتدخلًا أجنبياً، وسيناريو أمريكيًا، وهجمة أمريكية غايتها أن تطيح بأنظمة وطنية، فغضب شباب وصبايا، وتطامن بعض كبار السن ممن رهنوا

شبابهم للاتحاد السوفيaticي، وشيخوختهم لروسيا.
 هنا جرب أحدهم أن يلعب بجهاز التحكم، فإذا بمذيع شاب
 حلو حلو، ناعم ناعم، سبحان من خلق وسوى، يجلس على
 كنبة ممسكاً بجريدة، ربما كانت جريدة الأخبار القاهرية،
 وربما كانت جريدة الأخبار اللبنانية، بل ربما كانت جريدة
 البعث السورية.

بصوت عذب أخذ المذيع الساحر يقرأ تفاصيل موافقة
 أجنبية، أعدتها جهات أجنبية بالتعاون مع عملاء محليين،
 لاستغلال التظاهرات العفوية الشبابية التي تدعو إلى مطالب
 مشروعة، منها الإصلاح السياسي، وزيادة مساحة الحريات،
 ومواجهة الفساد. وفجأة انتزعت يدُّ الجريدة من يد المذيع
 الفاتن، وناولته مجلة، ربما كانت روزاليوسف القاهرية،
 وربما كانت مجلة الكفاح العربي اللبنانية، بل ربما كانت
 مجلة أبيض أسود السورية، وتابع المذيع الساحر الفاتن
 القراءة: كتب رئيس التحرير: خلصت، يعني تصبحون على
 خير، نلتقي بعد الثورة، أقصد على ناصية شارع الثورة، أول
 ما تلفّ يمين.

هنا نادى شباب وصبايا أن لا تبالوا، ولا تتلهوا، لا بما
 تقوله موسكو ولا بما تقوله واشنطن، وهاتوا السمسمية والكولا

حتى يصدح الميدان بأغنية فرقة الطنبورة:
 بحروف من نور وحروف من نار
 اكتب يا زمان مجد الأحرار
 في التحرير في الأمويين برkan فوار
 ما قدرش عليه حزب الأشرار.

وما كادت الأغنية تنتهي حتى أبرقت سماء الميدان بشعار
 جديد هو: الشرطة في عرض الشعب، فنادت ليلياً أباها العقيد
 واصل أبيضاني من قيادة الشرطة وربما من رئاسة فرع أمني
 فهي غير متأكدة لتساله عن الشعار الذي علّمها أن تردهه قبل
 أن تدخل المدرسة: الشرطة في خدمة الشعب. لكن العقيد واصل
 لم يرد على ابنته، ليس لأنها آثرت أن تقيم عند مطلقته، بل
 لأنها في استنفار مئة بالمئة، منذ تصادي ميدان الأمويين مع
 ميدان التحرير، فدرعاً أقرب إلى دمشق من القاهرة، والعدوى
 إذاً ممكنة جداً، إن لم تكن محتملة.

* * *

بعد قليل دقت ساعة صلاة الجمعة من المكبرات جمِيعاً،
 فانتظم الشباب المسيحيون حول صفوف المصليين ليحرسونهم
 من غدر البلطجية أو رجال الأمن . وقد تصدر الحراسة أم
 كوز أنطوان الذي ضاعف كتفاه اندفاعهما إلى الإمام، بينما

رابطت خلفه أم كوز مميز وقد تفاقمت تربيعة وجهها، والتمعت سمرتها الخلاصية وأضاءات.

ولأن الميدان فسيح، ولا يمكن لصوت الخطيب أن يبلغ أطرافه، فقد خطب آخرون هناك، حيث تراصّ الحراس، واعوّجت صفوف المصلين وتراخت، ولم يفت ذلك أحد الخطباء، إذ ذكر أن الله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى الصف الأعوج، لكن الضرورات تبيح المحظورات. ولأن المصلين هالوا مستحسنين ملاحظة الخطيب، أردف أن الإطالة في الصلاة في مثل هذه الظروف، فيها مشقة، فضاعف المصلون تهليهم.

بعد قليل أبرقت سماء الميدان بالإعلان عن وظائف شاغرة: مطلوب عدد (٢) رئيس جمهورية لمصر وتونس، للإطلاع على دفتر الشروط مراجعة إدارة نظافة الميدان، حيث حمل شباب وصبايا في الصباح الباكر المقشات القصيرة والطويلة والخشنة والناعمة، والأكياس السوداء الكبيرة، ومنهن ومنهن من وضع ووضعت كمامات بيضاء، ومنهن ومنهن من حمل وحملت سطول الدهان أبيض أسود أصفر للأرصفة، وأخضر للحواجز الحديدية، ومنهم ومنهن من حمل وحملت الفراشي العريضة والصغرى والرولات، ولم يكن كل ذلك إلا من أجل أن يظل الميدان نظيفاً وبهياً، وليعود أجمل مما كان.



بعد أكثر من ساعة حلّت الاستراحة. وبعد دقائق سمع صوت كوكب الصباح تسأل ساخرة عن سرّ هذا الهرس الذي يكبر بالحديث عن المخططات، فقال جارها وهو صيدلاني مثلها حذار حذار من أن تبتلي مخططك أثناء إلقاء القبض عليك، فتحولين إلى شهيدة المخطط يا أجندـة إنت يا حلاوة. كما تحول خالد سعيد من شهيد البانغو إلى شهيد الأجندة، فلا فرق بين المخطط السوري والأجندـة المصرية، كما لا فرق بين البانغو المصري والحسـيش السوري، وبالتالي، لا يأس يا أخت يا كوكب الصباح مع المخطط، كما أنه لا مخطط مع اليأس، وكله مؤامرة في مؤامرة، وكله على بعضه حلو، فهزـت كوكب الصباح رأسها مستحسنـة، وتلفـت كأنـما تبحث عن أحد، فرأـت في أقصى اليمين شابة محجبـة مثلـها، لكنـها تبدو أصغرـ منها عمـراً، وفي حرجـها لا بـنـوبـ لم تـكنـ كوكـبـ الصـبـاحـ قد رأـتـ مثلـهـ فيـ صـغـرـ حـجمـهـ، فاقتـربـتـ منـ الشـابـةـ ورجـتهاـ أنـ تـتـوجـهـ إلىـ غـوـغـلـ بـالـسـؤـالـ التـالـيـ: بـالـنـسـبـةـ لـالمـخـطـطـاتـ الـخـارـجـيـةـ، هـلـ هـنـاكـ مقـاسـاتـ؟ هـلـ هـنـاكـ حـريمـيـ وـولـاديـ، أمـ كـلـهاـ رـجـالـيـ؟

وقد شغل السـؤـالـ الآخـرـينـ وقتـاـ غيرـ قـصـيرـ، حتىـ شـغـلـتـهمـ زـغـارـيدـ تـقـرـبـ، فـهـبـواـ وـاقـفـينـ، وأـطـلقـ صـيـحـاتـهمـ جـمـعـ يـقـرـبـ

منـهـمـ، وـيـتوـسـطـهـ عـرـيسـ فـارـعـ الطـولـ، وـيـكـادـ يـضـيعـ فيـ طـقـمهـ

البني من فرط نحوله، وعروس صغيرة، لعلها دون العشرين، يتقد ثوبها بياضاً مثل الطرحة. عندئذٍ انشقت السماء أي انشق الموكب عن ليлиا وسراج: هي يتقد ثوبها حمرة مثل الطرحة، وهو يكاد يضيع في طقمه الكحلي من فرط نحوله المفاجئ. وخلف ليлиا وسراج انشقت السماء أيضاً أي انشق الموكب عن نمنوما وصباح: هي يتقد ثوبها زرقة مثل الطرحة، وهو يكاد يضيع في طقمه الأبيض من فرط نحوله المفاجئ. وعلى مشهد من الجميع اشتبتكت أصابع كل زوج من الأزواج الثلاثة، ثم افترقت لتهصر ذراع كل عريس خصر العروس، فتعالت أصوات مضاعفة للرجولة تهدر: شنّ جليلة شنّ جليلة الله يعينه على هالليلة.

تابع الموكب الطواف في أرجاء الميدان التي ترامت في الجهات الأربع، وتکاثرت فيها خيام من الخيش وخيم عسكرية وخيم صغيرة ملونة. وبين الخيام، كما في أنحاء شتى من الميدان ومما ترامى إليه، تکاثر الفتیان الذين يبيعون السجائير المهرية وبطاقات شحن الموبايلات، والکؤوس البلاستيكية التي تفوح منها رائحة القهوة وبخار الشاي، وعبوات المياه والعصائر. وصادف العروسان شاباً يعزف على الغيتار فتوقفا، بينما نبهت إحداهن الشاب، فأسرعت

أصابعه بالهدية إليهما، وكان النهار قد أخذ ينطوي عجلان،
كانه لهفان على أمر أو خائف من أمر. وسرعان ما تبين أن هذا
الأمر وهذا الأمر ليسا غير اندیاح الميدان ليبلغ قصر العروبة
في الساعة الرابعة من عصر هذا اليوم الفضيل، يوم الجمعة
العظيمة.

* * *

حول القصر كان قد قام اعتصام آخر قبلة الدبابات التي
تسوّره. أما مفاجأة ذلك العصر فكانت بالورود التي ألقاها
شباب وصبايا على الدبابات، فاستدارت مدافعاً عنها فوق
رؤوس المعتصمين نحو القصر، واعتلى فتيان صغار أجناب
ومقدمات عدد من الدبابات، ورسمت أصابعهم شارات النصر.
وكان يمكن للفرحة أن تدوم طويلاً، بل وأن تكبر، لو لا أنه
تناهى من ميدان الأمويين أن مخازن الطحين تُنهب منذ
ساعات، ومثلها مستودعات السكر والرز والزيت والسمن
وحليب الأطفال وعلب السردين والطون وسوها من المواد
الغذائية. وكما شغل ذلك الناس، واستل من فرحتهم وثقلتهم،
 فعل أيضاً ما أخذ يتواتر من أن حراس الكنائس في حي
الزيتون أقاموا الحواجز درءاً لخطر المتعصبين الذين يطوفون
غير بعيد من الحي، مكبّرين وملوحين بالسواطير والنبابيت.

هنا همّت ليليا بأن تسمّي حي القصاع أو هي باب توما بدلاً من حي الزيتون، فاعتراض سراج. لكن ليليا أصرت، فأسرع سراج إلى نمنوما شاكياً، فوجدها واقفة بشموخ أمام ضابط، وتحاطبه بتحد واستفزاز:

أنت لا تعرف من هو القاضي ولا من هي القاضية.

قال الضابط بسخرية:

عرّفني.

قالت نمنوما:

القاضي والقاضية هما ظل الله على الأرض، هما القانون وقد تجسد رجلاً وأمراة.

فانسحب سراج وهو يفكر في أن مسأً من الجنون يمس هذه الأسرة: نمنوما وليليا، ولا بد أن العدو قد أصابته كان سراج دوماً ممتلئاً باليقين بأن الجنون مرض معدٍ وإلا لما كان يجري خلف هذه التي تركت الدنيا بمن فيها وما فيها، لتعلن ثورتها الفيسبوكة والتويترية والشفوية والكومبيوتورية والورقية، ثم تتقدم جمعاً شبابياً صغيراً نحو السفارة المصرية، ضحى الأربعاء الثاني من شباط / فبراير / فيفري ٢٠١١ !

ثمة، هتفت ليليا للثورة المصرية حتى بُخّ صوتها، فحلّت كوكب الصباح محلها، وظلت تهتف حتى بُخّ صوتها، وكانت

الساعة قد بلغت الواحدة ظهراً، وكان الإعياء قد بلغ بالجمع الذي ازداد صبراً أشدَّه، بينما كان رجال الأمن قد تكاثروا، مزهويَّن ببدأتهم السوداء الأنiqueة جداً، والتي تخفي المسدسات جيداً فوق الأوراك.

عصرأً، عادت ليلاً إلى البيت في المزة، وعادت كوكب الصباح إلى البيت في دوما، ولبث سراج حائراً في أن يتبع أخته أو يتبع حبيبته. ولم تفارقها الحيرة حتى تقدم هو هذه المرة جمعاً شبابياً صغيراً إلى باب توما، ضحى اليوم التالي، الخميس الثالث من شباط /فبراير/ فيفري ٢٠١١. وثمة، تحت القوس الخالد هاجم الجمع رهطٌ من رجال الأمن الأقل أناقة، وسرعان ما تعالي الصراخ وتطايرت الأقدام.

عناقيد نمنوما

في تلك الليلة التي ليست مثلها ليلة، أحسّ صباح أنه كائن بالغ الخفة والرهافة، لم يُجبل فقط من طين وماء، أو من لحم وعظام وشعر ودم، بل من جبّلة جديدة، ما من عنصر من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد ليس فيها، وما من عنصر من عناصر الأرضين والسماءات ليس فيها.

ساعةً فساعةً من تلك الليلة، كان قد غدا بالغ الغبطة والرضا والسعادة، وبالغ الصفاء والنظافة واللطفة، فحسني مبارك قد استقال. وحين عبر عن بعض ما أخذ يحسّ به في هاتف متاخر ذكره بهنان أن حسني مبارك ليس رئيسه، وأن السيد صباح خليل سوري، وأن استقالة رئيس أو إقالته كوفاة أو كخلع ملك أو أمير أو سلطان، لا تعني أن أبواب الجنة قد فتحت، إلا للشهداء منكم يا أيها الثوار. لكن صباح كان بسيطاً جداً وواضحاً جداً: مصر شقت طريقاً جديدة يا بهنان، ليس لها وحدها، وليس لنا سوريين أو عرباً أو مسلمين أو شرقيين، فقط. مصر شقت طريقاً جديدة للبشرية.

وهي ليتك إذا يا صباح: هذه ليالي وحلّ حياتي بين ماضٍ من الزمان وآتٍ. دع بهنان لهوا جسه، وعجل إلى نعمائك

خلوتك: كأس من النبيد، موسيقا لم تسمعها أذن من قبل، مدفأة الأولمار التي تستعير من الشومينيه جذوتها، كرمي لك. ولم يبق إلا أن تلامس هذه الأنملة التائقة لوحه المفاتيح هذه، ليأتي صوت نمنوما مباركاً وغفوراً، مشوقاً وحنوناً، وصافياً مثل شعاع.

لكن الأنملة تخاف، فتلتفت عنها عينا صباح إلى الجدار المقابل الذي يمتلئ فجأة بالمكتبة، والمكتبة تمتلئ فجأة فقط بكتب الشعر. وفجأة تقرأ عينا صباح وهما تتشريان سواد السطور ولهب المدفأة والظلمة اللابدة خلف زجاج النافذة، يمين المكتبة. وفجأة أيضاً بدأ صوت يتربّن بما تقرأ عيناه، وبما لا تقرآن، ليكون له أن يشم رائحة نهدي نمنوما الدافتين، بينما تطمر عناقدها في كرمته، عارية إلا من الطلي. وبالبراءة التي تمور بالشهوة، تدعوه صباح إلى ذراعيها وساقيها وصلبها، وإلى كل ما هو فيها صقيل كالزيت. لكن صباح يخشى أن تحرقه البشرة العنبرية، لفرط ما كان قدّها ينحت من روح صباح الذي أخذ يتهجد: بياض ثلج هذا يا نمنوما، أم بياض بجعة؟ وما هذه النار الداكنة؟ ما هذا البحر الفاغم؟ قلبي مرآتك يا نمنوما، وأنا طفل متلهف على الفرجة، الليل يقشعر من شوقي إليك، وأنت، أنت الشواش الأزلبي، أنت..

أنا هذا المطر الذي ينقر زجاج نافذتك: جاء صوت نمنوما،
بينما كانت النافذة تخلق في هيئة نافذة الصالون في بيت
بنان وراتب والعاصي: عتمة إلا من شعاع المدفأة، مطر،
صوفاً مقبلة على صوفاً، مطر، صباح يرفل في أنفاس نمنوما
كي يقدر على أن يناجيها: مثلك هو يا نمنوما: مطر ناعم،
مطر بازغ،
مطر أعلم،
مطر خاوي، مطر مغرون،
مطر حبق،
مطر نعناع،
وأنا،
أنا يا نمنوما ميت دون مفاجأة.

اعتقال ليليا

صباحاً تلو صباح باتت نمنوما تنهض أبكر فأبكر، تتمطى مثل طائر يرفرف. ومن الحمام إلى المطبخ تراها تومض، ثم ترخي لهادتها أمام مرآة الخزانة، فمرأة التواليت، لترى رأي العين كأنّ صباح خلفها، أو يرسل أصابعه إلى كتفيها أو عنقها، بل إلى خصرها، وربما إلى وركيها، أو يرسل أنفاسه خلال شعرها، فتحس أنها تكاد تنفطر. وبشوق موجع تنهد وتجدد وعد أمس أو أي أمس قبله: سيهتف أحدهنا للأخر اليوم. غير أن ظلاً من الانقباض داهمها هذا الصباح وهي تطل من الشرفة اليسرى على الشارع، قبالة مدخل العمارة، حيث تنتظر عادة السيارة التي تقلها إلى القصر العدلي.

لكن سيارة أخرى حلت هناك، وعلى باب السائق أسد شاب ساعدية، وأتلع عنقه. وتراءى لنمنوما أن عيني الشاب تبحثان في الشرفات المطلة عليه، حتى إذا ظفرت بها عيناه، ارتدت هي بانزعاج، ثم أسرعت إلى الصالون، وإذا بليليا تتجه إلى الباب مغالبة النعاس، فبادرتها نمنوما:

خير يا ماما..

وقبل أن تكمل عبارتها كانت ليليا قد نظرت إليها لائمة،

وفتحت الباب وانلجمت خطوة نمنوما في منتصف الصالون،
حين رأت كهلاً متأنقاً يقتحم الباب ويخاطبها مقرراً:
حضرتك القاضية نمنوما زكي.

ولم ينتظر جوابها بل عاجل ليليا:
وأنت ليليا واصل أبيضاني.

نظرت نمنوما عبر كتفي الرجل لتتأكد مما ترى: شابان
يملاآن الباب، وليليا ترمي الرجال الثلاثة نظرات مستنكرة،
بينما كان الكهل يأمرها بلطف:
آنسة ليليا بدلي ثياب النوم وتفضلي معنا.
من أنت؟

صاحت به نمنوما، وكما فوجئ بصوتها، فوجئت هي
أيضاً، ولعلها لذلك أمرت ليليا بإشارة من يدها بأن تعود إلى
غرفتها، وكان الرجل قد أخرج بطاقة واقترب من نمنوما قائلاً
بطف:

هذا أنا يا أستاذة، والشبان من عناصر الفرع.
حدقت نمنوما في البطاقة مليأ، ونظرت إلى الشابين
متفرحة، وحين همت بالكلام سبقها الكهل بالسؤال:
أين أخوك يامن؟

ما دمت تعرف أنه يسكن معنا فلا بد أنك تعرف أنه في
حمص منذ يومين.

أجابت نمنوما ساخرة، فقال الكهل بلطف بالغ:
ولن يعود قبل أسبوع. والآن سنقوم بتفتيش البيت.
وأشار إلى الشابين فعاجلته نمنوما.
معك إذن من النيابة العامة؟
لا، ولكن إذا كان ضروريًا فسأطلبه بالهاتف، وسيكون
أمامك قبل أن تنتهي من التفتيش.

وأومأ إلى الشابين فأدارت له ظهراً، وترجع في سمعها صوت الأستاذة سلوى كاف، ماما سلوى كاف، قادماً من سنوات بعيدة: في الدولة الأمنية يكون النائب العام أحياناً أو غالباً جاسوس الأجهزة الأمنية، وترى أنه أحياناً أو غالباً يمارس سلطته على قضاة الحكم، على الرغم من أن سلطته لا تتعدى قضاة النيابة.

كان الشابان قد اندفعا عبر الممر، ودخل أحدهما إلى غرفة نمنوما، بينما دخل الآخر إلى غرفة ليليا التي علا صوتها بعد قليل، مستنجدًا، فهرعت نمنوما، إليها، وجرى الكهل خلفها، ولما انحشرًا في باب الغرفة، كانت ليليا تنازع الشاب اللابتوب، وتسلل صوت الكهل بلطف:
لا تخافي يا آنسة ليليا. كل ما سنأخذه سيعود معك بعد التحقيق.

لن تأخذوا شيئاً إلا بإذن النيابة.

قالت نمنوما بصوت راجف، وأشارت إلى ليليا بالاقتراب منها، بينما قال الكهل وهو يمسح على وجه هاتفه الجوال: تكريمي سيدتي القاضية.

والتبس على نمنوما خطاب الرجل بين أن يكون احتراماً أو سخرية، ثم تعاظم عليها الالتباس: امتناع ليليا عن الانقياد للشابين، استنجادها بأمها، استماتة نمنوما في منع الرجالين من جرّ ليليا أو دفعها، لطف الكهل وحزمه، رجاء نمنوما وتهديدها وبكاوها. ولما اكتشفت أنها باتت وحيدة أمام مدخل العمارة أطبق عليها العجز، وتناولت من حقيبة اليد الموبایل، ونظرت إليه كأنها تستشيره فيما تتصل كي يلحق بليليا: صباح؟ أنت بعيد يا صباح. لن تستطيع ليليا أن تنتظرك كل هذه الساعات التي تفصل بين اللاذقية والشام. سراج؟ ما أدراني إن لم يكن سراج قد اعتقل قبل ليليا؟ أخي فاخر، وحدك يا فاخر من ينفع ليليا. حالك يا حبيبتي أخطبوط علاقات. لن تنتظري حتى يقطع ما بين حمص والشام. هاتفك يا فاخر يغنى عن الانتظار.

قبل أن تتصل بأحد كان سائق السيارة التي تقلها إلى قصر العدل قد أوقف السيارة بعيد مدخل العمارة، وأسرع

يعذر عن التأخير، فنظرت إلى ساعة الموبايل: التاسعة والربع،
والدورية قد داهمت البيت منذ قرابة الساعة، والسائق قد تأخر
ربع ساعة عن موعده اليومي. ولأنه كان قد تأخر عنها مرتين
منذ أول الشهر، ردت على تحيته بالإذار الأول والأخير: إذا
تأخرت بعد اليوم فالعقوبة بانتظارك. هل تعرف ما هي؟
أجاب السائق بالاعذار، فقاطعته أمراً بالسكت، وفوجئت
بنبرتها، وحاولت أن تلهو بما يبرق من زجاج السيارة على
الجانبين. وحين انزلقت السيارة في أوتوستراد المزة، أمرت
السائق بالالتفاف عند الإشارة القادمة، والعودة في الاتجاه
المعاكس إلى خلف جامع الأكرم.

الأم وأبنتها التي لم تلدها

كانت نمنوما هي التي تدعونفسها عادةً إلى زيارة القاضية سلوى كاف بين شهر وشهر، وفي العصاري دوماً، فتجلس بين يديها، كما لو أنها ما زالت قاضية جديدة تتهيب من سبقوها، ويكتبونها سنًا ومرتبة، تنسد عوناً أو رأياً أو مشورة، فيزورّ أو تزورّ عنها من سألت، إلا الأستاذة سلوى كاف. وسنة بعد سنة تصيران الأم وأبنتها، كما تعلنان معاً في عيد ميلاد الأستاذة سلوى الحادي والستين، وهو العيد الذي أعدت له نمنوما، وفاجأت به الأستاذة التي لم تحتفل من قبل بعيد ميلاد.

حين أخذت السيارة تغابل الزحام، أخذت صور باهتة وملونة وجارحة وعزيزة تتهاطل على نمنوما: أنا لا أريد إلا القضاء، انتظري إذاً، نمنوما محامية تحت التدريب في مكتب الأستاذ إسلام الفيقية بعد سنة، أين مسابقة القضاة؟ بعد سنتين، لا مسابقة، إذاً هذا هو امتحان الأستاذية وهذا هو البحث الذي قدمته نمنوما (نظام الطوارئ والأحكام العرفية: تحليل قانوني): مبروك، والمسابقة؟ ها هي المسابقة أيضاً. مبروك.

رحب الرفيق الذي أصرت نمنوما على أن تدعه بلا اسم،
بالكوكبة الجديدة من قضاة المستقبل، وسأل: هل بينكم من
ليس في الحزب؟ أي حزب؟ الرفيق يسمع السؤال في الصدور
ويقرأه في العيون. الحزب القائد الذي لم تنت له نمنوما ذكي
وتاج رفيعاً أغما، وحدهما، من بين فرسان وفارسات هذه
الكوكبة.

الرفيق الذي بلا اسم ينادي على الرفيق الآذن: هات طلبي
انتساب.

املاي الطلب ووقيعي.
مبروك.

أنت الآن الرفيقة نمنوما ذكي، وأنت الآن الرفيقة تاج
رفيعاً أغما.

لكن نمنوما لن تصير رفيقة، على العكس من تاج التي
ارتكبت الخطأ المهني الجسيم في محاكمتها واحدة من
مجموعات المعتقلين في أحداث القامشلي سنة ٢٠٠٥، حين
اعتمدت على ضبط الأمن السياسي، بينما الاجتهاد القضائي
مستقر على أن الاعتراف لدى رجال الأمن لا يمكن اعتباره
دليلاً، ما لم يتآيد بدليل مادي محسوس، كما تشرح ماما
سلوى لابنتها التي لم تلدها: نمنوما الغاضبة، لأن تاج رفيعة

آغا كوفيت على خطأها المهني الجسيم، فدخلت غرفة استئناف
الجناح قبل نمنوما بدهر بطوله.

* * *

في التاسعة وأربعين دقيقة وصلت نمنوما إلى بيت الأستاذة، وغادرته بعد أربعين دقيقة، حين كان قد غادرها هي الانقباض الذي داهمها صباحاً، والخوف الذي أعقبه. وطوال الطريق من خلف جامع الأكرم إلى قصر العدل، ظلت نمنوما تستعيد لحظات مماثلة انقلب فيها الانقباض والخوف، كما انقلبا الآن، إلى عزم وهم معاً، تماماً مثلما كان منذ ثمانية سنوات، وبالضبط في الأول من تشرين الأول سنة ٢٠٠٣، حين دعت الأستاذة ابنتها التي لم تلدتها إلى فنجان قهوة صباحي: في حلب اعتقل منذ شهرين أربعة عشر ناشطاً بينهم صهري زوج رفقة، بنتي الوحيدة، وحتى البارحة كان عدد المحامين الذين تطوعوا للدفاع عن المعتقلين قد تجاوز الثلاثين. هل تعرفين؟

طبعاً أعرف.

لكنك لا تعرفين أن القاضية العجوز المتقدمة سلوى كاف التي صارت محامية هي واحدة من الثلاثين.

طبعاً لا أعرف.

ربما تظنين أنتي ما كنت سأحشر نفسي في هذا المحشر
لولا صهيوني. ولكنك لا تعرفين أنتي لم أستلم دعوى واحدة ذات
قيمة منذ فتحت مكتب المحاماة. كل ما يأتيني هو استشارات
أو دعاوى هزيلة. بالإضافة إلى صهيوني، فكرت أنها فرصة
جيدة لي، وإن تكن خطيرة. على أية حال استعددي. ستسافرين
معي. المحاكمة غداً في حلب. هل تعرفين؟
طبعاً لا أعرف.

توكأت الأستاذة سلوى على نمنوما التي سافرت منومة،
وحضرت المحاكمة منومة، وربما كانت ستظل منومة لولا أن
الأستاذة سلوى صادفت بين مراقببي الاتحاد الأوروبي الذين
حضروا المحاكمة، صديقاً لم تره منذ غادرت السوريون قبل
قرابة أربعين سنة: مسيو جيوار.

وبدلاً من نمنوما، توكأت الأستاذة سلوى على الصديق
القديم الأكبر شيخوخة منها، فصاحت نمنوما على المغامرة
التي قادتها أستاذتها إليها، وسألت نفسها كما سألها أخوها
فاخر بعد أيام: بأية صفة تحضرين مثل هذه المحاكمة؟
بصفتي عكازة: أجبت نمنوما ساخرة، ولكن صادقة
وسعيدة. وأدركت أن ذراعاً أمينةً ما لأخطبوط فاخر هي من
نقل إليه خبر أخيه القاضية التي حضرت تلك المحاكمة، بلا
صفة.

وَحِينْ أَقْبَلَتْ عَلَى شَارِعِ التَّلِ وَحِيدَةً، تَسْتَعِيدُ ذِكْرَى باهْتَةٍ
لَرْحَةً جَامِعِيَّةً بِصَحَّةِ وَاصْلٍ، قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَا، وَلَمْ تَعُدْ إِلَى
حَلْبِ بَعْدِهَا، حِينَئِذٍ أَدْرَكَتْ فَجَأَةً وَمُتَأْخِرَةً أَنَّ الأَسْتَادَةَ سَلْوَى
كَافِ الَّتِي طَوَتْ السَّنِينَ بَيْنَ قَاضِيِّ تَحْقِيقٍ وَقَاضِيِّ نِيَابَةٍ،
وَمِنَ الْمُفْتَشَةِ الْقَضَائِيَّةِ إِلَى الْمُسْتَشَارَةِ، وَمِنَ النَّائِبِ الْعَامِ إِلَى
رَئِيسَةِ مَحْكَمَةِ الْجَنَاحِيَّاتِ إِلَى التَّقَاعِدِ إِلَى الْمَحَامِمَةِ؛ هِيَ ذَاتُ
نَفْوَذٍ كَبِيرٍ وَصَلَاتٍ وَثَقَى مَعَ مَرَاجِعِهَا، لَيْسَ فَقْطَ فِي وزَارَةِ
الْعَدْلِ، بَلْ رِبَّما فِي جَهَازِ أَمْنِيَّةِهَا، وَرِبَّما فِي أَكْثَرِ مِنْ جَهَانِ
وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا خَرَجَتْ مِنَ الْمَحاكِمَةِ وَاثِقَةً بِأَنَّ صَهْرَهَا زَوْجُ
ابْنِتِهَا الْوَحِيدَةِ سُوفَ يَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْمَحاكِمَةِ، حَتَّى لو حُكِمَ
عَلَيْهِ بِالسُّجْنِ سَنَةً. بَلْ لَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَتِ الْأُمُّ أَنْ تَيِّسِّرَ
لَابْنِتِهَا الَّتِي لَمْ تَلِدْهَا حُضُورَ الْمَحاكِمَةِ.

وَلَكِنْ أَلَا يَصْنُفُ هَذَا الْحُضُورُ الْأُمُّ وَابْنِتِهَا فِي صَفَّ
الْمَعَارِضَةِ؟

مَا كَانَ نَمْنُومًا مُتِيقَنَةً مِنْهُ، هُوَ أَنَّ الأَسْتَادَةَ سَلْوَى
كَافِ لَا تَغَادِرُ الْحِيَادَ بَيْنَ السُّلْطَةِ وَالْمَعَارِضَةِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ
ظَلَّ نَادِرًا. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَالْسُّؤَالُ الَّذِي أَلْحَفَ عَلَى نَمْنُومَاهُ: هُوَ
لَمَاذا انْقَدَّتِ لِأُمِّكَ الَّتِي لَمْ تَلِدْكَ؟ هَلْ يَكْفِي أَنْ تَكُونِي عَادَةً أَوْ
غَالِبًا مَتَضَامِنَةً مَعَ الْمُعْتَقَلِ، أَيِّ مَعْتَقَلٍ، وَمَعَ أَيِّ مَحَامٍ عَنْ

أي معتقل سياسي بالطبع، كي تحملني أحمالك أربعينية كيلو
متر، لتنفرجي على حفلة المعتوهين: المتهمين والمحامين
والمحكمة نفسها، كما سأل فاخر باشا، غاضباً؟

بعد ثمانى سنوات من ذلك، أي في ضحى هذا اليوم السابع
عشر من شباط ٢٠١١، انتظرت نمنوما بين يدي أمها التي لم
تلدها، ريشما وضعت الموبایل جانباً، ثم سالت باسمة:
منذ فترة اعتقلت بنت حمصية، مثلك، طلّ الملوحي، هل
تذكرين؟

طبعاً أذكر.

قالت نمنوما التي باقى لها السؤال، بينما كانت تنتظر خبراً
عن ليлиا. لكن الأستاذة سلوى تابعت:
ومحاكمة طلّ الخميس، بكرة، هل تعرفين؟
طبعاً أعرف.

لكنك لا تعرفين أن القاضية العجوز المتقدمة التي صارت
محامية، سوف تدافع عن المتهمة.
طبعاً لا أعرف.

قالت نمنوما وهي تكتم غضبها، بينما تابعت الأستاذة:
ولا تعرفين أن ليлиا اعتقلت بسبب نشاطها على الشبكة،
وخصوصاً ما كتبت على صفحتها عن طلّ.

ونهضت، فنهضت نمنوما وقد تبدل غضبها هلعاً، ورمت
الأستاذة ذراعها على كتف نمنوما قائلة بحنان وثقة:
اطمأني. قبل أن تعودي من قصر العدل ستكون ليلاً قد
عادت إلى البيت. هل تحضررين معى محاكمة طل؟

بمناسبة طلّ

. ١

كانت ليлиا قد تبدلت في ساعات الاعتقال الخمس تبديلاً
أذهل نمنوما وسراح. كان وجهها بالغ الشحوب، ووجنتها
قد غارت، وذقنها قد نحلت، وشقرتها قد بهتت، وشفتها قد
ركبتهما الحيرة بين الرجفة والبسمة، ولم تكن نظراتها تهدأ،
وقد ركبتها الحيرة أيضاً بين البله والتحدي والضعف، وكل
ذلك في خمس ساعات، فكيف لو أنها خمسة أيام أو خمس
سنوات لا سمح الله؟

سأل سراح ممازحاً وهو يغالب الخوف مساء الأربعاء،
بينما لازمت نمنوما الصمت، وهي تصدق كأنها لم تصدق من
قبل أن الاعتقال فعل رهيب، والمعتقل مكان رهيب. والمعتقل
إنسان رهيب، ولم يبرحها هذا الإحساس من بعد، لكنه تضاعف
عندما باتت وحيدة، فلجمأت إلى الفلاشة التي وضعها سراح
 أمامها على الترابيزة الرابضة بينهما، وحملت الالاتوب الذي
عادت به ليлиا بعدما تم تنظيفه تماماً أثناء التحقيق، وانتزعت
نمنوما ابتسامة لليليا وابتسامة لسراح، ومضت إلى غرفتها،
لتقرأ ما كانت ليлиا قد كتبت على صفحتها عن طلّ الحموي

فجوزيت عليه أهون الجزاء: خمس ساعات خارج الزمن، ولكن من يعلم كم كانت ستة، لو لا أم نمنوما التي لم تلدتها؟

- ٢ -

أنا ليليا أبيضاني الشهيرة بطل الملوحي. إذا كنت لا تصدقون، فتكرموا بزيارة صفحة (كلنا طل الملوحي) على الشبكة، وستجدون أنني المشتركة رقم ١٤٩٩٩.

إنني أعلن وأنا بكمال قواي العقلية، أنني بدأت أشتغل بالجاسوسية وأنا بنت أربعتش. أنا أجمل من القمر ابن أربعتش. إذا كنت لا تصدقونني فاسألوا المعلم واسألوا سيدى اللذين حققا معي وتأكدوا من أنني جاسوسة. ولكن لماذا لا أقص عليكم من البداية حتى النهاية قصتي المشوقة التي ستكون قصة فيلم جاسوسية سوري عربي عالمي ضخم؟

* * *

أنتم تعرفون أن الأندولف ترابط في الجولان لفك أي اشتباك بيننا وبين إسرائيل. في الأندولف ضابط نمساوي أشقر وشعره ذهب، من حبه شفت العجب، كما تغنى مطربة أبي المفضلة: سميرة توفيق. إنه حبيبي الذي لن أبوح باسمه، لأنني أخشي عليكم من ضوعة الطيوب، كما تغنى مطربة أمي نمنوما زكي المفضلة: فيروز.

حبيبي صار يزورنا، ويحضر لي في كل زيارة هدية، ثم
طلب مني أن أحضر أهلي على السفر إلى القاهرة، ووعدني أن
يترك الأندوف ويلحق بي.

كنت قد صرت بنت ستعش. وبما أنه لا يوجد قمر ابن
ستعش، فقد صرت أنا قمر القاهرة، وسكنّا قرب حدائق حلوان،
بمساعدة حبيبي الذي افتتح مقهى بالمشاركة مع أبي، وكان
الساعد الأيمن لحبيبي في كل ذلك أحمد فوزي حبيب، المصري.
أنتم لا تعرفون أنني أنا، بنت الستعش سنة التي غنى لعمرها
وديع الصافي: يا عمر الولدة يا من يرجعني زغيرة ويأخذ
مالك يا دني، أنا ليليا أبيضاني القاصر قد مارست الجنس مع
حبيبي النمساوي. ولا أنا ولا أنتم كنا نعرف أن حبيبي صور
ما كنا نفعل في السرير العريض في غرفته. ولا أنا ولا أنتم
كنا نعرف أن حبيبي من الآن فصاعداً سوف أسميه الشيطان
الأشرق قد سلم صورنا في سريه إلى السفارة الأمريكية، ثم
طلب مني أن أحصل له على معلومات مفصلة عن السفارة
السورية في القاهرة، وخصوصاً عن عمل السكرتير الثاني.
عرفني الشيطان الأشرق على جيسكا من السفارة الأمريكية
في القاهرة. وفي رحلة إلى الإسكندرية صورتني جيسكا
مع سائقها نمارس الجنس، ثم أمرتني أن أمارس الجنس

مع السكرتير الثاني إيهـاـهـ. لـماـذاـ؟ حـتـىـ أـصـلـ إـلـىـ ماـ لـدـيـهـ مـعـلـومـاتـ.

أـنـاـ لاـ أـكـتـمـ عـلـيـكـمـ سـرـاـ، وـمـاـ أـحـدـثـكـمـ بـهـ هـوـ مـاـ حـدـثـنـيـ بـهـ
الـمـحـقـقـانـ الـمـعـلـمـ وـسـيـدـيـ، لـاـ يـنـقـصـ حـرـفـاـ وـلـاـ يـزـيدـ حـرـفـاـ.
لـمـ يـسـتـجـبـ السـكـرـتـيرـ الثـانـيـ إـيـاهـ لـغـواـيـتـيـ. وـلـمـ تـصـدقـنـيـ
جيـسـكـاـ عـنـدـهـاـ حـدـثـهـاـ عـنـ فـشـلـيـ، فـأـخـضـعـتـنـيـ لـفـحـصـ كـشـفـ
الـكـذـبـ. نـجـحـتـ، وـلـذـكـ سـلـمـونـيـ سـلـةـ دـولـارـاتـ.

لـمـ تـيـأسـ جـيـسـكـاـ مـنـ السـكـرـتـيرـ الثـانـيـ إـيـاهـ، فـحاـوـلـتـ تـجـنـيـدـهـ
ليـكـونـ مـثـلـيـ، أـقـصـدـ: لـيـكـونـ جـاسـوـسـاـ وـلـيـسـ عـاهـرـةـ، لـكـنـهـ رـفـضـ،
وـأـبـلـغـ أـمـنـ سـفـارـتـنـاـ. وـمـنـ أـجـلـ أـنـ يـزـدـادـ الـفـيـلـمـ الـجـاسـوـسـيـ
«ـجـوـسـسـةـ»ـ، طـعـنـ سـتـارـكـوـ. أـحـدـ مـرـافـقـيـ جـيـسـكـاـ بـالـسـكـينـ هـذـاـ
الـسـكـرـتـيرـ الثـانـيـ الشـرـيفـ، فـادـعـتـ سـفـارـتـنـاـ عـلـىـ سـتـارـكـوـ أـمـامـ
نيـابةـ مـحـكـمةـ شـمـالـ الـجـيـزةـ. وـلـكـنـ التـحـقـيقـ اـنـتـهـىـ بـإـبـعادـ
الـسـكـرـتـيرـ الثـانـيـ الشـرـيفـ، وـهـكـذـاـ اـنـتـهـتـ قـصـتـهـ، فـهـلـ تـعـرـفـونـ
كـيـفـ اـنـتـهـتـ قـصـتـيـ؟

أـمـرـتـنـيـ جـيـسـكـاـ بـالـعـودـةـ إـلـىـ الـوـطـنـ الـحـبـبـ، لـيـسـ لـأـلـحـقـ
بـالـسـكـرـتـيرـ الثـانـيـ الشـرـيفـ، بلـ لـأـقـيمـ عـلـاقـاتـ حـارـةـ وـحـمـرـاءـ مـعـ
مـنـ أـسـتـطـيـعـ الـوـصـولـ إـلـيـهـ مـنـ ضـبـاطـ أـوـ مـسـؤـولـيـنـ، لـمـاـذاـ؟ حـتـىـ
أـجـمـعـ الـمـعـلـومـاتـ الـثـمـيـنـةـ وـأـزـوـدـ بـهـاـ جـيـسـكـاـ، وـإـلـاـ كـيـفـ يـمـكـنـ أـنـ

أكون بطلة فيلم جاسوسية سوري عربي عالمي ضخم؟
مالم أفهمه هو أمر جيسكا لي بعد فترة قصيرة بزيارة
سجن عدرا وسجن صيدنaya، لماذا؟ حتى أتعرف على أحوال
السجناء من المعارضين!

هذه هي قصتي بالختصر المفید. ومن يساوره أدنى شك
بها، فما عليه إلا أن يسأل المحققين: المعلم وسيدي، فأنا لم
أت بكلمة من عندي، وإنما حدثتكم بكلامهما، على الرغم من
أنني عبقرية، وإلا كيف تفسرون ما قمت به منذ الرابعة عشرة
من عمري؟ كيف تفسرون اهتمام السي آي إيه شخصياً ببنت
«فصعونه» لو لا أنها عبقرية في الجاسوسية؟
بقي سؤال واحد اسمحوا لي به: هل تعلمون أن طل الملوحي
مدونٌ؟

- ٣ -

مساء الخميس هفت الأستاذة سلوى لنمنوما بما حكمت
به المحكمة على طلّ:

السجن خمس سنوات، بتهمة تقديم معلومات إلى جهات
 أجنبية، بناء على أدلة تم ضبطها بالجريمة المشهود، بتقديم
معلومات تتعلق بأمن الوطن إلى المخابرات المركزية

الأمريكية. يحيا العدل.

كان صوت الأستاذة مخنوقاً. وبعد صمت ر بما بلعت أثناءه
دمعتها تابعت:

لورأيت طلّ وهي تدخل إلى المحكمة: مقيدة فهمنا، مكممة!
لماذا؟

وقطعت الاتصال دون وداع.

أسرعت نمنوما إلى ليليا وهي تغالب السؤال: مازا لو أن
طلّ متورطة فعلاً؟ وحين وقفت أمام ليليا وجههاً لوجه، امتلأت
سخطاً: لماذا كتبت أنا ليليا أبيضاني الشهيرة بطلّ الملوحي؟
انكتم السخط، فامتلأت نمنوما خوفاً من أن يكون بين ليليا
وطلّ شبه أو نسب. ولأن ليليا أدركت ما بأمها، أخذت تحكي ما
سوف تسميه حكاية المدونة. ولأن الحكاية طويلة، ومتشظية،
فقد استعانت بسراج الذي أقسم لنمنوما بأغلاق الأيمان على
أنه لا يعرف ما إن كانت الحكاية حكاية طلّ أم حكاية ليليا.
وهكذا ظلت الحكاية تطول، وتتشظي، و«تنبهم»، حتى صرحت
مديرة الإعلام في وزارة الخارجية للصحفيين أن طلّ الملوحي
ولدت في أسرة مفككة من جميع النواحي، ومهترزة القيم.

هذه دعوى مكتملة الأركان يا أمي: تفضلي يا أستاذة
سلوى كاف. هذه دعوى قدح وذم، دعوى تشهير. حتى لو كانت

البنت جاسوسة، مالكم ولأهله؟

سترمي نمنوما الأستاذة بكل ذلك في لقائهما القادم.
ولأنها رجحت الآن أن الحكاية قد اكتملت، فسوف تحكي
للأستاذة الحكاية من جديد، ولكن ليس كما حكتها مديرية
الإعلام في وزارة الخارجية، بل كما حكتها ليليا، وكما حكاما
سراج.

أنا بحبك يا نمنوما

فاضت نمنوما بالغبطة وهي تخطف من المرأة نظرة فنرة، بينما أصابعها تطوف بين عنقها وصدرها، ثم تهوي إلى وركيها، تتلمس ثمة وتتلذذ.

عن المرأة انفتلت فجأة، وقبل أن تغادر الغرفة هممت: أيام السعد أقبلت، يا رب. وابتسمت مشفقة، أو ضئينة، أو خائفة، إذ كانت أمس، في مثل هذه الدقائق تماماً، قد هممت ودعت، وهي تودع ليليا التي خرجت من البيت لأول مرة بعد اعتقالها. كان سراج ينتظر ليليا قبلة مدخل العمارة، حيث كانت سيارة الأمن تنتظر ليليا ذات صحي. ومن الشرفة، وخلال الأضواء الشحصية، أطلت نمنوما لترى ليليا وسراج يتصلحان، ثم تغيبهما السيارة.

أيام السعد أقبلت، يا رب: بالهمهة نفسها وبالدعاء نفسه استقبلتها بعد العاشرة، وكانت ليليا تصطخب حيوية: ماما، نمنوما الحلوة، كانت فرقه فيولون تشيليسمو ساحرة، على المسرح آلات تشيللو، مقطع من أوبرا توسكا، والحركات الأربع لتيلمان، ماما: كونشرتو، بطيئة سريعة، بطيئة، أسرع قليلاً، وقال سراج: لا تنسى مقطوعة موريس المرحة: مقهى بوينس

آيرس، وقالت ليليا: ولا تنسَ أنت مقطوعة دي فايا الناعمة:
الوشاح المغربي. ماما الحلوة، دار الأوبرا كانتاليوم ساحرة.
كررت نمنوما الهمممة والداعاء في سرها. وما كاد سراج
يغادر، وليليا تأوي إلى غرفتها، حتى زغرد الموبایل بصوته:
صباح!

غير مصدقة هتفت، وسكتت فرحاً وحزناً، وحزناً وفرحاً ما
عادت أذناتها تسمعان، وداورها البكاء فداورته، ولغا لسانها
بما لا تذكر، لكنها لن تنسى، لا كيف غفت لصبح واستغفت،
ولا كيف همممت ودعت، ولا كيف طارت إلى ليليا واحتضنتها
بآخر مما فعلت عندما خرجت المعتقلة من الفرع، لترتمي بين
ذراعي القاضية التي رفضت أن تنتظر ابنتهَا داخل الفرع،
وطلت مرابطة أمام البوابة الحديدية الكبرى، تتحاشى نظرات
الحارس المتيقظة والمتشككة، بل والنهمة.

* * *

باتنتظار لقاء صباح ما زال أمامها قرابة الساعة
استرخت ملء الكنبة أمام الشاشة التي كانت تبرق بما شهدت
بنغازي منذ ليالٍ من مصادمات بين مؤيدین لمعمر القذافي
ومعارضين. وتدخلت صور الصدام بالأخ القائد كما قدمته
المذيعة الهائجة يعلن أنه لن يقضي على العدو فقط، بل سوف

يخفض الموازنة الدفاعية للجماهيرية العظمى: كيف؟ بتفخيخ كل مواطن، كل سيارة، كل بيت، كل شارع. ولما انتقلت نمنوما إلى قناة أخرى، هدرت الشاشة باعتقال اللجنة الأهلية الناشطة ضد مذبحة بو سليم: ألفاً ومائتي سجين إسلامي سياسي منذ خمسة عشر عاماً. وتدخلت صور المذبحة بالأخت القائد لم يقدمه هذه العرة أحد وهو يعلن أن شمال أفريقيا كله شيعي فاطمي، وأن أكبر كذبة في التاريخ هي القول إن إيران شيعية والعرب سنة!

دَوَّتْ دهشة نمنوما في سماء الصالون التي تتوسطها ثريا صغيرة وبسيطة، بينما تابع معمر القذافي: زمن الأمة العربية ولئ، أمة في طريق الانحلال، أنا لا أريد أي علاقة بالعرب، فليبيا أمة Africique، وكفى.

أحلى قائد: هفت نمنوما ضاحكة بينما كان القذافي يعلن أنه سيوزع على الشعب مباشرة ما يتحصل من ثمن البترول، ثم دعا إلى الجهاد ضد سويسرا لأنها تهدم المساجد: وامحمداته: خُيل لمنوما أن أحدهم قد هتف، بينما كانت الشاشة تتذيل بخبر اعتقال هنيبعل القذافي وزوجته في أوتيل في جنيف، بتهمة الاعتداء على خادمتين.

تعودت نمنوما من حمرة لون الخبر، ولأمر ما أخذت تبحث

عن قناة ليبية. ولما ظفرت بالقناة الجماهيرية، أسرعت تبحث عن سواها. ولما ظفرت بالقناة الشبابية عادت إلى الأولى، وإذا بسيف الإسلام القذافي يمسح العرق عن صلعته، ويعلن أن ليبيا ليست تونس ولا مصر، ومعمر القذافي ليس مثل زين العابدين بن علي ولا مثل حسني مبارك. وشرح مستعيناً بأصابعه: ليبيا قبائل وعشائر وتحالفات، وليس فيها مجتمع مدني ولا أحزاب.

ماذا كان يفعل أبوك إذاً طوال أربعين سنة؟
تمت نمنوما، فيما كان سيف الإسلام يصرخ: الجيش الليبي ليس جيش تونس ولا جيش مصر. جيشنا سيكون وفيأليبيا، وسيكون وفيألا معمر القذافي حتى آخر..

أخفت هممة نمنوما الكلمة الأخيرة، وتمت متوعدة: بكرة بنشوف. وتمعنت في صلعة سيف الإسلام التي أخذت تكبر وتتشع، وقد هدا صوته، وأخذ يعلن بروية أن النظام الأول انتهى أي النظام السابق أو نظام الوالد: شرحت نمنوما لنفسها وسيتم الاتفاق على علم جديد، نشيد جديد، نظام جديد، ليبيا جديدة، ليبيا التي نحلم بها كلنا ونحبها. أما الجيش فسيكون له دور أساسي في فرض الأمن وإرجاع الأمور إلى نصابها بأي ثمن كان. وبلغ سيف الإسلام ريقه وحنجرته مرتين، ثم

تابع وصوته يتعالى متهدجاً: استعدوا أيها الليبيون للدخول في مواجهات، لتقسيم ليبيا قطعة قطعة والدخول في حرب أهلية. انسوا أن هناك شيئاً اسمه بترول، انسوا أن هناك شيئاً اسمه غاز. في البيضاء احتلوا المعسرك وعملوا إمارة إسلامية وإذاعة.

همت نمنوما بطلاق دهشة كانت ست DOI: 10.5093/2014-106
الصالون ثانية، لو لا أن سيف الإسلام اختفى، وأخذت الشاشة تتفجر: شبان مظليون يهبطون، أيدٍ نصرة تقطف البرتقال، طفلات مزينات يلوحن بالعلم الأخضر، سهول خضراء بلا نهاية، ساحة خضراء، مياه دفقة، حصانان عاشقان، طوارقى يعزف على الأرغول: أين أنت يا إبراهيم الكوني؟ يا أخي فلقتنا بالطوارق! وكانت أصوات شجية تصدح:

سبحان الله اللي أعطاك

والمولى معاك

حاميك من كل أعداك

وأنت أعظم صورة

منصورة يا معמורה

منصورة يا نورا

منصورة يا ليبيا

فكرت نمنوما أن ما ترى وتسمع فيديو كليب مؤثر،
وربما لذلك انتقلت إلى القناة الشبابية، وإذا بشاحنة هائلة
أدارت لنمنوما قفاصاها المفتوح، وصوت القذافي معمر أو سيف
الإسلام: لم تتبيّن نمنوما يجعر: شوفوا حبوب الهلوسة، شوفوا
المهلوسين، وكانت أذرع شابة قد أخذت تخطف من قفا
الشاحنة علباً كرتونية مزروقة.

* * *

نهضت نمنوما، وتهادت إلى غرفتها وهي تتتساءل عما
ستلاقى به صباح: عناق أم مصافحة؟ ضحكة أم تكشيرية؟
حياد؟ وسرقت من ساعتها نظرة، وأسرعت إلى المرأة، وسرقت
من شفتيها نظرة، فنظرية من صدرها، فنظرية من بطئها، ثم
غمزت نمنوما التي في المرأة، ثم طارت إلى ساحة الشهبندر.

Chez nous: هذا هو المقهى، فأين هو صباح؟
تقدمي خطوة خطوة، كوني رزينة كما يليق بقضية،
بأريعينية، بأم لشابة، أديري عينيك في الزوايا المعتمة،
ما من أحد حولك ينظر إليك إلا وقد أدرك أنك عاشقة تبحث
عن عاشق، استرخي، أهلاً نمنوما، وهذا هو صباح إذاً، هذا
هو صباح أخيراً، تحيته تلفع عنقك من اليمين، أهلاً صباح،
تنحبس التحية في حلرك وخلف ما ترقرق في مقلتيك، لكن

لهفة كفيك تحرر التحية وتودعها في كفي صباح، ولكي لا
تفترق الأكف تجلسان متجاورين: أين هي القاضية المتحفظة
إذا؟

لهنيهة يجاللكما الصمت الدافئ للهفان، ثم يغمغم صباح:
كيف؟ فتغمغمين: كيف انت؟ ثم تكملين جريدة فيروز وابنها:
ملاً انت، وتبتسم شفتاك فييلالهما لسانك شاكرأ، وتلحق بلسانك
نظرة صباح فتهرب كف من كف، وتهرب عيناك من عينيه،
وتحمر وجنتاك لأنك صغرت عشرين سنة، بل أنت الآن أصغر
من ليليا، ولذلك تخشين أن لا تجدا ما تتبدلانه من كلام،
فتعودين إليه عجلى ولهمى، وتحثه نظراتك على أن يتكلم،
لكنه يبدو قد خرس حقاً، فتخافين، وتأخين عليه هامسة:
فيك الخير، تذكرتني.

أنا نسيتك لحظة حتى أذكرك؟

والقطيعة؟ قرّينا من ثلاثة أشهر.

القطيعة عقوبة لي، أستحققها. القطيعة خجلأ منك.
وربما كان سيدج تبريراً أكثر إقناعاً، لو لا أن الموبايل
رن فجأة في جيبه، فأجفل. وعلى الرغم من الضوء الخافت،
لاحظت اصفرار وجهه وارتباكه وأصابعه وهي تتسلل إلى
الجيب، وتتناول الموبايل بحذر ورهبة، ثم ترميه بينكمما،

حتى إذا انقطع الرنين حدق فيه، وحدق فيك، وفجأة انفجرت ضحكتهما، ولم تتوقف حتى أدمعت عيونكما واستبكت أصابعكما. وبعد لأي من صمت الأمان اللذين، همس مصطنعاً

الجد:

ما رأيك بمشوار إلى حماة؟

حرر السؤال أصابعك، وتراقصت بينكما أخيلة راتب وينان والعاصي والمدفأة والصوفا المدبرة للصوفا، والطريق الممطرة ومساحة السيارة المتوقفة، ولوحتا محمية البلعاس ومحمية التليلة في صدر الصالون، وخفت من أن تفقدي صباح من جديد، وكبر خوفك من أن يكذب من جديد، وغشيك ظلٌّ من الانزعاج، فسألت كي تبديه:

يعلمك أن راتب عاد إلى التخفي؟

أخبرني منذ فترة، وحاولت بعدها الاتصال به. هاتفه لا يجيب.

قال، فشرحت أنه قد يكون بدل رقمه، وأنه زارك في المكتب، وأنكما تناولتما الغداء في مطعم في باب شرقى. ولأنك نسيت اسم المطعم، أو لأن نظرات صباح قد تبدلت، ترددت قبل أن تضيفي أنك أجالت راتب في بيتك يومين.

وليليا؟ وأخوك؟

سأل بانفعال مكتوم، لكنه لم يخف عليك. وأنت إذاً تغار علىي، ولكن من يا صباح؟ من صديقك؟ ليлиانا كانت في البيت، ويامن كان في حمص، وأنت تسحب كفيك عن الطاولة، وتتسند جذعك بعيداً. أنت إذاً لم تعد مشتاقاً لي. أنت تشک فی، لذلك تنسحب كفاي أنا أيضاً عن الطاولة. وأُسند جذعي بعيداً، وأرفض عرضك وعرض النادل: لن أشرب شيئاً. لن آكل شيئاً.
لماذا لا تسألني عما شربت مع راتب وعما أكلت؟

بعد سحابة صمت عكرة أخافك ما لاحظت من اصفار وجهه، وتمنيت لو يعيد كفيه إلى الطاولة، ثم أطرقته، ليسأل لسانك على هواه:
متى جئت؟
البارحة.

بالم انتزع كلماته، لذلك تكلفت ابتسامة وسألت:
أين قضيت ليلاتك؟
في الأوتيل.

قلت وأنت تجعلين ابتسامتك أغرض، فرد كأنه يحلف أو يبرأ من تهمة:
وحدي.

فَكِرْتِ: مَتَى سَتُحَدِّثنِي عَنْ نِسَائِكِ؟ لَكِنْكِ قَلْتَ:
لَوْ اتَّصَلْتَ بِأُمِّ كُوزْ أَنطَوْانَ مَثَلًا.
قَضَيْتِ اللَّيلَ أَفْكَرَ فِي الاتِّصالِ بِكَ، خَفْتَ أَنْ أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ
نَسْهَرَ.

قَالَ وَصُوتُه يَذُوبُ شُوقًا، وَهَرَعَتْ كَفَاهُ إِلَى سَطْحِ الطَّاولةِ،
وَانْتَظَرَتَا حَتَّى اقْتَرَبَ كَفَاكَ، فَتَابَعَ:
نَمْنُومًا، أَرْجُوكَ، هَلْ يَمْكُنْ أَنْ نَبْدَأْ مِنْ جَدِيدٍ؟
وَلَكِنْ بِلَا هَرْبٍ، بِلَا كَذْبٍ وَبِلَا غَيْرَةٍ.
قَلْتَ، وَتَرَكْتَ كَفِيكَ تَتْمِسْحَانَ بِكَفِيهِ، لَفْرَطَ مَا حَسْبَتَهُ
ضَعِيفًا، حَتَّى لِيَكَادَ أَنْ يَهُوِيَ.
حَاضِرٌ:

هَتَّفَتْ ذِرَاعَاهُ لِتَرْتَمِي بَيْنَهُما، وَلَتَسْمِعِي مِنْ يَهْمَسُ فِي
أَذْنَكَ لِأَوْلَ مَرَّةٍ مِنْذَ زَمْنٍ وَاصِلُ وَالْجَامِعَةِ: أَنَا بَحْبُكَ يَا نَمْنُومَا،
فَلِمَاذَا أَلْجَمْتِ لِسَانَكَ وَأَطْلَقْتِ دَمْعَتَكَ؟

بحر نمنوما

غرفته الصغيرة في أوتيل برج الفردوس تزيح الستارة عن النافذة العريضة التي تبدو كأنما تزداد عرضًا، حتى لتغدو هي الجدار المقابل لصباح، والجدار يغدو هي وقد انفتحت على مصاريعها. بالأحرى يغدو الجدار هي وقد تعرت من الزجاج الغامق. وهكذا امتلأت الغرفة بالفجر التائه بين الزرقة والضوء، وأطلّ قاسيون عريان كعادته، لكنه كان هذه المرة مخوزقاً أيضاً، من رأسه، والخازوق يذهب عالياً في السماء، كأنه واحدة من صواري البث التلفزيوني أو المجرسات الرادارية.

بدا قاسيون أيضاً بردان. هو برد الفجر، وعمنا قليل سيصير برد الصباح: يعرفه صباح جيداً، ويتلذذ به غافياً كما يتلذذ صاحياً، أو بين بين. وسواء كان في هذه أو تلك من حالاته الثلاث، فهو يرشق من سريره رأس قاسيون بحفنات من الضباب، سرعان ما تغدو غلالات بيضاء، تعروها توشيات ملونة وهي تنفسح وتترامى فوق الجبل، حتى لتغدو مثل نوم صباح: هي ست وعراء، وهو صحوة وغفوة، لذلك ينادي نمنوما إلى بار الأوتييل الصغير المنفتح على البهو: أربع

طاولات في الصدر، البارمان الشاب الكظيم، الجدار المرصّع
بالزجاجات، الضوء الخفيت، وفي الخلف: ذيل طويل وضيق
ترادف فيه طاولتان: ها هنا تختار نمنوما أن يجلسا، كي
تدرأ القاضية العيون والأصوات الفائرة في الشي نو، وفي بهو
الأوتيل، وتتلذذ بكأس النبيذ، بعدهما تستسلم للفضيحة التي
تأتي على يد صباح، كما كان يمكن أن تأتي على يد راتب، لو
استجابت لدعوته وشربت كأساً، أي كأس، لا يهم مرة أخرى
يكتم صباح انفعاله جراء ذكر راتب، ونمنوما تتجاهل فالملهم
أن القاضية نمنوما زكي تنتقل من مطعم إلى مقهى إلى بار،
مرة مع متخفّ مطلوب، ومرة مع عاشق فضحه عشقه في الشي
نو، فأسرع إلى بار الأوتيل. وفي غفلة منه، كما في غفلة من
نمنوما، استعرت الشهوة به وبها، لكانها أنثاه الأولى، وكأنه
ذكرها الأول!

لكن نمنوما ترمي بطوق النجا، إذ تهتف إلى أم كوز ممرين،
ثم تتأبط ذراع صباح لخطوتين، هامسة:
أنت قلت: بداية جديدة. لنسرّ إذاً في البيت الذي كانت فيه
البداية الأولى.

من النافذة الخفيفضة المطلة على السماوية الصغيرة،
انسلّت عينا صباح متخفيتين، لتقرّيا أثراً من سهرته الأولى

مع نمنوما. وسكت العينان إذ ظفرتا بنمنوما قبالتهم،
وغارتا من جارها، واستوحشتا من شباب مَنْ حوله ومن
كهوته، واستملحتا تسمية أنطوان وممیز بأم كوز وأبدعنا
رسماً ساحراً للطائر السوري النادر. ولما عادت عيناً صباحاً
إلى الغرفة الباردة التي تضيق بأربع كراسٍ خيزرانية تتحلق
حول طاولة مستديرة خيزرانية، كان أم كوز أنطوان وأم كوز
ممیز يتباريان:

هي تسبقه إلى الاعتصام في حديقة المدفع: كنا أكثر من
خمسين، كانت ليلاً معنا، أضأنا الشموع وهتفنا: يا حرية
وينك وينك، حُكم معمر بيّني وبيّنك.

وهو يسبقها إلى الدعوة إلى الاعتصام على الفيس بوك، ثم
يسبقها إلى الاعتصام أمام السفارة المصرية: بدننا نحتفل
باتصاري الثورة ٢٥ يناير، وكانت ليلاً معنا، رجال الأمن آخر
شيادة، سُورونا ونحن نهتف: الشعب يريد محاكمة الرئيس.

ثم يلتقي المتباريان على الطريق إلى السفارة الليبية:
هي: خرجنا من الحديقة، البنات في المقدمة، ولما وصلنا
كان الأمن يطوق السفارة. سألونا: شو بدكن؟
هو: أنا قلت: بدننا نرفع علم الثورة الليبية على السفارة،
وهتفت: خاين يللي بيقتل شعبه.

هي: واحد من الأمان لبني ولبط بنتين أمامي، هتفنا
سلمية سلمية، وحاول الشباب تخليصنا.

هو: كرمي لك هتفت: خاين يالله بيضرب شعبه، ولو لا أني
انتزعتك من أيديهم لكانوا اعتقلوك مثل من اعتقلوهم.
هي: كاسك يا بطل.

وتأتي على ما في كأسها من العرق، ثم تدشن:

طلب أول بوسة

طقطق خشب البيت

طلب تاني بوسة

مال الحيط على الحيط

طلب تالت بوسة

هربيت منه

إنجنيت

جانم يا لالله.

وهل صباح ونمنوما، بينما أمعن أم كوز أنطوان في
المباراة، وغنى بصوت عال:

لطخ لراس قاسيون واشرف على الفوطة

وادعى يا ربي نسمة هوا تكشف لي الفوطة

لبيين باشة حلب وحوله الأفندية

ما أحلى الوما باللوما وما أحلى العزوبية

صاح صباح مكذبًا حلاوة العزوبيّة، بينما كانت عيناه
 ترشفان محياً نمنوماً التي اعترافها الخوف من تسويير رجال
 الأمن للاعتصام، فليلياً أمام هذه السفاره وأمام هذه السفاره.
 ولذلك سلف ذراع صباح كتف نمنوماً، أو هكذا ينبغي أن
 تفعل الآن، فبرد الفجر يلاعب النافذة الجدار، كما يلاعب
 الخازوق الذي يخوزق قاسيون في رأسه، والسماء في إستها.
 لكن كف نمنوماً ستظل باردة. بل إن البرد سيرعدها مع طلوع
 الشمس، إلا إذا قيض لسورية من يدفعها بناره، كما أدفأ معمراً
 بوعزيزى تونس بناره.

* * *

من أجل ذلك قيل إن معمراً بوعزيزى السوري، قد فعلها
 في الحسكة. لكن ذوي بهنان هناك نفوا، فنفي، وتعاظم النفي
 حتى قيل: لو أن عشرين معمراً بوعزيزى فعلوها في أرجاء
 سورياً جمِيعاً، لما اهتزت شعرة في المفرق السوري الوضاء،
 ولظل البرد يُرعد نمنوماً.

وهكذا لم يبق أمام صباح إلا أن ينادي إلى ناحية من
 قاسيون ربما كانت قبة السيارات، بل ربما كانت مغارة الأربعين
 أول معمراً بوعزيزى عربي اشتري قنينة بنزين من الكازية،
 ورش بها نفسه، ثم أودى أمام بوابة البرلمان المغربي، في
 الرباط طبعاً، وليس في قاسيون.



ثم نادى صباحاً إلى ناحية أخرى من قاسيون ربما كانت حيث تضيئه ليلاً لمبات الكهرباء، بل ربما كانت حيث تترافق سارية آخر عمر بوعزيزي عربي حتى هذا الفجر البارد، أشعل النار بأطراشه مقابل مديرية أمن الشرطة احتجاجاً على الحقرة، في مستغانم، في الجزائر طبعاً، وليس في قاسيون. وهنا ذكرت أم كوز مميز بعمر بوعزيزي ثالث، جزائري أيضاً، وفي السادسة والعشرين، هدد بحرق نفسه في محكمة بوعريريج قبل شهر، لأنّه عجز عن استعادة دراجته التي حجزتها الشرطة.

قال أم كوز أنطوان ساخراً، وهو يدفع بكتفيه إلى الأمام:
صار عمر بوعزيزي موضة، والشاطر يحرق نفسه.

فقالت نمنوما:

المهم أنه صار لدينا ١٧ فبراير في ليبيا و ٢٠ فبراير في المغرب والحبيل على الجرار.

فقالت أم كوز مميز وقد اتقدت سمرتها الخلاصية:
في بيروت هتفوا: الشعب يريد إسقاط النظام الطائفي، في مسقط الاعتصامات في كل مكان. في بغداد: نداء الانتفاضة الخضراء في ٢٠ فبراير أيضاً، قبلها مظاهرة شارع المتنبي، يوم الجمعة. الحبل على الجرار.

قال صباح منقلأ نظرته بين نمنوما وأم كوز مميز
من تمك وتمها لباب السما.

فنغمت نمنوما صوتها قائلة:
أيام السعد أقبلت، يا رب.

وكادت أن تنعم على صباح بالقبلة الأولى، لو لا أن عيون
أم كوز مميز وأم كوز أنطوان بالمرصاد.

* * *

وبعدين يا نمنوما؟
وبعدين يا صباح؟

على وقع السؤال مندغماً بالسؤال، تعانقت أصابعهما حتى
اقترب منتصف الليل. ولم تفترق الأصابع في التاكسي التي
خطفت الطريق خطفاً إلى الفيللات الغربية، ثم وقفت أمام
مدخل العمارة، لتشهد كيف تفترق الأصابع، ثم تعود بصبح
إلى الغرفة التي لن تنام، ولن تدع صباح ينام، لكنها ستدعه
مشلعاً مثل النافذة الجدار المشرعة على شفير النوم، كي تتبيّن
أيها المتيم المسهد البردان كلمات نمنوما في التاكسي، أو في
الطريق إليها، أو في الطريق إلى مدخل العمارة: لا أستطيع أن
أدعوك إلى البيت الآن، ليلاً هنا ويامن هنا، ولا أستطيع أن
أرافقك إلى الأوتيل، حتى لو حجزت لي غرفة مستقلة. لست

قادرة على مغامرة كهذه، لا أستطيع أن أرافقك، لا في نهار ولا
في ليل، إلى بيت صديق لك أو صديقة لي.

لذلك ما بقي لك طوال ما تبقى من الليل إلا أن تطير
بنمنوما إلى اللاذقية، أي إلى البحر الذي لا شبيه له إلاه،
البحر المألوس، البحر المأنوث، هو هو بحر نمنوما، هو هو
البحر الجھول، إبطه مزعفر مثل إبط نمنوما، ومثل الأثر الدقيق
لنمثات ثلاثة في وھدة أنفها، هو نمش البحر الأزرق زرقة
النوارس، الأخضر خضرة هذا الفجر الذي ما عاد يصبر عليك،
ولا عدت تصبر عليه، لكانما تنازعه على نمنوما، وليس هو
من ينazuك على روحك.
نمنوما!

فاخر باشا

هذا هو أخوك الأكبر يا أستاذة نمنوما.

هذا هو أخوك الأكبر أيتها القاضية التزية الصارمة
المعارضة للفساد والاستبداد.

هذا هو فاخر باشا كما يُنادي منذ كان طالباً في البكالوريا.
حتى في برلين كان يُنادي: فاخر باشا. وقد يغفر لمن يجهله
أو يخاطبه لأول مرة: أستاذ فاخر، فاخر بك وخاصة هنا في
دمشق لكنه لن يغفر لمخاطبه نفسه في اللقاء الثاني ألا يملأ
فمه مفخماً بالبашوية، حتى لو جاء اللقاء بعد عشر سنين،
فذاكرة فاخر باشا وقاده دوماً كأنها ابنة العشرين.

كنت صغيرة يا أستاذة عندما كان أخوك الأكبر يتتساءل
ممازحاً، ثم جادأ، ومباهياً في أية حال: بم يفضلني أئي من
باشوارات حمص؟ بل من باشوارات سوريا؟ بل من باشوارات تركيا،
الآن أو قبل مائة سنة؟

أخوك يا أستاذة كان دوماً بلواك. أنت كنت حقاً مدللته
الصغريرة، لكنه كان لك بالمرصاد دوماً. لم يقف ضد طلاقك
من واصل، بل استبسلي في ثنيك، وحرض والدك أنت مدللته
الصغريرة والكبيرة أيضاً حتى غضب عليك، ولم يبادرك حرفأً

بعد طلاقك حتى احتضاره. لكن فاخر باشا أخفق في تحريض والدتك على معاقبتك. ولأنها كانت دوماً سيدة البيت، منعت فاخر باشا من تحريض إخوتك ضدك. بل إن يامن اختار أن يقيم عندك منذ انتسب إلى كلية التربية، على أن ينضوي تحت رعاية أخيه الأكبر: رخ ادرس في برلين ما تشاء. تعال استلم أي معلم من معاملي إن شئت، طلع الشعر على لسان الأخ الأكبر هكذا يعبر كلما أخفق فيما يحاول لكن الأخ الأصغر فاق أخته المدللة نمنوما عناداً إلى جهنم: رمى فاخر باشا العبارة في وجه أخيه، كما رماها في وجه أخته ذات يوم، لكنه ظل يتبع أمريهما من قريب ومن بعيد.

هذا هو فاخر باشا: الآن الآن، وبينما الدنيا تتلاطم، مصر تتلاطم، تونس، ليبيا، اليمن، المغرب، حتى لبنان حتى العراق، حتى البحرين، حتى سوريا يا فاخر باشا بدأت تمور، وربما تتلاطم في يوم قريب، أما أنت، بجلال قدرك، فمطلوب الآن الآن للمباحث الجنائية، ومطلوب الآن الآن للأمن الاقتصادي، والحدر الحذر يا باشا، فأحباب قلبك في أي فرع من الفروع الأمنية قد يطلبونك أيضاً، وكل ذلك من أجل مازا يا باشا؟

تحت سطوطك مخبر مديرية الاقتصاد في حمص من الباب إلى المحراب. لكن المَخْبِر ضبط بالجرائم المشهود في عينات

معملك الرسمي وفي ورشاتك معاملك المنزليه ملء حفنتك
اليمني من جراثيم الكوليغوروم، وملء حفنتك اليسرى من
جراثيم العنقوديات الذهبية، فهنئناً لكِ بأخيك يا أستاذة
نمنوما، ما دامت سمعة الأخت من سمعة أخيها كما صدفك
يوم طلاقك، وكما صدفك يوم حضرت محاكمة المعتقلين في
حلب. أما الآن فسمعة العائلة كلها على كل لسان بفضل رجل
الأعمال الذي بات نجماً من نجوم المكتومين الكبار، ونجماً من
نجوم الشبان الرائعين، ونجماً من نجوم الذئاب الجديدة، كما
حدث الدكتور بهنان صديقه صباح الذي حدثك بما تعلمين،
وكما حدثك فاخر باشا نفسه بما لا تعلمين، فشغلتك رجفة
صوته لم تسمعها من قبل بما كان يقول. وها هو يتضاهر
أمامك، بينما تتناولين من رجفة أصابعه المصنف الزاخر:
لاقي لي مخرج قانوني يا نمنوما.

* * *

لماذا لجأت إليّ يا أخي؟ أنت لا تستطيع أو لا تريد أن
تستشير محام قبل أن أجده لك مخرجاً. بالله عليك كيف تراءى
لك للحظة واحدة أنني يمكن أن ألوث يدي بمثل هذه القضية؟
كنت تسألين في سرك وأنت تقلبين ورقة تلو ورقة: الورشة
الأولى في منتصف شارع الحضارة، مقابل مكتب الجمعية



الخيرية، بناء سكني مساحة ٢٤٠ م٢ بلا جدران، صالة واحدة هي قبو بناية فاخر باشا الأخيرة. والورشة الثانية في القرابيص، مقابل دار اليمامة للطباعة، الطابق الأول، بناء سكني ١٨٠ م٢، الشقة اليمنى الأولى من عمارة فاخر باشا أيضاً، ولكن الأولى له في سوق العقارات. قولي يا أستاذة: معمل ألبان وأجبان، لا تقولي ورشة في بيت، والعمل من السابعة مساء إلى السابعة صباحاً. لماذا يا أخي؟

تسألين محدثة هذه المرة، فيتخلص صوت فاخر باشا من رجفته ليجيبك: طلباً للستر والأمان يا أخي.

كيف دوهمت الورشتان يا أخي؟

بإذن من النائب العام يا أخي. أنت قاضية وتعرفين الأصول والإجراءات القانونية.

ولأنك قاضية، فأنت من سيضبط مخالفات معامل وورشات فاخر باشا لصناعة الألبان والأجبان في طول حمص العدية وعرضها، وليس فقط في شارع الحضارة أو في حي القرابيص. لا تنسى الورشة الأولى أو المعمل الأقدم في البيت العتيق الذي رياكم فيه المرحوم والدك، خلف جامع سيدى خالد. والآن عدى أيتها القاضية النزية الصرامة المعارضة للفساد والاستبداد:

المخالفة ١: لا يوجد ترخيص في الورشات الثلاث.

المخالفة ٢: تحويل منزل سكني إلى معمل.

المخالفة ٣: ما من عامل يرتدي اللباس الصحي.

المخالفة ٤: ما من عامل يعمق يديه قبل أن يبدأ العمل.

المخالفة ٥: التدخين ليس ممنوعاً في المعمل. ضبطت ثلاثة حالات. لا إعلان بالمنع. والقاضية تعلم أن الحليب ماص للروائح، مثله مثل اللبن ومثل الجبنة.

المخالفة ٦: افتقار الشروط الصحية والأمان: لا أجهزة إطفاء لا صيدلية التواليت فائض بالبراز.

المخالفة ٧: أرضية كل ورشة مبلطة بالبلاط X ٣٠ X ٣٠. الجدران سيراميك حتى الزنار فقط.
الأسقف عارية بلا سيراميك.

لماذا تدخل يا فاخر باشا بمئة صندوق سيراميك مثلاً؟
لماذا تدخل بمائة بذلة عمل بيضاء مثلاً؟

لعنة الله على الطمع يا أخي.

الإنسان مجبر من الطمع وعلى الطمع يا أخي.
حسناً يا فاخر باشا، حسناً يا أستاذ فاخر، حسناً يا فاخر بك: دع ورشاتك جانباً الآن وتعال إلى معملك الرسمي، معملك المرخص أصولاً، أكبر معمل ألبان وأجبان في طول حمص

العدية وعرضها، أكبر معمل في الغوطة، وهذه غوطة حمص
وليس غوطة الشام يا أستاذة نمنوما. والآن عدّي:

المخالفة ١: ضُبط في المستودع كيس متروس بكريونات الصوديوم.

المخالفة ٢: تم ضبط كيس متروس ببنزوات الصوديوم.

المخالفة ٣: تم ضبط صندوق عليه لاصقة مكتوب فيها:

مكون غذائي مع كوستيك الصودا بلجيكا بروكسل.

المخالفة ٤: بيدون من الماء الأوكسجيني.

المخالفة ٥: بيدون من مواد مجهرة.

المخالفة ٦: بيدون من المواد المائة.

المخالفة ٧: أكياس نشاء الذرة مغلقة زنة ٥٠ كيلو عدد ٩

+ كيس مفتوح وشبه فارغ.

ولأنك قاضية جاهلة فسوف يشرح لك غوغل، بينما يتابع
أخوك الأكبر نقرات أصابعك، وتبدل ملامحك وأنفاسك:

١ كوستيك الصودا ممنوع غذائياً، ويستخدم للتنظيف في
دارات المغاسل.

٢ الماء الأوكسجيني: يسرّع غليان الحليب، فيوفر من
المحروقات، لكنه يتلف الفيتامينات.

٣ كريونات الصوديوم: تنظم الحموضة.

٤ نشاء الذرة: لزيادة الوزن.

٥ بنزوات الصوديوم: مادة حافظة.

٦ المادة المائية: تجعل كل ٢ كغ من الحليب تعطي ١ كغ من الجبن، بينما يحتاج هذا الكيلو إلى ٦ كغ من الحليب العادي.

والآن جاء دوري يا أخي:
الأكياس البلجيكية ممنوعة،
الماء الأوكسجيني ممنوع،
البنزوات ممنوعة،
المادة المائية أيضاً.

وباختصار يا أخي: أنت تعمل في الممنوعات، فمن أين تأتي بها؟

من بيروت يا أخي.

إذن أنت مهرب أيضاً يا أخي، وأنا لا أنفعك في شيء.
لا تكذبي على نفسك سيدتي القاضية. كان خفق قلبك
يضطرب. شفتاك كانتا ترتجفان وأنت تنفضحين يدك من أخيك
الذي تضخم وتعاظم كأنه لم يكن المتصاغر الذليل الضعيف
للتقو، وظل ينتفع كأنه بالون هائل حتى انفجر: كنت أعرف أنك
لن تقفي معى، ولكن قلت جرب يا فاخر، لن تخذلك نمنوما، من
حمص إلى الشام سمعة أختك ذهب، نمنوما فقيهة، ولا بد أن

تجد لك مخرجاً قانونياً، ولكن ها قد خاب أملني فيك كما خاب طوال عمري. أنت تعلمين أنني سأخرج من هذه القضية مثل الشارة من العجين. لمْ ضرب الله على قلبي وقصدتك؟ حسابك بعدين يا نمنوما.

لا، لم يخفك تهديده ولا وعيده، لكنك خفت عليه. ولو لم ينفذه خارجاً ويصفق الباب خلفه، لكت أمسكت بكفه، ربما مواسية، أو مهونة، أو مشجعة، وربما كنت رميت رأسك على كتفه وبكيت، مثلما كنت تفعلين عقب كل شجار بينكما، عندما كانت مدللة أبيها هي مدللة أخيها أيضاً. أما الآن؟

يامن على جرف

كعادته كلما داهمه الضيق، أسرعت قدماه إلى الأسواق
المعتمة الباردة المقببة المتشابكة. لكنَّ القدمين اختارتتا هذه
المرة أن تحوما حول ساحة الحرية، وفيها. ولكي يهرب مما
يكربه في البيت يوماً بعد يوم،أخذ يبحث عينيه على أن تتناهبا
كل ما تقعان عليه، فأذعننا، لكن ما به ظل يشاغله وينغص
عليه، حتى رأى نفسه فجأة قد بلغ ساحة الحرية من جهة
اليمين، وإذا برؤوس تجمهر وتتدافع، فتراجع خطوات قبل أن
يتبيّن من الصراخ حوله أن هذا الشرطي قد صفع هذا الشاب
على هذا الخد وعلى هذا الخد، فماذا تريد منه أن يفعل؟ مَاذا
تريد من الناس أن يفعلوا؟

لا إله إلا الله.

تلفت يامن ليبحث عن الشرطي، وعن هذا الذي اسمه عماد،
وعن هذا الذي يهتف: لا إله إلا الله، لكنه لم ير إلا قبضات ترزاً،
فأسرعت عيناه تبحثان عنمن قد تصرّبه القبضات، لكنهما
اصطدمتا بالوجوه الهاجمة من الشرفات والتراويف.
ولما عادت العينان إلى يامن كانت أذناه تصطخبان
بالدوبي الهاتف: حاميها حراميها، الشعب السوري ما بينذل.

بالطبع، ما كان ليامن أن يردد الهاتف، لو لا أن الحشد أخذ
يجرفه نحو الساحة. ويعسر بالغ استطاع أن يملص. ولما رأى
جهة البنك تكاد تكون خالية جرى إليها، ومنها لبث يرقب بين
قلة الحشد يتقدم ببطء، والساحة تمتلئ ببطء، بينما الهاتف
يزداد دوياً، والقبضات تزأر أعلى وأقوى.

ولما رأى على أمتار من موقعه، وقبالته تماماً، شاباً
واقفاً فوق كتفي شاب، فكر في أن هذا الشاب هو نفسه عmad
الذي صفعه الشرطي، وأنه يمكن لهذا الشاب أن يكون محمد
بوعزيزي السوري، فها هو يستصرخ الناس مثلما استصرخهم
محمد بوعزيزي التونسي، عندما صفعته الشرطية. ولسوف
يرق نفسه عmad بوعزيزي السوري، عما قليل، ليطلق الثورة
السورية من هنا، من ساحة الحرية. وخاف يامن من أن
يفرح، كما خاف من أن يستاء، ثم ترکز خوفه من أن يكون
هو الشاهد الأول، بل الوحيد، على حدث بهذا الحدث. لكن
المفاجأة أنقذته من الخوف، إذ غطى على كل دوي زعيق هائل
مثل زعيق رتل من سيارات الشرطة أو الإسعاف، دفعة واحدة.
وأخذ الحشد يتماوج ويرتمي على ضفاف الساحة، لينفرج
عن رجل متوسط الطول وممتلىء. وما كاد يامن يلمع الرجل
حتى تعالت الصيحات: جاء وزير الداخلية، هذا وزير الداخلية،

انظر انظر: هذا هو الشرطي الذي صفع عمار، انظر انظر: الوزير
يصف الشرطي على هذا الخد وعلى هذا الخد، انظر انظر: الوزير
يقبل عمار على هذا الخد وعلى هذا الخد، والآن اسمع اسمع:
بالروح، بالدم، نفديك يا بشار.

هتف يامن حتى بح صوته، ويحماسة المنتصر عاد إلى
البيت ليقص على نمنوما وعلى ليليا ما شاهد. وتلاشت
حماسته عندما قرأ في صمت نمنوما استخفافاً، كما قرأ في
صمت ليليا وعيها، لأنها تهدن: دقت ساعة سوريا يا خالي.

* * *

كان يامن قد أخذ ينكفء بالاطراد مع تفاقم جنون ليليا
وسكت نمنوما عليها: هكذا وصف ما بهما في سرّه منذ سقط
الرئيس التونسي، ثم جهر بالوصف منذ سقط الرئيس المصري.
وحين علم باعتقال ليليا، علا صوته محذراً، فزجرته نظرات
نمنوما، لكنه لم ينجزر هذه المرة، بخلاف ما تعود وتعودت
منذ آثر جامعة دمشق على جامعة حمص، والإقامة عند
نمنوما على السكنى وحيداً، وعلى وعد فاخر باشا.

كان في كل شقيق ليامن أو شقيقة ما يُكبه أو يجذبه، وما
ينفره أو لا يعجبه، إلا نمنوما التي ما رأها يوماً إلا أمثلولة.
كان في فتوته يسمع من حوله ينقسمون: أسيمة هي

الأجمل، لا، نمنوما هي الأجمل، فأخذ في لحظة مفاجئة من إحدى زياراتها يدقق فيما يسمع، وينقل عينيه بين شقيقتيه، ولن ينسى أن نمنوما تنبهت له، وأنها حضنته وقبلته وسألته عما به، فلم يجرؤ على أن يجهر بما كان يصخب في صدره: أنت حلوة، أنت الأحلى، بل التهب خداه وتضرجا، وأخذت الحرارة تسري في نسفة، ففرّ من نمنوما لتلاحقه ضحكتها، ولি�صبح منذ تلك اللحظة أسيرها. ومن سنة إلى سنة كان يامن قد أدرك أنه هو أيضاً من بين إخوته وأخواته صار الأثير لدى نمنوما، كما كانت أمثلتها تترسخ فيه: **الشجاعة** التي فرضت زواجهما، ثم فرضت طلاقها، وال**الشجاعة** التي لا ترحم من يخالف القانون، وال**الشجاعة** التي تربى ابنتها وتسكن في الشام بلا رعاية من أحد. وكلما كانت تُذكر مذمة نمنوما، وبخاصة من الأخ الأكبر، كانت أمثلتها تتعزز في كيان يامن، بينما كانت تترجج صورة فاخر باشا الضخم في كل شيء: في قامته ورأسه وصوته وثرؤته وسطوطه، وفي حدهه وحناته. حتى إذا بلغ نيل فاخر باشا من نمنوما مدى لا صبر ليامن عليه، جهر بما كان يتعاظم في دخيلته من الانحياز إليها والنأي، ليس عن فاخر باشا وحده، بل عن حمص كلها، فما دامت نمنوما اختارت أن تقيم في الشام، فلا بد أن تكون

الشام أحلى من حمص، ولا بد ليامن أن يقيم في بيت شقيقته،
كيلا تغيب عن عينيه يوماً.

هكذا كانت سنة يامن الجامعية الأولى في الشام حلماً هائلاً. لكن ليليا كبرت بسرعة، فأخذ البيت يتبدل على يامن، ليس ابتداء بكسر الحظر على النت ولا انتهاءً بمن يزورون ليليا ويزرعنها في البيت. وأخذت نمنوما نفسها تتبدل، حتى أنها آوت في البيت رجلاً غريباً. ولم يكن يامن بحاجة إلى من يُسرّ له أن راتب عدلة ملاحق أو مطلوب للأمن. كما لم يكن بحاجة إلى ثورة الياسمين التونسية أو ثورة بناء مصرية، ليتأكد من أن ليليا، وبدرجة أقل: نمنوما، تقفان في صف المعارضة اليسارية، ولليليا بخاصة نشاط مريب.

كان يامن منذ عهده بالطلائع قد تشرّب محبة القائد الخالد لا يذكر حافظ الأسد إلا بهذا اللقب والحزب القائد. ولئن تمكنت في أعماقه محبة الرئيس القائد لا يذكر بشار الأسد إلا بهذا اللقب منذ انخرط في اتحاد الشبيبة وفي الحزب القائد، في آن معًا، فقد كان دوماً أكبر هدأة من رفاقه الذين يراهم يبالغون في كل شيء: في الاحتفالات والهتافات والخطابات، وفي اللباس، وفي الجراءة على المدرسين والمدرسات، وعلى الفتيات. وربما كان ذلك سبباً آخر للنأي عن حمص، وللتعلق

بالرياضة، كما كان سبباً آخر للتعلق برئيس الجمهورية: الشاب الأناني ذي البسمة الساحرة، الجميل، الهادئ، المثقف، الطبيب الذي يجيد الإنكليزية والفرنسية، الزوج الذي تفيض السعادة منه ومن زوجته!

غير أن يامن أخذ يخاتل الخوف بعدما سقط الرئيس التونسي. وعندما سقط الرئيس المصري أخذ يفكر في أن الأمر جدي جداً، بل وقريب جداً من سوريا. وربما لذلك أخذ يمكن ما بينه وبين من في الكلية من رفاقه في الحزب أو في اتحاد الطلبة، وربما لذلك أيضاً شارك في الاعتصام أمام السفارة الليبية بالأحرى: تفرج على الاعتصام من بعيد، وتحاشى أن تراه ليليا. وفي الآن نفسه أخذ يتحاشى محاورة ليليا أو نمنوما فيما يتصل بهذا الذي بات اسمه على كل لسان: الربيع العربي. ومن يوم إلى يوم بدا كأنَّ ظلاً من القطيعة يكبر بينه وبين ليليا. وبلغ الظل نمنوما أيضاً حين علم بما كان بينها وبين فاخر باشا، فالظفر لا يطلع من اللحم: ردد في سره، وهو يلوم أخيه الأكبر على ما اقترف، ويلوم نمنوما على ما فرطت بحق الأخوة. ويدا يامن كأنه واقف على جرف، بانتظار أمر جلل.

هذا هو اليوم السابع عشر يا حبيبي.
 ما عاد الاتصال الهاتفي الذي بطول فنجان القهوة يبرد
 شوقي، بل على العكس. وكما ترى فقد جربت في أيام سفرك
 الأولى مهاتفتك، مرة قبل أن أذهب إلى القصر العدلي، صباحاً،
 ومرة قبل أن تنام. ثم جربت أن أدع الأمر لك، فأرقتني برودتاك
 يا واذ يا تقيل: اتصال واحد في اليوم الأول، غياب يوم، اتصال،
 غياب يومين.. أعترف أن مكابرتي أو مقاومتي قد انهارت.

تعال.

لاتتأخر.

أنا بحاجة إليك. ليست عيناي فقط هما اللتان تسألانني
 عنك، ولا دقات قلبي. ليست أنفاسي، ولا صمتى، ولا أصابعى.
 ليلى يرتعش يا صباح، لأن الحمى ضربته. منذ الخميس وأنا
 أتسلل إلى الشرفة، لألتachsen على القمر الذي نبق تلك الليلة من
 بين أطباق الغيوم الكامدة. كان أحمر ومرتبكاً، وقد شكوت له
 بُعدك. أنت أبعد منه، ورق لحالي، ونصحني: تَقْمِنْني يا نمنوما
 تصحي. أنا مريضة يا حبيبي. أنا مريضة بك، والقمر الملعون
 صار يلظو خلف الغيوم، وينبق، يلظو وينبق، مرة مد لسانه لي،

مرة غمزني، مرة أركز إبهاميه على شحمتي أذنيه وأخذ يفرد
أصابعه ويلاعبها وهو يحدق بي.
من الملعون أكثر: أنت أم هو؟
من الأجمل أكثر: أنت أم هو؟

منذ قليل ضبطتني ليلاً أطلع إليه وإليك. سألتني عما
أفعل في برد آذار على الشرفة، وأنا بقميص النوم! كان القمر
قد اختفى. قلت لها إنني أنتظرك. كنت سأقول لها إنني أنتظرك،
لكنها أمرتني بالدخول، فأطاعت.

أنا أنتظرك حقاً، ولكن ليس على الشرفة، بل هنا على هذه
الكتبة الصغيرة مقابل السرير. أنت تماماً الكتابة وأنا أملاً حضنك.
ما عدت أستطيع الاحتمال. ينبغي أن أقص عليك دقائقي منذ
ودعتك في بهو الأوتيل بلا ضمة، ولا قبلة، ولا كف تحضرن
كفاً. تكفيني ارتعاشة ذقنك. صدقني سمعت رفرفة أنفاسك،
وآويتك في حضني منذ تلك اللحظة. أنت الآن في حضني وأنا
أهددهك وأحكى لك.

* * *

قبل أن تضبطني ليلاً مع القمر ومعك، كانت قد انتهت
من الهاتف الطويل الثاني بينها وبين أبيها: أمس ساعة وعشرين
دقيقة واليوم خمس وأربعين دقيقة.

أمس عادت إلى البيت متأخرة وغاضبة، لأن زميلها حنيف البرزنجي كتب على صفحته: نحن السوريون مجرد بعوض.. وللنظام الحق في معاملتنا على هذا الأساس.
اهدأي يا بنتي، حنيف لم يكفر، هذارأيه.

ما هذا اليأس يا أمي ونحن لم نبدأ بعد؟ تعالى انظري
صفحة الثورة السورية، خلال شهر صرنا أربعين ألفاً.
إذا أنت معهم.

طبعاً معهم.

لكنها صفحة للإخوان المسلمين.

كلامك مثل كلام سراج يا أمي، لتكن صفحة للشياطين،
المهم أنها صفحة الثورة السورية.
ونامت زعلانة.

اللـحـ وـاـصـلـ أـمـسـ عـلـىـ أـنـ تـذـهـبـ لـلـلـيـلـيـاـ إـلـيـهـ فـيـ دـرـعاـ. مـرـةـ وـاحـدـةـ زـارـتـهـ هـنـاكـ مـنـذـ نـُقـلـ مـنـ القـامـشـلـيـ. قـلـتـ لـهـاـ اـذـهـبـيـ لـلـلـيـلـيـاـ تـفـضـلـ أـنـ تـلـتـقـيـ بـأـبـيهـاـ عـلـىـ شـرـفـاتـ بـيـتـ جـدـهـاـ فـيـ بـانـيـاسـ، قـبـالـةـ الـبـحـرـ.

عـنـدـمـاـ يـعـبـرـ فـيـ دـمـشـقـ يـلـتـقـيـاـنـ فـيـ مـطـعـمـ، يـتـنـاـولـاـنـ الـغـدـاءـ أـوـ الـعـشـاءـ. الـلـيـلـةـ أـيـضاـ جـدـ دـعـوـتـهـاـ إـلـىـ دـرـعاـ، لـكـنـ كـانـ أـقـلـ حرـارـةـ: قـالـتـ. وـقـالـتـ إـنـهـ عـلـمـ بـاعـتـقـالـهـاـ مـؤـخـراـ، وـحـمـلـهـاـ لـيـ

عتاباً قاسياً: كان على المست والدتك أن تخبرني لأتصرف.
وأدأر معها من التحقيق ما يشبه ما واجهت في الفرع: صرت
فيسبوكية مدموازيل ليليا؟ صرت مدونة وصرت توينية؟
بوستاتك وكتاباتك وتغريداتك وطل الملوحي يا حبيبة بابا.

شوقصة سراج جليلاً وكوكب الصباح جليلاً؟

تحقيق هاتفي: قالت ساخرة، وضحكـتـ، فـأنـبتـهاـ. طـوالـ
عـمـريـ كـنـتـ حـرـيـصـةـ عـلـىـ أـنـ أـرـبـيـهـاـ عـلـىـ اـحـتـرـامـ أـبـيـهـاـ،ـ وـعـلـىـ أـنـ
تـكـونـ عـلـاقـتـهاـ بـهـ مـمـتـازـةـ.

سـأـلـهـاـ عـمـنـ توـسـطـتـ لـلـإـفـرـاجـ عـنـهـاـ.ـ قـالـ:ـ لـابـدـ أـنـهـاـ وـسـاطـةـ
مـنـ عـيـارـ ثـقـيلـ،ـ وـإـلـاـ لـنـقـعـوكـ فـيـ الفـرـعـ سـنـةـ.ـ سـأـلـهـاـ عـمـاـ إـذـاـ ذـكـرـتـ
فـيـ فـرـعـ الـأـمـنـ مـاـذـاـ يـعـمـلـ أـبـوـهـاـ.ـ أـقـسـمـ بـرـأسـهـاـ وـرـأسـ جـدـهـاـ أـنـهـ
لـمـ يـنـمـ فـيـ الـبـيـتـ مـنـذـ أـحـدـ عـشـرـ يـوـمـاـ:ـ نـحـنـ فـيـ حـالـةـ اـسـتـنـفـارـ
مـائـةـ بـالـمـائـةـ،ـ كـأـنـنـاـ فـيـ حـرـبـ:ـ عـلـىـ جـدـرـانـ الـمـدـارـسـ وـالـبـنـيـاتـ
كـتـبـواـ شـعـارـاتـ مـعـادـيـةـ.ـ لـيلـيـاـ مـثـلـتـ لـيـ هـمـسـتـهـ الـهـاتـفـيـةـ الـحـذـرـةـ.
مـنـ هـمـ يـاـ أـبـيـ؟ـ سـأـلـتـهـ،ـ وـسـأـلـتـنـيـ:ـ مـاـ سـمـعـتـ يـاـ أـمـيـ؟ـ
بـشـوـيـاـ حـبـيـبـيـ؟ـ

لـيـسـ فـيـ دـرـعاـ وـحـدـهاـ.ـ حـتـىـ فـيـ الـمـعـضـمـيـةـ كـتـبـواـ عـلـىـ
جـدـرـانـ الـمـدـارـسـ وـالـبـنـيـاتـ:ـ اللـهـ،ـ سـوـرـيـةـ،ـ حـرـيـةـ وـبـسـ.ـ
مـنـ هـمـ يـاـ لـيلـيـاـ؟ـ

قلبي يحدثني يا صباح أنها تعرف من هم، أو على الأقل هي على صلة ببعضهم. لكنها تجاهلت سؤالي، واكتفت بما ذكر لها أبوها: طلاب مدارس، زعران، بلاعيص، الكبير منهم عمره خمسة عشر سنة. وأكلوا فلقات تكفي درعا المحطة ودرعا البلد.

حبوبي: تقريباً ليس بيني وبين ليليا أسرار. لا أظن أنها أخفت عنِّي حتى الآن إلا طبيعة علاقتها بسراج. وأنا مثلها. لم أخف عنِّها علاقتي بالمرحوم أحمد ولا بحبيبي صباح، لكنني أخفيت طبيعة علاقتي بك ويه. لذلك أجزم أنها استشاركتني على الأقل بعض أسرارها الجديدة، وقد بدأت. أما أبوها فأظنه أنه كان يبالغ حتى يرعبها. هو خائف عليها، وأنا أصدقه. تراه يخاف منها؟ هو أبوها، نعم. لكنه رجل شرطة وأمن، وأظن أنه من أجل أن يحميها يمكن أن يتتجسس عليها. يمكن أن يطلب خدمة صغيرة من أصدقائه في أي فرع من فروع الأمن: بالله عليك ضغط ليليا تحت المجهر في هذه الفترة حتى لا تقع في أحاديب أولاد الحرام من المعارضة. غريبة؟ غريبة وعجبية، ربما، لكنها قد تنفع الأب الحنون في يوم من الأيام وتجعله مضرب مثل في الإخلاص: يتتجسس حتى على فلذة كبده. لا بد أنني أبالغ وأظلمه.

أمس سألها: هل تريدين أن تجعليني أتذلل وأتوسل حتى
أنقذك إذا وقعت؟ هل تريدين أن تجعلني أملك تذلل وتتوسل
حتى تعرف إن كنت لا تزالين على قيد الحياة أم..؟ تعالى
تفرجي على أمهات الزعران هنا في درعا. بدلاً من أن تبكي
الواحدة منهنْ وتنوح، لماذا لا تربى ابنها؟

* * *

حبيبي صباح: دعنا من هذه الكتبة الصغيرة، تعال.
سريري ما عاد قادرًا على الصبر، وأنا، إلى متى سأنتظر
ليلتنا الأولى؟ تعال لفني بحرير قبلاتك. أنا حبل بالرغبات
والأحلام. أنا حبل بالكلام. دعني أهدنك وأحكي لك. ليلاً
وحياتك أصابتني اليوم بدورها: افتحي صفحتي يا أمي
واقرأي ما كتبت عن اعتقالات أمس في حلب.

مالك ولحلب يا ماما؟

ما عدنا نسكت على شيء يا سيدتي القاضية.

من أنت يا بنتي؟

شباب وصبايا.. بناتك وأولادك يا نمنوما الغالية.

هكذا بدأت نهاري يا حبيبي. وقبل أن أعود من القصر
العدلية كانت الشام ترتج. فرحت ولم أصدق أن شباباً وصبايا
قد خرجوا يهتفون، حتى لو كانوا عشرة. نسيت أن ليلاً يمكن

أن تكون بينهم. ولما تذكرت تراخت مفاصلي. ماذالوأن عصا
نالتها، أو كفأ، أو رفسة؟ ماذالوأنها الآن معتقلة؟ وما دام
هاتفها لا يجيب، وما دام هاتف سراج أيضاً لا يجيب، فلابدأن
المصيبة قد حلّت بك يا نمنوما.

فكرت في أن أستعين بيامن الذي حرد وعاد إلى حمص
بعد أيام من علمه بما جرى بيدي وبين فاخر باشا.
فكرت في أن أستعين بملحم زوج اختي أسيمة، لعلّ موقعه
في جريدةعروبة في حمص ينفع. حتى بفاخر باشا فكرت
أن أستعين. هل تذكر ما حدثتك به عن الأخ الأكبر؟ بفضل
مرسوم العفو الذي أصدره رئيس الجمهورية الأسبوع الماضي
نجا فاخر باشا. أنت تعلم أن مرسوم العفو لم يشمل معتقلي
الرأي وحرية التعبير، إلا من جاوز منهم السبعين سنة. أنت
تعلم أن وكالة سانا نشرت خبر العفو عن الجرائم السياسية،
وبعد ثلاث ساعات سحب الخبر. فاخر باشا اتصل بي شامتاً
بعد صدور العفو مباشرةً: ما باركت لي يا اختي المدللة؟
عندما انطوى النهار ولم تتصل ليлиيا، فكرت أن أتصل
بواصل. فكرت أن أتصل بك، لكنها أضاءات البيت أخيراً. كانت
الشمس قد غابت لا أعلم منذ متى، وأنا مكومة في العتمة،
بعدما يئست من الشرفة.

تعالي يا مغضوبة.
لا يا ماما. والله أنا مُرضية.
كانت منهكة، مشعثة، جائعة، خائفة، كأنها ليست ليليا
التي أعرفها.
١٥ أخيراً يا ماما قدحت الشارة. سجلي يا أمي: الثلاثاء
آذار ٢٠١١. باركي لنا يا أمي.
من أنتم يابنتي؟

شباب وصبايا.. بناتك وأولادك يا نمنوما الغالية.
وأجلستني أمامها، فصرت أنا بيتها وصارت هي أمي:
سألتني: زرت صفحة (أما آن لجوري دمشق أن يزهـ؟)
قلت: لا، سألتني: زرت صفحة (الحرة الدمشقية)؟ قلت: لا،
فركت لي أذني: يا عيب الشوم عليك، ثم قبلتني، وقالت: ما
تركنا وسيلة لدعوة الناس إلى المظاهرـ: فيسبوكية، موبايـل،
إيميل، تيلفون أرضـي، كل واحد دعا عشرة، عشرين. سراج مع
خمسة أو ستة بدأوا. أنا مع مجموعة وقفنا نراقبهم. ما كان
بيننا وبينـهم مائـة متر. فجأـة دوت أصواتـهم، ولم نصدق آذانـنا:
وينـك يا سوري وينـك؟ الناس وقفوا مبهـوتـين: التجـار، الـزيـائـن،
بسـكـلـيـاتـ، سيـاراتـ، صـبـيـانـ. وكـما خطـطـنا تـقدـمتـ مـجمـوعـةـ
سـراجـ نـحـونـاـ، وـتـقدـمنـاـ نحوـ سـاحـةـ الحـرـيقـةـ. كـناـ عـشـرـينـ صـرـناـ

أربعين، ويصوت واحد: سلمية سلمية. هاجمنا شباب بأيديهم
وبالسباب، ركضنا وركضوا وصرخوا وصرخنا. كنا خمسين
صرنا في الحرقة مائة، ويصوت واحد: الله، سورية، حرية
وبيّ / وبينك يا سوري وبينك / سلمية سلمية. تكاثر علينا
المهاجمون، صار منهم من يحملون العصي الكهربائية،
ومنهم من هو بلباس الشرطة، ومنهم من يحمل كلاشينكوف،
وزعقت صفارات النجدة، وضيّعنا بعضاً. أنا وكوكب الصباح
لجاناً إلى قبو، ورشة خياطة، خباناً عمالها فيها حتى قالوا:
الدنيا أمان. خرجنا نبحث عن سراج. لا أحد. سمعنا من يدعى:
الله يعين الشباب اللي أخذوهم. هاتف سراج مغلق. قررنا أن
نisbury حتى العصر. كانت الدعوة الثانية للتظاهر بعد صلاة
العصر. وقفنا بعيداً في أول الحميدية، مقابل الجامع. لم يلب
الدعوة أحد. أخذنا نلف وندور خلف أثر لسراج حتى يئسنا.
عادت كوكب الصباح إلى البيت خائفة وباكية،وها أنا بين
يديك يا أمي.

ومويايلك لماذا لا يرد؟

لأنني نسيته في ورشة الخياطة.

قالت مبتسمة تغالب البكاء، وأرخت رأسها على صدرني،
وتنهدت، فحرقتني أنفاسها، وأظن أن دمعتها فرطت قبل أن

تهمس: اعتقلوا سراج يا أمي. اعتقلوا كثيرين.
وفجأة انتقضت، وركضت إلى المغسلة، وركضت خلفها.
غسلت وجهها، ولاعبت شعرها بالفرشاة كيما اتفق، وأضاء
وجهها وهي تذكرني بخطاب سعد الحريري في بيروت أول
أمس، ثم أخذت تقلده وهو يرمي الجاكيت ويرفع كمّي قميصه،
ثم أخذت تهتف: الشعب يريد إسقاط البنطليون. آه يا صباح! شو
بده الشعب يريد حتى يريد!

وهي واقفة حشوت فمها بالعشاء، ثم أسرعت إلى غرفتها:
سنعتصم غداً أمام وزارة الداخلية الساعة ١٢ ظهراً، سنطالب
بالإفراج عن المعتقلين، إلى العمل حتى الصباح يا سيدتي
القاضية.

* * *

صباح: هل قدحت الشرارةاليوم حقاً؟ أنا فرحة وخائفة.
أنا مستاءة. ألا يكفيوني سبعة عشر يوماً من الشوق؟ هل تكون
أنت من يقرع جرس البيت؟ من يقرع الجرس علينا في هذا
الوقت؟ لماذا تصرخ ليليا يا صباح؟

جمعة الفزعة

لم تتم ليليا ليلة اعتقالها. هذه المرة أيضاً فتشوا غرفتها، وحملوا اللابتوب وأقراساً وفلاشتين، وسألوها عن الموبايل. كانت تتفرج عليهم بحیاد. وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا من اعتقلوها أول مرة، فقد أحسست أنها تعرفهم. وحين حاولت نمنوماً أن تتدخل، غمزتها ليليا وقالت بصوت مسموع: بعدين ماماً بعدين، وأشارت إشارة مبهمة. وفي الطريق أقبلت تتفرج من محشرها بين رجلين على ما يمكنها رؤيته من الشوارع. كانت نظراتها تضيء العتمات التي تصادفها. وحاولت أن تتذكر الطريق التي اقتيدت فيها في الاعتقال السابق، لكنها نسيت الطريق، والسيارة التي حملتها، وموقع الفرع.

بالثاؤب استقبلها المحقق، وبالناظرات الضجرة والمرهقة. وبينما راح يقلب بطاقتها الشخصية ويسجل، ساورها الإشفاقة عليه، وهمت بابتسامة، لكنه فاجأها: أنت بنت العقيد واصل أبيضاني من بانياس؟

خافت من أن تقرّ، وخافت من أن تنكر، فأنقذها الرجل: لا يمكن أن يكون أبوك على علم بما تفعلين.

تلفت حولها حائرة، فاصطدمت نظرتها بجدار عار، ثم



اصطدمت بأحد الذين جاؤوا بها، مصلوياً إلى الخلف قليلاً،
قريباً من الجدار العاري المقابل. ولما عادت إلى المحقق
الغاطس في بذلة رياضية، باعثتها بهزة من رأسه، فأنمسك
المصلوب بذراعها، وقادها بقصوة إلى غرفة يقف أمام بابها
عسكريان.

أهلاً أهلاً: رحب بها صوت أشبه بصوت كوكب الصباح،
فارتجفت، وسرعان ما توالى الأصوات مرحة.

بعون من الشعاع الشاحب المتسلل من أسفل الباب،
استطاعت أن ترى ملامح شتى: وجه مدور، شعر قصير، جسد
ممدد، جسد مضطجع، شفاه مبتسمة أو تتكلم: إذاً أولاء هنَّ
اللواتي اعتقلن في ساحة المرجة. هذه تعرف ليليا فيسبوكياً،
بل وهذه تعرف سراح جليلا فيسبوكياً، وقد رأتهم يضربونه
ويجرونه إلى سيارة مثل التي تنقل السجناء. ولعل ذلك ما جعل
ليليا تعجز عن النوم بعدما هجعن جميعاً، فلبثت تستجدي
الصمت والعتمة أخيلة وأخباراً أو حكايا، حتى جلجل الباب
وهو ينفتح عن عسكري يأمر بالنهوض.

غير أن سهر الليل بطوله أورث ليليا نهاراً من النوم، حتى إن
كانت عيناهما مفتحتين. وبالكاد استطاعت أن تجر قدميها إلى
التواليت عندما أمر العسكري بذلك، وبالكاد أيضاً استطاعت أن

تبلغ لقمتين، عندما أمر عسكري آخر بذلك. ولما عاد الليل أخذت تصحو، ليس من النوم فقط، بل من البلة ربما. واستطاعت أن تحكي للأخريات حكايتها في الاعتقال الأول، وغنت مع من غنت منها، ونادت سراج ونمّونا في سرها مراراً، وشاركت مع من أخذن يخططن للمظاهرات والاعتصامات القادمة،
كانهن سيخرجن في الصباح!

لكن العسكري أخرجها وحدها في الصباح إلى المحقق الذي ربما كان هو نفسه من استقبلها غاطساً في بذلة الرياضة، سوى أنه الآن غاطس في كنزة سوداء ضاعفت من بياض وجهه: أنت بنت العقيد واصل أبيضاني؟

هذه المرة أجابت كأنها تفاحراً أو تتحدى: نعم. فقال الرجل: احمدي الله على أنك بنته. وبصمت جرى ما جرى من بعد: أعيدت لها بطاقتها الشخصية، وقعت على ورقة كأنها واحدة من أوراق وقعت عليها في الاعتقال السابق، جلست في ممر عريض على كرسي الحاجب، شربت كأس الشاي، وبعد انتظار تطاول حتى أمضها، أمرت بمرافقة عسكري قادها إلى سيارة مثل السيارة التي تقلّ نمنوما إلى القصر العدلي وتعيدها منه. عندما خرجت السيارة من دمشق، أخذ الخوف يتسلل إلى ليلاً. ولما تجاوزت السيارة صحنايا تجرأت على أن تسأل:

إلى أين؟ فدهش السائق: إلى درعا، ألا تعرفين؟
لماذا؟

سألت كأنما تحتاج، فدهش السائق من أنها لا تعرف أنه لا يعرف، ففكرت في أبيها: لكي يحرجوه نقلوها إليه؟ ولكن لماذا لا يكون هو قد دبر هذا النقل، لتكون في مأمن قريه أو تحت عينيه؟

* * *

ما لم تفكر فيه ليليا هو أن المحقق الذي استقبلها عند منتصف الليل، نقل إلى زميله رئيس قسم المعلومات في الفرع، الرائد باسل أبيضاني: بنت أخيك العقيد واصل ضيفتنااليوم. وما سوف تعلمه ليليا أيضاً، بعدما هدأت غضبة أبيها، أن ابن عم أبيها الرائد باسل هو من دبر الإفراج عنها، ليتخلص منها ويرميها في حضن الأب الذي لم يعرف كيف يربى ابنته.

قال واصل بصوت معلق بين الحزن والغضب والخوف:
ابن عمي المحترم سيشيع خبرك في بانياس. فضحتني يا ليليا في فروع الأمان وأمام أهلي. لن تغادري هذا البيت، لا في الليل ولا في النهار، ممنوع الاتصال بإنسان حتى أراك تبت عن كل هذا الوسخ الذي تركتك أملك تغرقين فيه.

إذاً أنا سجينه: على باب البيت شرطيان يحرسانه من قبل

وصول السجينه. أحد الشرطين يقرع الجرس، يدخل منهاها إلى
وجوده، متحاشياً النظر إلى السجينه التي لا يعلم أنها سجينه،
يسأل عما إن كانت تحتاج إلى شيء، فتشكره ببرود.
فنجان قهوة، كأس شاي؟
شكراً.

أنا أحضر الغداء لسيادة العقيد، وقد أوصاني أن أسألك ما
إذا كنت ترغبين بأكلة معينة.
حضر ما تشاء.

إذا احتجت أي شيء، أنا وزميلي تحت أمرك.
السجان تحت إمرة السجينه: سجن سبع نجوم. ولا في
أوروبا: فكرت ليلاً. حتى العقيد نفسه خاطب السجينه بعدما
هدا غضبه: اطلبني حليب السنونو يحضر، شرط أن تتركي هذه
الولدنة. والولدنة كما سترشح السجينه لنفسها في الفراغ
الصامت المدید هي الفيسبوك والنت والتويتر والمظاهرات
والاعتصامات والمدونات والتغريدات ورفقة الشباب الصبيع
وبنات الحرام.

أمر العقيد الشرطي الطباخ أن يصعد إلى سطح العمارة،
ويملص الشريط الذي يصل بين التلفزيون والصحن. ولا
تليفون إذا في سجن السفن ستار، ولا مكتبة أيضاً، لذلك لم

يبق أمام ليليا إلا أن تقضي الساعات وهي تفك في سراج وفي نمنوما. وقبل أن يحضر الأب العقيد كانت قد قررت أن تدعوه الأخ العقيد، إسوة بمعمر القذافي، كما كانت قد قررت أن تتظاهر بالخصوص، وأن تتمسح به كالقطة، لعله يفرج عن التلفزيون أو التليفون.

لكن الأخ العقيد الذي حضر في العاشرة ليلاً، وتناول عشاءه واقفاً في المطبخ، باغت ليليا:
درعا مثل برميل البارود.
لماذا يا أبي؟

لا أعرف يا ليليا. ما أعرفه أن قضية الأولاد المعتقلين كانت حبة صارت قبة. الله يسترنا من بكرة.
أنسى الدعاء ليليا التلفزيون والتليفون حتى سمعت هدير سيارة الأخ العقيد، فأسرعت إلى الباب، لكن السيارة كانت قد غابت عندما افتح الباب. ووقف الشرطيان باستعداد، كأنهما يقفان أمام الأخ العقيد، وتذكرت ليليا دروس الفتوة في الثانوية، وابتسمت مشفقة، ثم أغلقت الباب، وبدأت تفكر في مخرج من هذا السجن الوثير.

* * *

من أجل ذلك تفقدت النوافذ والشرفات: ما من مخرج. ومن

أجل ذلك تطاول الليل وهو يرسم سبيلاً للخروج ثم يخربش عليه أو يمحوه. وفيما بين اليقظة والنوم رأت الباب ينفتح، والشرطي الطباخ يدخل إلى المطبخ ليعد للسجينه إفطارها. ثم رأت السجينه تنادي الشرطي الحارس الآخر وتأمره بأن يدخل إلى غرفة النوم، ويقبض على الفأرة التي لمحتها تمرق من تحت السرير إلى تحت الخزانة.

هنا استيقظت ليليا تماماً، واستعادت الخطة الحلمية، وابتسمت، ثم ضحكت، ثم انقلبت على جنبها ونامت عميقاً. ولما استيقظت ثانية أعدت لنفسها الإفطار، وتناولته ضاحكة، ثم تمددت ضاحكة، تحت السرير تبحث عن فأرة، ثم دققت النظر تحت الخزانة، في الفراغ الذي لا يمكن أن تمرق منه فأرة مهما صغرت.

بعد قليل نادت الشرطي الطباخ وسألته عن اسمه: وحيد، واسم الوالد: عبد البصیر، واسم مدینتك، قريتك؟ أنا من الشرق، من الجزيرة، قال مطرقاً، بصوت متشكك.

بعد قليل أيضاً نادت الشرطي الآخر، وبعدما علمت أنه هيثم عمران، وأنه من خربة غزالة، هنا بجانب درعا، أبرقت عيناه، وحدقت فيه مليأً، فنقل الكلاشين من يد إلى يد، وبلغ ريقه، ولبث يتربّب حتى سألته عن موقع البيت؟



غرب البلد.

لماذا السيارات هنا قليلة؟

هنا آخر البلد.

والبلد بعيدة؟

بعيدة.

معك موبايل؟

لا والله يا آنسة.

بعد قليل جداً نفذت السجينه البند الأول من خطة الهرب
كما حلمت بها سوى أنها أضافت الطلب من وحيد أن يعد
الغداء: ملوخية ورز.

قال:

ما بقي بالفريزر ولا طبخة ملوخية خضراء.

طيب يابسة.

ما فيه في البيت.

هات من الدكان.

دكاين الحارة ليس فيها ملوخية يابسة. ولا مفرزنة. أنا
أعرف.

هاتها من البلد.

اليوم الجمعة، الصلاة قربت، والبلد ما هي على بعضها.

طيب ازرع ملوخية وهاتها.
أمرت السجينه بانفعال حقيقي، وليس تمثيلاً.
بعد قليل وكان وحيد قد ذهب ليبحث عن الملوخية انتقلت
السجينه إلى تنفيذ خطة الهرب الحلمية البند الثاني، سوى أنها
أبدلت الفارة بحية بيضاء صغيرة.
وضع الشرطي هيثم عمران الكلاشين على الكتبة في
الصالون، وتقدم بحماسة إلى غرفة النوم. ولما اختفى اختلفت
السجينه من السجن.

* * *

على الطريق المسفلت حديثاً سارت كأنها تجري، متحاشية
الالتقاف أو الاقتراب من البنىيات المحاذية، وتدعوا الله أن
يبعد الشرطي وحيد عبد البصير من دربها. وحين تجرأت على
أن تنظر خلفها أول مرة، كانت الحارة كلها قد صارت بعيدة،
وليس السجن فقط: معقول ما فيه بدرعا تاكسي ولا باص ولا
ميكروباص؟ تساءلت بضيق، وترجع في سمعها صوت وحيد:
البلد ماهي على بعضها.

بعد قليل انقسم الطريق إلى فرعين، فوقفت حائرة بينهما،
وكانت امرأتان مستنان تقتربان، فلما حاذتها سألت عن
كراج السيارات التي تذهب إلى دمشق، فأشارت إحداهما إلى

اليمين، وأمطرت الأخرى ليليا بنظرات مسترببة، ثم تعوذ
بالله ومشت، بينما سالت الأولى:

إنتِ غريبة؟
أنا من الشام.

امشي يا بنتي ولا تركبي في تاكسي. أولاد الحرام ما تركوا
شي لأولاد الحلال.

ومشت ليليا حيثما شاءت قدمها حتى أخذ الصخب يعلو،
والزحام يكبر. ففجأة بدا كأن ثمة مظاهره، فانحشرت بين من
وقفوا على الرصيف. ولما اكتشفت أنها المرأة الوحيدة بينهم،
تابعت السير حتى جرفتها المظاهره، وأطاشها الهاتف: ما فيه
خوف بعد اليوم، ثم أطاشها الهاتف: وينكم يا أهل الفزعه؟
وحين صار الهاتف: الله، سوريا، حرية ويس، ردت ليليا
الهاتف، إذ لم تعد سجينه هاربة، بل واحدة من هؤلاء النساء
اللواتي ذابت بينهن.

وحين أخذت المظاهره تتباطأ، سالت إحداهم عن كراج
السيارات التي تذهب إلى دمشق، فاستدارت المرأة، وأشارت
قائلة: قريب من هنا، والسير متوقف من الضحي، ولن يعود
حتى تنتهي المظاهره.

لكن المظاهره بدت بلا نهاية بعدما انتهت الصلاة،

واقتربت ليلاً من الجامع العمري، وشتمت المحافظ مع من شتمنه، وشتمت من عذب الأطفال مع من شتمنه. وفجأة خرست، وأخذت تتخفي بين النساء حولها، منذ تردد أن قائد الشرطة وعدداً من الضباط يستمعون الآن إلى مطالب المتظاهرين، داخل الجامع. وقد يكون الأخ العقيد في الجامع، وقد يلمح السجينه الهايرية فيقبض عليها، والويل لك يا ليلاً من الاعتقال الثالث.

حين صدحت مئذنة الجامع بأذان العصر، سُرِّي عن ليلاً، إذ تردد حولها أن الاجتماع في الجامع قد فُضَّل، وأن اجتماعاً يعقد الآن في مجلس المحافظة. لكن السماء هدرت: هليكوتي، وهذه الثانية، وهذه الثالثة، والرابعة، والشباب يتوجهون إلى المحافظة، والرصاص يئز فوق الرؤوس، وهؤلاء الجنود يقتربون بلباسهم الأسود، والرصاص يرتد عن المئذنة، والمئذنة تستغيث، والحسد يتلاطم، وليلياً تذوب بينهن وبينهم.

العقيد واصل أبيضاني يتطرق

على الرغم من العينين المغمضتين، فقد كان البحر يقترب منه كلما اقتربت السيارة من بانياس. وحيث يكاد الأوتوكسراط يدخل في البحر، أمر السائق بالبطء، كي يتتأكد تماماً من أنه هو نفسه، بلباسه الرسمي وليس بلباس البحر، من يعتلي الموجة الأبعد، وربما الأعلى.

بعنف أهوج قذفت الموجة بمن يعتليها، فكرر العقيد واصل الأمر بالبطء كي يتتأكد من أنه هو نفسه ما هم حتى لو كان بلا لباس البتة؟ من يظل يهوي حتى يرتطم بالقاع الصخري. لكنه بدلاً من أن يتحطم، ينقذف عالياً، ويظل ينقذف حتى يعتلي الموجة الأعلى والأقرب.

ثم، تتدخل الجمعة بالسبت، وتتدخل صورة الشرطي وحيد بالشرطي هيئتم، ثم يتداخل صوتاهما بعدما فتح العقيد الموبايل وهو في الطريق من الجامع العمري إلى المحافظة: سيدى الآنسة بنتكم ليست في البيت.

* * *

اختفى الشرطيان مرؤعين بتهديدات وشتائم العقيد، وظهرت ليлиا مثل زيد يملص من أصابع الأب المرؤع باختفاء ابنته.

سوف يبحث عنها بنفسه.

لا ينبغي أن يعلم أحد باختفائها.

ولكن أين ستذهب المجنونة في درعا في مثل هذا اليوم؟
ومتى سيبحث عنها هو ما دامت الاشتباكات قد تجددت بين
المتظاهرين ورجال الأمن، إلى الخلف قليلاً، وفي الشارع
الموازي؟

في القاع الرملي هذه المرة، حيث قذفت الموجة بالعقيد
واصل، ما عاد يسمع إلا صوت الرصاص والتكتير والولولة
وسيارات الإسعاف، وكذلك صوت أحدهم يمنع سيارات
الإسعاف من الاقتراب من الجامع العمري ومن نقل الجرحى
أو القتلى إلى المشفى الوطني.

لذلك فر العقيد واصل من القاع إلى ذروة الموجة الأبعد،
وريما الأعلى، وصارع خوفه على ليليا، وعجزه عن البحث
عنها، إلى أن ينتهي لقاء رئيس مكتب الأمن القومي حضر
بالهليوبكتر من دمشق بمحالي المدينة، وكان الظلام قد كَلَّ
المدينة إلا قليلاً.

* * *

عندئذٍ صرف العقيد واصل عنه هم ليليا هنيهة، ليتلقي فيها
ما اتفق عليه المجتمعون: إقالة المحافظ ورئيس فرع الأمن
السياسي، الاعتذار لأهالي درعا عن العنف، إعادة المعلمات



المنقبات اللواتي نقلن من وزارة التربية بسبب النقاب، إلغاء
قانون الإتجار بالأراضي الخاص بالمناطق الحدودية، إطلاق
الحربيات العامة في البلاد، مقابلة وفد يمثل المحافظة للسيد
رئيس الجمهورية.

هذا رضوخ مطلق للمتظاهرین: فكر العقيد واصل. وقبل
أن يعود إلى هرب ليليا ما عاد يقول: اختفاء كانت أصوات
الدرجات النارية والرصاص تنتاهى من الخارج بقوة،
فأقوى، فانهار واستسلم للموجة التي قذفته إلى قاع من
الحصى المدبب، كي يُجرّح جسده تجريحاً حيث تناهه حساة،
وكيقما تقلب. وبذا، ما عاد قادراً على البحث عن ليليا، فاكتفى
بالندب واللوم: ما كان لك أن تجسّها. ليليا بنت نمنوما، لا
تنس. كما لم تستطع أن تلجم الأم، لن تستطيع أن تلجم البنت.
ماذا ستفعل عندما يشيع خبر هربها؟ لماذا لا تشيع أنت خبر
اعتقالك لها في البيت؟ من فعلها قبلك؟ من هو أكبر إخلاصاً
منك إذاً؟ لماذا لا تنسى أنها بنتك وتبارك لجهنم بها وبأمها؟
كان عليك أن ترد على هواتف نمنوما التي ظلت تتوالى أمس
وأول أمس واليوم. كان عليك أن تطمئنها، فليليا بنتها كما هي
بنتك. نمنوما أمّ كما أنت أب. أما الآن، فاحذر أن تعلم نمنوما
بهرب ليليا. ستقلب الدنيا على رأسك لو علمت، وستقذفك من

قاع الحصى المدبب إلى ذروة هذه الموجة المدببة أيضاً، حيث ستظل تتجرح إلى أن تشكل في الغادة وزارة الداخلية لجنة للتحقيق فيما وقع البارحة. وبما أنك لا تتحمل أية مسؤولية فيما وقع، فاطمئن، ولكن من أمر إذاً بإطلاق الرصاص؟ من قتل هذين الشابين اللذين سيُشيع جثماناهما عما قليل؟ من منع الصلاة على الشهيددين إياك أن تقول: القتيلين في الجامع العمري؟

احرس الجنازة يا سيادة العقيد، واحذر هذه الآلاف من المشيعين. احرس مراسم الدفن في المقبرة، وضاعف حذرك، فالآلاف تهتف: اللي بيقتل شعبه خاين، فزعة فزعة يا حوران. والآن، عليك بالغاز المسيل للدموع. يكفيك هذا اليوم رصاصاً. أما في الغادة، وبعد أن تهوي بك الموجة إلى جحيم البحر، فسوف تقوم قيامة درعاً: شبان يحرقون قصر العدل، شبان يحرقون مقر السيرتيل ومقر الإم. تي . إن. شبان يطيحون بتمثال الرئيس الخالد. لا يا سيادة العقيد، لا تصدق عينيك ولا تصدق أذنيك، فأنت في درعاً ولست في بغداد، وهذا تمثال الرئيس الخالد وليس تمثال صدام حسين. وسواء كانت هذه الجمعة جمعة الفزع أم جمعة القروود، فأنت في جحيم البحر لن ترى غير أطفال يرمون بالحصى شرطياً بهلواناً

كلما حلت مناوبته في حراسة القسم في المنشية. وفي ليلة جحيمية كهذه الليلة الجحيمية دُبِّج الشرطي تقريراً بالأطفال: يحضرون زجاجات المولوتوف، والليلة رموا زجاجتين على المحرس. وسلَّم البهلول التقرير إلى جاره الشرطي أيضاً، ولكن في الأمن السياسي.

لا يصدق واصل الحكاية، وبخاصة ما استطرد إليه من نقل الأطفال إلى فرع الأمن العسكري في السويداء، حيث استقبلوا بالكي وبقلع الأظافر.

شائعات مغرضة: يحكم واصل على الحكاية التي تتشظى إلى حكايات، غير آبهة، فتقطع حكاية الكهرباء عن درعا البلد في الرابعة من فجر الأربعاء، كي تزحف القوات من أمام فرع الحزب إلى أمام الجامع العمري. وتسرع حكاية أخرى إلى نهايتها لتتمطّق: درعا هي سيدي بوزيد سورية، فمن هو بو عزيزي الدرعاوي؟ وفي حكاية ثالثة أن طبيبة أسكنها سقوط زين العابدين بن علي أو سقوط حسني مبارك أو السقطان معاً، فقالت: ع قبال عنّا، وسمعها الشرطي البهلول الذي أودى بالأطفال، فأودى بها، فاعتقلت، ولكن لدى كوافير حلق لها شعرها على الصفر.

وأنت يا واصل أبيضاني ما زلت في جحيم البحر، حيث لا

ترى غير خيام حول الجامع العمري، لتنذكر ميدان التحرير في القاهرة، ولتصدق عينيك وأذنيك. كما لن ترى داخل الجامع غير مشفى ميداني وأطباء وجراحى، وإن ترى حول الجامع على مسافة قصيرة غير جنود باللباس الأخضر وآخرين باللباس الأسود، وقبل أن يتم العقيد واصل مقامه في جحيم البحر، أذهله أن المعتصمين في الجامع العمري وفي الخيام قد شكلوا لجنة لتأمين الطعام والمؤمن، ولجنة للمساعدة الطبية، ولجنة لتنظيم الاعتصام واستقبال الضيوف والمتضامنين: ماذا تسمى كل ذلك يا سيادة العقيد؟

ربما كان سيادة العقيد سيجيب: تمرد، شغب، احتجاج، فوضى، تخريب، لولا أن ليلاً نبتت تستفزه بأعلى صوتها: ثورة. وإنهم بأن يسكنها، ناداه هاتف أمه باكيًا: أخوك توفيق بين الموت والحياة. تعال يا واصل يا ابني الله يحميك.

* * *

وها هو حضن أمه يتلقفه من القذفة الأخيرة من جحيم البحر، ومن ذروة الموجة الأعلى والأقرب، في آن معاً. ها هو أخوك الأصغر الذي أنعم الله به على أمك بعد ست بنات أعقبتك. ها هو توفيق أبيضاني الذي شاب في الثلاثين، والذي أدار ظهره للمدارس قبل أن يحمل البكالوريا، يصلى

ال الجمعة كعادته في جامع أبي بكر الصديق، متأمماً بالشيخ
أنس الذي إن قال له مت، فسيموت.

بعد الصلاة، وكما شهد العقيد واصل في درعا، شهد أخوه
في بانياس: شباب يكرون ويهتفون: لا سنية ولا علوية، نحن
بدنا حرية، فيندفع توفيق وكان قد تلقى الإشارة من الشيخ
أنس ليتصدر المتظاهرين، متحدياً رجال الأمن الذين طوقوهم
كما طوقوا الجامع، ولا أحد يعلم بالضبط ماذا جرى بعدئذٍ
يا سيادة العقيد، اللهم إلا أن القنابل المسيلة للدموع والعصي
الكهربائية والرصاص، كل ذلك انصب دفعة واحدة على
المدينة، فتقدم توفيق ليفتديها،وها هو كما ترى، بين الموت
والحياة، منذ مساء الجمعة.

وأخوك إذا يا سيادة العقيد ضدك، كما هي ابنته ضدك،
وما بقي إلا أن تكون أنت ضدك، فإلى من ستتشكوا ما بك إلا
إلى هذا البحر الذي أنشأك حتى آثرت عليه دمشق والقامشلي
ودرعا؟ وعلى الرغم من هجرانك ونكرانك، ها هو يناديك إلى
حضنه كما كان يناديك طفلاً، فهل تسمع نداء البحر يا واصل؟

موبايل الليل والنهار

موبايل المساء:

قال صباح:

شغلني أخي محرم العائد من بنغازي طوال هذا الأسبوع.
ولدت زوجته في الباخرة بعد انتظار تسع سنوات. ولدت بنتاً
وسمتها شام البحر. وأن البنت ولدت في البحر فالجنسية
الدولية حقها، عدا عن الجنسية السورية.

قالت نمنوما:

مبروك

مسلمي. ما أخبار ليلاً؟ لم أسمع أنهم اعتقلوا امرأة في
منتصف الليل. مانا فعلت؟

قضيت الليل أكذب ما وقع، أركض إلى غرفتها، أناديها،
أجلس في الصالون بانتظار أن تخرج من الحمام، أبكي، أعود
إلى غرفتي خاوية وعاجزة، أقلب الهاتف في حضني. بمن
يمكن أن أتصل في مثل هذا الوقت؟

ليتك اتصلت بي.

ماذا كنت ستفعل وأنت في اللاذقية؟
لا أعرف ولكن ما كنت تركتك وحدك.



لم يغمض لي جفن يا صباح. وما صدقت أن الساعة صارت التاسعة حتى اتصلت بماما سلوى. أستاذتي سلوى كاف، هل حدثتك عنها؟ بفضلها خرجت ليليا من الاعتقال السابق بعد خمس ساعات. صرفت السائق ورابطت بجانب الهاتف. فكرت بسراج صديق ليليا: هل حدثتك عنه؟ اتصلت بكوكب الصباح أخته. سراح اعتقل يوم الثلاثاء، ولا خبر لديها عنه. حين علمت باعتقال ليليا صُعقت. قالت: إذا جاء دوري. لو رأيتها هي وليليا في الاعتصام أمام وزارة الداخلية، البارحة.
كأنك كنت معهما.

وماذا تتوقع؟

لا تقولي إنك شاركت في الاعتصام.

وماذا ينقصني؟ كان بيننا من هنّ ومن هم أكبر مني. أمهات وأباء وشباب وصبايا. كان صديقك راتب. لم أصدق أنه لا يزال مطلوبياً، ويشارك في الاعتصام. هل أنت مستعجل على الاعتقال: سأله، فقال: ما عاد الأمر مهمّاً ما دامت سوريا قد تحركت. سأله عن بنان فقال إنه لم يرها منذ ثلاثة أشهر، منذ تخفّي. ما لك صامت؟

سألت نمنوما وقد خشيت فجأة من أن لقاءها براتب، حتى في الاعتصام، لا يسرّ صباح الذي جاء صوته بارداً:

أسمعك.

واسأها أن صوته يؤكد حدسها، لكنها تابعت متجاهلة:
حاولت ليليا وكوكب الصباح ورفاقهما أن يدخلوا إلى
الوزارة ليسلموا الوزير العريضة التي وقّعنا عليها جميعاً،
مطالبين بالإفراج عن المعتقلين يوم الثلاثاء، لكنهم لم
يسمحوا لأحد بالدخول، ورفضوا استلام العريضة، وكان
كثيرون من الشرطة ومن شباب يحملون عصيّاً قد أحاطوا بنا.
إذا كنت بين بطلات وأبطال أخبار سوريا أمس في
الفضائيات.

لا أظنه وقت السخرية ولا المزاح يا صباح.
أنا آسف.

اسمع إذا: قلت لعصا قبل أن تبلغ رأسي: أنا القاضية
نمنوما زكي، إياك أن تضرب. وسألت: هل تريد هويتي؟ نزلت
العصا على من كان بجانبي. وصاحت العصا بي: شو جابك
لهون؟ ودفعتني إلى الخلف، فركضت حتى رأيت نفسي بين
من يتفرجون ويترجّن تحت الجسر. ضيّعت ليليا، وخفت من
أن تكون قد أصيّبت أو اعتقلت، لكنني فوجئت بها قد سبقتني
إلى البيت. آه يا صباح، ماذا يمكن أن أفعل؟



موبائل الضحى:

إذاً ستصدق أنني جثوت، إذ ما عدت قادرة على الوقوف
عندما اتصلت بي الأستاذة سلوى لتبلغني أن من تتوسطه عادة
في مثل أمر ليليا، أكد أن لا أثر لها في أي فرع. أين اختفت
البنت إذاً؟ من خطفها من البيت في منتصف الليل؟ صحت وأنا
أبكي، والأستاذة تدعولي بالصبر: لا تيأس يا بنتي، ستابع
البحث وسنجد ليليا بإذن الله.

ربما فضل من تتوسطه ألا يتدخل هذه المرة، فقال ما قال.
ربما. قبل قليل اتصلت بواصل. فكرت: أبوها يجب أن يعلم
 وأن يتدخل، لكنه لم يرد. سأكرر المحاولة غداً صباحاً.
وأنا، كيف يمكن أن أساعدك؟

موبائل العصر:

قالت نمنوما:

سيادة العقيد واصل لا يرد. لا أحد يجهل ما يجري في
درعا، أنا أقدر انشغال الأب الحنون، لكنه لا يرد على عاماً
متعمداً. أنا أعرفه.

قال صباح:

اتصل بهنان بصديقته الدكتور بهيج عباد في القصر من

أجل ليليا. الرجل اعتذر عن التدخل. اتصل بهنان بمن لا أعرف
ممن يكتب لهم الأبحاث والدراسات. قال: اتصلت بقيادي
في الأمن وبقيادي في الحزب، والاثنان أكدوا أن ليليا واصل
أبيضاني ليست معتقلة.

ماذا بقي لي إلا الجنون؟

هل من جديد لديك غير حديث سيادة العقيد؟

قالت كأنما تنشج:

الجديد هو أن اثنين وثلاثين مذكرة توقيف صدرت اليوم
بحق المعتقلين والمعتقلات أمس وأول أمس، وليس لليليا
مذكرة.

سمع بهنان بالمذكرة من الدكتور بهيج، وقال: التهمة هي
النيل من هيبة أمن الدولة وتعكير صفو العلاقة بين عناصر
الأمة. قد يكون من حسن حظ ليليا أن ليس لها مذكرة بتهمة
 بهذه.

تراهم قتلوها يا صباح؟

موبايل منتصف الليل:

قالت نمنوما بحماسة:

أصررت كوكب الصباح على أن أكون معها في دوما. لماذا

صرت أتمنى ألا تفارقني؟

قال صباح:

لأنها صديقة ليليا، أقصد: مثل بنتك.

ولأنها أخت سراج، وسراج وليليا أحلى عاشقين.

إذا شاركت في جمعة الغضب في دوما؟

ليتك كنت معنا يا صباح.

ليتك كنت معنا في اللاذقية يا نمنوما.

كنا بالآلاف يا صباح. وبعد خروج المصليين من الجامع،

ساروا إلى ساحة الشهداء، وسرنا خلفهم. بعد مسافة قصيرة

اصطدمت المظاهرة بعشرات راحوا يضربون بالعصي

ويطعنون بالخناجر والسكاكين، لكن المظاهرة وصلت أخيراً

إلى الساحة، وهناك اعتصمنا.

كوني حذرة يا نمنوما.

مالن أنساه يا صباح هو الوجه التي انتظرت بينها مقابل

الجامع، الوجه التي كانت تتربص بنا، الوجه التي تراكمت

بين الجامع والساحة، الوجه في الساحة. هل أصف لك؟ هل

سبق لك أن رأيت للشجاعة وجهها؟ للحماسة؟ للخوف؟ للحقد؟

سبحان الله! آلاف مؤلفة، وما من وجه مثل وجهه.

ما هذا الاكتشاف العبقري! في الدنيا مليارات الوجوه، وما

من وجه مثل وجهه.

لا تستطيع إلا أن تسرخ أو تمزح.

هل عليّ أن أتأسف؟

لا. عليّ أنا أن أتعود، حتى في مثل ظروفي هذه. المهم أن كوكب الصباح زارتني اليوم بعد عودتي من القصر العدلي، وتناولنا الغداء معاً. كانت مبهجة، ولم تنتظر أن أسالها عن السبب. قالت: سمعت أنه تم تشكيل لجنة لتنظيم هذا الحراك. سألت: في دوما؟ قالت: وربما في سورية. سألت: بهذه السرعة؟ قالت: ضروري.

هنا أيضاً في اللاذقية سمعت أن الشباب شكلوا تنسيقية لتنظيم الحراك.

تركتني أتكلم طوال الوقت. والآن قل لي: هل شاركت في جمعة الغضب؟

موبيайл الظهيرية:

قالت نمنوما غاضبة:

لم تستطع الأستاذة نمنوما مقابلة أي من المعتقلات في سجن دوما للنساء. الآن هنّ في إضراب مفتوح عن الطعام. بينهن من أضربت حتى عن الماء.

قال صباح:

اتصل بي أصدقاء من أجل حملة التضامن مع المعتقلات.
جاءتني كوكب الصباح بمسودة بيان ستتصدره منظمات
عديدة تضامناً معهنّ: الرابطة السورية للدفاع عن حقوق
الإنسان، المرصد السوري لحقوق الإنسان، المركز السوري
لمساعدة السجناء، اللجنة السورية للدفاع عن الصحفيين،
المنظمة الوطنية لحقوق الإنسان في سوريا، المنظمة العربية
لحقوق الإنسان في سوريا، مركز دمشق للدراسات النظرية
والحقوق المدنية، المنظمة العربية للإصلاح الجنائي في
سوريا. من يصدق أن في سوريا كل هذه المنظمات يا صباح؟

أنا أصدق، ما دامت نمنوما هي التي تتكلم.

لو تعرف القضية التي تشغل ماما سلوى الآن.

ما هذه القضية؟

أنا سميتها القضية طز.

الآن جاء دوري لأقول لك: ليس هذا وقت السخرية ولا وقت
المزاح.

وأنا لا أسخر ولا أمزح. يبدو أنك لم تسمع بالطفل الذي
كتب (طز) تحت كرتونة عليها شعار أو علم أو صورة وعلقة
في الصف.

ماذا؟

كما سمعت. دخل المعلم، فبالي تحته عندما قرأ الكلمة، وطلب المدير. جاء المدير وبالي تحته عندما قرأ الكلمة، ثم اتصل بفرع الحزب الذي اتصل بمكتب الأمن القومي الذي أمر بدورية. دخلت الدورية إلى الصف الذي حوله المدير إلى سجن. لم يبل أحد من الدورية تحته. هدد رئيس الدورية التلاميذ وتوعّد: لن تخرجوا من هنا حتى أعرف من كتب الكلمة، ثم صرّح الكلمة بالموبايل. بين التلاميذ طفل معتلّ القلب، أخذ يرجف ويترعرق، وبالي تحته. صاحت الدورية والمدير والمعلم: هذا هو المجرم، وجّره أحدهم، وظل يجره في الصف وفي الممر وعلى الدرج حتى صاحت أصوات: مات. مات الطفل الذي ادعى أبوه على المدرسة، ووكل الأستاذة سلوى بالدعوى. من يصدق؟ أنا أصدق، ما دامت نمنوما هي التي تتكلم.

صباح: قلبي أسود، أنا بلا قلب حتى تظهر لي ليلا.

موبايل الليل والنهار:

حبيبي: خرجت اليوم إلى الشرفة. ملأت عيني من الشمس. كانت تتلخص علىي من فرجات الغيوم. بماذا أقسم لك حتى تصدق أن عين الشمس كانت حمراء؟ قلت: خير يا رب. وما



كَدَتْ أَكْمَلْ دُعْوَتِي حَتَّى رَنَّ الْجَرْسُ فِي أَذْنِي. رَكَضْتُ إِلَى
الْبَابِ وَتَسْمَّرْتُ. سَكُونٌ. سَكُونٌ تَتَضَاعِفُ وَطَأْتَهُ عَلَى صَدْرِي
حَتَّى مَا عَدْتُ أَحْتَمِلُ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْقُطِعَ نَفْسِي رَنَّ الْجَرْسُ. هَذِهِ
الْمَرَّةِ لَيْسَ تَوْهِمًا. اَنْدَفَعَتْ لِأَفْتَحِ الْبَابِ، لَكِنَّهُ سَبَقَنِي، لِيَعْانِقَ
لِيلِيَا قَبْلِي.

الحمد لله على سلامتها.

الآن أستطيع أن أقول: مشتاقة، مشتاقة لك يا صباح.
ما زال سأقول إذًا؟ هذا الفجر حملت لك كوكبة من الأشراك
الملونة، وأنا عالق فيها كلها: هذا شرك من أنفاسك، وهذا من
نظراتك، هذا شرك من كلامك، وهذا من عطرك، وهذا شرك أشقر
من شعرك. سأتجرأ وأذكر الشرك الذي التفت حول عنقي، وراح
يخنقني حتى أسلمت الروح: شرك البياض الساطع لذراعيك،
لساقيك، لم أستطع أن أحده، لأنني كنت قد مت.

سلامتك يا حبيبي. وأنا سأعترف أنني حلمت بك هذا
العصر. كانت ليالياً مرهقة حتى النخاع، ولم أكن أقل منها
إرهاقاً. بعد الغداء المتأخر أسرعت كل واحدة إلى سريرها.
غفوت قبل أن أضع رأسني على المخدة. لكنك أسرعت إلىّي. رأيت
نفسِي صليبياً وأنت السهم الذي ينطلق إلى صدري. رأيت نفسِي
دائرة وأنت السهم الذي لا ينتهي من اختراقها. لم ينقطع حلمي
طوال ساعتين.

نمنوما: أنتظرك هنا في كهف صغير سأعدّه لك في البحر،
لا أعني: في قاعه، بل فيه، كهف كأنه معلق في البحر، لكنه
ليس معلقاً، نودعه جسدينا ونمضي، نسبح، نلعب، نرحل، تحت
البحر، فوقه، فيه، كما تشاءين. متى تأتين؟

ما يفيض على حلم

من الكراج إلى مطعم ال؟! يو تهادت سيارة صباح الكولت الصغيرة، كأنها ثدلُّ بمن حملت. وصباح بدا أيضاً كأنما يدلُّ بمن تتقدمه إلى حيث يشير: أجمل ركن في مطعم ال؟! يو، الكرسيان متجاوران، ليس فقط كي يتلامس ساعدا العاشقين، وليس فقط كي تتعانق أنفاسهما كلما التفت أحدهما إلى الآخر، فإذا بالآخر قد سبقه إلى الالتفات، بل كي ترتمي نظراتهما من على الشاطئ الوضيء السحيق، ثم تنزلقان على البحر أبعد فأبعد، من معسكر الطلائع إن شاءت نظرة إلى جبلة، وإن شاءت نظرة: من الرمل الفلسطيني إلى السكتوري إلى.. هناك: ترسل نمنوما أصابعها وزراعها وصوتها وهبة النسم المالحة التي تغافلها وتتنسرب في شعرها، فيسكن النسم ويترنح.

.. وإلى هناك: يرسل صباح صمته، حيث تلتقي السماء بالبحر، والغيوم تظلل اللقاء، فيشعر هو والبحر والسماء والغيوم والشمس أين هي؟! من الشوق إلى نمنوما التي ستتشدو بسفرتها الصباحية من حمص إلى اللاذقية: والله قريبة، ساعتان، ولكن لو رأيت دهشة أهلي عندما فاجأتهم بسفرى. منذ خمسة أشهر لم أزر أمري، ومنذ أكثر من شهر لم أريامن. ولم

يفوت أخي الباسا الفرصة: بنتك المُرضية يا أم فاخر نسيت حمص وأهل حمص. سألتني أمي: من لك في اللاذقية؟ قلت لها: حباب يا سرت الحباب، فاحمرت عيونهم. حتى أختي أسيمة بحلقت مستنكرة. أنا وأسيمة كأننا توأمان.

ليس لمنوما شبيه: همس صباح مناجياً، فأخذ الفضاء يتلاؤ بنشار من النجوى والصمت والكلام، وقالت نمنوما: قلت لليلا: سأزور اللاذقية يوم الخميس. قالت الخبيرة: قولي سأزور صباح. نهرتها: ليلا: الأستاذ صباح. ليلا تبدلت كثيراً بعد اعتقالها هذه المرة. قل بعد هربها من حبس سيادة العقيد واصل. كأنها كبرت سنة في كل يوم. قالت وهي تعانقني: نمنوما: يكاد المريض أن يقول خذوني. خجلت منها وانكمشت. وأمس، بين الشام وحمص، قضيت الساعتين وأنا أسأل: هل هذا وقت الحب؟ هل تأخرنا؟ هل علينا أن ننتظر وقتاً آخر؟

قال صباح:

ما كان قد كان يا نمنوما. لماذا لا نفكري فيما يقرب الشام من اللاذقية؟

ليس لنا إلا منتصف الطريق: حمص. ما رأيك؟ أنا لا أسأل عن مطرح للقاء. اللقاء يمكن أن يكون هناك.

في فلقة من فلقات هذا البحر. تصيرين أنت مرة لغز البحر، مرة
حرير البحر. أنا أسأل عن مطرح نكون فيه معاً طوال الوقت.

هل هو الزواج؟

لم أفكّر فيه.

ولا أنا.

ولا أظن أنني سأفكّر فيه.

ولا أنا. لا أنا سأترك الشام، ولا أنت ستترك اللاذقية.

ما بقي لنا إذاً إلا البحر.

وافقت الكولت الصغيرة على ما انتهيأ إليه، لذلك تهادت
على الكورنيش حتى بوابة المرفأ، ثم أسرعت إلى حي المشروع
الثامن. وها هما أخيراً أم وألاً؟ وحدهما في بيت.

اتركنا نتعارف مباشرة، بلا وسيط، حتى لو كان صباح:
قالت نمنوما، فرفف البيت لقولها، وشبك أصابعه بأصابعها،
ودار بها موسوشاً: هذا هو الحمام، خذى راحتك، دوش دافئ،
خزانة المناشف الصغيرة، المرأة الكبيرة، شعر الشعر، الصدر
العاري، الذراعان العاريتان، استري سرّتك نمنوما.

بعد قليل سيتشم صباح نهديك الدافتين، مغمض
العينين. ستتحفان بالليلة الربيعية الباردة. ستطمرين أنفك
وشفتيك وذقنك في شعر صدره. أما الآن فالبيت يخرج بك من

الحمام إلى الصالون، مدفأة الحطب الحديدية، الحطب المنضد
قريها بعنابة، الكرسي الهزاز أمام المدفأة، البسط المزخرفة،
الزرقة التي تتناوب مع البرتقالي على الكنبات، ستدققين في
اللوحتين فيما بعد، الجاكاراندا ترخي من ذوايئها فوق الشرفة
غير عابئة، النافذة العريضة المطلة على البحر، وهذه هي
غرفة صباح، المكتبة الجوزية المزجّجة والمدجّجة، كرسي
الخيزران الصغير العتيق، المكتب الفسيح النظيف من يننظف
البيت؟ البسط المزخرفة، ما من سجادة هنا: هامسها البيت،
وأسرع بها إلى غرفة النوم.

ها هنا تركها البيت وحيدة، فاللت نراعاها على صدرها،
ودثراها بالخجل، وكانت أنفاس صباح تقترب. ومنذ ذلك
العصر المبكر إلى ذلك المساء المتأخر، سيكون جسدان قد
تحرقا وأغفيا عميقاً بانتظار ليل أخضر، كما همست نمنوما،
بل ليل بلون اليانسون، كما همس صباح. ولما أفاق الجسدان
كانت الغرفة مضمحة بعطر من لذاعة وارتواء وشهوة وعافية
ونهم، فلغّها الذهول حتى أخذت السماء ترعد وتبرق.

من مرويات صباح خليل

عندئذٍ روى صباح لمنوما:

كان الشهيد الأول شاباً نيف على الثلاثين، متوسط الطول، لكن سمنته بادية. كلما زرت أختي جهيدة أو بهنان في حي الغريبة، كنت أراها واقفاً خلف الطاولة الكبيرة في مدخل المصبغة التي يعمل فيها هو وإخوته.

كان الوقت مساءً عندما أذاعت شام F.M استغاثة امرأة في حي المشروع السابع. حتى الإذاعة على نجدة المرأة، فجرى أسامة لا ذكر إلا اسمه الأول ملبياً، وقطع الأوتستراد، ولم يتوقف حتى أوقعه الرصاص قرب شعبة التجنيد.

كانت جهيدة أكبر رعباً وحزناً من بهنان، أو كان بهنان أكبر رعباً وحزناً منها، ولم أكن أحسن حالاً عندما ناداني، فرأيت الموت يظلل حي الغريبة، ورأيته يظلل الجنازة التي خرجت وبهنان فيها حتى قرية الشهيد.

بعد ذلك بالضبط يوم الأحد وفي حي الغريبة أيضاً استشهد جاد ابراهيم. كان جاد ٢١ سنة من شباب اللجنة الشعبية لحماية الحي، وكان كأبيه الخياط صديقاً لبهنان.

مرة واحدة رأيت جاد عن قرب، عندما وافيت بهنان أمام

مقهى كارلوس، ثم مشينا نحو الكنيسة، وبعد أمتار أشار بهنان إلى سيارة صغيرة، أصغر من الكولت، ومن قفاحاً برزت سلال القهوة وعلب السجائر المهرية وقناني الماء. وحبياً بهنان الشاب الذي كان يملأ بالقهوة كأساً بلاستيكية: مرحباً جاد، ثم قال لي: تعال اشرب على الماشي كأس قهوة ممتازة.

طيب قشاب زوج اختي جهيدة روى أن نساء كن يستغثن من البناء المقابلة، ويشنن إلى هناك: سطح البناء الكبرى التي يقال إنها ستكون مجمعاً تجارياً. ومن على السطح تردد أن أصوات ليزرية ترسل، وأنها لابد أن تكون إشارات من مجموعة مخربة إلى مجموعة مخربة، فسبق جاد رفاقه في اللجنة، أعزل، وربما استطاعت المجموعة المخربة رميء في منور البناء، وربما تعثر فسقط في المنور، ومها يكن فقد أسعفه رفاقه إلى مشفى الأمل القريب، وبعد نصف ساعة مات، ولم يُقبض على أحد.

* * *

وروى صباح أنه قرر أن يشارك في مسيرة التأييد للرئيس، بعدما وقع مع أكثر من عشرين مثقفاً في المدينة على بيان يناشد رئيس الجمهورية أن يدعو إلى مؤتمر لا يُستثنى منه أحد، لا من داخل البلاد ولا من خارجها، ليرسم طريق الخلاص.

قال صباح:

ظهر يوم الثلاثاء: كنت أريد أن أرى بعيني: هل تبدل شيء في السلطة وفيمن يوالونها، خلال الأسبوعين الماضيين؟
كنت في الجامعة، بين من أدرس من الطالبات، رأيت من كتبت على خديها: منحبك. ورأيت من رسمت العلم على خد، وكتبت الكلمة على خد. وفوق الرؤوس، كما في دوار هارون أو في ساحة الشيخ ضاهر، قرأت اللافتات العملاقة: لا للمتخاذلين والمتورطين لا لتخريب المؤسسات وممتلكات المواطنين سورية أسرة واحدة متماسكة.
ليتها كذلك.

كانت مسيرات مليونية حقاً في أنحاء البلاد كافة. المذيعات يصرخن أعلى من المذيعين: عشرة مليون، نصف سورية. أقول: وربما أكثر، ولكن من يجهل كيف تنظم هذه المسيرات من طلاب وطالبات الجامعات والمدارس ومن الموظفين ومنظمات الشبيبة والنساء والفلاحين والعمال والحرفيين و...؟
وقال صباح:

ظهيرة الأربعاء وبعد فنجان قهوة عاجل، غادرنا مقهى العلي في حيّ الصليبة: الدكتور رافت عسلية وصهري طيب وأنا على الجدار الأول بعد المقهى تراصّت نعوات شهداء حي

الصلبية. توقفت لأقرأ، فحثني رافت على المتابعة هامساً:
يُقال ما عاد مسموحاً أن تُطبع أو تُعلق نعوة لمن يسقط في
القتال ضد الأمن والشرطة.

بعد قليل صادفنا عشرات الشباب يهتفون غاضبين،
ابتعدنا في شارع فرعى، وابتعدت أصوات المتظاهرين، لكن
الرصاص شقّ سكينة الشارع وشق صمتنا. تفرقنا. لا أحد
يعرف كم سقط من الشهداء.

وروى صباح:

الشائعات تقتل مثل الرصاص، وتختنق مثل الغازات
المسيئة للدموع: منذ يومين كانت سيارات تنهب الليل من
الرمل الشمالي إلى الرمل الجنوبي، من الدعتور إلى قنينص،
من الغريبة إلى الصلبية، وباختصار: من حارة علوية إلى
حارة سنية، ومن حارة سنية إلى حارة علوية: في هذه تفتح
العلويون قادمون ليذبحوكم، وفي هذه تفتح: السنة قادمون
ليذبحوكم. سألني بهنان: والمسيحي مثلّي ماذا يفعل؟ قلت له:
بieroح فرق عملة.

شر البلاية ما يضحك.

قريباً من هنا، خلف مركز الهاتف، صادفت واحدة من
تلك السيارات، ولم أصدق أذني. ولما طاوعني صوتي على

الصياح، كانت السيارة قد أقلعت مختالة بالبواريد التي تملأ نوافذها. حتى إلى القرى وصل هذا الفحيخ.

على سطح مكتبي ترين منشوراً ملأ المدينة تلك الليلة، يبشرنا بأن الهجوم الجديد سيكون الأخير في اللاذقية، ويتضمن المخطط دخول إرهابيين قادمين إلى قرى وريف اللاذقية بلباس عسكري، ويحملون هويات عسكرية مزورة، ويركبون سيارات عسكرية مسروقة، وسيقومون بمحازر رهيبة، والمنشور ينصح بعدم الاستجابة لأية دعوة غريبة للتجمع تحت أي شعار، وإن صدر من أشخاص يحملون صفة عسكرية.

وأخيراً، قال صباح:

مساء السبت الماضي تجمهر عدد من الجيران في الساحة، خلف عمارتنا، حيث تنام الكولت، وكانت الأصوات المرعوبة والهائجة مسموعة هنا في الصالون: شباب من الجبل، أي من القرى العلوية، يحاولون أن يقتحموا الحارات السنية، لكن قوات الأمن وقوات مكافحة الشغب تردهم. ما عدنا نعرف طه من طلطميس. ولم يكن ينقصنا إلا أن يلعل التلفزيون ليخبرنا أن الفلسطينيين في حي الرمل الجنوبي هاجموا قلب المدينة، وكسروا وحرقوا وروعوا. صديقي أبو نوزات ليس فلسطينياً،

لكنه يسكن في الرمل الجنوبي، في مدخل الحي. سألناه جمِيعاً:
شو صار يا أبو نوزات؟ قال: أسلوا الفصائل الفلسطينية التي
كذبت التلفزيون في بيان مشترك.

الآن إذا نزلت يا نمنوما إلى الساحة، خلف العمارَة، سترين
ربما عشرين شاباً قد أغلقوا الشوارع التي تصب في الساحة،
منهم من يحمل البومبكشن، ومنهم من يحمل العصا. هؤلاء
لجان الأمْن الذاتي، لجان الحماية الشعبية، يحرسون الحارات،
بالطبع، بالتنسيق مع الأُمن. هل تعرفي ما هو يوم غد؟
قالت نمنوما: يوم الجمعة، جمعة الشهداء. ثُرى ما الذي
تخبئه لنا؟

جمعة الشهداء

عشش سؤال نمنوما في منحنيات السقف المستعار، وفي زوايا الستائر والسرير. وغالب جسدان السؤال حتى غلبهما وحشرهما في بعضهما رديحاً من الليل، قبل أن يُسكنهما في الغلس، فاستسلمَا من رهق ومن قلق إلى نوم عميق جداً ومضطرب جداً، امتد حتى العاشرة.

عندما رفَّت نمنوما نبأ حضورها، أومضن لصبح أوتوستراد بلا نهاية، يكاد المطر أن يغرقه، وسيارة الكولت الصغيرة تنجو بمعجزة، وتلقي بنمنوما وصباح في حماة، على ضفة نهر العاصي، فَيُهُرِّع إِلَيْهِمَا راتب وبنان والعاصي الذي مزق القماط، وراح يعيّر صباح بتراجعه عن القرار العتيد: ما من علاقة مع امرأة في دائرة مركزها اللاذقية، وقطارها مائتا كيلو متر. لكن نمنوما قادمة، وصباح قد أبطل القرار العتيد، ورسم أن يدعو عدداً من أصدقائه إلى سهرة في بيته، احتفاء بالضيفة، لولا أن نقرات المطر أعلنت عن نفسها بحياة منذ المساء، وسرعان ما تواصلت راقصة، صاحبة، عابثة، متخفية كأنها قد توقفت، فجعلت صباح يضنّ بالليلة الأولى مع نمنوما: غداً يجمعنا مقهى الياطر، كما في ضحى كل جمعة.

في الحادية عشرة أسرعت بهما الكولت إلى مطعم بيتوتي الذي كان شبه خال، مثله مثل الكورنيش. وتعلل صباح بصلحة الجمعة، ثم تعلل بالحدن الذي صار يغلب المدينة يوم الجمعة، خوفاً من الصدام بين المتظاهرين وقوات الأمن ومكافحة الشغف، إثر الصلاة.

بصمت وشروع موغلين في الفضاء البحري الأزرق، شربا القهوة. وقبل أن يعودا إلى السيارة، قالت نمنوما: أفكر في أن أعود بعد قليل إلى حمص. أنا لا أحب القرارات المفاجئة ولا المزاجية. قال، وتنبه فجأة إلى جفاء صوته، فتابع ملطفاً: ما رأيك أن نقضي مع بعض الأصدقاء بعض الوقت؟ بهنان على الأقل.

أومأت موافقة، فتمنى أن يكون قادراً على أن يهصرها الآن هصراً، عقاباً على السفر. وترك للسيارة أن تبارح الكورنيش قرب المبني الجديد الهائل الذي يشيد ليكون مقرًا للحزب القائد في المحافظة. وعلى هونِ بدت السيارة مسارها حتى اعترضها بلدوزر كبير وشاحنة خلفه.

حاولت السيارة أن تعود فاستوقفتها نمنوما التي أشارت ذراعها إلى الأعلى، وسألت عمّا حطم الإنارة واللمبة. وقبل أن يجيب صباح أشارت إلى الرصيف يمين البلدوزر، حيث أصيص

كبير محطم، وأخر أكبر مقلوب على جنبه، ومن الاثنين اندلق
تراب أحمر وزهور. وسألت نمنوما عن الحطام، فعاد صباح
بالسيارة إلى الخلف قليلاً، وأوقفها أمام صيدلية مغلقة وقال:
انزلني حتى نرى ما يجري هنا.

وبصمت وتهيّب تقدماً، وتجاوزاً البلدوزر والشاحنة ليريا
عمالاً يجمعون حطام الزجاج أمام المصرف التجاري، وآخرين
يرفعون دوالib محرقة بعد المصرف، وعلى الرصيف توزعت
كومات صغيرة من نفايات شتى، وفي ركن آخر كان الأنابيب
الطويل الضخم لسيارة الإطفاء يغسل الشارع والرصيفين.
ومن دون أن يشرح أحد لصباح قال:

ورشات مجلس المدينة ومديرية الزراعة تزيل آثار الصدام
أمس. ربما غسلوا الدم قبل أن نصل. تعالى، سنعود إلى السيارة
من الشارع الموازي.

من موقع السيارة إلى مقهى الياطر مضيا بصمت مكمود.
وفي الزاوية اليمنى من رصيف المقهى، كان قد تحلق بهنان
والدكتور رافت عسلية اختصاصي جراحة عظمية وأبو نوزات
ترجمان محلف عن الألمانية.

توسطت نمنوما بين بهنان وصباح، وبعد الترحيب
بالضيافة تابع أبو نوزات ما كان قد انقطع من حديثه:

مظاهرات كهذه لابد أن يكون لها من يحدد موعدها وهتافاتها وخط سيرها، بل وحدود الاشتباك مع الشرطة والأمن. وهذا ليس في اللاذقية وحدها، بل في سورية كلها. ونظر بهنان إلى نمنوما كأنه يخضها وحدها بالحديث: بدأ الحديث عن التنسيقيات يدور، وخصوصاً في الشام.

وبينما نظرت نمنوما إلى صباح، كأنما تشكو حيرتها فيما تقول، كان من تحلقوا حول الطاولة المقابلة ينهمون، وغادروا مسرعين وفزعين وصاخبين. وفجأة تلقى الدكتور رافت هاتفاً ينصح بالعودة إلى البيوت فوراً، كما سيعلن وهو يقف مضطرباً. ولما صاروا جميعاً خارج حصة المقهى من الرصيف، كانوا قد أدركوا أن مظاهرة انطلقت غير بعيد.

أمسكت نمنوما بساعد صباح وهمست آمرة:

امش.

إلى أين.

إلى المظاهرة.

قالت بصوت مسموع وراجف، فقال أبو نوزات:
يلله.

وتقدم فلحقاً به، بينما لوح بهنان والدكتور رافت مودعين.

* * *

في تقاطع شارع المالكي مع شارع هنانو تنهت نمنوما
إلى ندرة الناس والسيارات، فتوقفت، ومشت صامتة، تجاهد
كي تلحق بأبو نوزات، لأن صباح لا يحانيها. ولما ظهرت
ساحة أوغاريت توقفوا.

ثمة عابرون قليلون ومتباطئون. وثمة ما يعيق السير في
مفارق الساحة، وأحجار متناثرة أمام السينما المغلقة منذ
سنوات، ولوحة إعلانية كبيرة محطمة، بينما وقفت الأعمدة
مهيبة وغامضة، وبيجامتها تعقلت نظرات نمنوما، قبل أن
تطوف في الساحة: سكون مبهظ.

في الاتجاه المعاكس استدار أبو نوزات، فاستدارت نمنوما،
فاستدار صباح تلامحت المظاهر في نهاية شارع القوتلي،
ولابد أنها تتجه إلى ساحة الشيخ ضاهر القريبة، لذلك أسرعوا
إلى التقاطع القريب، ثم انعطفوا إلى ما يخص الصاغة من
شارع المالكي، ثم انعطفوا إلى شارع هنانو، وعجزت نمنوما
عن اللحاق بأبو نوزات، فعجز صباح، وأخيراً: ها هي الساحة
الموعودة.

كانت صلاة الجمعة قد انفضت منذ قرابة الساعتين، عندما
ظهروا يهتفون. كانوا جمهرة من الشباب ربما أقل من مائة
يحفّ بهم عناصر وضباط من الشرطة. ولما توقفوا جميعاً

أمام التمثال الضخم تضاعفت حرارة الهتافات:

سلمية سلمية

حرية حرية

لا سنية ولا علوية

لا إسلام ولا مسيحية

كلنا وحدة وطنية

بالروح بالدم نفديك يا درعا.

على رصيف قسم الشرطة وقف صباح ونمنوما متلاصقين
بين آخرين، منهم من كانوا يحملون عصياً غليظة. وكان أبو
نوذات أقرب إلى جزيرة التمثال التي احتشد المتظاهرون أمام
شطرها المقابل، وفجأة انفجر الهاتف: الشعب يريد إسقاط
النظام.

التفتت نمنوما إلى صباح كأنها تسأله عما إن كان سمع
كما سمعت، لكن عيني وأذني صباح وربما روحه كانت
معلقة بحنجرة وذراعي الشاب الواقف على كتفي آخر، ويهتف
في ردودهن.

بعد قليل بدا أن كل شيء يطّرد احتقانه: الأصوات والبنادق
والعصي والأذرع والعيون، فأشار أبو نوذات كأنه يودع أو
ينصح بالانصراف، فمشى صباح ونمنوما قدماً في الشارع

الخالي من السيارات ومن البشر. وما إن ابتعدت الساحة حتى ظهرت جمارة صامتة من المدنيين. وعن مقرية تبين أنها تخفي عصياً خلف الظهور. وعن مبعدة، خلف الجمارة التي ربما تربو على المظاهره، وقف مدابراً رتلًّ من الشاحنات البيضاء ذات النمر الحكومية الخضراء.

لابد أن هذه الشاحنات هي التي جاءت بهؤلاء، ولكن لماذا؟

قالت نمنوما ساخرة، ولما لم يجب صباح، تساءلت:

هل جاءوا ليردعوا المتظاهرين؟

فقال وهو يرسم قوساً كبيرة بذراعه:

أسرعي إذاً قبل أن تقع الواقعه. سنقوم بالالتفاف طويلاً حتى نصل إلى الكولت. وربما سيكون أمامنا التفاف أطول حتى نصل إلى البيت.

قالت راجيةً:

صباح: خذني إلى الكراج، أرجوك.

حاضر.

بعد قليل تتم صاغراً، وظلا صامتين، حتى بلغا السيارة، إذ كانت رشقات قصيرة من الرصاص قد أخذت تسمع. ولما انطلقت السيارة قالت نمنوما:

أرجوك لا تزعل.

فأوْمًا مُنْصَاعِّاً وَتَمَّ:

حَاضِر.

وَظَلَا صَامِتَيْن حَتَّى خَرَجَتِ السَّيَارَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَأَخْذَتْ
تَنْهِبَ الْأَتوُسْتَرَادِ، فَسَأَلَتْ نَمْنُومًا:

إِلَى أَيْنَ؟

إِلَى حَمْصَ.

هَمْسٌ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا مُبْتَسِمًا، فَلَبِثَتْ ذَاهِلَةً.

هل هذه هي سوريّة المصغّرة حقاً؟

في التوليدو، حيث تناولا الغداء أول مرة، تناولا العشاء لأول مرة، سوى أن الغداء كان متأخراً، والمطر غامراً، بينما جاء العشاء مبكراً، والربيع ينفع بالدفء ويفوح الأزهار التي تتوسط طاولات المطعم. ولأن الزاوية الشرقية من الطابق الثاني من المطعم تكاد تكون خافية، وتحفي من فيها، فلم تك تفترق أصابع نمنوما وصباح، ولا نظراتهما.

وفي الثامنة التي جعلها التوقيت الصيفي أكبر، أقلعت الكولت الصغيرة عائدة إلى اللاذقية، بعدما أصرت على أن تصل بمنوما إلى مدخل العمارة، كما أصرت عينا صباح على أن تتقريرا ما يظهر من البيت الذي أشارت إليه نمنوما، في الطابق الثاني.

على أمها أقبلت نمنوما بشوق مضاعف، كأنها فارقتها منذ سنة، وليس البارحة. وأن صدر نمنوما كان يمور بالفرح، فقد مضت بحرارة أيضاً إلى حيث أشارت الأم: أخوك يامن في غرفة المرحوم.

فوجئ يامن بمنوما تحضنه وتقبل خديه كما لم تفعل البارحة. وسرعان ما أخذلت كفه لكتفها كأنه لم يكن حِرداً، أو

كأنه ليس له ما يأخذة عليها، بل ولا على ليليا أيضاً. ولعلها
بدأت تحدثه عما رأت من جمعة الشهداء في اللاذقية، كي لا
تبعد سيارة الكولت الصغيرة بصباح كثيراً، حتى إذا سالت
عما جرى هنا اليوم، أجاب يامن بحذر:
كانوا في ساحة الساعة حوالي الألف.
ويمانا هتفوا؟

اعتصام اعتصام، بدننا نحاسب النظام.
فقط؟

وهتفوا: الشعب يريد إسقاط الطوارئ، ثم هتفوا: الشعب يريد
إسقاط النظام، وهتفوا: بدننا طل الملوحي، وشتموا حزب الله
اللبناني.

وأنت، شاركت في المظاهرات؟
ترفرجت عليها من بعيد.

قال متحاشياً نظرات نمنوما، فوقفت وتمطت قائلة:
أنا مرهقة، لم أهدا طوال النهار، لابد من دوش، انتظري،
أين أسيمة؟

قال يامن:

خرجت مع زوجها.

وإذ عاد وحيداً في غرفة المرحوم، أخذ يستعيد صوتها

من صمت الغرفة ومن هوائها. وعزم على أن يحدثها بعد قليل
عما فعل في هذا النهار، منذ غادر البيت في العاشرة، قبل
أن يتفرج على ساحة الساعة العتيقة، وبعدما خلت الساحة
من المتظاهرين: درت حول نادي الكرامة، كنت سأدخل لو
أن البوابة مفتوحة، مشيت حتى الحميدية، خطوة أقصر من
خطوة، أرعدتني برودة السوق المغطى، تاهت خطواتي حتى
بلغت النحاسين. لا جلغ ولا سنن ولا طرق ولا مبيض يغنى،
ارتبت في هذا السكون: هل تكون حمص كلها مغلقة لمشاركة
في جمعة الشهداء؟

فظننت إلى أن اليوم هو يوم العطلة الأسبوعية. كنت بحاجة
إلى هذا التفسير المطمئن. صادفت ابن خالي فرحان، سألني
عما إذا كنت سأسرع إلى تأدية الخدمة الإلزامية، لماذا يا
فرحان؟ قبل أن تتراجع الحكومة عن قرار تقليص الخدمة،
يلعن اللي طرك يا ابن خالي. فرحان هو فرحان، لا هم ولا
غم، ومع ذلك سيدهب إلى ساحة الساعة، وأنا سأذهب، هو
سيشارك وأنا سأتفرج. وحين رأيته يهتف ظننت أنه هو نفسه
من كان يهتف في ساحة الحرية عندما حضر وزير الداخلية
وصفع الشرطي. ومنذ غادرت ساحة الساعة حتى وصلت إلى
البيت وأنا أسأل نفسي: إذا كانت الثورة لم تنطلق من ساحة

الحريقة، فهل يمكن أن تنطلق من ساحة الساعة؟ إذا كان من صفعه الشرطي في ساحة الحرائق لم يحرق نفسه، ولم يشعل فتيل الثورة، فهل يكون ابن خالي فرحان هو محمد بوعزيزي الحمصي أو السوري؟

لست وحدي يا نمنوما من يسأل: لماذا لم ترفع مظاهرة واحدة علم فلسطين؟ لماذا لم تحرق مظاهرة واحدة علم أمريكا ولا علم إسرائيل، لا في ثورتك السورية ولا في غيرها من ثورات ربيع العربي. لن أناقشك اليوم يا نمنوما، بل قد لا أناقشك مطلقاً، لأنني لا أريد أن أختلف معك، لا أريد أن أفقدك. لا تسأليني إذاً كيف غادرت بيتك وعدت إلى هنا. أمي تسأل كل يوم: ماذا تفعل هنا يا يامن؟ تركت الجامعة يا يامن؟ وكل يوم أعيد الكذبة: الدروس توقفت بسبب المظاهرات. حتى فاخر باشا بلع الكذبة. هل أقول له أو لها: ما عدت قادراً على الصبر على بيت نمنوما. سهرات ليليا وزملائها وزميلاتها في البيت، اعتقال ليليا، نمنوما تخفي مطلوبياً للأمن، والآن لا أعلم ماذا عليّ أن أفعل. أنا أفكّر فيك يا نمنوما وليس في الإقامة عندك ولا في كلية التربية. حتى لو عدت إلى بيتك، فلا أظن أننا سنعود كما كنا. ألا ترين كيف يتبدل كل شيء فيينا وحولنا بسرعة لا تصدق؟

أصاب السؤال الغرفة بالضيق، كما أصاب صدر يامن،
فخرج إلى الصالون، وفوجئ بنمنوما جاثية أمام الأم كأنها
طفلة، والأم تمسد الشعر الأشقر الطويل وتصلي على سيدنا
محمد، وعلى آل سيدنا محمد: خدود مثل زهر الرمان، طلة بهية
مثل الشمس المستحبة، بيضاً مثل التلنج، طول عمرك هيك يا
نمنوما. ولم يستطع يامن أن يتابع التنشت، فكبّر واقترب وهو
يقسم على أن نمنوما أجمل من كل ما عدلت يا أم فاخر. ولم
يك ينهي قسمه حتى قرع الباب، فهرع إليه، وكانت نمنوما
قد وقفت. وكما فوجئ فاخر بها فوجئت به، لكنها لاقته
كأنها صغرت عشرين سنة، مبتهجة ومشوقة، وكما لم تلقاء
منذ سنين، فعانقها كما لم يعانقها منذ سنين، ثم قادها إلى
الكنبة الثنائية المقابلة للأم التي تضرعت: الله يرضى عليك.
ووضع يامن على الترابيزة أمامها ما كان قد تناوله من فاخر
الذي فضّل غطاء الطبق، وخاطب أمه:

تذكرين يا أم فاخر كيف كنت أحضر لنمنوما في صغرها
مرة قطايف ومرة سمسمية؟

قالت الأم بصوت متهدج:

ومرة بشمينة، مرة سيالة، مرة بسبوسة.

قالت نمنوما بصوت عاد إلى طفولته:

البسبوسة والبسيسة كانت من نصيب أسيمة.

وكأنما كانت نمنوما بحاجة إلى ما لفتها به أمها، وما لفها به فاخر، فنسى تلك الليلة أنها كبرت وأنها أم، بينما كان صوت صباح يتصادى في أعماقها، ويتوهها بين طفلة في العاشرة، وعاشرة تنكر الأربعين.

* * *

إلى دمشق بكرث ويامن. ليلة إلى ليلة سيدأب يامن وليليا على أن يذكرا هذه الطفلة الحالمة بأنها أمها، إلى أن تهتف لها أسيمة صباح الإثنين الثامن عشر من نيسان: اليوم يوم حمص يا نمنوما يا حمصية. تعالى. سنعتصم اليوم في ساحة الساعة التي سنسميها ساحة التحرير. حمص اليوم يا أختي سنسميها عاصمة الثورة. تعالى أنت وليليا. بنتك أيضاً حمصية ولو كان أبوها من بانياس.

كانت الساعة تقترب من التاسعة، ونمنوما لا تزال في السرير، كعادتها في يوم الإجازة. وما إن تلاشى صوت أسيمة حتى قفزت. ومن باب غرفة ليليا استرقت نظرة: ستلومني إذا لم أصطحبها. لا، لن أصطحبها. مجنونة واحدة في هذه الأسرة، بتكتفي ويتوفّي.

بعد الحمام استرقت من غرفة يامن نظرة: لماذا لا أوقفه وأجرّه جرّاً إلى الاعتصام؟ تركت السؤال معلقاً على باب الغرفة، واندفعت في سباق مع الوقت حتى أدركت أسيمة في

البيت، قبل أن تلتحق بالساحة.

بعناق أمها، ثم بعناق أسيمة، عادت نمنوما طفلة، وبدأ
الحلم: ساحة أكبر بكثير، وساعة أعتق بكثير مما هما عليه في
اليقظة، مظاهرات تصب في الساحة من الأنهاء كافة، شابة
تقف على كتفين وتهتف بالساحة كلها، شاب يطير من قاعدة
الساعة إلى باب النادي، يتسلق الجدار إلى أن يصل إلى صورة
الرئيس، يمزق الصورة ويرميها على من لحقوا به، ثم يعود إلى
الساحة، حيث شرع الشبان بنصب الخيام.

حين اقتربت نمنوما من الخيمة التي تزيينت بكرتونة كتب
عليها: خيمة الوحدة الوطنية، صاح بها شاب:

- ست نمنوما! أنا فرحان ابن خالك، تذكرتني؟

وصافحها بحرارة وهو يرش كلماته:

- بعلمي أنت في الشام.

قالت نمنوما باعتزان:

- جئت لأكون معكم.

- الله أكبر.

صاحب فرحان، وشد ذراع نمنوما عالياً، ولوح لمن حوله
متباهاً، ثم اندفع إلى مجموعة تنصب خيمة خلف خيمة
(الوحدة الوطنية)، بينما ظهر ملحم، زوج أسيمة، غاطساً في

حوار مع شاب غاطس في مسوحه، فاقتربت منها. ولما رأها
ملحم دعاها إلى الانضمام إليهما، وقدمها إلى أبونا مرقص
الذي سيلقي كلمة الوفد المسيحي ضد الفتنة: قال ملحم،

فسألته نمنوما ساخرة:

- عن أي فتنة تتحدث؟

لكن الهتافات ضيّعت السؤال والجواب. وبين هتاف وهتاف
اقتربت شابة. وما إن رأت ملحم حتى سألته باستفزاز:
- ماذا تفعل صحافة النظام هنا؟ أم إن الأستاذ ملحم ما
عاد يعْد نفسه من الموالة؟

وابعدت، فأخذ ملحم يلملم ارتباكه، قائلاً وهو ينقل نظراته
بين نمنوما وأبو مرقص:

- البنت من مؤسسي تجمّع نبض. وهؤلاء أشار إلى اليمين من
الحزب السوري القومي، وخلفهم شباب حزب العمل الشيوعي.
ثم التفت يساراً، وبدأ كمن ينتزع الكلمات انتزاعاً:

- هؤلاء من لجان المجتمع المدني، وهؤلاء.. لا أعرف.
وقطع حضور أسمية كلامه. وهمت بالكلام وهي تشير
إلى خيمة تزيّنت بكرتونة كتب عليها: خيمة الشهداء. لكن
صوتاً هائلاً من ما يكررون هائل أمر بطي الوقت طيّاً، إلى أن
تدق الساعة معلنة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. لكن

المایکروفون صحّح: الساعة واحدة وخمس وأربعين دقيقة، ثم أمر: نار، وبدأ إطلاق الرصاص، فتبقعت بالدم طفلة اسمها نمنوما، كما تبّقى الحلم.

صباحاً، وبعد أن تتحقق نمنوما من النجاة ستعود إلى البيت، حيث ستجد ليليا ويامن بانتظارها، وستروي لهما أنها رأت البارحة، في النهار وفي الليل، شباباً ملء ساحة الساعة يفرشون بطانيات، ويقومون قناني الماء، ورأت العائلات كأنها في سيران، ولكن المایکروفون الهائل شق السماء التي كانت ترقص فرحاً، بصوت هائل يأمر بغضّ الاعتصام، فابتعدت، ولحقت بي أسيمة، ولحق بها ملحم، ولطونا في فتحة شارع عبد الحميد الدربوي التي تطل على الساحة، مثل كثرين، وصرنا نتفرج من بعيد. وفجأة لعل الرصاص، وبدأت الناس تركض، ورأيت فرحان ابن خالي يفتح ذراعيه وجذعه يرتد، ثم يندفع إلى الأمام، ثم يرتد ويميل يميناً، ثم يسقط الذراعان ويرتد الجزء وهو يميل يساراً، ثم سقط فرحان، وغاب عن عيوننا.

في وقت آخر من يوم آخر، ستروي نمنوما لنفسها أن فرحان دعاها إلى العشاء عند قاعدة الساعة: أحلى سندويتشة فلافل من ابن خالك. وستروي أن وجهه كان يتلون بألوان

حديثه، وأن عينيه اتقدتا فجأة، وهما تطوفان في الساحة،
فسألته قلقة:

- ما بك يا ابن خالي؟

فتمتم كأنه يتهدّج:

- سرت نمنوماً: أنت قاضية ولا بد أنك تعرفي من قال:

حمص هي سورية المصغّرة؟

الجمعة العظيمة

آخر ما تذكره ليليا هو الدم الذي نفر من بطن شاب يشبه سراج، وكاد أن يبلل صدرها لو لا أن دفعتها امرأة بعيداً وهي تولول.

كيف عادت إذا؟

اسألوا أية سيارة فرت من درعا في ذلك المساء. ربما كانت سيارة خاصة تلقت ليليا وحشرتها بين الأسرة التي انحشرت فيها، ونادت دمشق طلباً للنجاة.

وريما كانت «تاكسي عمومي» تغص بالرجال الذين بلبلتهم هذه الشابة الخائفة النحيلة البلياء الشقراء الشعثاء: واحد لعن إبليس، واحد كتم ما أحسّ به من الرغبة، وثالث فاضت الشفقة على المسكينة من نظراته، ومن حركاته، والسائق أطلق شكوكه: شو قصة هالحلوة؟

عندما سأل السائق ليليا عن مطرح نزولها، انتفضت من سبات، وأدركت أن السيارة تقف مقابل وزارة الإعلام. وعندما ارتمت في حضن نمنوما غالبت البكاء حتى غلبها، وأخذ صوتها يتشكل نواحاً ورعباً. ولم تهدأ حتى سمعت نمنوما تنادي سراج، ثم ترمي الموبايل على الكتبة المقابلة، وتمسح دموعها.

عندئذ استسلمت ليليا إلى نوم عميق. ولما استيقظت فوجئت بنفسها مكoma على الكنبة الثنائية، ومغمورة بلاحافها الذي فاض عنها ورمي أطرافه على السجادة. وحين تمطت وانقلبت على جنبها فوجئت بسراج يملأ الكنبة الثلاثية المقابلة، ولحاف نمنوما يفيض عنه ويرمي أطرافه أيضاً على السجادة. تنهدت ليليا عميقاً، وملأت عينيها من جبين سراج، من حاجبيه، من وجنتيه، من أنفه ومن شفتيه ومن ذقنه: متى خرجت من السجن؟

بعد قليل كررت السؤال وقد اقتعدت السجادة، واحتضن ذراعها رأس سراج الذي ما عاد الموظف اللامع في شركة الاتصالات، ليس فقط لأن الشركة أمرت بطرده من العمل، جزاء على مشاركته في المظاهرة الشرارة، بل لأن ما وجده ينتظره بعد الإفراج عنه، لا يمكن أن يجمعه مع العمل، لا في شركة الاتصالات ولا في سواها.

في ذلك الصباح همس ليليا قبل أن تتنفس نمنوما في الممر، وتملاً الباب المفتوح:

جاءت عودتك مثل الإفراج عنني في الوقت المناسب.

سألت ليليا بارتياخ:

ماذا تقصد؟

قال وهو يقرب كفها من شفتيه:

الحرك الآن هو عملٍ الجديد، هو وظيفتي الجديدة، لذلك ستكون لقاءاتنا صعبة.

وفي عصر اليوم نفسه وافتها كوكب الصباح إلى كافيتريا أوتيل الشام، وهامستها بحذر:

سراج لن يعود إلى الظهور إلا بحساب دقيق، وبمهمة خاصة. سيتصل بك من رقم آخر أو أكثر. أنا نفسي لن أراه بعد اليوم إلا عندما يقرر هو أن يراني. كوني حذرة. قد تكونين مراقبة، قد يكون البيت مراقباً. على الأقل هاتفك قد يكون مراقباً. لا تذكرني اسمه حين يتصل بك. وحين يستطيع ترتيب لقاء سينبلغك بطريقة ما.

وفي مساء اليوم نفسه اتصل العقيد واصل بنمنوما:
لياليا عندك؟

صمت.

أنا أنقذتها من الفرع بمعجزة. لماذا لم تخبريني باعتقالها؟
صمت.

كان وساطاتك لم تنفع هذه المرة.
صمت.

أردت أن أحميها عندي هنا في البيت، لكنها هربت. طبعاً، طبّ الجرة على تمّها، بتطلع البنت لمين؟ لأمها. إذا كانت عندك قولي.

صمت.

أي إساءة لي أكبر من أن تكون بنتي معتقلة؟ ما لك؟
خرست؟

قالت نمنوما بحيدار، ولكن بحزن أيضاً:
لليليا هربت من سجنك، وهي عندي بأمان. حاول أن تصلح
ما خربته بينك وبين بنتك، ولا تتكلم معي بهذه اللهجة.
كنت متيقناً من أنها عندك. لماذا لم تخبريني؟ انتبهي يا
نمنوما إليها وانتبهي إلى نفسك. هذه الأيام صعبة وخطيرة،
وأنا لا أكاد أنام الليل.

قال بتأثر وضعف، كأنه ليس من كان يهدى قبل ثوان.
ولسبب ما، كتمت نمنوما الاتصال عن لليليا التي كتمت عنها
سرّ سراج. ومن يوم إلى يوم بدا كأن السرّ جعل لليليا أقل كلاماً،
وأكثر شروداً، بل كأنما صارت خطواتها أثقل. وإن يداورها
الخوف في خلواتها بخاصة، كانت تنفسه، فتشعر مرة أنها
غدت فارغة تماماً، وتشعر مرة أنها تملئ بالنشوة اعتزازاً
بسراج، ويرافق سراج المجهولين، وبالتنسيقية المجهولة،
وبيما تداوله مع المفوحين وحنيف ونذير وكوكب الصباح وسواهم،
فيما عليهم أن يقوموا به، إن في الجامعة أو في الشارع أو في
الحارات.

* * *

كانت ليليا تناول كل ليلة إلى أحلامها، فتغفو سريعاً كيلاً تتأخر عنه. ولأنه هو من يتأخر، كانت تجعل نومها ريقاً، وتستيقظ مرة بعد مرة، حتى إذا أضاء الصباح غرفتها، نادته إلى يقظتها لتقبله قبلة الصباح، وتلتواعده في أحلام الليلة القادمة. لكنه ظل لا يلبى النداء حتى سافرت نمنوماً إلى حمص واللاذقية.

في تينك الليلتين كان ظلٌ من سراج يبكي في الحضور، ما إن تغفو ليليا، فتبادره بالعناق، وتسلّم له شعرها ليتشمم، وليدّثر بخصلة منه أذناً، وبخصلة وجنة. وبينما يروح يشكل لها نومها مناماً فمناماً، تراه هي نجماً يبزغ في الأفق، حلواً ولاءً، سوى أن لونه يصير أقسى، لمحّة بعد لمحّة. وفي لحظة مسحورة تراه يمسك ذراعها ويسحبها من السرير إلى دغل، فتستلقى على فراش من ورق البلوط أو من ورق الغار، لكن سراج لا يستلقي بجانبها، ولا فوقها، بل يضع رأسها في حرجه، ويحكى لها كما يحكى أب لطفاته حكايات حياته الجديدة: أين ينام؟ مازاً بدّل في هيئته؟ هل صار يصلي؟ هل صار شاهد عيان ينقل إلى الجزيرة مرة وإلى العربية مرة وقائع دوماً ليل نهار.

في تينك الليلتين بددت حكايات ذلك الظل من سراج نوم

ليليا، وأورثتها سهداً جعلها نهار الخميس مهدودة حتى لبت دعوة حنيف إلى مقهى أحوال، فاستعادت بعض عافيتها، ربما بفضل حديبه عليها. وحين دعاها إلى الغداء في مطعم ريمون الجديد، ارتابت فجأة في أن نظراته إليها ليست ما ألفت منه. وكبر ارتياها أثناء سيرهما من ساروجة إلى الشهبندر. كلما التفت إليه فوجدت عينيه بانتظارها.

لكن حنيف عاد في المطعم ذلك الحنون، المتحفظ، الوديع، مثلما ألفته منذ قدمه سراج إليها: صديقي الذي لم يفارقني منذ جمعتنا الجامعة. وانشغلت عنه طوال الغداء بالمقارنة بينه وبين سراج: وجنتا حنيف مضرّجتان دوماً، غزاه الشيب والجلح منذ الآن، دراسته للطب تسير سير السلفة، وما من شبه بينه وبين سراج، لذلك أسرعت بوداعه، لتسرع إلى البيت في سباق مع شوقها إلى سراج، وكأنها كانت على موعد مع هاتفه، فغمغمت: حبيبي، ما إن سمعت صوته. وبينما كان يوصيها بمرافقته كوكب الصباح بعد صلاة الجمعة، كانت أنفاسها قد احتبسَت مثل صوتها. ولم تصح إلا بعد أن قطع سراج الاتصال، ربما بدقائق.

إلى دوماً إذاً، إلى كوكب الصباح، إلى أم سراج، إلى بيت سراج، إلى ساحة الشهداء قبل أن تنتهي خطبة الجمعة، إلى

الجمعة الشهداء: أين سراج؟

همستُها للكوكب الصباح تسأل، كما تسأل نظراتها وجوه
الشباب الذين بدأوا يخرجون من الجامع الكبير. واضطرب
السؤال عندما أخذ الشباب يهتفون. وأخذ اليأس من لقاء سراج
يستولي على ليли娅، فتبيّس صوتها في حلتها، وعجزت عن أن
تهتف مثل الآخريات. وفجأة شق البرق البصر: هذا هو سراج.
وعلى الرغم مما يفصلهما فقد رأت ذقنه نابتة، ورأت عينيه
تقدحان، وذراعه تضرب الهواء بعنف، وصوته يصهل: لا
منكل ولا منمل، وعلى بيوتنا ما بنفل. وانتظرت طويلاً قبل
أن تلتقي نظراتها، فاندفعت ذراعها تضرب الهواء، واندفع
هتافها ر بما أعلى من هتاف كل من حولها. وخيل إليها أن
سراج يبتسم، فابتسمت، ثم خبات الابتسامتين في سرها،
وشمخت متباهية بما تخفي. وبعد قليل سارت مع من سرن
خلف من ساروا، وضيّعت سراج مراراً قبل أن تندفع باتجاهه
لتكون أقرب إليه، فضيّعت كوكب الصباح، ورأت أذرعاً تشير
إلى سطح بناء برجية، وسمعت من يهمسن: قناص. وبعد
قليل ظهرت بنادق كثيرة وهراءات ودروع وسيارات للشرطة
والأمن. وتباينا المتظاهرون، فتباطأ المتظاهرات، وبينما
تصاعدت الهتافات واحتدت، أخذ الخوف يخاطل ليли娅 وهو

يسري بين من حولها. ولم يطل الانتظار من بعد: رصاص.
ولأن الرصاص لم يفارق سمع ليлиا بقية النهار، فلم
 تستطع أن تعثر على كوكب الصباح، ولم تتذكر موقع بيتها،
 فالتجاء مع كثيرات إلى البناءة التي أسرعت إليهن. وقبيل
 الغروب تسللت من البناءة، وظلت تتسلل في الشارع حتى
 صادفت طوق النجاة: السرفيس الذي سينقلها بعيداً، بعيداً
 جداً، إلى ساحة المرجة.

وعبر ذلك، ستنقل الفضائيات أن شهداء جمعة الشهداء
 بلغوا ثمانية في دوما وثلاثة في عربين وسقبا. كما ستنقل أن
 عدداً من قيادة حزب الاتحاد الاشتراكي، الناصري، قد اعتقلوا
 في دوما.

وليلأً ستتصغي ليлиا إلى مصدر مسؤول يعلن ملء الفضائية
 السورية أن مجموعة مسلحة اعتلت الأبنية في دوما بعد الظهر،
 واعتدت على المواطنين المجتمعين وعلى قوات الأمن، فسقط
 قتلى وجرحى.

إثر ذلك أخذ صوت الرصاص يتلاشى من سمع ليлиا. ولم
 يحضر سراج، إلى يقظة ليлиا ولا إلى منامها.
 وسيلهب شوتها وحماستها، أنها خرجت مع حنيف في
 مظاهرة كثية الحقوق، وصعقتها المفاجأة كما ستروي

لمنوما: خالي يامن كان في المظاهرة التي خرجت ضدنا في كلية الحقوق. ومع حنيف أيضاً خرجت ليلاً في مظاهرة كلية العلوم. وفي المظاهرة صادفت كوكب الصباح التي لم ترها منذ جمعة الشهداء. وفي مساء ذلك اليوم وافاها إلى البيت حنيف وندير وألمى، وأمام نمنوما أخذت أصواتهم في الصالون تشتبك مع أصواتهم على الابتوبيات، إعداداً للمظاهرة شارع الحمراء يوم الاثنين.

* * *

كان رصيف الشارع يغور بالأصوات والأجساد والروائح والألوان، كما كان الشق المحاذي من الطريق يغور بالسيارات. ومن بداية الشارع، من التقاطع الذي ترابط فيه إشارة المرور، اندفعت المجموعة القادمة من جهة مجلس الشعب وليليا بينها لتلتقي في شارع الحمراء مع المجموعة القادمة من نهاية الشارع، من التقاطع الذي ترابط فيه أيضاً إشارة المرور. وما إن التقت المجموعتان حتى تعلالت الهتافات، وكان ضيق الرصيف وزحامه قد بلغا أقصاهما، فانزلقت أقدام إلى الطريق تزاحم السيارات. ومثل السيارات، من الناس من توقف مذهولاً، ومنهم من أسرع في الابتعاد، مثل السيارات أيضاً، ومن أصحاب المحلات من رابط في المداخل، تتناهبون

الفرجة والخوف، ولم يخف بعضهم امتعاضه: فهمنا، خلّونا
نسترزق، بيكتفي مظاهرات.

حين توقف السير كان رجال الأمن والشرطة قد طوقوا
المظاهرة التي ستقدر ليلاً لنمنوما عدد من شاركوا فيها
بالمائتين. وفي ذلك المساء افتقدت سراج، وسيتضاعف عليها
وجع فقد حتى المساء الذي أعلن رفع حالة الطوارئ، حين
جاءها صوت سراج: ينبض بالثقة والأمل: نسقي مع أختي.
اشتقت لك يا ليلاً، بحبك يا ليلاً.

في اللقاء الخاطف مقابل مشفى الطلياني، أسرت كوكب
الصباح أنها التقت سراج، وأنه سألهما: لماذا لا تشاركين أنت
وليلاً في اقتراحات أسماء الجمعة؟ ثم سألهما الرأي في أن
تحمل هذه الجمعة اسم الجمعة العظيمة، فنحن الآن في موسم
الأعياد المسيحية، وأن علينا أن نرد على المنشورات الطائفية
التي وزعت في باب توما الأسبوع الماضي. وختمت كوكب
الصباح غامزة: موعد سراج يوم الجمعة. نلتقي في نهاية
شارع القوطي وقت الأذان.

لم يفارق صوت سراج سمع ليلاً: اشتقت لك يا ليلاً،
بحبك يا ليلاً حتى اندغمت في حشد النساء الذي ينتظر خروج
المصلين. كانت عبارة سراج تتلون بلون الزمان والمكان

اللذين تترجع فيهما: صباحاً في السرير أو في الصالون أو في السرفيس أو في الكلية. ظهراً في المطبخ أو في مقهى أو في شارع أو في ساحة، والظهر قد يكون هو العصر، كما أن الصباح قد يكون هو المساء، فليس ذلك بذى بال، ما دام منتصف الليل يغزل لليلاً موعداً بات يعرinya، ويدعها ترمح في العراء حتى طلوع الشمس، حين يكون الندى قد رُقش حلميتها وسرتها، على الأقل.

لكن الليل أخلف ميعاده أخيراً، ما دام سراج سوف يظهر غداً بعد الصلاة. وإلى أن يظهر ستكون لليلاً قد ضيّعت قرابة الساعتين في الطريق من الفيللات الغربية إلى دوما: من حاجز إلى حاجز يا ماما ستروي لأم سراج وستلهج أم سراج بالدعاء: الله ينصرنا على القوم الظالمين، كما ستترحم على ولديها الشهيد مصطفى والشهيد شرف الدين، وستدعا لسراج: الله يحميك. أما لليلاً، فسيبيّعث صوت أم الشهيدين هكذا سمعتها لليلاً تقول مراراً، ولكن بخفر الخوف فيها. وسيتضاعف خوفها لأنها لم تك تلمح سراج من بعيد حتى اختفى، وأن المظاهرة اندفعت إلى الالتحام مع مظاهرة حرستا، كي تندفعا معاً إلى ساحة العباسين. وعلى الرغم من الخوف ومن التدافع ومن الأصوات، استطاعت لليلاً أن تتبين أن شباب عربين وزملكا

وسقبا قد انطلقا في مظاهرة أخرى، سوف تلتقي مع مظاهرة
شباب جوير وكفر بطنا في الطريق إلى ساحة العباسين.

غير أن ساحة العباسين ستظل تتأي كلما دُوِّم في
فضائها صدى الأصوات البعيدة. ولن تكون الساحة هدفًا
بعدما قطعت الطريق على هذه المظاهرة أو تلك، القنابل
المسيلة للدموع والهراوات، فاندفعت الأقدام تجري حيث أمكن
لها أن تجري. لكن قدمي ليлиا حرنتا أخيراً في وضحة صغيرة
تسوّرها مداخل أربع بنايات، وتظللها شجرة ضخمة وعالية،
بلا اسم، كما قررت ليлиا وهي تستند إلى جذع الشجرة قبل
أن تتهاوى وهي تسعل سعالاً حاداً، وتمخط، وت بكى، وتحاول
أن تتقى. ولا أحد يعلم ماذا كان سيكون حالها أيضاً، لو لا أن
الرصاص أصابها بالصمم، وشدّها من شعرها عاليًا، وألهب
قدميها وأنفاسها، فجرت إلى مدخل البناءة الأبعد عن الشجرة،
ووظلت تجري في البناءة حتى رأت نفسها على السطح، وأخذت
تدور حول نفسها بحثاً عن مصدر الرصاص، ورأت على سطح
البناءة المجاورة أذرعاً تشير إلى كراج الزيلطاني، وربما إلى
الساحة القريبة منه.

على سطح البناءة، وبين خزانين صغيرين للمياه، تكومت
ليليا مستسلمة للرهق وللرعب. وربما أغفت وهي تفكّر في

هول ما هو قادم، حتى إذا وxzها الهدوء، اندفعت تتقافز على
الدرج، وفي الوضحة، وفي الزقاق الذي رماها في الشارع
الذي رماها في التاكسي التي رمتها في الفيللات الغربية: أين
هو البيت؟

ببله ظلت تتساءل في سرها، وهي تروي لمنوما وللحمام
ولغرفتها ما عاشت من الجمعة العظيمة. حتى إذا أعلنت
الفضائيات أن شهداء الجمعة العظيمة بلغوا مائة واثني عشر
شهيداً، منهم ثمانية وأربعون في الزيلطاني، وثلاثون في
إزرع، وبسبعة وعشرون في حمص ... عندئذ شهقت، وسحبت
بالسؤال عن سراج، فاحتضنتها نمنوما، وكان المذيع يختتم
توزيعه للشهداء باللاذقية: شهيد واحد، فشهقت نمنوما
وسحبت: أين أنت يا صباح؟

يامن على جرف

عاد يامن إلى البيت مبكراً وبمشرأً بقدوم فاخر باشا إلى العشاء، فتبادلت نمنوما وليليا نظرة لم تخف على يامن. ولم يك يسمع في البيت صوت من بعد حتى تصدر فاخر باشا الطاولة. وإثر اللقمة الأولى اندفع بالثناء على ما ورثت نمنوما من أمها: اللقمة الزكية، وأخذ يتغنى بأكلات أم فاخر الله يطوّل عمرها ويخلّيها فوق راسنا: أبو أمون: نسيت هالأكلة يا نمنوما؟ ولا رشتني ورشتني؟ ولا المرشوشة؟ نسيت الأكلات الحمضية؟ وبعدما استغرق في الطعام طويلاً، سأل نمنوما عما إذا كانت قد اشتريت من الأسهم التي طرحها بنك سوريا الإسلامي الدولي لزيادة رأس المال، فنفت، فأطنب في مدح البنك: أستتره قطر، لا تفوّتي مثل هذه الفرصة يا نمنوما. حاضر يا أخي، إن شاء الله في المرة القادمة.

قالت نمنوما ساخرة، وأخفت ليليا ابتسامتها، وتوجّس يامن شرّاً، ثم حمد الله لأن فاخر باشا تابع مباشرة: أنا من أوائل من قاموا بمبادرة يبدأ بيد لدعم الليرة السورية، وأنا من يدعون إلى الجيش المالي، مثله مثل الجيش الإعلامي والجيش الإلكتروني.

ولماذا كل هذه الجيوش يا خالي؟
سألت ليليا باستخفاف، فلامتها نظرة من نمنوما ونظرة
من يامن، وقال فاخر باشا:
حتى نساعد الجيش في محاربته للمؤامرة.
أية مؤامرة يا خالي؟
سألت ليليا مستفزةً، فأوصتها بالهدوء نظرة من نمنوما
ونظرة من يامن، وقال فاخر باشا:
هذه المظاهرات هي المؤامرة. هذه الثورة هي المؤامرة.
هؤلاء الثوار اشتاهيت أن أرى بينهم واحداً مثل البشر، هذا مثل
العرضط، وهذا شرابة خرج.
قالت ليليا:
لم يدع أحد منا أنها ثورة ولا أننا ثوار. كل ما نطلب هو
الإصلاح.
ألا تتبعين التلفزيون؟
أي تلفزيون؟ أية قناة؟
السوري، أية قناة.
لا يا خالي.
طبعاً. كان عليّ أن أقدر أنك لا ترين إلا القنوات المغرضة
والمعادية، ومع ذلك أنا أقول لك إذاً ما خاطبنا به الشيخ
رمضان سعيد البوطي في التلفزيون السوري: النظام يحتاج

إلى وقت لتنفيذ الإصلاحات، لذلك دعانا شيخنا إلى دعم النظام، لذلك أدان شيخنا المعارضة التي تستقوى بالخارج، لذلك حذر من الفتنة، وأنا أسألكم: لماذا العجلة؟ لماذا المزايدة؟ عندما سمعت دعوة جماعتك في عواصم أوروبا إلى الاعتصام في ساحة المرجة، قلت يا لطيف. عندما سمعت دعوتهم إلى مقاطعة شركات الخليوي، ودعوتهم إلى تكسير تماثيل الرئيس الخالد وغيرها من رموزنا، قلت: يا ستار استر. تمنيت أن يستجيب لكم ابن امرأة. معقول؟ ولا واحد؟ على كلِّ هل تريدين يا عين خالك أن أصف لك جماعتك؟
تفضل يا خالي.

قالت ليлиا وهي تكتم غيظها، فقال صاحكاً:
الوصف ليس لي، بل لصديق صحفي في جريتنا، جريدة العروبة الحمصية، وما حفظت منه غير القليل: جماعتك فيهم الخرندي والمفزلك، القشاط والبلّاف والممعوط والهفتان، الأطرن والأدكش واللبخة، وباختصار: يندر أن ترى بينهم زكرت أو معدّل أو كدع. هؤلاء ثوار يا ليлиا؟
إذا صدق صاحبك: لا، أما إذا كذب؟

أجبت ليлиا وقد بدا أنها عزمت على أن تبدأ المعركة مع خالها الذي يبدو أنه قدّر ذلك أيضاً، فقرر أن ينهي هذا السجال مع الفصعوننة التي تظن نفسها ثورية، لذلك تدفق دون أن يترك

لليلا فرصة أن تلتقط أنفاسها:

تكرمي وقولي لي من هي طل الملوحي التي تظاهرت النساء
في حمص من أجلها؟ جاسوسة وعاهرة تطالبون بالإفراج
عنها؟ هل تعرفين من بدأ ربيعك العربي عندنا في حمص؟
أبناء البدو يا عين خالك هم من بدأ. أنت لا تعرفين حمص،
وأمك نسيتها. مرة رافقت جدك إلى دير بعلبة وتفرجت على
مساند القش، كيف يصنعونها. اشتري جدك كومة كبيرة منها.
ومرة رافقته إلى بابا عمرو، وتفرجت على المطحنة. يومها
اشترى رحمة الله عليه ممحص القهوة، والجرن والمدقاقه
وكل الدلال التي تصونها ستوك أم فاخر برموش العين. إذا
كنت يا حبيبة خالك لا تعرفين، فأنا أعرفك. من تظاهروا في
حمص خلال الأسبوع الأول من ثورتكم غير المباركة، ما هم
إلا بدو هذه الحارات الذين ضيّعوا أصولهم فصاروا بلا أصل
ولا فصل. عشائر تحولت من الرعي إلى التهريب. واحدهم
يهرب المازوت على موتور السنة الماضية سيرت الدولة
حملة عليهم فتوسط لهم عندها وجهاء العشائر. الدولة قلبها
كبير، ولكن للصبر حدود. معقول أن تخرج مظاهرة، اضرب
واطرح، وتهتف: الشعب يريد إسقاط المحافظ؟ مسخرة. من
أنتم حتى تحاسبوه؟ وبما أنك من جماعة الإصلاح أو الثورة،

يعني بالغرض: من جماعة المؤامرة، فلابد أنك سمعت بجامعة التحدي، ولا بد أنك عرفت بجريمة جماعتك في الرستن. كيف تجرأوا على حرق تمثال الرئيس الخالد؟ كيف تجرأوا على نقل رأس التمثال إلى تلبيسة؟ قولوا الله قولوا الله، شعب الرستن مو حايلله! يا سلام! اهتفوا حتى تنشق حناجركم، وخذوا. هذا جزاً لكم. أجمعوا قتلى الرستن على قتلى تلبيسة حتى تعرفوا ثمن جرائمكم، والخير لقدم.

ولأن ليлиما ماعادت قادرة على الصبر، انتفضت واقفة. لكن نظرة نمنوما تركت ما كانت ليليما سترمي خالها به معلقاً في فمه. ولكي يمنع يامن الصدام الذي بدا محتمماً، بل وهائلاً، قال مغامراً بمقاطعته لشقيقه:

الدولة تخطئ أيضاً يا باشا، وأنت قلت: جلَّ من لا يخطئ. من اعتقل شيخ عشيرة الفواعرة وزعيمها، وبعد أسبوع قالوا للعشيرة: خذوه ادفنوه؟ ماذَا يمكن أن تتوقع من شباب العشيرة؟

قال فاخر باشا بهزء:

نورني الله ينور عليك.

قال يامن بجرأة أكبر:

زنقة زنقة دار دار... حولوها من القذافي لرئيسنا الذي

نفيه بأرواحنا. نزل الرصاص مثل المطر على الشباب. أنا
نفسى لا أعرف كيف نجوت.

قالت ليлиا وهي تجلس:

أربتععش شهيد وخمسين جريح.

قال فاخر وهو ينظر إلى نمنوما.

ما شاء الله عليها، متابعة بدقة. يا ريت لو تتابع دروسها
هكذا.

قالت ليлиا متتجاهلة إشارة أمها بالصمت:

من هجم على مسجد النور في الخالدية يا خالي؟

أسرع يامن مخاطبًا ليлиا:

لا تقولي الشبيحة كما قالت قناه الجزيرة وأخواتها.

ومن غيرهم؟

أنت تنقلين عن عن.

قال فاخر باشا مصطمعاً الجدية:

ليليا تنقل عن شاهد عيان.

وأطلق قهقهة عالية، وأطال فيها، فتبسم يامن مجاملًا،

وابتابع متعمداً إغاظة ليлиا، استرضاء للباشا:

أما أنا فأنقل ما رأيت. كنت مع ابن خالي فرحان في
الخالدية بقصد الفرجة، وليس بقصد المشاركة. أنا سمعت
بأذني هذه من يهتف بالمتظاهرين: بدننا نحكي ع المكشوف،

علوية ما بدننا نشوف. كانوا يهتفون: يا حيف يا حمص يا
حيف، شبك واقف ع الرصيف، قلت: ماشي الحال. كانوا
يهتفون: الشعب يريد إسقاط النظام. كمان ماشي الحال. أما
هتافات طائفية! ليليا لا تعرف حمص، أنت يا نمنوما، تعرفيين
شارع القاهرة، تعرفيين كيف يفتح على الحارات العلوية. من
الذى أشعل الفتنة؟

قالت ليليا وهي تتعمد أن تبالغ بحركات حاجبها وكفيها:
اسأل رجال الأمن والمخابرات. أليسوا أكثر من الهم على
القلب ولا يفوتهم أمر؟ بل لماذا لا تسأل خالي فاخر، لا يعقل
أنه لا يعرف من خلف مثل هذه الأمور.

قال فاخر باشا مستثاراً:

لماذا لا تسألين جماعتك؟

قالت ليليا وقد شبّت متهدية:

أنا ليس لي جماعة غير من يخرجون في المظاهرات
ويهتفون: سلمية سلمية، فيحصدhem الرصاص. جماعتي ضد
الطائفية والقتل كما هم ضد النظام الذي تدافع عنه، أما
حضرتك يا خالي، أما جماعتك، أما نظامك..

صاح فاخر باشا مقاطعاً وواقفاً، فوقفت نمنوما ووقف

يامن:

إذن أنا طائفي يا بنت أختي! أنا قاتل. سمعت يا نمنوما ما

قالت قليلة التربية لخالها؟

فأمرت نمنوما ليليا بالسكت، وكرر الأمريامن، لكن ليليا
صاحت وسبابتها تحذر:

انتبه لما تقول. تربيتني أحسن تربية يا فاخر باشا.
اخرسني يا قليلة الأدب.

وإذا لم أخرس؟
أقطع لك لسانك بيدي هذه.

لماذا لا تجرب، حتى أقطع هذه اليد وهذه اليد إن شاء الله؟
كان صوتها قد تخافت وهداً، بينما كان صياحه قد بلغ
أقصاه، ولذلك اندفعت يده إلى فم ليليا، فلم تصب لساناً، بل
أصابت شفتين فأدمنتهما، ثم أخطأت الطريق ثانية إلى اللسان،
فأصابت أنفًا وخدًا، وكانت يدا ليليا قد أمسكتا بالكرافيه
وشدتها ما استطاعت، فانتزعتها منها يد يامن، بينما يدا
نمنونا تحاولان أن تدفعا رأس فاخر باشا بعيداً وهي تصيح:
اطلع برا الله يكسّر إيديك.

ولأنه شَكَ فيما يسمع، تراجع خطوة وسألها بهدوء:
تطريدينني يا نمنوما؟

قلت لك بِرْه، وإياك أن تعود إلى هذا البيت مرة ثانية.
أمرك يا أخي الغالية. أمرك نمنونا خانم. أمرك ليليا خانم.

ردد وهو ينْقَل نظراته بين العيون الفاغرة حوله. ولما
أطبق الباب خلفه، كان فم يامن قد صار فوهة فاغرة، ويداه
قد أخذتا تنوحان، وجذعه قد انحنى قليلاً، كأنه واقف على
جرف، ويوشك أن يهوي.

كأنها حرب

منذ اختفت ليليا وأفلت زمام درعا من الأيدي جمِيعاً،
وليس من يده وحده، افتقـد العقـيد واصـل البـهـجة الـتي خـلفـها له
لقـاؤـه بالـشـيخ أـحمد الصـيـاصـنة.

كان تـحـقـيقـاً في صـيـغـة لـقاءـ. كان تـحـقـيقـاً على طـرـيـقةـ
الـعـقـيد واصـل أـبـيـضـانـيـ، وليس عـلـى طـرـيـقةـ من اعتـقـلـوا الأـطـفالـ
والفـتـيـانـ، وـبـدـلاًـ من أن يـبـحـثـوا عـمـّـنـ وـرـطـهـمـ أو لـطـاـ خـلـفـهـمـ،
أـهـانـواـأـهـالـيـهـمـ، فـصـارـتـ درـعاـ قـطـعـةـ منـ الجـحـيمـ.

شدد الشـيـخـ عـلـىـ أنـ الدـيـنـ إـسـلـامـيـ الحـنـيفـ بـرـاءـ منـ الذـينـ
يـقـومـونـ بـأـعـمـالـ التـخـرـيبـ. والـشـيـخـ إـذـاـ يـبـرـأـ منـ الذـينـ نـصـبـواـ
الـخـيـامـ حـولـ الجـامـعـ العـمـريـ وـاعـتـصـمـواـ فـيـهـ: فـكـرـ العـقـيدـ وـاصـلـ.
لـكـنـ الشـيـخـ أـسـرـعـ إـلـىـ التـأـكـيدـ عـلـىـ أنـ مـطـالـبـ المـوـاطـنـينـ
مـحـقـقـةـ، وـعـلـىـ أـنـ مـاـ اـسـتـفـزـ المـوـاطـنـينـ هوـ الـاعـتـقـالـاتـ الـظـالـمـةـ
وـالـهـوـجـاءـ وـالـعـمـيـاءـ. عـنـدـئـلـ تـمـنـىـ العـقـيدـ وـاصـلـ أـنـ يـذـيعـ الشـيـخـ
أـقـوالـهـ هـذـهـ عـبـرـ التـلـفـزيـونـ، ليسـ مـنـ أـجـلـ عـودـةـ الـهـدوـءـ إـلـىـ درـعاـ
وـحـدـهـ، بلـ إـلـىـ عـمـومـ سـورـيـةـ. وـلـمـ يـكـنـ العـقـيدـ يـنـتـظـرـ جـوابـاـ،
لـكـنـ الشـيـخـ بـاغـتـهـ: أـنـاـ جـاهـزـ أـكـلـ مـاـ فـيـهـ خـيرـ الـجـمـاعـةـ.
وـمـاـ عـلـىـ العـقـيدـ وـاصـلـ إـذـاـ إـلـاـ أـنـ يـتـصـلـ بـمـديـرـ التـلـفـزيـونـ،

بل بوزير الإعلام نفسه، و مباشرة، وليس عن طريق المحافظ أو قائد الشرطة أو وزارة الداخلية.

تعبيراً عن الامتنان للشيخ، بل وعن المودة أيضاً، تمعن في نقاء ذقنه وجلالها، ونادي إلى المقارنة بها ذقن حميه المرحوم أبو فاخر، والد نمنوما. وحين بات وحيداً، أشفق على نفسه: لم تتذكر والد نمنوما إلا من أجل أن تتذكرها هي. ثم لام نفسه: لست بحاجة إلى ما يذكر بها. أنت تتذكرها في كل لحظة، لم تضاجع امرأة بعدها إلا و كنت تتذكرها قبل أن تخلع ثيابك. هذه شقراء مثل نمنوما، لذلك اخترتها. هل كانت أولاهن؟ لكن شعرها خفيف لا يملأ قبضتك، كأنها ستصلع قبل أن تشيخ، لذلك تركتها. وهذه شقراء أيضاً، لكن إليتها ضامرتان، كأنها إليتا شاب نحيف، لذلك لم تأتها كما تؤتى النساء، ولذلك تركتها. وهذه مثل نمنوما، سبحان الله！ مخلق منطق! عينان زرقاوان، طويلة، صدر ريان، بشرة من الحليب، إيلitan فائضتان، ساقان مسكونتان من العاج، لكن شعرها ليس أشقر، لذلك تركتها. وما دمت مسكوناً بنمنوما حتى اليوم، فلماذا أغفلت لها في آخر اتصال بينكما؟ ستقول: ليлиا هي السبب. ليлиا دائماً هي السبب، في الوصل بينكما، في القطع، فيما قد يكون مخبأ لك هنا أو في الشام. ولكن دعك من ذلك

الآن، وخلّك ضئيناً ببهجتك التي ستتعزّز بعد قليل، حين يتصل بك رئيس مكتب الأمن القومي، فيذكرك بلقائكم إثر جمعة الغضب، هنا في هذا المكتب، وهناك في مكتب المحافظ: أنا لا أعرف من هو واصل أبيضاني، لكنني أقدره منذ أيام الشغب في القامشلي. أنا أتابع عملك منذ بداية الأحداث في درعا، واعتمادي واعتماد القيادة عليك وعلى أمثالك كبير. خذ دورك كاملاً، في التخطيط، في التحقيق، في التنفيذ، وسأعود إلى الاتصال بك من حين إلى حين.

تعال إذا أيها الشاب، تعال أيها الناشر، أيها المعارض، تعال يا ابن إنخل. لا اسم لك عندي من الآن فصاعداً إلا هذا الاسم. إليك أن ترك في جرابك حرفًا. عندي لن تجد عصا كهربائية ولا غير كهربائية، لا كابل ولا دولاب ولا كرسي ألمانياً ولا بنسة تقلع الأظافر. أنت تعرف بما أتكلم. عندي خيار واحد وحيد: الموت أو..

قبل أن يكمل العقيد خيارة، سمي ابن بلدة إنخل خمسة شركاء له من أبنائها الآخرين، وأولهم ابن عمّه. لكن العقيد لم يعبأ بالأسماء، فأسرع ابن إنخل إلى المظاهرة الأولى التي نظموها نصرةً لدرعا، فلم يعبأ العقيد بها، فأسرع ابن إنخل إلى اللجان التي شكلوها في بلدتهم استعداداً للأيام

القادمة: اللجنة الإعلامية التي ستتولى الهاتفات واللافتات، وستؤمن هاتف ثريا أو أكثر للاتصال بالفضائيات، اللجنة الطبية لمعالجة الجرحى، اللجنة المالية لجمع الأموال الازمة وتنظيم إنفاقها، اللجنة العسكرية التي بدأت مباشرة بتوزيع الحراس على أطراف البلدة. وربما كان ابن إنخل سيتابع تعداد اللجان، لو لا أن العقيد واصل قاطعه ساخراً:

كل هذه اللجان ما شاء الله لإنخل!

عندئذ أسرع ابن إنخل إلى اليوم الثاني، أي المظاهرة الثانية، فسمى من أعطاه سلفة ليكون الحشد أكبر، وحدد مبلغ السلفة. لكن العقيد واصل لم يعبأ بذلك، فأسرع ابن إنخل إلى

مقر الفرقة الحزبية:

أحرقناه، وإلى مقر الشرطة: أحرقناه، وإلى النقطة العسكرية: استولينا على أربع بنادق، وقطعنا الطريق بحواجز ترابية وبالبلوك.

بذا العقيد كمن يفكر في أمر آخر، فتابع ابن إنخل بلا حماسة:

وزعنا البنادق على الحراس، وأحضر لنا شخصان من جاسم كومات سmad ومسامير وبودرة وفتائل، فصنعنا قنابل وزعندها على الحراس.

هنا قال العقید مقاطعاً ومبتسماً:

هل كان أبو تمام أحد الشخصين اللذين حضرا من جاسم؟

فسأل ابن إنخل بحذر:

من هو أبو تمام يا سيدى؟

قال العقید باستعلاء:

الشاعر الكبير، الشاعر الذي قال: السيف أصدق أنباء من

الكتب.. ألا تعرفه؟

قال ابن إنخل باعتزاز:

طبعاً يا سيدى. قرأت له أيام المدرسة.

وتعرف أنه من جاسم؟

لا يا سيدى.

تابع.

أمر العقید، فتابع ابن إنخل باعتزاز أيضاً:

قرر الشباب أن أكون قائداً للثورة. وفي اليوم الثالث أو

المظاهرة الثالثة سمعنا أن الأمن قادم، فأعلنت اللجنة

الإعلامية أنه ليس عندنا عصابات، والبلدة مستقرة، ولا ترغب

بدخول الأمن إليها.

قال العقید مقاطعاً:

سارسلك إلى الشام ليجري معك التلفزيون مقابلة. احك

للمشاهدين ما حكى لي، ومن يدرى، قد يراك مخرج ويعجب
بك، فيعطيك البطولة في مسلسل.

فصاح ابن إنخل مستبشراً:

يعنى إفراج يا سيدى؟

لكن العقيد لم يرد، إذ تراءى له الشيخ أحمد الصيادنة
يملاً الشاشة، ثم تراءت له الشاشة تصيق بالأفواه التي تتسابق
إلى الاعتراف بما ارتكب أصحابها، حتى لم يبق لابن إنخل
مطرح، فأمره العقيد بالانصراف وهو يشك فيما سمع منه، إلا
أن يكون اعترافاً تلفزيونياً، وهذا ما يُفترض عيناً في التحقيق،
أي في المحقق العقيد واصل أبيضاني، ما أخذ يستلّ البهجة
منه. ولعله لذلك كان أكبر استعداداً لأن يسمع هاتف والدته:

الحق أخوك توفيق يا ابني الله يحميك.

* * *

توفيق..

توفيق البلوى الدائمة.

توفيق الذي أعجزته الشهادة الإعدادية، والخدمة الإلزامية،
والصنعة التي هي أمان من الفقر: تصليح برادات، لا، تصليح
درجات نارية وهوائية لا، وأخيراً: موظف في المحطة الحرارية
بفضل وساطة شقيقه العقيد واصل، لا، حسناً، عاطل عن العمل،

لا، صياد سمك...

خير يا أمي؟ مات توفيق؟

سؤال العقید وفکر بأن الموت وحده سوف يريمه من حمل شقيقه. لكن هلع أمه من ذكر الموت، جعله يلعن الوسوسات الخناس. وبعدما وعد واصل أمه بالحضور، ووعدها طالباً منها الرضى والدعاء، تمنى الموت جهاراً لتوفيق الذي سيراه في الغد مساء قد تعافى من جراحه، ولكن لتبدل بآثار فاقعة للتعذيب: هكذا يتحققون هنا في بانياس، حتى مع شقيقك، وليس كما تحقق سيادتك هناك في درعا.

لأنك العقید واصل أبيضاني الذي ذاع صيته في بلدته منذ عهده بالقامشلي، وما من أحد في آية مفرزة أمنية أو في أي قسم للشرطة أو في آية نقطة عسكرية في بانياس يجهل مكانتك، فقد فرشوا بين يديك الأوراق، لتعرف من هو أخوك، ولتعرف أيضاً ما يجري في بلدتك.

لكنك قبل أن تنهي قراءة الأوراق أمرت بإحضار توفيق، وأمرت بأن يخرج الآخرون، كي تتحقق معه على انفراد: انس أنتي أخوك. هذا تحقيق يا توفيق. إياك أن تترك في جرابك حرفأً. عندي لن تجد عصا كهربائية أو غير كهربائية، لا كابل ولا دولاب ولا كرسي ألمانياً ولا بنسة تقلع الأظافر.

أنت تعرف عما أتكلم. عندي لك خيار واحد وحيد: الموت أو..
قبل أن يكمل العقيد خياره، سمى أخوه أربعة شركاء له
من أبناء مدينته، وأولهم أبو علي البياسي. لكن العقيد لم يعبأ
بالأسماء، فأسرع توفيق يشكوا ما فعل السمك التركي في
المدينة:

لـ **المرفأ** طفت
النار في بيوت الصيادين في بانياس، وإدارة المرفأ طفت
ويبلغ. هل ترضى يا سيادة العقيد أن تتعلم بنتك ليليا مع
الشباب في صف واحد؟ في مدرسة واحدة أو في قاعة واحدة؟
هل ترضى بالتعليم المختلط؟
همهم العقيد مستملحاً:

لـ **المرفأ** طفت
لأنك يا توفيق أنت المحقق. عن ليليا أسأل أمها، ولكن
أراك تهتم بأحوال الناس، وأنا من كنت أظن أنك بهيمة!
ويبعدوا أن توفيق أدرك هممته أخيه، فتابع:
لـ **المرفأ** طفت
بماذا تفسر يا سيادة العقيد هذا العدد الصغير من السنة
الذين تم توظيفهم في المصفاة أو في المحطة الحرارية، منذ
ثلاثين سنة حتى اليوم؟

لـ **المرفأ** طفت
قال العقيد:
لـ **المرفأ** طفت
تقصد منذ حوادث حماة؟
لـ **المرفأ** طفت
حماة وبانياس وسورية كلها.

وريما كان توفيق سيتابع مفسراً الأمر بالطائفية أو بسواها، لكن العقيد بدا غير عابئ، فأسرع توفيق إلى المظاهرة التي ليس فيها هو وتسعة من أقرانه الأكفان. وأثناء المظاهرة لبّوا إشارة أبو علي البياسي، ولحقوا به إلى المستودع تحت جامع الرحمن: بومبكشن، واحد واحد، بالدور يا شباب، لا تتعجلوا، فيه بواريد ومسدسات ورصاص للكل.

وبما أن الأسماء لا تهم العقيد، فقد اكتفى توفيق بذكر المهام: مجموعة لحراسة الحارات والمفارق والبحر والأوتوكسرايد، واحد كل خمسية متر بيكمي، أنا وواحد من الصيادين جهزنا الديناميت.

وبلغ ريقه، وفرك كفيه، ويداً كأنه يزداد حمية، ويداري خوفاً، في آن معاً، ثم قال:

بالبيك آب المهرهرة التي اشتريتها لي قبل عشر سنين،
تسالنا إلى ما قبل المصفاة حتى نزرع المتفجرات على
أنبوب النفط. ضيعنا الأنبوب بسبب الخوف وأضواء المصفاة.
قلنا نرجع إلى المحطة الحرارية، قبلها بقليل يمر الأنبوب.
رأينا حركة للجيش، خفنا، رجعنا، وتفرقنا، أخوك صوّيب
ورصاصة لا تخيب. أصابت الرصاصة ساق عسكري، وقع،
جره رفيقه، خبات البومبكشن في جنينة خالتك هدية.

بعد صلاة الفجر نادى المنادى من المئذنة إلى الجهاد. بعد صلاة الظهر تجمع عدد من الشباب الشجعان، ومشوا بلا سلاح من أمام جامع الرحمن إلى السوق، وفي قلب ضهر محيرز هتفوا: العلوى ع التابوت والمسىحي على بيروت. ضهر محيرز كما تعرف علوية على مسيحية. أنا لم أشارك. بعد العشاء كلموني من القهوة: شبابنا هاجموا باص المبيت وقتلوا من فيه من العساكر. الله أكبر. أخذتنا النخوة وما نمتنا الليل. نهضت بعد ثلاط أو أربع ساعات وإذا بالأصوات المرعوبة: الدبابات طوقت المدينة، وبدأ التمشيط. اعتقلوا مئات، وأنا واحد منهم، عذبونا حتى كفرنا بالعبراني. يوم، اثنين، والله أعلم، لولا أن الحريم قطعت الطريق وطالبت بالإفراج عنا، كنا لا نزال منقوعين عندهم: ناس بساحة الثانوية، ناس بساحة الدفاع المدني، إلى آخره.

حضرت لجنة تحقيق، قالوا من الشام، واجتمعت مع وجوه بانياس، وتم الاتفاق على أن يدخل الجيش إلى المدينة، شرط لا يتدخل في أمورنا. وقررت اللجنة الإفراج عنا مساء الأربعاء، وكان الجيش انتشر في قرية البيضا من مساء الثلاثاء. هنا أشار العقيد آمراً أخاه بالسكتوت. لكن توفيق نسي أنه معتقل أمام محقق، فقال مستنكراً:

كأنك لا تريد أن تعرف لماذا أعادوا اعتقالي وحدي من
بین كل الشباب.

انتظر العقيد على كره حتى قال توفيق:
كنت على رأس من حرضوا الأطفال على أن ينزعوا مصانهم
ويلاقوا الدبابات بتصور عارية، كما أمرتهم بالاستلقاء على
الطريق ليمنعوا الدبابات من أن تتقدم إلا على أجسادهم، ولولا
ذلك ما توقفت الدبابات.

أثناء ذلك تابع توفيق مستمتعاً بما حسبه تحكمًا بالعقيد
وصلت الأخبار من البيضا، يا ويلاه.

هنا أشار العقيد آمراً بالسكتوت. ولأن الإشارة كانت أكبر
حزماً من سابقتها، بل لأنها كانت قاسية أيضاً، سكت توفيق،
بينما وقف العقيد قائلاً:

سارسك إلى الشام ليجري معك التلفزيون مقابلة. احك
للمشاهدين ما حكيت لي. ومن يدري، قد يراك مخرج ويعجب
بك، فيعطيك البطولة في مسلسل.

قال توفيق:
المهم أن أخرج من هذه الزريبة.
هز العقيد رأسه قائلاً:
صحيح أنك بهيمة.

ومضى إلى النقيب الذي وقف باستعداد وأسرع متودداً:

ماذا أمرتم يا سيدى؟
سؤال العقید مستغرباً:
من أجل ماذا؟
من أجل شقيقكم يا سيدى.
سأحيله إلى المحاكمة.
محاکمة ماذا يا سيدى؟
سؤال النقیب متعجباً ومستنكرأً في آن معاً، فبدا العقید کمن
تورّط بما يکره في غفلة، لذلك أسرع النقیب مُنجدًا:
إذا لم تفرج عنه فقد يذهب في شربة ماء.
 هنا أومضت قرية البيضا للعقید واصل، مثلما أومضت له
عندما ذكرها توفيق، فأسرع بالخروج تاركاً توفيق لقدرہ،
وغادر بانياس دون أن يودع أمه. ولم تفارقہ طوال الطريق
لقطات الفيديو التي رجّت الفضائيات يوم السبت كما رجّته:
جنود يدوسون على ظھور وصدور فتيان وشبان، أيد مقيدة
وابواط ورؤوس وشتائم واستغاثات وجعير وعصي ودماء.. لا،
هذا ليس معقولاً، هذا كذب، هذه صور مفبركة، ومهما يكن،
وعلى أية حال، ليست هذه قرية البيضا التي دخلها العقید
واصل أبيضاني مرة وحيدة برفقة والده ذات عصر، قبل
أربعين سنة على الأقل.

* * *

على صدر العقید جثم کابوس البيضا حتى أیقتله أبواق
السيارات وزحامتها، وها أنت إذا في الشام مقابل مشفى تشرین،
ولا يزال أمامك نصف ساعة حتى تصل إلى بيت نمنوما وليليا.
لن ينزاح کابوس البيضا عن صدرك إلا إذا جلست بينهما، أو
مع إداهما على الأقل، أو إذا هاتفت إداهما على الأقل.

يجب أن تعلم ليليا أنك مستاء جداً من فيديو قرية
البيضا. نمنوما أيضاً يجب أن تعلم أن الفيديو قد أغضبك،
 وأنك ستتحقق مما إذا كان مفبركاً، وأنك لن تسكت إذا كان
صحيحاً. ولكن ماذا ترك فاعلاً يا سيادة العقید؟ ماذا فعلت
لأطفال درعا الذين كانوا على مسافة عرض شارع منك؟ ماذا
ترى ستفعل إن رفضت ليليا أو نمنوما أن تكلمك؟

انس يا سيادة العقید. انس ليليا وانس نمنوما. انس توفيق
وانس أمك وانس البيضا، وتتابع إلى درعاك. وإلى أن تصل
إليها بدّل صور البيضا المستحيلة التي لم ترولن ترى، بصور
درعا التي رأيت والتي سوف ترى: أنهار البشر تتدفق من
جسم والصنمين وإنخل وداعل ونوى، حواجز الجيش، سماء
صافية تهتف: الشعب والجيش إيد واحدة، متظاهرون يعتلون
الدبابات والمدرعات، لافتة طويلة جداً وعريضة جداً تأمرك:
اقرأ: الشعب يريد إسقاط النظام. والآن، على العقید واصل
أبيضاني أن يحقق فيما تناهى إليه من أن بين حواجز الجيش

من لا يدقق في الهويات، بل ومن كان يرشد المتظاهرين إلى
موقع الحواجز الأمنية، ليلتقطوا عليها.

لكن العقيد واصل سينسى كل ذلك منذ الساعة السابعة
والنصف صباحاً، بسبب ما كان ينتظره: تسعه عشر شهيداً
وخمسة وسبعون جريحاً من الشرطة والأمن أمام مديرية
الكهرباء. وبعد غمضة عين بطول عشرة أيام ستطلق أسئلتك
من شرفة مكتبك المحسّن: لماذا هاجم الأهالي في إزرع
مديرية المنطقة، حتى لو بالحجارة؟ من أطلق الرصاص على
النقطة العسكرية هناك؟ أما كان للنقطة أن تتصدى للمهاجمين
بطريقة أخرى؟ ثلاثة وثلاثون شهيداً في غمضة عين، فماذا يهم أن
يكون طولها نهاراً أو نهاراً وليل؟

دعك من إزرع يا سيادة العقيد، فنهارك حافل كليلك،
ويومك موصول بعذرك، كي تندفع بشجاعة أم بتھور؟ إلى نوى،
وتتيقن من استشهاد خمسة عناصر في المفرزة الأمنية.

ما الفرق بين كل ذلك وبين الحرب؟

أطلق العقيد واصل السؤال حبيباً في البداية، ومشوشًا. لكن
السؤال صار واضحاً ومحدداً منذ تحدّدت ساعة الصفر: الجيش
الذي يطوق المدينة سيبدأ بدخولها بعد قطع الماء والكهرباء
والاتصالات.

كانها حرب!



وهوؤاء الذين ما تعبوا من التظاهر، ولا من دفن الشهداء،
بينهم أيضاً من يحمل بنادق ومسدسات وقنابل. هم أيضاً
يقاتلون، وإليهم يفر جنود، كما تؤكد العيون المتبقية للعقيد
وأصل ولغيرة في المدينة.
كأنها حرب!

بساعة الصفر بدأت عملية درعا، لكن العقيد واصل بدأ بعد
أيام كم هي؟ يبحث عن ساعة الصفر التي ستنهي العملية.
كأنها حرب!

توالت الأيام واستطالت لتنـى بالساعة المنشودة وتزيدـها
غموضاً. لذلك أخذت أمور شـى تختلط على العـقـيد واـصلـ،
ويـخـاصـةـ بـعـدـ مـنـتـصـفـ اللـيلـ،ـ حينـ يـرـميـهـ الرـهـقـ عـلـىـ السـرـيرـ
الـرـابـضـ فـيـ زـاوـيـةـ المـكـتبـ.ـ لـكـنـ بـدـلاـ مـنـ أـنـ يـنـامـ،ـ يـرـهـفـ السـمعـ
لـمـاـ يـتـسـلـلـ مـنـ الـخـارـجـ:ـ رـصـاصـاتـ تـرـمـىـ دـرـاكـاـ أوـ رـشـاتـ
مـتـبـاعـدـةـ،ـ أـصـوـاتـ النـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ تـكـبـرـ دـاـخـلـ الـبـيـوـتـ،ـ فـتـغلـبـ
صـوـتـ التـلـفـزـيـوـنـ،ـ بـيـنـماـ تـذـيعـ قـنـاطـيـةـ الـعـرـبـيـةـ مـقـتـلـ أـبـوـ عـلـيـ
الـبـيـاسـيـ،ـ وـهـذـهـ قـنـاتـنـاـ تـكـذـبـ،ـ وـهـذـهـ قـنـاطـيـةـ الـجـزـيـرـةـ تـذـيعـ مـقـتـلـ
طـبـيـيـةـ مـنـ الـحـرـاكـ،ـ وـالـطـبـيـيـةـ نـفـسـهـاـ تـكـذـبـ مـنـ قـنـاتـنـاـ،ـ فـلـمـاـنـاـ لـاـ
يـكـونـ فـيـديـوـ الـبـيـضاـ إـذـاـ كـاذـبـ؟ـ

يتسـأـلـ العـقـيدـ واـصلـ،ـ وـيـسـتـذـكـرـ كـيـفـ خـاـصـ التـلـفـزـيـوـنـ
الـحـرـبـ فـيـ بـغـادـ أوـ فـيـ بـيـرـوـتـ،ـ فـمـاـ هـوـ إـذـاـ هـذـاـ الـذـيـ يـخـوـضـهـ

في سوريا منذ أكثر من شهرين؟
كأنها حرب!

يفكر العقيد واصل وهو يشاهد نساء وأطفالاً يمشون
من كفر نبل أو بداما و حاس إلى حدود وأسلام شائكة، ثم
يمشون إلى إيلا داغ. وهذه خيام بيضاء مقببة تتهيأ ل تستقبل
اللاجئين. هذه تركيا وهذه سوريا، وهذه ليست كذبة جديدة
ستعتذر عنها هذه القناة. ولكن من هو هذا الفتى الذي اختفى
منذ شهر ويظهر الآن وقد دُقَ عنقه، وَتَبَقِّيَ بطنَه وذراعَه؟
من هو هذا الفتى الذي قُطِعَ ذكره وانتفخت جثته؟
من الجيزة هو؟

أليست الجيزة تحت ولايتك يا سيادة العقيد؟
من هو حمزة الخطيب؟
كيف دفنه وانت لا علم ولا خبر؟
ماذا ستقول لرئيس مكتب الأمن القومي إذا ما سألك الآن
عن هذا الطفل الذي احتل الفضائيات كان جهاز التحكم قد أخذ
يتنقل من قناة إلى قناة؟
من قال إذا إن عملية درعا قد انتهت في أمس ناف طوله
على عشرة أيام أو على عشرين؟
سيادة العقيد: كأنها حرب.

حوارية حنيف وليليا ونموما

لولا أنه القضاء والقدر، ما كان لإِضبارة المؤسسة العامة للخزن والتسويق أن تحط أخيراً بين يدي القاضية نموما زكي. كان الإِعفاء قد أصاب الإِضبارة وهي تنتقل في القصر العدلي من غرفة إلى غرفة، ومن قاض إلى قاض. ولم تكن نموما قد حملت إِضبارة إلى البيت منذ أسبوع. لكن العوض جاء في هذه الإِضبارة الراخمة التي جعلت نموما تسأل ليليا عن أسرة صديقها حنيف البرزنجي.

قالت ليليا:

أبوه تاجر وملّاك كبير، أعمامه أيضاً، ولكن لماذا؟

قالت نموما:

سمعت أنه لص كبير.

قالت ليليا:

لكنه متدين، وفي شبابه كان من السروريّة كما حكى لنا حنيف.

وما السروريّة؟

فتة من الإِخوان المسلمين، من السلفية، ما أدراني؟ عندما يأتي أساليه.

ادعىه إذاً، ولكن لا تذكرني أني سألت عن والده.
وريثما حضر حنيف كانت الإضمارة قد أعلنت أنها تخص
فرع دمشق من المؤسسة العامة للخزن والتسويق، وسجن
دمشق المركزي في عدرا، كما خصت بالاتهام الحاج عمار
البرزنجي، وهذا الذي ساقه القضاء والقدر إلى حضن نمنوما:
أخي وقرّة عيني فاخر، فاخر زكي، فاخر باشا: على الرحب
والسعّة.

هممت نمنوما وهي تقرأ للمرة الثانية أن المتهمين
شريكان بالأصالة والوكالة في توريد المواد الغذائية المبينة
في المرفقات، حيث تبين أنهما قاما برفع الأسعار بنسبة
٢٠٪، وأنهما دفعا ما مجموعه ٦٧ مليون ليرة كرشاوي لقاء
قبول عروضهما للأسعار، ولقاء صرف مستحقاتهما، ما كان
منها باسميهما، وما كان بأسماء آخرين، عدا الغش بنوعية
الذبائح واللحوم.

والمتهمان شريكان أيضاً بالأصالة وبالوكالة في توريد
مواد غذائية بقيمة مئة مليون ليرة إلى سجن دمشق المركزي في
عدرا، عن طريق المؤسسة العامة للخزن والتسويق دائرة ريف
دمشق، حيث تبين أن المتهمين قاما بتزوير صلاحيات القهوة
والمرتديلا المنتهية، كما دفعا ١٩ مليون ليرة كرشاوي و..

وفكرت نمنوما وهي تغلق الإضبارة أن البقية لا تختلف
عما هو مألف في مثل هذه القضية. ولكن ما الذي أوقعك يا
فاخر باشا هذه الواقعة؟ ما الذي جاء بك من حمص إلى الشام؟
إلى أين تمتد أذرع الأخطبوط؟ كيف لم يستطع الأخطبوط
الحمصي والأخطبوط الشامي أن ينهيا هذه القضية قبل أن
تحط على هذا المكتب الصغير، في هذه الغرفة الصغيرة التي
استقلت بها نمنوما قبل أن تนาفسها عليها ليليا؟

* * *

كان حنيف قد ألف أن تدعوه ليليا إلى البيت بمفرده، لكنه،
لسبب ما، ارتبك هذه المرة. ولم تزل ريكته إلا بفعل لقاء نمنوما
الحار. لذلك ما إن سألته عما إن كان له علم بالسورية حتى
اندفع: تيار سلفي تخلى عن المنهج الدعوي وانخرط في القتال
ضد السلطة قبل ثلاثين سنة. والذي كان معهم في تلك الفترة،
أخوالى أيضاً. أخوالى من درعا، وسيد فرقة السورية الشيخ
محمد سرور من درعا.

ألم يصب الأذى والدك بسببهم؟

سألت نمنوما مبدية التعاطف، فأجاب:

هرب سنوات طويلة إلى ألمانيا، وفيها تزوج. أنا مولود
في برلين وأحمل الجنسية الألمانية. ليليا تعرف. وفي أثناء

مفاوضات المصالحة التي فشلت بين السلطة وقيادة الإخوان المسلمين، عاد والدي.

فهمت من ليлиا أنكم أسرة ثرية، لها كثير من الأموال في الغوطة، وتعمل في التجارة. إذا ترك والدك السياسة؟
يبدو أنه مشغول بما يجري بعد ١٥ آذار أكثر مني.

قالت ليлиا:

أذكر أن سراج سألك مرة عن علاقة والدك بالشيخ مرشد بن معاشوقي الخزنوبي، الشيخ أحمد معاذ الخطيب، الشيخ عدنان العرعور، فنفيت علمك بذلك.

قال حنيف:

أنت لا تنسين أمراً.

قالت ليليا بصوت الحنين:

ما دام يخص سراج.

فرّ حنيف من صوت ليлиا ومن عينيها، وأطرق قائلاً:
لم أرد أن أجيبه أمام الجميع. لكنني أعلم أن والدي كان صديقاً حمياً للشيخ معاشوقي، شيخ الطريقة النقشبندية.
وعندما قُتل بكاه والدي بحرقة. واليوم هو على علاقة وثيقة مع الشيخ مرشد. وعندما دعا الشيخ مرشد إلى التظاهر في جمعة الغضب، في أول جمعة، ناصره والدي بقوة.

قالت ليلا:

الشيخ مرشد دعا خطباء المساجد وطلاب الشريعة إلى أن يقودوا المظاهرات. منذ البداية أراد الإسلاميون أن يهيمنوا على الثورة. أنت تذكر ما كان سراج قوله عنهم. وها هم يحاولون الهيمنة على التنسيقيات وعلى الحراك.

التفت حنيف إلى نمنوما قائلاً:

هذا من خلافي مع سراج ومع ليلا.

قالت نمنوما:

إذا لنبقى مع الوالد.

قال حنيف:

هل تذكرين النداء الذي وجهه الشيخ معاذ الخطيب لرئيس الجمهورية، إثر اقتحام الجامع العمري في درعا؟
لا، لا أذكر. ما علاقة والدك بذلك؟

والدي على علاقة بالشيخ معاذ منذ كان خطيب الجامع الأموي. الشيخ معاذ دكتور مهندس أيضاً، وقد بدأ والدي يظهر معه منذ أكد في ذلك النداء على عفوية مظاهرات الشباب، وعلى سلميتها، عدا مطالبته بالإفراج عن المعتقلين، وباطلاق الحريات. الشيخ معاذ يحضر مجالس العزاء، ووالدي أيضاً، إلا إذا اقتضت ضرورات العمل.

وهل تقتضي الضرورات كثيراً؟
كثيراً جداً، لكن والدي نشيط جداً، مع أنه تجاوز الستين. من
المعضمية إلى داريا ومن الكسوة إلى سقبا، لا يهدأ، وخصوصاً
في هذه الأيام. والدي يعرف كيف يحرك الناس، لأنه يعرف ما
يحركم.

إذاً والدك يشارك في هذا الحراك.
جداً.

قالت ليليا:

والشيخ عدنان العرعور الذي يبث السموم من قناة صفا
ومن قناة وصال؟

قال حنيف:

لكن صوته مسموع أكثر من الجميع. دعواته إلى التكبير
مستجابة كثيراً. أنت هنا تسكنين في حي راق. تعالى اسمعي
التكبير في الميدان، في بربدة وركن الدين والحجر الأسود..
تعالى اسمعي في الغوطة.

قالت ليليا:

كأنك متحمس له!

وقالت نمنوما:

قد يكون صوته مسموعاً، لكنه ينفح في نار الطائفية. وقد

سمعت في القصر العدلي من زميل مستشار يعرفه جيداً أنه كان يحرم الخروج على الحاكم، عكس ما هو عليه الآن.

قال حنيف:

على كل حال أبي ليس على علاقة معه. والآن من ستقول لي سبب هذا الحديث كله؟ هرباً من السؤال، ومن نظرات ليليا التي أيدته، أسرعت نمنوما تقول مبتسمة:

بصراحة فكرت أن من كان مثل والدك يستطيع أن يجعلنا نفهم هذا الذي يجري حول الشام، بينما الشام نفسها شبه هادئة، رغم الذي تحاولونه أنتم الشباب بين حين وآخر. وأتلعث عنقها معجبة بما عدّته حسن تخلّصها من شك حنيف، بينما أسرعت ليليا:

كان سراج يتحدث عن الخراب الذي أصاب الغوطة. حنيف: أنت تذكر ما قاله عن استنزاف المياه بالآبار العشوائية المخالفة، وقصص الرشاوي التي تجعل المخالفات شرعية.

قال حنيف مقاطعاً:

وأذكر ما قاله عن المشاريع الصناعية في الغوطة على قانون الاستثمار، وعن الورش الصغيرة غير المرخصة، وعن تلوث التربة بالنفايات. وهذا كلّه مهم، لكن الخبر اليقين لدى

والدي، كما توقعت الأستاذة نمنوما.

وماذا يقول والدك؟

سألت ليليا، وكررت نمنوما السؤال، كأنها تعزز انصراف حنيف عن سبب كل هذا الحديث عن والده، فقال:

لوالدي بستان في الكسوة، على يسار نهر الأعوج، ما كان نهر الأعوج، أقصد. أنا أذكر البستان: جنة خضراء، ومنها كان نتسابق في الركض باتجاه معسكرات الجيش. شح النهر، جفّ، لم يبق منه إلا الاسم، بسبب الآبار العشوائية. يبس البستان، الغوطة صارت مزبلة، صارت صحراء. برأي والدي أن هذا هو سبب خروج الطلاب من المدارس للبحث عن لقمة. وعدا ذلك أفلست الورشات الصغيرة. طفر من طفر من الشباب، ودار من دار في الأزقة والحارات. ماذا كان يمكن أن يفعلوا إلا المظاهرات؟

قالت ليليا:

سمعتك أكثر من مرة تتوجس من الطائفية في الكسوة.

قال حنيف:

دعيني أكرر أمام الأستاذة نمنوما أن مساعدًا في الجيش عاش كل حياته العسكرية في الكسوة، ولم يعد بعد التقاعد إلى قريته. أبناءه رفضوا. هم أبناء الكسوة وليسوا أبناء تلك القرية.

فتح الرجل دكاناً، وأبى هو من كفله عند صاحب الدكان وعند التجار. في إحدى المظاهرات ترددت هتافات حادة ضد السلطة. يبدو أن الرجل كان يخبيء كلاشينكوف في الدكان، أخرجه وأطلق على المتظاهرين، قتل اثنين وجراح كثيرين قبل أن يقابضوا عليه. فتكوا به وبأسرته. هذه طائفية من المساعد العلوي وليس من أهل الكسوة، لكنني أتوjis شراً. الرائحة كريهة.

قالت نمنوما:

لنعم إلى والدك. هل يقال ملاك كبير، والملك بستان واحد،
مهما كانت مساحتها؟

تابع حنيف:

في المعصمية وفي بساتين كفرسوسة كانت لنا أراضٍ واسعة، بلعها الاستملاك كما بلع ثلاثة أرباع أراضي الآخرين. أكثر من مئة ألف زيتونة استملكت. حتى والدي يقول: المعصمية لم تنتفخ لأنها سلفية كما يقال أحياناً، بل لأن كبار الكبار من أصحاب الأموال الحرام، ومن وراءهم من كبار الكبار من رجال النظام، جعلوا الحكومة تستملك الأراضي قبل ثلاث سنوات بسعر ثلاثين سنة مضت. دفعت الدولة التعويض عشرة آلاف ليرة للدونم، صار الدونم بمائة مليون ليرة. انظري الآن إلى شام سيتي ستر في كفرسوسة. ويسحر

ساحر انتقلت الأرضي المستملكة إلى ابن فلان وأبو علان من الذين يتحكمون بالبلد ويلعوا الأخضر واليابس، وطارت أسعار الأرضي إلى عالي السما.

قالت نمنوما:

من سنوات سمعت أن الفلاحين في داريا صاروا يسكنون الأرض بالمازوت، حتى تصبح غير قابلة للزراعة، وتسمح الدولة ببيعها، لأن الأسعار جنت.

قال حنيف:

ال فلاحون في داريا أمهر فلاحين في الدنيا، ولكن غضب الله حلّ. أحياناً كان يأتي من يشترون الأرض بأسعار خيالية من الخليج، أحياناً كانوا يأتون بلباس عسكري، بسيارات رسمية. انقلبت داريا فوقاني تحتاني. طار المال وطارت الأرض، فماذا بقي للناس إلا أن يتظاهرو؟

قالت ليلى:

أنا أظن أن هناك أسباباً أخرى جعلت الناس ينتفخون.

قال حنيف:

صحيح. خذى سقباً مثلاً. هل تذكرين عندما دعانا نذير إلى مهرجان المفروشات فيها؟ إخوته وكل أقربائه مثل كل أهالي سقباً: اعتمادهم الأكبر على ماذا؟ على صناعة المفروشات. من منهم لم يفلس؟ والسبب؟ غرفة النوم التركية على آخر طراز

ثمنها ٧٠٠٠ ليرة. الغرفة السقباوية سعرها ضعف. وعدا عن غزو المفروشات التركية، جاء غزو المفروشات الصينية والماليزية والإيطالية. وصل الغزو فوصل الإفلاس إلى حمورية، إلى عربين، ماذا بقي للناس إلا المظاهرات؟
قالت ليли娅:

ومع ذلك أظن أن ما دفع الناس إلى المظاهرات ليس هذا وحده، بل ما أصابهم كما أصاب كل من في سورية من الظلم. اللقمة بطلوع الروح، وفوقها أنت بلا كرامة. هل هي صدفة أن تهتف الناس للحرية والكرامة، رغم الفقر والفساد؟
لا تنسوا تأثير الرياح التي هبت من تونس ومن مصر.
قالت نمنوما وهي تنھض، فوق حنيف، بينما أوما حاجباها إلى غرفة المكتب، وقالت:

مضطراً إلى أن أتركك، اعذرني، في المكتب قضايا تناديني.
وخطابت ليли娅 وهي تصافح حنيف:
ماما: قومي بواجب ضيفك.
وأسرعت للتلاقي إضمارة فاخر باشا وعمار البرزنجي برغبة، وبعزم.

سّمّور الليل

بعدما نجا راتب عدلة بمعجزة من الاعتقال أثناء فض الاعتصام أمام وزارة الداخلية، أخذت خبرة سنوات من التخفي تتبدد، لأنها ما عادت تصلح لهذه الأيام. كما أخذ البشر الذي أضاء تخفيه أيامًا، يضطر布.

في تلك الأيام القريبة التي تبدو لراتب الآن بعيدة، عارض بشدة من سُمّي ما يجري في البلاد منذ ٥١ آذار حراكاً أو انتفاضة، كما سخر من لجلج في التسمية. وأعلن هو بصوت جهير أنها الثورة. وسرّه أن الجارة الأرملة الحاجة سمارة تؤيد إعلانه، بينما يتماحك الآخرون والآخريات في تعريف الثورة، ومنهم من يصف راتب بالعاطفي أو الانفعالي، ومنهن من تصفه بالمتتعجل أو الحالم. ولم يرق له أي من هذه الأوصاف إلا عندما ردها أمام سمارة شاكياً، فذوّت سكر النبات هكذا يسمى ابتسامتها منذ عرفها في زمن التخفي الأول وهوّنت عليه، بل واستحسنت الأوصاف جميعاً ما عدا: المتتعجل.

في تلك الأيام أخذ يعسر عليك اللقاء بمن تمكنت من اللقاء بهم منذ لجأت إلى دمشق: أولاء أصدقاء قدامى، أولاء رفاق قدامى، وهؤلاء أقرباء من جسر الشغور، وهذه وجوه جديدة

تذرك بصباك في زمن التخفي الأول، وفي زمن المعتقل:
أحمد وتيسير وفادية وباسين وأبو جمال وأسامه وأبو عامر
وديمة و.. وأنت تشك في أن عادل يكتم عنك نشاطاً سرياً. ولم
لا؟ ربما صار هذا الذي كان أول من آواك في زمن التخفي،
قائداً لتنسيقية ما، وأنت تسمعهم جميعاً يجزمون بلويان
أجهزة الأمن على أي خيط من خيوط التنسيقيات، مهما يكن
واهياً. أنت تشك في أن أبو قدور يكتم عنك نشاطاً سرياً، ولم
لا؟ ربما كان هذا الذي كان آخر من جمعك بهم الاعتصام في
دوار كفرسوسة في جمعة الإصرار، قائداً لتنسيقية ما، وأنت
تسمعهم جميعاً يجزمون بقصوة أجهزة الأمن حد القتل في
الخلاص من الناشطين في التنسيقيات، فكيف بمن يقودونها؟
لأنك تبحث يا راتب عن مجد لم يكن لك يوماً، بل لأنك
تبث عن موقع في الصدارة، بل لم لا تقولها بالفم الملآن:
موععي هو في القيادة؟ ولكن قيادة مازا وأنت أولاً وأخراً
غريب هنا؟ أنت لست في حماة يا راتب، بل لست في حلب، ولا
حتى في جسر الشغور. أنت طارئ في الشام، ما مضى عليك
فيها سوى شهور. وما قضيت فيها زمن التخفي الأول أو زمن
المعقل، لم يثبت لك فها قدماً. ترك زائداً عن الحاجة في هذا
الفضاء الذي يمور بما ظللت تنتظر منذ صباك؟

* * *

حين أضمر كل ذلك في شكواه لسمارة من العزلة ذوّبت
سكر النبات، وسألت مستعينة بالعتمة على إخفاء ابتسامتها:
هل تعرف ماذا صرت تشبه في الليل؟
قولي.

لا تزعلْ مني إذا قلت: مثلك مثل السمّور. تعرفه؟
ما حلا لك أن تشبهيني إلا بهذا القط البري؟ أعرفه، ومن
العلية رأيته في البستان مرات.

لو ترى كيف يصير لونك في العتمة! أحمر مسودّ، أسود
محمرّ، سمّور، ولكن فقط في الليل.

يا ستي: سمّور، وسمّور الليل كما ترغبين، لكنه بدأ يشيخ.
كله إلا هذا.

قالت سمارة ضاحكة، ولكن ليس بالجراءة التي كانت تميز
ضحكتها في ذلك الزمن البعيد: التخفي الأول.
يومئذٍ كانت سمارة عشرينية، في مثل سنّه. وافتتن بطولها:
سرورة باسقة، وبصدرها: رمان البلد، رمان جسر الشغور الذي
يُضرب به المثل. كان يحسب أن عينيها تصهلان، وسوانفها
تصهل، وكلما وقعت نظراته على باطن كفيها، يخيل إليه أنهما
تغطسان الآن، أمام عينيه، في حناء من الدم، فيرتعش خوفاً
واشتهاء. وهذا الشاب الذي لم يكن قد عرف من النساء إلا

عاهرة في قبو مقابل لمحطة بغداد في حلب، بات يؤيره السهد
في هذه العلية التي دبرها لك رفاقك، في هذا البيت المتخفي
مثلك، في أول بستان من كيوان، في أول طلعة مشفى المواساة.
وهذا هو العم صدقى، أبو نعيم، صاحب البيت والعلية والجنينة
المسروقة من البستان، ينام النهار ويسهر الليل، كي يحرس
مستودع المشفى القريب، ولكي يصدق أنك موظف في الخدمات
الجامعية، بينما تقضى ليلاً حبيساً، سوف تتلخص على أم
نعمى قبل أن تعرف أن اسمها سمارة، وتقضى نهارك بانتظار
رفيق يزور، أو رفيق يصحبك إلى رفاق، والخطر كالخوف ينبع
على البستان، إلى أن ينقضي الشتاء الطويل، فتعطر أم نعيم
الفضاء، ويتبعد الخطر بالأمان، والخوف بالشجاعة التي
تجعلك تترصد ظهور وحركات الشابة، وتذكر أن تكون زوجة
العم صدقى، وإن يكن هو أبو نعيم ما من طفل في البيت ما دام
يكبرها بعشرين أو ثلاثين سنة.

كيف عرفت إذاً أن اسمها سمارة، فما عدت تناديها بأم
نعمى إلا أمام زوجها؟ وكيف عرفت هي أنك لست موظفاً، وأن
الحكومة تطاردك، ولكن ليس لأنك مجرم أو مهرب، بل لأنك
تشتغل في السياسة؟
دعك من تلك الأيام، وخلفك في يومك الحائر هذا، مثلك.

لكان سمارة مقرنة بالتخفي. لكان العلية كانت بانتظارك طوال هذه السنين، فالمرحوم أبو نعيم لم يؤجرها لأحد بعدك. وسمارة كانت تنتظرك كما زينت لنفسك، لذلك لم تؤجر العلية أيضاً لأحد، فهل هو قدرك؟

تراها نمنوما من دفعت قدميك إلى أن تتقريرا سكة الحديد والدرب الترابية، إلى أن يسفر الباب الحديدي الأبيض نفسه عن سمارة: حجاب لابد أن يكون من الحرير الأصفر، يبدو مثل غطاء من الزهر الناعم، كنزة كحلية تدلّ بقميص لابد أن يكون من الحرير الأحمر، يبدو مثل شمس غاربة أو ذبيحة. وهذه هي ابتسامة سمارة التي تذوب حلاوة مثل سكر نبات، هاتان هما وجنتها اللتان لابد أنها تغسلهما بماء الورد: من كان يهمس لها بذلك، فتدعوا: الله يهديك، وتدعوه: اخز الشيطان، وتدعوه: الله يبعث لك بنت الحال اللي تسعدك وتهنيك؟ وقد استجاب الله لدعاء سمارة، فأنعم عليك ببنان.

لكنه التخفي، بل هي نمنوما هذه المرة.

نمنوما؟

نمنوما!

ما شأن نمنوما بك، وما شأنك بها؟

لا تصدق أصابعك إذ تلامس كفها على الطاولة، لتواسيها

على ما اعترى صوتها عندما ذكرت صباح.
لكنك لن تنسى اللمسة الخاطفة، وستظل تبحث عن لمسة
مثلها طوال اليومين اللذين أجالتك خلالهما إلى بيتها. ستظل
تبث عن نظرة أو عن نبضة صوت، لهما ما كان لتلك اللمسة.
ولكي لا توغل في سفك مع نمنوما، ومع صباح أيضاً
استفاقت سمارة من نسيانك، فأسرعت إليها، وتمرغت في
العلية بالهناة التي ستظل تملص منك، مساءً بعد مساء، فلا
يبقى لك إلا هذا الحلم أم الكابوس الذي يجعل من قصة راتب
وسمارة واحدة من أساطير العشاق: هو مسجى، كميت، وهي
تطعن بخنجر مذهب، ثم تطعن نفسها في الموقع نفسه، في
القلب، ثم يقبل موضع الطعنة، بينما تهمس هي في الميت:
قبلني يا حبيبي، فيحييا ليقبلها ثم يموت، أما هي..

آن لكل ذلك أن ينتهي يا راتب. سمارة التي لم يرزقها
الله ولداً حجّت، وتابت، ورددت الطامعين بها وبهذه الجنينة
المسلوقة من البستان. لذلك صرت ترى أظافرها وأنت
تلتصص من نافذة العلية، لأنها تخمش السياج، ثم صرت
تراها كأنما تخمش رقبتك ووجنتيك، عقاباً على ما تسول به
نفسك، ولكي تدرك جيداً أن لا مكان لك في الثورة، هنا في
الشام، أو على الأقل: مكانك هنا فيها ضيق وزلق، ومادام

الهواء نفسه قد تغير منذ الخامس عشر من آذار، فلماذا لا تعود
إلى بنان والعاصي؟

ألم تحدثك سمارة عن ابن عمها الذي كان مطلوبًا ومتخفياً
مثلك،وها هو الآن يسرح ويمرح في المعضمية، يصلى في
الجامع، ويحضر خطبة الجمعة، ويخرج في المظاهره، ويرشق
رجال الأمن والشرطة بالحجارة مثل كل المتظاهرين وبينما
في بيته، دون أن يقول له أحد: ما أحل الكحل في عينك!
شو صارت الشرطة وصار الأمن ملائكة في المعضمية؟
وما نسمع عن الرصاص والقتل فيها، ما هو؟

سأل راتب غير مصدق، فقالت سمارة:
من يقع في أيديهم أثناء المظاهرة، ادع له بالسلامة. ولكن
هذا هو حال ابن عمي.

وفك راتب في أنها قد تكون تحثه على الخروج من القفص
أو الظلام. ومهما يكن، فقد أسرع بعد ذلك إلى حماة.
لكن حماة ليست المعضمية، وبينان ليست سمارة.

* * *

لم يكن راتب وبينان قد افترقا بعدما تزوجا أكثر من يومين.
لكن الفراق هذه المرة تطاولأسابيع، ندر خلالها الاتصال
الهاتفي. وربما كان ذلك ما جعل راتب خائفاً، وليس فقط

خروجه من التخفي، ولا الحواجز الكثيرة ما بين الشام وحماء.
كأن شيئاً ما تبدل أو يتبدل في بنان: بطنها ما عاد
خامساً ولا مستوياً، نواة كرش، نظراتها كأنما انطفأت،
أنفاسها ما عادت معطرة، حتى شعرها بدأ يخشوشن. هجس
وهما يتضاجعون بحرارة أدنى، بل بهدوء، بل ببرود ضاعفه
أنْ كان عليهما أن يداريا جبيرة ساعدها الأيمن. وسرعان
ما أغفت، بينما أطلق هو عينيه في العتمة، وشفّف أذنيه كي
 تستعيدا صوت بنان: في جمعة العزة خرجت المظاهرة الكبيرة
 الأولى من جامع عمر بن الخطاب، أكثر من ألف مصلٌّ. مشت
 المظاهرة إلى الساحة. تمت راتب: ساحة العاصي، وأخذ
 يتهجّي النهر ومبني المحافظة والمصرف التجاري وقيادة
 الشرطة وأشجاراً بدت معمرة وأشجاراً بدت فتية، ورمحت
 نظراته في السماء فوق الحاضر، ثم رمحت في السماء فوق
 السوق، وعندئِنْ عاجله صوت بنان:

ال العاصي حبيبي كبن، أرأيت؟ وأنا مع أختي وبينات أعمامي
 وبينات أخوالى، كلنا خرجنـا في جمعة الصمود. أكثر من ثلاثة
آلاف متظاهر، ما عدا النساء، خرجنـا من جامع عمر بن الخطاب
 ومن جامع السرجاوي ومن جامع عبد الرحمن بن عوف ومن
 جامع علي بن أبي طالب، من الحاضر والمحطة والقصور

وسوق الشجرة والتعاون وجورة حوا والبارودية والمرابط
 والحرارة ومن ومن، لكن ساحة العاصي امتلأت لأول مرة في
 الجمعة التي بعدها. وكله كوم والجمعة العظيمة كوم. فزعة
 فزعة حموية: هتف الشباب، لا إله إلا الله، هتفنا كلنا، وسبقنا
 كثيرون من حلفاًيا وكفر زيتاً وطيبة الإمام وغيرها، وكانت
 معركة يا راتب، عينك وما تشفف. وخلال العتمة تمسحت نظرات
 راتب بالجبيبة البيضاء، بينما تابع صوت بنان بحماسة أكبر:
 عند الهجرة والجوازات أكلت حسابي مثل كل الناس:
 خراطيم الإطفائية ضربتنا بالماء أوجع من ضرب العصي
 التي ضربنا بها رجال الأمن والشرطة. وكله دغدغة للخواطر
 قبل أن يضربونا بالقنابل الغازية. يومها سقط لنا أول شهيد،
 الله يرحمه ويصبر أمه.

رجعت إلى بيت أهلي بين الموت والحياة. كان العاصي
 في حضن أمي، ولما رأني بكى، وأمي بكى. ولما عادت اختي
 ووجهها مبقع بالدم وحجابها ممزق وشعرها منكوش، صرختُ
 وصرختُ أمي وبكي العاصي. بقيت عندهم حتى الغروب،
 وكان البيت قد امتلأ بالأقارب والجيران. أخي أبي وابن خالي
 والإمام جارنا... سمعت نغمة غريبة من أبي:
 إذا لم نثار الآن فمتى نثار؟

أي ثأر يا أخي؟

أنت كنت صغيرة، من ثلاثين سنة ونحن ننتظر.
إذاً هو الثأر لحماة ١٩٨٢؟ تمنت أمي خائفة، وقلت: لا يا
أخي، لا يا ابن خالي، نحن لسنا في ثأر
بماذا نحن إذاً؟ حراك يا ست بنان؟ انتفاضة؟ ثورة؟ كله
عال، كله على راسي، المهم ألا يضيع الثأر ولو بعد مئة سنة..
من ستثأر يا أخي؟

صحت وحملت العاصي، ومشيت نحو الباب، وصوته
يصرخ خلفي ويعدد: البعثية والعلوية والكافر مثل زوجك حتى
لو كان من المطلوبين، رمى الله كيدهم بنحرهم.
كان غضب الله نزل عليّ، والتفت إليه. لا أذكر ماذا قلت
ولا ماذا قال. لكن أمي حكت لي فيما بعد، وأختي حكت أني
فضلت عليه الكفار الذين هم مثل زوجي، فطار صوابه. انتزع
ال العاصي مني ورماه في حضن أخي، وضربني، وضربيته،
ودفعني فوقعت على حوض القرنفل وانكسرت يدي اليمنى.
لم يضرب رجل من عائلتنا امرأة قبله. أمي صاحت به: الأمن
والشرطة أرحم بأختك منك. رخ الله يغضب عليك. والمهم أنت
الآن يا راتب. أخاف أن يراك أبي أو يسمع أنك هنا.
ماذا يمكنه أن يفعل؟

يمكن أن يشي بك، يمكن أن يرسل لك من يؤذيك. أبي لم
يُخفِ كرهه لك منذ عرفك.
ماذا أفعل إذا؟

هدد السؤال لراتب حتى نام. وبعد قليل ساعتين أو ثلاثة
نفح السؤال على وجهه أقوى فأقوى، حتى انتفض كمن صحا
من كابوس، فحدق العاصي من سريره في هذا الوجه الغريب،
وحدق راتب فيه، ثم دنا منه راتب فزعق الطفل مستجيراً.
تراجع راتب، لكن العاصي ظل يزعق حتى حضرت بنان.
حتى ابنك ينكرك، فماذا عليك أن تفعل؟

* * *

فكر راتب وهو يرد تحية بنان، ويتابعها وهي ترضع
ال العاصي. ولما غادر السرير قالت بنبرة لائمة:
طردوك من المحمية.
فلم يعقب، فأردفت:
ماذا ستفعل الآن؟

هو يسأل وهي تسأل، ومن يوم إلى يوم سيصير السؤال
موجعاً، بينما يحاول راتب أن ينظم أيامه ويهدها: ينهض
مع بنان وال العاصي، يطمئن على الجبيرة، يُعد القهوة، ينتظر
بنان في الصالون حتى ينتهي العاصي من الرضاعة، يفك

لمرة واحدة، ويحسرة أن العاصي طرده من جنة صدر بنان، يرشقان القهوة وينثران الكلمات: انتهت إجازة الأمومة، والآن سيحل راتب محل حماته لثمان ساعات، وأحياناً لتسع، يبدل العاصي الفوطة، يملأ البيبرونة بالطليب، يختار فيما يُبكي العاصي، يتمنى أن يطيل نومته، يكتم ضيقه، يخاف من أن يخطئ فتغضب بنان، وهو في كل يوم يخطئ، وهي في كل يوم تغضب، إن لم يكن من أجل العاصي فمن أجل من حبس نفسه بين الجدران عاطلاً عن العمل، ينتظر أن يداهم رجال الأمن البيت ليهرب منهم، وينتظر أن تعود زوجته، لتشكو طول الطريق إلى المحمية وسوءه، ولتشكو مضائق زميليها اللذين يشاركانها المكتب ويستفزانها منذ بدأ الحراك: واحد بعثي وواحد لا تعرف له أساس من راس. أما راتب فما عاد يعرف من السياسة إلا ما يتلقفه من التلفزيون ومن بنان.

كان وجه بنان قد عاد يتورد ويستطيع، ما إن تحرر سعادها من الجبيرة. وكان قد مضى أسبوعان على حضور راتب الذي ما عاد يعرف كيف يعبر لبنان عن رغبته بها، فكان أن تضاجعا للمرة الثانية، بحرارة أدنى، بل بهدوء مضاعف وبرود أكبر. ولكي لا تكون مرة ثالثة على هذا النحو، قرر أن يبحث منذ الغدمة عن عمل، مثلاً فعل قبل أن تدبر بنان له عملاً

في محمية التليلة. وهكذا ينبع إلى معمل القضبان الحديدية على طريق حلب، فمعمل الإطارات على طريق سلمية، فشركة الزيوت، فورشة الخيام، فورشة اللباس.
أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم.

ما حلا لحمة أن تغلق أبوابها إلا بوجهك يا راتب! وأنه كان يعود خائباً كل يوم، فقد كان يرجع على مقهى الروضة، يتصفح الوجوه وهو ينتظر فنجان القهوة، فلم يكتشف مرة وجهاً يعرفه، وأثقلت عليه الغربة والوحشة كل مرة. واليوم اندفع خارجاً، وسرّه أن لم يجد بنان ولا العاصي في البيت. ولما عادا ساءه أن بنان تجاهلت أو نسيت أنه كان يبحث عن عمل، إذ سألت بجفاء:
ماذا ستفعل الآن؟

فجرت السهرة الصامتة السؤال في صدر راتب أعنف، كما فجره صخب التلفزيون: كل سورية تتحرك إلا راتب عدلة الذي ينبع إلى معمل التبغ، ثم يعود خائباً إلى مقهى الأطلال هذه المرة. وبيان تظاهر فنجان القهوة يفكّر في أن يطلب من بنان أن تدبّر عودته إلى محمية التليلة، حتى لو كان سيعود حارساً لبئر المياه الكبريتية. لكن إحساساً طاغياً بالذل داهمه، فقرر منه ومن الفكرة إلى مقرّ البلدية المقابل، وراح يتأمله مغالباً

التوتر، ثم ترك عينيه تبحثان عن النهر. ولما عادتا خائبتين
تركهما تطوفان في الوجه، لكنهما لم تتعرضا على وجه، فأخذ
يرشف القهوة متطاماً، حتى جلجلت ضحكة خلفه، فالتفت،
وإذا بأبي يقف مت shamاخاً، وكأنما كان ينتظر التفاتة راتب، إذ
قطع ضحكته طويلاً، ونظر طويلاً إلى راتب، كأنه يحاول أن
يتذكره. لكن راتب قرأ في النظارات دعوة إلى المنازلة، فنهض
بأناة، ومشى بأناة أكبر أربع خطوات ليتقابل وجهه وجهه
أبي. وامتدت أصابعه إلى صدر أبي، وشدت، ثم همست شفاته:
أنا صهرك، عرفتني؟ أنا لا أكسر اليد التي تمتد إلى زوجتي، أنا
أقطعها، حتى لو كانت يد شقيقها المؤمن الحنون، ذراعك هذه
أقطعها حتى تمشي وكم جاكتك يلوح.

وخرج يتهدى، بينما كان من تابعوه في المقهى يتساءلون
عن هذا الذي تجرا على أكبر تاجر في سوق الطويل، وأكبر من
يجهز العرائس في حماة: أبي عرجون.
والآن، ماذا ستفعل؟

ربما كان السؤال الذي ما عاد يفارقه، وربما كان ما
وقع في المقهى، هما ما جعلا راتب يضرب بقية النهار الذي
تطاول، في الشوارع والأسواق والحرارات، كما لم يفعل من قبل:
من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب، من شارع

المرابط إلى شارع المحطة، من المدينة إلى الأميرية، من
جامع إلى جامع ومن ناعورة إلى ناعورة، كأنه يودع المدينة.
ولما حملته قدماه أخيراً إلى طريق حلب الشام، أخذت عيناه
تجوسان من على جسر العبسى، في النوافذ والشرفات بحثاً
عن البيت، وعن بنان، وعن العاصي، كأنه قد عزم على الوداع
حقاً.



المندسة

سمّت ليلاً صفحتها الفيسبوكية الجديدة بـ (المندسة)
وشرعت تكتب وتقص وتلتصق، منذ انزولت في غرفتها بعد
الغاء:

تحيةٍ إلى كل المندسين، شبر شبر، بيت بيت، دار دار، زنقة
زنقة، وطن وطن، شعب شعب.

أنا المواطن المواطن السوري الشهير بالمندس
الشهيرة بالمندسة: أقرّ وأعترف وأنا بكم قواي العقلية
بأنني مندس مندسة في مطالب الشعب، وسأدافع عن حقي
بالاندساس معكم، فدسووني بينكم في جميع القضايا الوطنية،
شاء من شاء وأبى من أبى. والآن أقدم لكم مقطعاً من هذه
الأغنية السورية الاندساسية التي أطلقها شاب من حماة اسمه
ابراهيم القاشوش:

رح نفرمهم مثل الخس
كلهم كم مليون مندس
شو هنّي الأغلبية؟

وإليكم أيضاً هذا المقطع من هذه الأغنية المصرية
الاندساسية التي لا أعلم من أطلقها:

أنا مندس أنا مندس
هات لي أجدة ووجبة ويس
أنا مندس أنا مندس
وكل الشعب كمان مندس

وأفيديكم علماً أن الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي
كان قد خطب قبل ظهور هذه الأغنية بستين يوماً أو أقل أو
أكثر، فقال: إن الأحداث والتظاهرات التي تشهدها مدن تونسية
هي أعمال قلة من المناوئين الذين يغيظهم نجاح تونس،
ويسوقهم ما تحقق لها من تقدم ونماء... إن هؤلاء مأجورون
ومندسوون.

وبعد هذه العصياء الاندساسية بثلاثين يوماً أو أقل أو أكثر،
خطب الرئيس المخلوع حسني مبارك، فقال: إن المتظاهرين
في مصر يحركهم الآلاف من المندسين.

أما الرئيس الذي ينتظره وبلهفة لقب المخلوع، أقصد معمر
القذافي، فقد خطب ليلة ظهور الأغنية الاندساسية أو قبلها أو
بعدها بأيام معدودة، فقال: قلة مندسة تسعي لتخريب ليبيا
عن طريق تقديم حبوب الهلوسة والأموال لمأجورين لديهم
أجندات خارجية.

وبعد فترة قصيرة نشرت وكالة الأنباء السورية سانا،

في بداية الانتفاضة الحورانية، أن بعض المندسين استغلوا الموقف بعد تجمّع عدد من المواطنين في محافظة درعا بالقرب من الجامع العمري.

هنا أضافت ليليا: ومن لا يصدق فليسأل العقيد واصل أبيضاني، ثم مسحت العبارة، وتابعت الكتابة:

١. أغنية اندساسية لفرقة أحرار السلمية: المواطن فيكِ مندس، عم يكتب بحروف الشمس، الله سورية حرية ويس.

٢. هتاف اندساسى: مندسين مندسين، من درعا للشيخ مسكنين.

ثم نقلت من افتتاحية طازجة لجريدة تشرين، مما كتبت رئيسة التحرير: لا ضرر من التظاهر السلمي والمطالبة، المشكلة هي أن يندس بعضهم.

وعن مصدر سوري لم تحدده، نقلت ليليا أن من المدسوسين من انتحل شخصية أمنية كبيرة، ودار على أجهزة أمنية عديدة، وأعطى تعليمات ضارة.

قبل ذلك بأيام كانت ليليا قد تحدثت عن مشروع صفحتها الجديدة أمام حنيف، فجاءها أمس بقصاصات قديمة من جريدة تشرين، تعود إلى سنة ٢٠٠٤، وتعلق جميعاً بالاضطرابات التي شهدتها القامشلي، عندما كان العقيد واصل أبيضاني لا

يزال برتبة الرائد، لكنه كان يقضى ويمضي في القامشلي، كما حكى هو أو نمنوماً أو كلاماً لابنتهما الغالية ليليا.

أسعدت ليليا قصاصاتُ حنيف، وَمَنْتَجَّتها أكثر من مرة، ثم رَوَّستها بالإهداء إلى سيادة العقيد واصل أبيضاني، بطل القامشلي ٤ ٢٠١١ وبطْل درعا ٢٠١١، لكنها الآن شطبت الإهداء واكتفت بالمونتاج التالي:

المانشيت الأول لجريدة تشرين في ٣/٢٠٠٤: عناصر مدسوسية استغلت حماس مشجعي كرة القدم لإثارة الفتنة.

المانشيت الثاني: مواطنو الحسكة من مختلف الشرائح الاجتماعية يدينون الغوغاء والمندسين ويعودون الوحدة الوطنية.

ثم كتبت مما صرحت به للجريدة مطران كنيسة المشرق الآشورية في سوريا: نستنكر وندين بشدة الأيدي المدسوسية التي اقترفت وافتتعلت هذه الفتنة.

ثم كتبت مما صرحت به للجريدة شيخ عشيرة البومعيش: قد يكون بعض المندسين والغوائيين باع نفسه للشيطان.

وختمت بعبارة واحدة لأحد شيوخ وأغوات الكيكيية الأكراد من الدراسية، أكد فيها أن الحوادث ناجمة عن أيادي مدسوسية في صفوف مجتمعنا.

الآن، وقد باتت الصفحة جاهزة، وقفت ليليا، وتمطت، ثم
استلقت على السرير وهي تنادي قلقها على سراج، بعدما كانت
قد ظلت تدافع القلق منذ الصباح: أين أنت؟

* * *

تأخر الجواب تسعه أيام، بعدما أمر سراج: لا تستخدمي
الهاتف، ثم أمر بالصبر. وصبرت ليليا حتى جاءت كوكب
الصباح بالفرج.

على الصوفا العتيقة، وتحت سقف واحد تائه بين دوما
وحرستا، جلسا متلاصقين. وبعدهما ألمحت ليليا مرتين إلى
العفو الذي أعلنته وزارة الداخلية منذ أول الشهر، سألت:
لماذا لا تسلم نفسك وتستفيد من العفو؟

فأجاب سراج بانفعال:
لأن العفو لا يشملني.

وبعد صمت قصير تدفق:

وزارة الداخلية تناطح من غُرر بهم، وأنا لم يغرس بي أحد.
أنا اخترت كما اخترت أنت. هل غرس بك أحد؟ والداخلية تحدد:
من حمل السلاح أو أخلّ بالأمن أو أدلّى ببيانات مضادة، وأنا
لم أقم بشيء من ذلك. الداخلية تريد منمن يسلم نفسه أن يعلمها
عن المخربين والإرهابيين وأماكن وجود الأسلحة، وأنا لا علم

لي بشيء من ذلك. لا علم لي إلا بالمتظاهرين السلميين، مثلني. لماذا إذاً لا تسلمين نفسك، حتى لو لم تكوني مطلوبة؟

قالت ليليا مغالبة الأسى:

سراج: أنت لا تخيل كيف أكون عندما يطول انتظاري.

قال سراج وهو يضمها:

اصبر يا ليليا. نحن لا نزال في بداية الطريق.

فتدفقت وهي تدفن رأسها في صدره:

اليس صمتكم خمسة أيام أمراً عظيمًا؟ ليلة غضبك حلمت بأننا كنا معاً بين الشباب الذين تجاوزوا الحدود و Biasوا تراب الجولان. حلمت بأنك أنت ذلك الشاب الأشقر الأبيض الذي ركب الباص من المجدل إلى حيفا، ونمط فيها ودرت حتى أعادوك إلى الحدود وأنا ناطرة. ليلة الاثنين يا حبيبي كم تمنيت أن تكون معنا. كم تعذبت لأنك لم تكن معنا. هذه المرة كنا جميعاً من شباب الجامعة المستقلين. لا شيوعي ولا قومي سوري ولا مسلم معتدل ولا من يحزنون. كما قلت لك: فكرنا بوقفة حداد على الشهداء. وقفية صامدة ظهراً ونحن نحمل الشموع في حديقة الجاحظ مثلاً. منحتنا وزارة الداخلية الترخيص، ضاقت بنا فرحتنا. لكن الداخلية طلبت قبيل الاعتصام أن نبدل المكان. لماذا؟ لأسباب أمنية. أنا كنت مع الرضوخ

للطلب. المهم أن نقف مع الشموع. لكن الآخرين، أغبلهم، فسروا
الطلب على أنه مماطلة، والمماطلة رفض مبطن. وحده حنيف
وقف معي.

حبيبي سراج أنت ترى صوري على صفحتي، وأنا لا أرى
على صفحتك إلا العلم. صورتك محفورة في قلبي، ولكنني
أتمنى لو أن لك صورة على صفحتك. أنا أحببت هذا العلم لأنه
صورتك. لولاك ما كان يهمني في شيء، على الرغم من أنه
صار علم المظاهرات. على عيني وعلى راسي إذا كان علم
الاستقلال وعلم الأجداد. أنا وأنت ربينا على هذا العلم الذي
يُحقق فوق قاسيون. علم أبو نجمتين: هكذا كانت لمى تهمس
كلما أدينا له التحية في دروس الفتوة. منذ فارقتك يا سراج
وأنا خائفة. منذ رحت تعدد من استشهد ومن اعتقل من رفاقك
من قيادات التنسيقيات، وأنا خائفة. كم أتمنى أن تكون القائد
الأول لهم جميعاً، وكم أتمنى الآن ألا تكون في الصف الأول،
ولا حتى في الصف الثاني. أنا نانية؟ نعم أنا نانية. المهم سلامتك،
وأنت تضاعف خوفي.

* * *

منذ ذلك اللقاء الخاطف من العاشرة صباحاً حتى الواحدة
ظهرأً أخذت ملامح سراج تتداخل وتغمض: ذقن حلقة، ذقن

سوداء بطول إصبع، ذقن نابتة داكنة الخضراء، بطن أكثر امتلاء، قامة أقصر، قامة أطول بكثير، شعر أطول بكثير، نظارات سوداء كأنها مسروقة من فيلم بوليسى، ولا صوت لا صوت لسراج كأنه أخرس بالولادة.

ولأنه آل إلى ما آل إليه، طار الخوف بليليا إلى عالم آخر ليس فيه إلا الظلام. وطال بها المقام في ذلك العالم حتى اقترب موعدها مع ألمى وندير وحنيف، فهبت غاضبة على نمنوما التي تركتها تنام ثلاث ساعات، وأسرعت إلى مسرح الدراما في دار الأوبرا، حيث سبقها الآخرون، وكادت القاعة أن تمتليء، فجلست في الصف قبل الأخير. ومع ما عزف تحت الجامعة الأنطونية من السماع الصوفي المسيحي الإسلامي الشرقي، أحست ليليا أنها تبرأ من علّق كان قد صار جلداً ثانياً لها، وأحسست أنها تشفّ وتقف هناك، على قمة قاسيون، تلاعب النسائم الصيفية المبكرة، بلا خوف من أحد، بل وبلا شوق لأحد.

لكن كل ذلك تبدل، فصلاً بعد فصل، مما قدمت فرقة نوا الحابية من الذكر المتوارث، عقب الفرقة الأنطونية، فعادت ليليا إلى ليليا التي أمضّها انتظار سراج: لا أريد إلا أن أسمع صوتك، لا أطمع بلقاء. ولأن سراج كان مقيداً، فقد اكتفى بأن



يمدّ برأسه أو يلوح بكتفه، مرة من قناة ما في نقل مباشر لآخر مظاهرة شارك فيها قبل أسابيع، وججل صوته: لا سلفية ولا إرهاب ثورتنا ثور شباب، ومرة في جنازة ابن عمه الذي يؤدي الخدمة الإلزامية، واستشهد في تلكلخ.

وحين أخذ اليأس يداور لياليا اعتكفت في البيت، ومن ليلة إلى ليلة أدمنت النوم، حتى بااغتها الشاشة كبيرة أم صغيرة؟ تلفزيون أو لا بتوب؟ ليلة جمعة حماة الديار بقدمي رجل سُلخ جدهما، وقيل إنها لجثة مدرس اعتقل منذ أربعة أسابيع. وإذ همت بتكذيب عينيها، ملأ الشاشة طفل مكسور العنق، وبطنه مثقوبة كذراعه: في كلِ رصاصة، والصوت الذي يتقدّب أذن لياليا يقول الجثة منتفخة بسبب الفرق بين تاريخ الوفاة وتسلیم الجثة، ربما لأسباب قضائية أو أمنية.

وسحج صوت المذيع أو المذيعة: إن ذَكَرَ الطفل مقطوع، وهو من الجيزة، واسمه حمزة الخطيب، وقد دفناليوم، وأنتِ مدعوة أيتها المندسة للمشاركة في سبت حمزة الخطيب، وإليك الآن على الفيسبروك صفحة (كلنا حمزة الخطيب).

ما بها سوريّة يا حبيبي ويا سيدتي؟

كورنيش الجامعة: هكذا يسمى بهنان الرصيف المحاذي
لسور الجامعة، قرب بيته. وعلى الكورنيش التقى الصديقان
بعد فراق طال حتى بلغ عشرة أيام. لماذا؟
سأل صباح مسابقاً الخطوة الأولى، فأجاب بهنان مسابقاً
الخطوة الثانية:

اسأل نفسك. أين اختفيت؟ في الجامعة لا أثر لك، ولا في
المقهى. هاتفك خرس.

أكد صباح أنه لم يتغيب عن درس، وأنه هو من افتقد
للدكتور بهنان أثراً في الجامعة، ومن خطوة بطيئة إلى خطوة
أبطأ، انتظم حديثه:

حريق السجن تركني في حالة رديئة. رأيت اسمك على
الموبايل في تلك الفترة. صدقني ما كنت قادراً على أن أتكلم،
ولا على أن أذهب إلى المقهى. وبالمناسبة حولني الحرائق إلى
صحفي فاشل وإلى محقق أكبر فشلاً.

تبادل بهنان التحية مع عجوز مقبل عليه، ثم قال:
هذا جاري أبو رمضان في مشواره المسائي المقدس:
رياضة. هو كردي ومعتقل سابق خمس ست سنوات. الآن لا

يتحدث إلا عن الثورة السورية. مساء حريق السجن أكد تأكيداً مطلقاً أن الحريق مدبر لإنهاء تمرد السجناء أسوة بالمظاهرات خارج السجن. لماذا تبين للمحقق الفاشل والصحي الأكبر فشلاً صباح خليل؟

قال صباح:

الحريق وقع في جناح سجناء المخدرات والجنائية، وليس في جناح السياسيين.

قال بهنان مقاطعاً:

كما يتظاهر غير السياسيين خارج السجن، يمكن أن يتمرد في السجن غير السياسيين.

تابع صباح:

يمكن، ولكن ما استطعت أن أتبينه هو أن السجناء أشعلوا النار في الفرش والأغطية، احتجاجاً على ظروفهم السيئة. ملأ الدخان واللهب الجناح. احترق من احترق واختنق من اختنق، وتدخلت الشرطة، وقع الصدام، طبعاً تأخرت الإطفائية. لماذا وقع الحريق فجراً يا تُرى؟

قال بهنان وعيناه تطوفان على شرفات غرف الطلاب قرب

السور الحديدي:

اسأل نفسك. أنت فعلًا صحي فاشل. والبرهان أنك تردد

كلام التلفزيون والإذاعة. على كل حال، قل لي: ما الذي شغلك
عني أيضاً؟ الحريق عذر غير كاف.

أين كنت يوم المعركة؟

يوم المعركة؟ أي يوم؟ وأين؟

كأنك لست في اللاذقية. يوم المعركة في العوينة والطابيات
والصلبية.

تقصد عندما هاجم مسلحون ملثمون الباص بالمسدسات
والعصي؟ هل يعقل أنه كان بينهم أربع نساء؟ لو صحي ذلك فلا
أنا في اللاذقية ولا أنت. نحن إذاً في مكان آخر وفي زمان آخر.
ها أنت تتكلّم مثل الإذاعة ومثل التلفزيون. نحن يا صديقي
في اللاذقية، ونحن بعد عيد الجلاء وعيد الرابع وعيد الشعانيين
بيوم، أعادها الله جميعاً علينا وعلى بلدنا باليمن والبركات.
بركاتك يا شيخ صباح. هل يمكن أن تعرفني بالعلاقة بين
ما تسميه معركة وبين اختفائك؟

في مقهى العلبي أنا والدكتور رافت وابنه، كنا نتفرج على
الشباب الذين تجمعوا في الساحة، في تقاطع إشارات المرور
أحلى نضال!

أجبن نضال أنت الصادق. رأفت لا يفارق ابنه في هذه
الأيام. هل تعرف لماذا؟

حتى لا يشترك في المظاهرات. لا تحتاج معرفة السبب إلى عبقرية. أكمل.

بعدما اتجه الشباب نحو الطابيبات تفرقنا. رأفت وابنه عادا إلى البيت، وأنا مشيت خلف المظاهرة حتى سمعت الرصاص. ركضت مثل الآخرين وسمعت من يقول وقع قتيل، ومن يقول: أكثر من قتيل، ومن يقول: جرحى فقط. ما الذي جرى؟ أنا لا أعرف، لكنني أعرف أنني منذ ذلك المساء ركبني الخوف. كل شيء مفهوم إلا الرصاص إلا القتل، إلا الدم يا بهنان.

لم تقل هذا الكلام من قبل، مع أن القتل وقع والدم جرى منذ الأيام الأولى.

ها أنا أقول. والمهم أنني بعد ذلك رأيت نفسي أتفقد الجدران كل يوم: هل من نوعة جديدة؟ أقصد: هل من قتيل جديد؟ إلى العزاء إذا حتى لو كان في جبلة أو في رأس الجبل.
ما شاء الله! أحلى نضال!

وأجبن نضال: كنت أعرف أنك ستسخر، لذلك لم أتصل بك، بل اتصلت بأبو نوزات. صرنا أنا وهو كل يوم في خيمة عزاء جديدة، أو في مستشفى أو في بيت، في زيارة جريح. واكتشفنا أن غيرنا سبقنا إلى هذا النضال الذي تسخر منه.
العفو منك ومن أبو نوزات ومن السابقين ومن اللاحقين.

أنا الآن لا أسرخ، ولكن أسأل: ما الفائدة من هذا الذي تقومون
به؟

كأن المدينة بدأت تتشقق يا بهنان. لا يمكن أن يساهم
مثل هذا الذي نقوم به بالتخفيف من ذلك؟ في البداية لم أفكر
في هذا، ولا أبو نوزات. ولكن حتى لو كان هذا من أوهامي،
فأنا تقدم لمسة على الأقل، عندما تعزى أسرة مفجوعة، أو
عندما يراك مصاب تسانده، ولا هو يعرفك، ولا أنت تعرفه. وما
أكثر ما تسمع من حكايات وشائعات و.. كأنك في بلد آخر.
والآن قل أنت: أين اختفيت؟

سؤال صباح، وكانا قد بلغا نهاية الكورنيش القصير،
واستدارا نحو بدايته. ولم يكدهناني يتخل باللمسات الأخيرة
التي يضعها على كتابه الموعود، حتى استوقفهما أبو رمضان
مبادراً بسؤال بهنان عن رأيه بتسمية الجمعة القادمة
بالعربية والكردية، بالكلمة نفسها: الحرية، آزادي. ولم ينتظر
أبو رمضان جواباً، إذ أردد مخاطباً صباح باعتزان:
ستكون الهتفات من بلد إلى بلد: حوران تنادي آزادي،
وعفرين ترد حرية، والديير تنادي آزادي، وقامشلو ترد حرية،
وحمص تنادي آزادي، وكوباني ترد حرية. ما رأيك؟ كوباني
هي رأس العين، أنت لا تعرف. ما رأيك؟

ولم ينتظر جواباً، إذ عاد إلى بهنان يسأل عنك من يكون صاحبك. ولما عرّف بنهان صباحاً، هزّ أبو رمضان رأسه مليأً، وخطاب صباح متوجهماً:

راضي قشّاب زوج أختك؟ إياك أن تكون مثله. شهرك ليس موالياً متشدداً فقط، بل طائفي، علوي متغصّب. هو جاري ولم يكن هكذا قبل الثورة، صح؟ بعد الثورة صار لا يطاق. وتابع رياضته دون وداع، فنسي صباح وبنهان ما كانا فيه، إذ شغلهما أن يتلازماً مع أبو نوزات في واجب العزاء وفي عيادة الجرحى، ابتداءً من ظهيرة الغد.

* * *

لكن بنهان تخلف عن التعزية الأولى، إذ فضل عليها أن ينضمّ إلى الصلاة المشتركة التي أقيمت في جامع الحسن العسكري في حي الزقزانية، وشارك فيها مسلمون، منهم العلوي ومنهم السنّي، ومسيحيون. وكما كان بنهان بالغ السعادة بما أعلنته الصلاة من الوحدة الوطنية ضد الطائفية، كان كذلك عندما تخلف عن التعزية الثانية.

كان ابنه دمر قد شغله منذ أعلن أنه سوف يشارك في التظاهر أمام القنصلية الفرنسية والقنصلية البريطانية، احتجاجاً على موقف بلديهما المعادي لسوريا.

ولما نقل بهنان لصباح حيرته بين القلق والابتهاج
بانشغال ابنه بالسياسة وهو في البكالوريا، تسأله صباح
عما إن كان لا يزال في سورية من لم تشغله السياسة، وتمنى
إلا يذهب دمّر بعيداً في تأييد النظام. ومن بعد تراجعت حيرة
بهنان وهو يتتابع انحرافات دمّر في التجمع الشبابي الذي نظمته
شبكة أخبار الساحل، لكنه فضل على التعزية الثانية أن يراقب
من بعيد ابنه الآخرين وهم ينتحرون أمام المقاهي في ساحة
الشيخ ضاهر، ثم يقدمون الورود إلى الجنود، ثم يتبعون إلى
ساحة أوغاريت، ويقدمون الورود إلى الجنود.

في التعزية الأولى التي شارك بهنان فيها، أتى على سعادته
بابنه مارواه والد الشهيد ملء الخيمة: خمس رصاصات توزعت
صدر وبطن ورأس الشهيد، ثم مزقت السكاكين وجهه تمزيقاً.
ولازم الوجه الممزق بهنان من بعد، كلما جلس في خيمة عزاء
أو عاين جريحاً، بينما كان أبو نوزات يرمي قصصه مقطعة،
ويدعها معلقة، في الذهاب أو في الإياب: بنت عمي وأطفالها
الخمسة مع شقيق زوجها، محطة القطار، رصاص، الرجل
راح، أكلها، والأم راحت ساقها، الحمد لله الأطفال سلموا. ابن
أخي سائق سرفيس، حاول إسعاف جريح على مفرق الرمل
الفلسطيني، رصاصه من على سطح البناء، الحمد لله جاءت

في الكتف. وحال الأولاد من فوج الإطفاء، قبل مفرق قنينص:
الحجارة على سيارة الإطفائية والسكنين في خاصرة الرجل.

ليش يا ناس؟

كان صباح يزجر السؤال وهو يتشرب القصص كلمة
كلمة، اسمًا اسمًا، من الصليبة إلى مشفى الأسد الجامعي، ومن
الدعتور إلى المشفى الوطني، ومن الغراف إلى المشروع السابع
إلى مشفى الطاببيات، حتى أطبقت جمعة حماة الديار على
عينيه وعلى أنفاسه، إذ رمته بشلو من حمزة الخطيب فشلو:
بطن منتفخة، عين مقلوعة، ذكر مقطوع، فك مخلوع، ساعد
مثقب.

ليش يا رب؟

هذه المرة لم يزجر السؤال، بل السؤال هو الذي زجره،
فغادر البيت في العشية، ومشى مطأطئ الرأس ومحني الظهر
تحت حمله من أشلاء بلا أسماء. ولما بلغ البحر تابع المشي
فيه حتى تناول البحر منه حمله، وعاد به إلى الرمل، وتركه
ينظر إلى المدينة، فهاله ما رأى فيها من الخراب. وخيل إليه
أن البحر يتقدم نحوها، كأنه سوف يزيدها خراباً، أو سوف
يغمرها، فالتفت خلفاً، وإذا بالبحر كما لم يره من قبل: لا هو
بالحزين ولا هو بالفرحان، لا هو بالغاضب ولا هو بالراضي،

لا هو بالعجز ولا هو بال قادر، لا هو بالحال ولا هو باليائس،
فسألة صباح: ما بك يا حبيبي ويا سيدى؟ فتنهد البحر عميقاً
ولم يجب، فسأل صباح: ما بها سوريا يا حبيبي ويا سيدى؟
وكانـت أصوات التكبير تتصادى في سماء أحياء عديدة من
المدينة.

شِبَّكْ يا روح أمك؟

تسللت طراوة الضحى من نافذة السيرفيس الذي سينقلها إلى ساحة العباسيين، فتمتنت ليليا لو أنها تستطيع أن تفتح زرًا أو اثنين من قميصها المحتشم، ليكون للطراوة أن تبرد السوتيان، بل ليكون لها أن تتسلل إلى ما يخبي السوتيان، وحبست الابتسامة التي أرسلتها الأمنية العاشرة. لكن الابتسامة كادت أن تطفر لو لا أن اللوحات المثبتة على أجناب أعمدة الكهرباء ألوت بالعينين لتقرأ: أنا مع سوريا، طببي هو مطلبك، لقمتي هي لقتك.

كانت اللوحات الإعلانية تزهو بالأخضر الشفاف والتشكيل البسيط. وفكرت ليليا أن الإعلام الرسمي بدأ يتحسن: ولكن ما أدراكِ وأنت لا تشاهددين قناة رسمية، ولا تقرأين جريدة رسمية؟ ثانيةً كادت الابتسامة التي أرسلها السؤال أن تطفر، لو لا أن لوحات إعلانية فيروزية أخذت تتوالى بتشكيلها المؤثر، ملويةً بالعينين لتقرأ: متثبت أو متساهل، كبير أو صغير، شاب أو فتاة: أنا مع القانون.

وما كادت الأعمدة التي بلا لوحات تتوالى حتى ظهرت لوحة أكبر لمذيع في قناة الجزيرة والعلم السوري يخفق في

عمق اللوحة، وفي صدرها تخفق الكلمات: الحقيقة كالشمس لا يستطيع أحد أن يحجبها، فتذكرة ليليا اعتذار رويتز عن تزويدها قناة إيه بي سي الاسترالية بصور لاعتداء جنود على رهائن من المعارضة وتصويبهم البنادق على رؤوس الرهائن، ثم تبين أن الصور مفبركة، تعود إلى ما قبل ثلاث سنوات في لبنان. وبينما اختفت اللوحات عن الأعمدة، كانت ليليا تذكر اعتذار رويتز أيضاً عن تزويدها القناة الفرنسية الثانية بصور لمظاهرات سورية، ثم تبين أن الصور من الأرشيف اللبناني. وحين تطأير الاعتذار الأخير لرويتز بين الفضائيات، كان يامن في زيارته الأولى للبيت بعد انقطاع طويل، فشتم رويتز، وشكراً زعيم حزب الله اللبناني على وقوفه مع سورية، فاعتبرت ليليا: أنت تعرف يا خالي كم كنت معجبة بهذا الحزب وبزعيمه في حرب ٢٠٠٦، أما الآن، فأنا، على الأقل، أختلف معك ومعهم. ولكي لا يتفاقم الخلاف وتتجدد القطيعة مع الحال، لم تفسح له بالرد، بل اعتذر عن اضطرارها للخروج، وغمزت نمنوما مودعة.

في ذلك النهار الذي بللته الغيوم مراراً، وجففته الشمس الحارة مراراً، كان على ليليا أن تضيّع الساعات حتى المساء، حين ستشهد الصالحة المظاهرة الصغيرة التي هتفت: لا

للحوار تحت النار. ولم تك المظاهره تنطلق حتى امتلاً المكان بشباب الأمن، منهم من يضرب، ومنهم من يأمر بالتفرق والانصراف، ومنهم من يطلب الهويات من المحجبات، وأولهن كوكب الصباح. وفجأة وقف ميكروبياص في منتصف الطريق، وفتح بابه الجانبي، فأخذ عدد من شباب الأمن يجرؤن أو يحملون من تصادفه أو تصادفها أيديهم، ويرمونه أو يرمونها في الميكروبياص. عندئذٍ طارت ليليا وكوكب الصباح وألمى مع من طاروا وطربن في الأزقة التي تصل بين الصالحية وشارع العابد. وخلف كوكب الصباح انسربت ليليا إلى مطعم المدينة، وجلستا في الطاولة الأخيرة قرب المغاسل، فأسرع إليهما النادل مرحباً، وسألهما عما ستأكلان، فتبادلتا النظرة التي فاجأها السؤال، وانفجرتا ضاحكتين، وخاطبت ليليا النادل بدعل: اختزلنا على ذوقك كم صحن.

* * *

من ساحة العباسيين إلى دوما ما عادت ليليا تفكر إلا في سراج وفي الموعد الوشيك البشارة التي حملتها كوكب الصباح أمس في العاشرة صباحاً، أمام مخبر تاماها: بكرة قبل الظهر تكونين في العزاء بشهيد في العمارة الرابعة بعد آخر موقف للسرفيس، مقابل صالة فرع المؤسسة الاستهلاكية، الطابق

الأخرين، ستجدين من تستقبلاك، وسترافقك إلى سراج. أنا لن أكون موجودة، ولن تزوريني.

إذن سيلتقيان أخيراً، ولليليا تتوجه في عدد الأيام التي باعدت بينهما. ومن دقيقة إلى دقيقة سيعظم التوهان: كيف صار شكل سراج؟ هل طال شعره؟ طالت ذقنه؟ نحف؟ هل غلظ صوته؟ حاجباها: هل اقتربنا؟ ولماذا يقتربنا؟ هل كانوا مفترقين؟ عيناه: ما لونهما؟ هل ضيّعت لونهما حقاً؟ إذاً متى أطاشتك نظرات تينيك العينين الواسعتين؟ واسمعتان أم ضيقتان؟ وأصابعه: تزينان بالشعيرات السود أم ناعمتان كأصابعك؟ متى اشتبت أصابعه بأصابعك أول مرة: قبل أن تمسح على شعرك، أم بعد أن تغلغلت فيه؟ قبل أن تتهجّي ذقنك، أم بعد أن تغلغلت في صدرك؟ وهل تغلغلت فوق السوتيليان أم تحته؟

ما عادت لليليا متيقنة من أمر: من المؤكد أنهما تبادلا القبل كثيراً، ولكن متى كانت القبلة الأولى؟ أين؟ والضمة الأولى: ألم تكن ليلة رأس السنة، حين أحست بركتبتك ترتجفان وترتخيان، حتى كدت أن تسقطي على البلاط؟ أم حين ودعك في اللقاء السابق الذي يبدو أنه كان أقل خطراً من اللقاء الوشيك، وإلا لم عليها أن تذهب إلى عزاء مجھول،

ف تستقبلها امرأة مجهولة، و تجلس إلى جانبها نصف ساعة ثم تخرج بها من العزاء: سنمسي إلى أول الساحة حيث تنتظرنا من ستراافقك.

من أول الساحة نقلت التاكسي ليليا والأخت المنقبة التي لم تنطق بغير: السلام عليكم، وبالطلب من السائق أن يمضي إلى المساكن، عند مدرسة البنات.

من أمام مدرسة البنات تقدمت الأخوات المنقبة بصمت، وتبعتها ليليا وقد استسلمت للتوهان حتى أشارت الأخوات المنقبة بالوقوف أمام باب حديدي بنى عريض للبنائية الlapطية خلف مدرسة البنات: هنا، الباب الخشبي الأول بعد الباب الحديدي: قالت إشارة الأخوات المنقبة، و اختلفت قبل أن ينفتح الباب.

* * *

ولكن من هو هذا الرجل؟

هل أنت سراج حقاً؟

كانت ليليا قد أدمت أن ترى سراج في أي وجه من وجوه الناشطين التي بدأت تظهر على الشاشة. وقد بدأت بذلك مع قناه البي بي سي، عندما قدمت سراج من هو إن لم يكن سراج؟ في غرفة مثل التي جمعتهما آخر مرة: فراش ضيق وملون وتطويل جداً من الإسفنج، طاولة صغيرة وجديدة عليها الكومبيوتر،

أرجوك لا تصوري: خاطب سراج من هو إن لم يكن سراج؟
مراسلة بي بي سي التي قالت: من هنا تأتينا أخبار الشارع
السوري، وقالت ليлиا: سراج وكل سراج هم الآن الأنثنيات
البشرية التي تلتقط من الشوارع والساحات والمطاعم، وتبتّ.
لكن ليлиا قد تكون بدأت هذا الإدمان مع قناة الفرانس
٢٤، عندما قدمت سراج من هو إن لم يكن سراج؟ في منزل
يبدو رحباً وثيراً، استعاره من صديق، ومنه يراسل القناة
التي يمتنع عن تسميتها، بعدها طرد من الإذاعة، وحطموا له
اللابتوب، وضربوه بالصاعقة، ويصقوا عليه، لماذا؟

ابتسمت ليлиا لهذا الذي تبدل كل ما فيه، ولilikia تلوب: آه يا
سراج، صرت تدخن! آه على هاتين الشفتين المتبعثتين، آه على
أسنانك التي تتبع مثل شاربيك، مثل أنفاسك، وآه يا سراج:
ليليا صوت يغرس، صوت يتهرأ، ليليا توصوص، ليليا تتلمظ،
آه يا ليлиا، أنت الحلوة التي لا تستحقها، أنت الحلوة التي لا
يستحقها أحد، أنا ما عدت أعرف كيف أكلمك، لكنني أحبك.
ما بقي من اللقاء المخطوف من الأمان ومن الإخوة في
التنسيقيّة، ومن كوكب الصباح، هو ما سوف تستعيده ليлиا
طوال الليل، بعد أن تعود سالمة من المغامرة الكبرى، فإذا
بسراج الذي تبدل قد سرق منها الكلام وال ساعات الثلاث، ليقول
إنهم قد شكلوا اتحاد تنسيقيّات الثورة بالتواري مع مؤتمر

إنطاليا للمعارضين في الخارج. والاتحاد جمع تنسيقيات الشام وريفها ودرعا وحمص، وبعد أسبوع، ليس أكثر، أسس آخرون ائتلاف شباب الثورة.

وقال سراج إن آخرين أيضاً شكلوا الجان التنسيق المحلية في سقبا وعربيين وداريا وعين ترما وكفر بطنا: تعرفين على الفيسبوك زادوا على عشرة آلاف مشترك. وقال سراج إن آخرين قد شكلوا تجمّع أحرار دمشق من تنسيقيات أخرى عديدة في دمشق وفي سورها. والاتحاد الاشتراكي كالإخوان المسلمين كالأمن، بلا تشبيه، تسللوا إلينا وإلى غيرنا.

نحن جميعاً نولد فجأة يا ليليا، نكبر بسرعة قد تكون قاتلة، ولم يسبق لأحدنا أن عرف مثل هذا الذي نحن فيه: المظاهره والاعتصام واللافتة والهتاف، وعيون الأمان في كل مكان، والجريح والشهيد وأعمال الكثيرين التي تعطلت، والأمل والخوف والدم يا ليليا، الدم يا ليليا: ناح سراج، ورمى رأسه على صدر ليليا. ولو لا خفق فؤادها ر بما ما كان صحا، ولا كان قد استطاع أن يتابع، فيحمد الله على أن ليس لدينا من هو جاهز ليحل محل النظام! من محاسن النظام يا حبيبي أنه لم يترك في سوريا بدلاً يمكن أن يحل محله. لماذا؟ لأن هذا الحراك هو الذي سيأتي بالبدائل. البديل الجاهز لا يقدم إلا

الجاهز يا ليليا: ثورة جاهزة مثل الوجبات الجاهزة، هامبرغر ثورة مثلاً، لكنني بدأت أخاف يا حبيبي. في تونس لم يستغرق الأمر شهراً، في مصر لم يستغرق الأمر إلا سبعة عشر يوماً، أما عندنا، وفي ليبيا، فالشهر بدأ تتوالي. دعيني من ليبيا، ما كنت أظن أن الأمر عندنا سوف يتطلب كل هذا الوقت، وليس في الأفق بارقة أمل. ما كنت أظن أن الأمر سوف يتطلب كل هذا الدم. بعد ثلاثة أشهر لا تزال الشام نائمة. نحن هنا في الغوطة زنار على خصر الشام. كل ما ترين حتى الآن هو زنار يجدله ريف الشام. لكن القلب نائم، ماذا تعني شرارة في ركن الدين أو أخرى في بربة أو ثلاثة في الحجر الأسود؟ ماذا تعني شرارة في جامع الحسن أو ثانية في جامع الدقر أو ثلاثة في كفرسوسة أو رابعة في مشروع دمر؟ شرارة وتنطفئ، والشام نائمة، وحلب نائمة، لا يزال نصف سوريا نائماً، والآخرون في الخارج يتحركون ببطء، ولا أعرف ما يريدون، من مؤتمر بروكسل إلى مؤتمر استنبول إلى مؤتمر إيطاليا، وفيها كلها يقال: الإخوان المسلمون هم الأقوى، وأنا كما تعلمين، ضد الإخوان المسلمين، مع أن أسرتي، كما تعلمين، قدمت أخي الشهيد الشيخ شرف وأخي الشهيد مصطفى، رحمة الله عليهما، وما بقي لأمي وأبي غيري. أنا خائف عليهم وهما خائفان

عليَّ، وأنا خائف عليك، لذلك لا أحد يعلم متى ستنلقي إِلاَّ الله.
آه يا سراج! أنت الحلو الذي لا تستحقه. أنت الحلو الذي
لا تستحقه أنثى، وال ساعات الثلاث تنطوي، والطريق تنطوي
من خلف مدرسة البنات في مساكن دوماً إِلى سرير في غرفة
في بيت في المزة فيلات غربية، مقابل قيادة الجيش الشعبي.
ومثل الطريق وال ساعات الثلاث أو السرير تنطوي ليلاً على
خوفها ودموعها وسرها وبهجهتها وعزمها. وكما تنطوي على
سدهما أيضاً، تنطوي نمنوما وهي تهتف مع كل نبضة: شبك
يا روح أمك؟

هل هذه حقاً هي سورية المصغرة؟

سأقول له إنني على الرغم من كل ما ينفص ليلى ونهاري،
أشعر عندما أسمع صوته كأن حمي تلفحني ثم تحرقني. أشعر
كأنها تنمل جلدي، تكرشه، تطويه في، فأحرق يا صباح.
مشتاقة شوفك، لكن..

* * *

أنا أغنى، وليس لطيفة التونسية. ليس في أغنيتي غير هذه
الكلمات الثلاث.

منذ انزوت ليليا في غرفتها، وبقيت وحدي في الصالون،
أغلقت التلفزيون، وبدأت أغنى لك. منذ أكثر من ساعة وأنا أغنى
لك ثلاث كلمات، لا غير: مشتاقة شوفك، لكن.. ما هذه الا.. لكن؟

صباح:

من خوفك عليّ بدأت أخاف. أنا لا أستهين بأخي فاخر،
فاخر غضوب، عضوض، لكنه غبي. على الأقل في هذه
القضية ثبت أنه غبي. الذكي هو شريكه، هو الحاج عمار
البرزنجي، ابنه حنيف صديق ليليا الحميم، ولا يكاد يفارقها
بعدما غاب سراح. الحاج عمار دفع فاخر باشا إلى الواجهة
واختباً في الخلف. فاخر باشا دفع عداً ونقداً عشرين مليون

ونصف المليون. مدير الفرع حذر مثل الحاج عمار، لا يرضى بالشيكات. كلهم حذرون إلا هذا الذي سيقتله غروره: فاخر ذكي. أرقام لا تصدق. حجم العملية ٣٥٣ مليون ليرة. الصحف الرسمية نشرت أخبار العملية والأحرف الأولى من اسم فاخر ومن اسم مدير الفرع ورئيس الدائرة المالية وأمين المستودع. القضية وصلتني جاهزة تقريباً، لا تحتاج إلا إلى بعض التدقيق وإلى من يجرؤ على الكلمة الأخيرة. مدير الفرع اعترف، كلهم اعترفوا، إلا فاخر باشا. هو يظن أنني أنتقم. لم يحرض علي أمي وإخوتي فقط. هنا في القصر العدلي أقام الدنيا علي. ٢٣٧٦ علبة جبنة مثلثات، ٨٣٥١ علبة بازلاء خضراء،

٤٦٠ علبة طحينة، مانا أعدد لك؟

صحيح أن غلطة الشاطر بآلف. صحيح أن الحذر يؤتى من مكمنه. للفرع ديون على السجن المركزي في عدرا، طالب بها، فتبين أن المطلوب أكبر بكثير جداً من الديون الحقيقية. بدأت الرقابة بالتدقيق. هكذا بدأت القضية.

طلبت الحجز الاحتياطي على أمواله، مثله مثل المدير والآخرين. فاخر باشا لن يستطيع الالتفاف على هذا الطلب إلا إذا طويت القضية كلها، وهذا ممكناً للأسف في سوريا الحبيبة. صباح: لا تقلق. أنا نمنوما. مشتاقة شوفك، لكن...

* * *

أنت وحدك من يرعى هذا الصمت الآن. كأنه في روحي.
صمت مثل حجر من أحجار حمص يا حمض يا أم الحجار
السود.

حجر أسود وصمت أسود وقلب أسود، لولاك.

صباح: ما داموا يفتحون الدفاتر العتيقة فهم مفلسون. حلا
وراد قاضية من الدفاتر العتيقة، تخرجنا معًا في الجامعة،
ودخلنا معًا سلك القضاء. سنة ٢٠٠٤ وزع منشور عن علاقتها
بمسؤول كبير كنموذج للفساد الإداري والقضائي. هل رأيتها؟
الأدهى هو ما تسرّب بعد ذلك: صورة لها مع مسؤول كبير
تذكرة بصور الوزراء السκسية التي تسربت من كم سنة. هل
رأيتها؟

بدلاً من التحقيق والتسریع، طلب الوزير من المست حلا أن
 تستقيل. استقالت، وصارت محامية. لسوء حظي وحظها وقعت
 قضية لها بين يدي، قضية دسمة، مئات الملايين. والدعوى
 على بلدية صحنايا، أقامها ورثة لأرض أقامت البلدية عليها
 مشاريع. خسرت الأستاذة حلا الدعوى: وريث ميت، الخصومة
 غير مكتملة، التزوير، يا نمنوما: اطّلبي وتمني، خمسة مليون
 كوييس؟ ومن يومها لم تتبادل كلمة مرحبا. حضرتها كسبت
 القضيةأخيراً، وأرسلت لي مع صديقة مشتركة تهدد: رخ اخرب
 بيتك. عاملة شريفة ومعارضة؟

ماذا أفعل إذا كان حظ هؤلاء الناس من السماء؟ هذا عفو جديد كأنه مفصل للشريكين: جرائم التهريب ومخالفات البناء والفرار من الجيش.. مبروك يا فاخر باشا. والعفو عن الإخوان المسلمين: مبروك يا حاج عمار البرزنجي، ليس لأنهم منهم، فهذا ما قد لا يكون له به علم، ولا للمرشد العام، إذ الأمن وحده من يعلم. ولكن ما يؤكد هذه حنيف أن أباه قريب من الإخوان، على الأقل. وعلى أية حال لم أفكر جدياً بتهديد حلا ورداد حتى أسررت لي صديقة مشتركة أن التهديد قد يكون تحرشاً من الأمن بي عن طريقها. وإذا صح هذا فالأرجح أن يكون لأخي فاخر يد فيه.

صديقتنا أضافت أن التحرش إذا صح، فسببه أنك ناشطة يا نمنوما. أنا ناشطة؟ إذا كنت خرجت في مظاهرة أو شاركت في اعتصام، أصبح ناشطة؟

لا، لا أظن أن هذا هو السبب. نشاط ليлиيا واعتقالها سبب معقول. الصديقة المشتركة ألمحت إلى هذا أيضاً، وهي منهم وفيهم: القاضية تاج رفيعاً آغا، من دفعتنا أيضاً، وفي الدورة الماضية كانت في مجلس الشعب. أنا وهي نختلف كثيراً، لكن صداقتنا ظلت قوية، حتى لو كنا صرنا لا نلتقي إلا في المناسبات.

صباح: لا تقلق. مشتاقة شوفك، لكن..

* * *

يبدو أن المعركة بدأت، وليس أمامي إلا أمري. فاخر باشا لا يحسب حساباً لأحد إلا لها. أنا قادمة يا حمص، يا أم الحجار السود.

أخي يامن يزورني من وقت لآخر، ويتحاشى ذكر فاخر. يامن صار على خلاف دائم مع أسيمة كما أخبرتني، لكنه صار على اتفاق دائم مع زوجها. مرة أفلت لسانه منه وقال: أنا محاصر بين أسيمة في حمص وليليا هنا. سأله: وأنا؟ قال: نساء أسرتنا كلهن معارضات، ولكن أنت وحدك نمنوما. إذا صادف ليليا فهو يتعمد أن يتحدث عن نشاطه، وهي أيضاً تباريه. يامن، مثلاً، عضو في منتدى شباب دمشق التطوعي الذي أطلق منذ أيام حملة (إيد بـإيد وبكرة إلنا)، وطلب مني ومن ليليا أن نوقع على العريضة القماشية المنشورة على جسر الرئيس ضد التدخل الخارجي. ذهبا ووَقَّعنا. العريضة أطول من مئة متر، وسيقدمونها إلى المفوضة الأوروبية. وفي زيارة أخرى طلب من ليليا أن تذهب معه إلى ساحة الأمويين، لتكون بين الشباب القادمين من المحافظات، والذين سيقدمون للأركان الورود، لكنها لم تذهب بسبب الثياب: يجب



أن تلبس تيشرت أبيض مع بنطلون أسود مكسم، وقبعة بيضاء،
ويحذنك باقة ورد أبيض.

صباح: أحياناً أشعر أنني مريضة. أحياناً أشعر أن سرطان
الليل يقرضني على مهل. ألمي خفيف وأحياناً لذيد. سرطان
الليل يتلذذ أيضاً، يتلذذ دائماً. عندما أمل منه أستعيد من أجلي
ومن أجلك حكايات نهاري. وعندما يمل مني أحكي لنفسي
ولك حكايات بكرة.

أريد أن أغفو على وجهك، على صوتك، مشتاقة شوفك،
لكن...

* * *

بدأت أشعر أن ذاكرتي مثل طنجرة أفرغت من طبخات
بائتة، والآن تمتلىء من حمص لحظة بلحظة، نفساً نفساً، كأنها
عش دبابير يمتلىء دبوراً دبوراً.

لا شبيه لحمص عندي الآن إلا عش الدبابير.

أمي انهارت دفعة واحدة، وأسيمة تقول: هو السبب. كان
يأتي إليها كل يوم بعد المساء، ليسمم بدنها بما يلفق من
أخبارني. بعد قضيته هو والحاج عمار البرزنجي، والد أبو
حنيف، غطس في قضية أخطر. استغل القرار العجيب الذي
سمح لكل مواطن شراء عشرة آلاف دولار بالسعر الرسمي، وبدأ

يرسل عمال معمله وورشاته إلى البنك. خذ يا ابني: ألف لك، وألف تفتح بها حساباً في البنك، وهذه قيمة عشرة آلاف دولار لا تنس هوبيتك.

خلال أقل من شهر كان قد اشتري أكثر من مليوني دولار، ويبدو أن بعض العيون مفتوحة عليه عشرة على عشرة في هذه الأيام. بدأ التحقيق معه ومع عماله. منهم من اعترف ومنهم من أنكر.

أين الدولارات؟
بحـ.

كيف حولتها؟
كيف هربتها؟

تحقيق طويل عريض، لم تنفعه فيه علاقاته. وهو يحلف لأمي أني من بلّغ عنه وأوقعه في هذه المكيدة! أظن أن من كانوا سنده في الأمان وفي غيره تخروا عنه، أو بدأوا يتخلون. هل لأن أخطاءه وفضائحه تتکاثر وتتلاحق؟ أم تراه اختلف معهم؟ أسيمة تقول إنه كرر أمامها وأمام أمي مراراً أن سمعة أخيه المعارضة وينتها المعارضة ستخرب بيته. ملحم زوج أسيمة أسرّ لها بما أسرت لي: يقال إن رجال الأعمال المرموق فاخر ذكي على رأس مجموعة من رجال

الأعمال المرموقين، يتذمرون منذ فترة من الشركة السورية القابضة ومن شركة الشام القابضة، مع أن بينهم مساهمين في الشركتين. لماذا التذمر إذاً لأن الشركتين كأنما تسعين لأن تهيمنا على الاقتصاد السوري كله، فلا تفلت منها رخصة استيراد مثلاً، ولا تفلت منها قطعة أرض مثلاً، لافي قلب دمشق ولا في ريفها.

لم يقنعني هذا السبب. لكن ما أضافته أسيمة، نقاً عن ملحم، لم يقنعني فقط، بل أفحمني: فكرة العلم الكبير الذي غطى أوتوستراد المزة بطوله وعرضه جادت بها عقريبة رجل أعمال كبير جداً وقدير جداً جداً، لكنه جمع تكاليفه من رجال الأعمال: هات يا فاخر باشا، دفع فاخر باشا ما فيه النصيب، وهمس: لماذا لم يدفع صاحبنا من جيبيه؟ لازم يبيّض وجهه بقفاناً؟ وصل الكلام إلى صاحب الشأن، فحلّت غضبته على فاخر باشا، ومع أن من شمتوا به كثُر، لكن آخرين تهamsوا بشجاعته. وملحم نفسه هو من قال: فاخر باشا شجاع حقاً، ولو لا ذلك ما كان له أن يتجرأ فيفتح ملف المشغل الخليوي الثالث، متزعمًا كثيرين تخابوا خلفه في مواجهة احتكار شركة السيريتيل والـ إم تي إن للخلوي، وكذلك في مواجهة تراجع الحكومة عن طلب عروض للمشغل الثالث الذي

يسيل له لعب فاخر باشا وكل فاخر باشا في سورية. لكن ملحم أضاف أن فاخر باشا حرباء، وضرب مثلاً بالدور الذي انتزعه لنفسه في الحلم العقاري الحمصي: حلم إعادة تأهيل ما بين الساعة القديمة وال الساعة الجديدة، حلم استملاك منطقة البساتين، حلم البرجين السكنيين في منطقة الغاردينيا، وهذا الحلم هو الوحيد الذي أصاب فاخر باشا منه لحسه إصبع: شقة واحدة على الأقل، والشقة بـمليوني دولار. لكن ما كانت المحافظة تغزله مع شركة الديار القطرية استعصى على فاخر باشا، والآن فرحته بفرحتين، بعدما انقلب العرس السوري القطري إلى طلاق.

* * *

أسيمة كوافيرة خمس نجوم. زيوناتها من أكابر البلد، ويصدق عليها ما يقال عن الحلق: حكواتية، وصالونها تشبهه هي بالمقهى: حكايات وحكايات. من سنين لم نختل أنا وهي كما اختلينا هذه المرة بعد نوم أمي، كل ليلة. أسيمة وزوجها مقيمان عند أمي من سنين. أمي فوق الثمانين، لا يمكن تركها وحدها. فاخر باشا أتى لها بخادمة من إثيوبيا من قبل زواج أسيمة، ولكن لا هي رضيت بخروج أسيمة من البيت، ولا أسيمة رضيت.

زوجها ملحم عبد الجليل صحفي في جريدة أم الحجار
السود: جريدةعروبة. إلى تلبيسة إلى تلكلخ. الله يحميه.
ملحم موالة.

كأني منذ بدأت أوزع أيامي بين أمري وليليا، بين حمص
والشام، كأني بدأت أتعرف على ملحم من جديد، وعن قرب.
اكتشفت فيه حساسية مفرطة تجاه الطائفية. يوم قُتل العمال
العشرة عند تحويلة الشام، قرب المصفاة، بكى دمأ.رأيت عينيه
حمراوين لأن الدم يملأهما أو سيفجر منها. في الصباح
أخذني وأسيمة ويامن إلى مكان الجريمة الطائفية: هكذا
سمها، وهي بحق كما سمها. عشرة عمال في طريقهم من
بيروت إلى قراهم في الغاب، رشقات رصاص على السرفيس،
لماذا؟

سألني، ولم ينتظر جوابي، ولا أنا كنت قادرة على أن أجيب.
كانت بقع من الدم لا تزال تفجأ العين بببابها وسواها.
صوته أيضاً، مثل عينيه، بكى دمأ وهو يعدد: عميد اغتالوه مع
ولديه وابن أخيه، وهذا عقيد، وهذا رائد، ومن منهم السنى؟ من
منهم العلوي؟

حمص تنقسم يا نمنوما: قال في طريق العودة، بعدما
نزلت أسيمة قريباً من الصالون، في الدبلان، وبعدما نزل

يامن خلف مديرية الثقافة.

لولا أن حمص تنقسم تابع لما كان هذا اللقاء، بل هذا المؤتمر الذي عقده في الحولة وجهاه وعقلاء من تلدو ومريمين والقناقية وتليل والطيبة وغيرها من القرى السنية والعلوية والمرشدية، أكثر من ٣٠٠ اجتمعوا تحت شعار (لا للطائفية نعم للوحدة الوطنية).

حيّا ملحم، وحيثت مثله اتفاق المؤتمرين على لعن الفتنة ومن يشعلاها، وعلى مواجهتها. ولا هو صدق، ولا أنا صدقت أننا وصلنا بهذه السرعة إلى مؤتمر طائفي. فكرت أن الثورة لم تكمل شهرا الخامس، لكن دماء غزيرة سالت، وخفت من أن تكون سوريا كلها تنقسم هذا الانقسام القاتل، وليس حمص وحدها.

من قال: حمص هي سوريا المصغّرة؟

قلت: الطائفية يا ملحم لم يخترعها هذا النظام، لكنها كانت نائمة فأيقظها. كانت شبه ميتة فأحيتها.

هز ملحم رأسه ممتعضاً، فتابعت: لا حل إلا برحيله.

سألني كمن بوغت: من هو؟

النظام: قلت.

قال: كنتم تتحدثون عن الإصلاح، الآن ما عاد يرضيكم

إلا رحيل النظام؟ صرتم تتحدثون عن ثورة، وصرتم تهتفون
بسقوط النظام!

من نحن: سألت؟

المعارضون، أنتم: أجاب.

قلت: بلا نحن وأنتم. خلنا بآنا وأنت. النظام لا يريد من
الإصلاح إلا ما يوئده. بالله عليك: ألا يكفي نصف قرن؟ هل
يحتاج الإصلاح إلى كل هذا الدم وإلى كل هذا الوقت؟
اسألي نفسك، اسألـي المعارضة: قال بانفعال.
المعارضة سلمية يا ملحم: قلت.

قال:

من يقتل الجنود ورجال الأمن إذا؟ إياك أن تكوني صدقت
أن هؤلاء الشهداء من الجيش والشرطة والأمن، يرفضون إطلاق
النار على المتظاهرين، فيقتلونهم.

قلت:

ليس هذا مستحيلاً، لا أستطيع أن أؤكد ولا أن أنفي، وعلى
كل حال، هؤلاء شهداء بالنسبة لي. كل قطرة دم لأي إنسان
قدسـة، فكيف بقطرة دم سورية؟

قال مغالباً انفعالـه:

ولكن من المعارضة من يقتل، بل منهم من يقتل طائفـياً.

للأسف، هذا صحيح: قلت. وطلبت منه فجأة أن يوصلني إلى كنيسة أم الزنار، ويتركتني هناك، فبهرت.

* * *

حبيبي صباح: وبين الطائفية؟

الله يلعن أبو اللي اخترع الطائفية ليلحق أبو اللي اخترع المذهبية. كله كذبة يا حبيبي. كذبة من كذباتنا الكبيرة، حبيبي والخطرة، بس كذبة. آمين.

وها أنا قد رجعت للإعدادية وللثانوية. يا ما وياما قصدتك يا أم الزنار، كنا صغيرات وصرنا صبايا، مسلمات ومسيحيات، سنينات وعلويات. كنا نقصدك ونصلب وننسد بركتك. ياما وياما حلمت بزنار العدرا ومرمت وجهي بصوفه الأبيض المطرز بالذهب. ومع أمي وخالاتي وأخواتي ياما وياما زرنا سيدى خالد، وزرنا مقام عبد الرحمن بن جعفر الطيار ومقام أبو ذر ومقام سعد بن أبي وقاص، وها أنا أتنحّت على أبي وزواره وهم يتحاورون ويضحكون، وما لـن أنساه يوم ضبطتني أمي وعاقبتني بفركة أذن، آخ. وما لـن أنساه ما كان والدي يقوله: سيدنا علي كرم الله وجهه خاطب أحدهم نسيت اسمه في صفين: اكفي أهل حمص، فإني لم ألق من أحد ما لقيت منهم. أكثر الناس بلاءً مع معاوية. همهم

الحاضرون بما لم أفهمه، وبينما راحوا يستغفرون همست
أمي: شو عم تعملي هون؟

في يوم آخر ظهراً سرقت حالي من البيت، إلى أين؟ إلى
السوق المقبني: منذ متى لم تتمسح نظراتي بهذه الأبواب
الخشبية العتيقة على الجانبين، أو بهذه النوافذ السحرية في
السقف، بهذا السقف، بهذه الأرضية! أنا فعلاً صرت غريبة عن
حمص. مشيت في عزّ الشمس اللاهبة، تمنيت أن أعرف أي وجه
من هذه الوجوه، مستحيل، وحدة موحشة، لكنني كنت بحاجة
إليها، ولم أقف إلا أسفل القلعة.

في يوم آخر صرت لا تراني إلا على أوتوستراد حمص
دمشق، ذهاب إياك ارتج البيت بخبر استشهاد ابن خالي
برهان، أين يا ملحم؟ في معركة على الحاجز في دوار جورة
العرابيس، بابا عمرو. أين يا يامن؟ أمام قيادة الموقع، نزع
برهان قميصه وراح يلوّح به للقناص على سطح الموقع، ثم
راح يهتف ومن حوله يردون: يا قناص يا قناص، هذا راس
هات رصاص. صدق القناص، الله يرحمك يا ابن خالي.
برهان هو الأخ الأكبر لابن خالي فرحان الذي استشهد في
اعتصام ساحة الساعة.

الشهداء يا صباح حكايات أدمي. يوم جمعة آزادي، جمعة

الحرية، خرج ١٣ تابوتاً من المسجد الكبير إلى مقبرة تل النصر. أبي رحمة الله مدفون فيها. أثناء التشيع سقط خمسة. من المشفى العسكري خرج يوم الجمعة سقوط الشرعية ١١ تابوتاً، شهداء من الشرطة ومن الجيش، واحد منهم ملازم أول، وهو صهر ملحم، وحضرت التشيع مشاركة له. موسيقاً الجيش عزفت لحن الشهيد ولحن الوداع. والله بكيت، وأسيمة بكت. من لم يبك وسط الزغاريد ورش الرز على التوابيت؟

آه يا صباح!

هذا هو سلطان الليل الذي صار يبكر في قرضي، وما عاد يقرضني على مهل. ما عاد لذيندأ، وما عاد لي عليه صبر.

آه يا صباح!

مشتاقة شوفك، لكن..

من مرويات صباح خليل

هيأت لكِ مطراً، لو كان على اليابسة لقليل إنّه غرفة أو كوخ أو خيمة أو.. لكنه في البحر، في عمق البحر، حتى ليتمكن أن تقولي إنّه مقابل رأس ابن هاني، أو مقابل المرفأ، أو مقابل الرمل الفلسطيني، بل يمكن أن تقولي إنّه مقابل جبلة، وكل ذلك في آنٍ معاً.

مطرح عابر هو في هذا البحر، كل لحظاتنا فيه عابرة، سريرنا فيه من قطيفة، وغطاوتنا من وبر ناعم مذهب. لنا زورق يحوم حول المطرح، يقترب ويبعد، يختفي ويظهر، ونحن بلا دليل ولا زاد. ربما تكون عاريين في هذا الفضاء الزائف، وليس في لغتنا أمس ولا غد.

* * *

لكن ذلك ليس غير كلام ليل تتهيأ به إلى النهار الذي سيحملك وأبو نوزات وبهنان إلى بانياس، حيث طال انتظار خيمة العزاء بهذا الذي أصابته رصاصة في سوق الهال، وثبتت عليه سبع طعنات من ثلاثة سكاكيين بثلاث أيدٍ أمام السوبر ماركت التي افتحتها أخوك محرم بعد عودته من ليبيا، أو في أي مكان من القبيات أو بطرايا أو القصور أو أي حي تشاء من

أحياء بانياس: علوي أو سني أو مسيحي أو بين بين، حيث لم تكتف الرصاصية، ولا السكاكيين بما أنجزت، فاستعانت بالشنتيانة لتشطب خداً وتهتك بطناً وتخرّ عنقاً، وقيل: ثم تقطع ذكرًا!

الآن بوسعكم أن تتفضلاوا إلى العزاء: يهتف بك صوتُ ذبيح.
والهتفة تخترق البحر من بانياس إلى اللاذقية، فتلتاق بها أنت وبهنان وأبو نوزات، ليس لأن الشهيد هو شقيق زليخة وزليخة هي زوجة شقيقك محرم العائد من ليبيا غانماً فقط بشام البحر التي ولدت في البحر بل لأن جعير الطائفية طغا على صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد الذي لا يفتأ يتلو قصة سيدنا يوسف ملء خيمة العزاء. ولذلك تركت بهنان يتذكر بصمت أنه مسيحي، ويستعيد همس محرم في وداعكم: بيك آب دوبل كابين مع جيب تويوتا برادو، أكثر من عشرة، رصاص عشوائي على السيارات وعلى النوافذ المضاءة في ضهر صفرا والروضة وغيرها من القرى المسيحية. الحمد لله أن الوقت كان قد تأخر، نحو منتصف الليل، والناس في البيوت، والإل كانت مجررة مثل مجررة البيضا. وأن الساعة كانت لا تزال الواحدة بعد الظهر، وأن جراح البيضا تصرّ على أن تبقى فاغرة، قلت لبهنان وأبو نوزات: الحقوني.

التراب الذي كان سخياً بدا كأنه أعجم، ربما لأن هذا الصيف ثقيل: قال أبو نوزات، وربما لأن التراب ما زال حزيناً، فكرت، وربما لأن أهله نسوه كما نسوا أنفسهم: قال بهنان. وهذه هي البيوت، مثلها مثل التراب، عجراء الآن، وقد كانت سخية وعميقة، لا عريشة، لا توتة، لا دجاجة، لا شتلة بندورة، لا جب يقطين، لا عصفور دوري، لا زوج حمام، لا بقرة، لا حمار، لا حمار يا صباح، ما زال كل شيء كما كان، جاماً، أبله، فاغراً، ذاهلاً، مصدقاً ومكذباً. ما زال الدم طرياً، كأن لا أثر عليه لشمس أو لغبار، ولا مطر أو ذباب. وباختصار لم يتبدل شيء، إلا أنه لم يعد ثمة أبوساط ولا أصوات ولا بنادق ولا موبایل ولا كاميرا ولا رقصات على الأجساد.

بصمت غادروا البيضا، وظلوا صامتين حتى أطلوا على البحر الذي ازداد قريراً، كأنه عازم على أن يغسل كدراً ويلحس جراحًا.

* * *

في جبلة انفصل صباح عن بهنان وأبو نوزات، وأسرع إلى المطرح الذي هيأ لنمنوما في البحر، لكن البحر كان قد ضيع المطرح.

أثقلت الخيبة على صباح، فغطس غطسة هائلة كادت أن

ترطمہ بقاع البحر، وثمة رأى ما رأى: نمنوما مشبوحة بين
حمص والشام، وأنت مشبوح بين اللاذقية وجبلة. نمنوما:
لكن وقعة أمي أوجع. أمي شلتها جلطة دماغية. أنت بلواك بأخ
واحد، وأنا، من إخوتي ليست بلوادي؟

دعى البحر إذاً يبحث عن المطرح الذي ضيعه، بينما أحكي
لـك هذه الحكاية:

* * *

جميل هو الأخ الذي أنكرناه جميعاً، حتى أبي نسيه إلى أن
حضره الموت، فحشرج: نادوا لي جميل. حتى أمي نسيته إلى
أن شلتها الجلطة، فحشرجت عيناهما، فكلّمه أخي وليد، ورأيته
وجهه لأول مرة منذ سنين وسنين.

رفض جميل المدرسة ورفضته منذ الصف الأول الابتدائي.
صبر وصبرت، وقاومت وقاومت، فصبر أبي على جميل وصبر
جميل عليه حتى صار يطلق ذقنه. عندئذ احتفى طويلاً حتى
اكتشف أبي أنه في البحر، حمال على قارب أروادي ينتقل بين
طرطوس وقبرص، وأحياناً يصل إلى الإسكندرية.

صبر جميل على البحر وصبر البحر عليه حتى الثانية
والعشرين، ليظهر علينا فجأة، ولكن لأسابيع، احتفى بعدها
حتى اكتشف أبي أنه تطوع في سرايا الدفاع.

لا أحد منا يعلم كيف ترك جميل سرايا الدفاع، أو كيف طُرد منها، ليظهر بيننا أسبابه، ثم يختفي شهوراً ذاع صيته بعدها: هو صاحب الصولة والجولة في مرفأ التهريب الذي أقامه قريباً منا شيخ المهربيين والشبيحة في الساحل، وواحد من شيوخهم في سوريا.

هنيئاً يا صباح بهذا النسب العريق. هنا كنت أول من أنكره من إخوتي، كما كنت أول من أنكرني منهم. حتى عندما أصيب في معركة مع الجمارك لم أزره.

ومن هذه المعركة ورث العرج. وسمعنا بعد سنوات أنه استقل عن سيده، وصار يهرب ويسبح لصالحه. هل كان يدفع لسيده ولأمثال سيده إتاوة حتى غضوا النظر عنه، أو سكتوا عن استقلاله؟ هل وجد سيداً أقوى؟ هل صار مستقلاً بفضل جنونه الذي يسمى شجاعةً أسطورية؟

مهما يكن فقد صار مالكاً لقاربين على الأقل، ولبنياء، فبنياء، فقوارب، فبنييات، إلى أن اعتقل بالجريمة الأكبر: تهريب مخدرات.

هنيئاً يا صباح بهذا النسب العريق. في مطلع السنة اعتقل كما علمنا بعدهما أفرج عنه، لماذا؟ لأن الدم سال في جبلة، وأنه أرسل إلى المحافظ أو من هو

أدنى منه أو من هو أعلى: أنا كفيل بالمتظاهرين.
أخوك بطل يا صباح.

وزع رجل الأعمال والمحسن الكبير جميل خليل خمسماية
ظرف قيل ألف، وقيل أقل، وقيل أكثر وفي كل ظرف خمسة آلاف
ليرة. شملت نعمة جميل متظاهرين، وشملت من لم يتظاهروا
البترة، وبخاصة بين البحارة والصيادين. صار جميل يصلّي
مع المحافظ في جامع أبي بكر الصديق. صار جميل نجماً ولا
كالنجوم. ولأن المظاهرات لم تتوقف، بل تضاعفت، وربما
لأنه كان لا يزال مطلوباً بقضية مخدرات، فقد اختفى جميل
في ليلة ليس فيها ضوء.

* * *

نمنوما: حكاية جميل مثل حكاية فاخر باشا: بلا بداية
ولا نهاية. وتحريض فاخر باشا للأمن عليك جزء هين من
الحكاية. أما تحرش الأمن بك مقنعاً بحلا وزاد أو بأي قناع،
 فهو جزء هين من حكاية أخرى. والحكايتان متشابكتان، نعم،
مثل كل حكاياتنا. أنت أدرى بما فعل الأمن في القضاء منذ
نصف قرن، بل منذ أول انقلاب عسكري حتى هذا اليوم الذي
حلّ فيه الأمن محل القضاء، كما يقول محام صديق. قبلك كنت
أصدقه مئة في المئة.

دعينا من ذلك الآن، وتعالى إلى هذه الحكاية، ريثما يعثر
البحر على ما ضيّع لنا ومنا، إنها حكاية أخي وليد الذي تعيش
أمي في بيته، فهو الآخر مفخرة لي.

لوليد محلات ومستودعات، لا أعرف عددها، ولكن أهمها
وأكبرها يدير ظهره لملجاً المدينة، وحول الملجاً ما تبقى
من البستان الذي أقيم فيه. ولأن السباق بين التعديات على
الوجائب بين البناءيات، وعلى الأرصفة، وعلى الساحات
والشوارع، قد بدأ، وأن العين الساهرة على المدينة مشغولة
بتفريق المتظاهرين، وربما لأنها تعمدت إشغال الناس
بالسباق الكبير، لكل ذلك هدم أخي أقفية مستودعاته ومحلاته،
و قضى من حرم الملجاً بقدر طولها وعرضها، بلا زيادة ولا
نقصان، فجرى جيرانه على صراطه. وربما كانوا سيتوزعون
الملجاً أيضاً، لو لأن تنبه إليهم محام صديق، سوف أجمعك به
في زيارتك القادمة لي.

من الحارس إلى البلدية إلى الدفاع المدني، جلجل صوت
المحامي: سأرفع دعوى جزائية عليكم وعلى المحافظ وعلى
وزير الدفاع نفسه، وسأخذ حكماً معجل النفاذ، إذا لم توقفوا
هذه التعديات على الملجاً.

وقفت التعديات، وغضب أخي وليد، ونالني من غضبه

نصيب، فالمحامي معارض مثلك، والمحامي من أصدقائك،
وخربيتم بيتي، خربتم بيوت الناس.
هنيئاً يا صباح بهذا النسب العريق.

وليد نفسه روى لي أنه كان يصلّي العشاء في جامع أبي
بكر الصديق، عندما وقع أول صدام بين الأمن وبين الفتيان
والشباب الذين خرّجوا من الصلاة، وفوجئوا بالأمن يحاصر
الجامع: شو فيه؟ ليش محاصرينا؟ صاح شاب فاعتقلوه،
وتعالّت الهتافات، وحاول وليد مع من حاولوا تهدئة الأمن
وتهدئة الشباب، إلى أن انقضت على خير.

وليد نفسه روى لي ليلة إصابة أمي أن صديقاً له من
العلويين جاءه محذراً: أخي في الأمن حدثني: القناصة فوق
كل بناء عالي في الدربيّة وفي العزة. إذا كانت لك دالة يا
وليد على الشباب، أوصهم بأن يتبعوها للقناصة. وحلف وليد
برحمة الوالد أنه بلّغ الشباب بالتحذير.

أين هي الطائفية إذاً يا نمنوما؟

* * *

سأعود إلى السؤال، ولكن بعد أن أقول لك إنني رأيت في
الجمعة التالية مسلحين على سطح السرايا. يومها وصلوا
المتظاهرون إلى السرايا. ويروي وليد أن المتظاهرين وصلوا

قبل ذلك إلى حي العمارة، فأطلق الرصاص من نوافذ إحدى البناءات، ومن شرفات بناية أخرى، والحمد لله، لم يسقط غير الجرحى.

ويروي وليد أن مدير المنطقة يصلي مع المصلين في الجامع، ويوصي الشباب: ابقوا ضمن الجامع، واهتفوا كما تشاءون. والرجل مثل رئيس مفرزة الأمن، يخففان التوتر، وهو ما من السنة. أين هي الطائفية إذاً يا نمنوما؟

سأعود إلى السؤال، ولكن بعد أن أحدثك عن سما بنت أخي وليد التي تحتال وأحتال كي نختلي، لتحدثني عما فعلت من خلوة إلى خلوة: تصلي في الجامع مع من يصلين، تخرج في المظاهرات مع من يخرجن، زميلتها التي كتبت الشعارات بنفسها على جدران في الفيض، اعتقلت تسعة أيام، وبعد خروجها مشوهه هربتها أسرتها إلى أنطاكية. وروت سما التي ذهبت في السنة الماضية إلى طوكيو لتفوقها في الأولمبياد العلمي، أن عدداً من شباب وبنات القرى العلوية القريبة شاركوا في المظاهرات قبل معركة جبلة. أين هي الطائفية إذاً يا حبيبتي؟

سأعود إلى السؤال، ولكن بعد أن أحدثك عن هذه المعركة التي سقط فيها ثلاثة عشر شهيداً. يومها كما روى وليد، كان المحافظ قد حضر إلى الجامع، وسأل الشباب: شو بدكن؟ قالوا

إسقاط النظام، قال: طيب، حاضر، وخرج، ليدخل الجيش.
وروت سما أن من الشباب من يبيث لليزيرة مباشر من
على سطح الحمام، قرب جامع المنصوري. وما أدرك يا
سما؟ سألت، فصمتت. قلت: سواء كنت من الشباب والصبايا
الناشطين والناشطات أم لا، فإياك أن تتحدى أمام أحد بمثل
هذه الأسنان، لا أمامي ولا أمام غيري، فبكت.

أظن أنه لم يكن قد مضى بعد ذلك ثلاثة أيام، حتى نقل أحد
عيون الأمان من زيائن وليد يسمونهم هنا: العواينية أن ابنته
تخرج في المظاهرات، وتهتف بـإسقاط النظام: يا غضب الله!
روت زوجة أخي أن حنجرة أمي كانت قد بدأت تصدر
أصواتاً حادة وخافتة مثل قطة وليدة أو جريحة. لكن ضربَ
وليد لسما ويقاء سما واستغاثة أمها، جعل حنجرة أمي تنفجر
بأصوات كلبة جريحة أو كلبة تضع جراءها، فهرعوا إليها،
وتحلقوا حولها وطأطأوا كأنهم يستغفرونها، ولم تخرج سما
من بعد في مظاهرة.

أما المحامي الذي سأعرفك عليه في زيارتك القادمة، فقد
صادفته مرة على الكورنيش الساحر الذي كان شبه خالٍ في
ذلك المساء، على العكس منه قبل أن بات الناس يأowون إلى
منازلهم مبكرين.

كان بهنان قد رافقني يومئذ إلى جبلة ليعود أمي لأول مرة بعد شللها. ولم أكن أعلم أن بهنان والمحامي صديقان. سرنا معاً من أمام مقهى الزوزو حتى الميناء. وروى المحامي أنه مع مجموعة من جمعية العاديات اتفقوا على أن يحاول كل منهم أن يحضر خمسة من أصدقائه أو جيرانه أو أقربائه، لينطلقوا من مقهى البحر غداً ظهراً، بصمت، إلى العمارة والجببيات والدريبة والعزة والفيض، أي إلى جميع الأحياء السنينة والعلوية. واتفقوا على أن يحملوا فقط اللافتات التي تدعوا إلى الوحدة الوطنية، وعلى أن يشكلوا لجاناً مشتركة من الأحياء جميعاً، لتقوم بواجب العزاء وزيارة الجرحى. وفي المساء ذهب بعضهم إلى مدير المنطقة ليعلمه بالاتفاق، فأخبرهم أن الأمن قد وضع يده على المدينة ابتداءً من اليوم، وأي تجمع وبالتالي ممنوع.

أثناء عودتنا من الميناء روى لنا المحامي أن الأمن داهم المصيغة في المنصوري، وكسر ما فيها، لماذا؟ لأن العواينية نقلوا للأمن: هون عم يصير ذبح شباب، وعم يصير تذوبب المذبح بالأسيد.

كنا قد اقتربنا من مقهى الزوزو، وإذا بزعيف وصرير سيارات تنلجم أمام المقهى، وشبان يندفعون منها فيمزقون

الخيمة المطلة على الكورنيش وعلى البحر بالشتويات.
انتقلنا إلى الرصيف المقابل للكورنيش، ووقفنا نرقب رجم
المقهى بالحجارة وبالشتائم. وفي المساء جادت الشاشة
بنبأها العاجل: ضبط أسلحة في... أما في الصباح، فأول من
قابلتهم من زملائي في الجامعة، بادرني قبل صبح الخير:
سمعت شو صاير بجلة؟

أنكرت، فقال متسامحاً: ضبطنا مقر الإمارة السلفية في
مقهى الزوزو. قلت: لكنكم تحدثتم من فترة قصيرة عن إمارة
سلفية في بانياس، فاحتدم: كأنك تكذبني؟ أعود بالله: أنكرت
وتركته يبربر، ولعنت هذه الصباحية.

زيارتني التالية لأمي تأخرت حتى صباح السبت. بكرت
لأنني استيقظت على صوت الرصاص، ولم أستطع بعدها العودة
إلى النوم. قالت سما: اليوم يا عمي فيه تشيع لشاب ابن ١٥
سنة في الرميلة، قنصله قناص البارحة على الكورنيش. جاءت
الرصاصية في عينه اليمنى. أنا وعد من زميلاتي سنخرج في
الجنازة. قلت لها: وأنا أيضاً.

دفنوه قريباً جداً من البحر. ملأني اليقين بأن البحر
سيتسلل إلى القبر في الليل، وسيأخذه إليه. في قاع البحر قبور
تليق بمثل هذا الشاب. أنا رأيت عدداً من هذه القبور تنتظر من

يملاها. اشتاهيت أن يكون لي واحد منها. كأن القبر منها قطعة من الجنة. هل القبور حصة جهنم وحدها؟ أليس في الجنة قبور؟ ما رأيك في أن نبادر البحر بما ضيّع لنا: هات قبراً، لا فراق بيننا بعده؟

حالة أمي ميوس منها. لن يعود لها النطق، ولن تستطيع السير: جزم الأطباء. الآن صرت أكتفي بزيارتها مرة في الأسبوع، وألوم نفسي برفق على التقصير.

* * *

منذ فترة أشعر أن كل ما في المدينة يسبقني. ولم أنتبه إلى ذلك إلا عندما قرأت منشوراً يدعونا إلى التجمع في ذكرى رحيل الرئيس حافظ الأسد في مدینته: القداحنة. لماذا اعترانى هذا الشعور يومها؟ لا أعرف، لكنه قوى عندما استمعت إلى تحذير وزارة الداخلية من الاستجابة لهذه الدعوة.

بالتوازي مع الدعوة والتحذير، هتف لي الدكتور رافت عسلية هل تذكرينه؟ يحضرني من شراء اللبن والطحالات في هذه الفترة. لماذا يا صديقي؟ لأن دوريات التموين ضبطت أكثر من مئة كيلو من اللبن المخلوطة بالنشاء، وأكثر من ستين كيلو مخلوطة بالزيت النباتي.
والطحالات يا دكتور رافت؟

في شارع ٨ آذار ضبط موظفو التموين في المطعم الذي على آخر النزلة سندويشة الطحال الملوث، جراثيم يا صباح، صباح لا يحب هذه الأكلة يا دكتور رافت.

أما آخر ما بلغته متأخراً فهو هذا العلم الأسطوري، العلم العملاق الذي امتد على الأوتوستراد ستة عشر كيلو متراً. كانت الشام تتباهى بعلم أوتوستراد المزة، لا، هذا علم اللاذقية الذي بدأت فكرته، كما حدثني أخيراً دمر بن بهنان، عندما رفع طلاب في الجامعة العلم المذيل بتواقيعهم.

من هو صاحب الفكرة يا دمر؟

عقبري يا أستاذ صباح، لا أعرفه.

ومن قام بهذا الإنجاز الضخم؟

مشاغل الخياطة هنا في حي الغريبة، في حارتنا يا أستاذ: قال دمر متباهياً، وروى لي كان بهنان يصفي بأنه يسمع الحكاية لأول مرة أن الموافقة على فكرة العلم تأخرت، وأن العمل تواصل ٤٢ / ٢٤، ولم تشارك في النفحات جهات رسمية ولا اقتصادية. كله تبرع يا أستاذ بعد ما نُشر الخبر على الفيسبوك. شبكة أخبار الساحل تولت الحملة. وهنا شرح بهنان أن دمر كان في واحدة من اللجان الشعبية التي مدت العلم أكثر من ألف لجنة: أضاف دمر، فسألت بهنان: ما قصة هذه

الأعلام العملاقة؟ وسألته: هل صحيح أن فكرة سواري الأعلام
العالية والموحدة التي انتشرت في مداخل المدن وساحاتها،
فكرة مستوردة من الصديقة اللدودة تركيا؟ ثم سألته عن
رأيه في الحملة على العلم القديم الذي ترفعه المظاهرات: لماذا
يسموه علم الانتداب وعلم الانفصال؟ أليس علم الاستقلال؟
أليس هو العلم الذي ننشد له في (حمة الديار):

رفيف الأماني وخفق الفؤاد

على علم ضم شمل البلاد

أما فيه من كل عين سواد

ومن دم كل شهيد مدار

عندئذ قاطعني دمر بانفعال: أستاذ أنت مع أي علم؟ نظرت
إلى بهنان فأشار إلى شامتاً وأمراً بالجواب. قلت: يا دمر أنا مع
العلم الذي حملته أنت ستة عشر كيلو متراً، فابتھج، فأضفت:
وأنا أقدس العلم السابق، هذا تاريخنا يا دمر، وليس علم
الانتداب، ولا علم الانفصال، فسكت على مضمض غير خافٍ.

* * *

الآن أعود إلى سؤالي المكرر الذي يستبطن نفي الطائفية،
وهذا ما لا أقصده.

قد تكون حساسيتي من الطائفية مَرضية، مثل صهرك

ملحم. ولعل السؤال إذاً ليس غير ردة فعل على الفحيخ الطائفي الذي تفھم قنوات فضائية، ويفھم شیوخ وساسة باسم الإسلام، كما يفھم يساريون متقاعدون أو منقلبون أو عميان، فما الذي يجنيه الحراك من كل ذلك؟ ما الذي تجنيه الانتفاضة؟ ما الذي تجنيه الثورة إلا الانحراف والتعويق عن الهدف الأساس؟

أبونوزات يرد على كل مرة: ألا ينفع النظام بنار الطائفية؟ ثم يضرب الأمثلة، ويختتم هادراً: النظام لا ينفع في نار الطائفية فقط، بل وفي نار المذهبية والعشائرية والجهوية والقومية والعائلية، وزد ما تشاء، ولكن من أجل أن يحرقك، من أجل أن يتآبد على صدرك.

وبما أننا الآن، أنت وأنا، وحدنا في هذا البحر الضائع، ننتظر ما ضيّع منا ولنا، فإنني أعترف بقلق سؤالي المكرر وما يستبطن من النفي. أعرف بغموض السؤال. ولئن كان يكفيوني منه أن يబبل من يبالغ بالطائفية، أو أن يصدمن من صارت الطائفية خطابه المهيمن، فإن أخشى ما أخشاه أن أكون وحدي حسیر النظر.

نمنوما: تعلمین أن الحكايات لا تنتهي. لماذا لا تنتظريني إذاً في واحدة منها، ريثما أهيء لك مطرحًا جديداً في عمق البحر الذي يبحث عبثاً عما ضيّع، لأن المطرح الأول ضاع في

واحدة من حكايات بانياس، وأمعن في الضياع في واحدة من حكايات جبلة أو اللاذقية. ما أخشاه هو أن يحاصرنا هذا الصيف في المطرح الجديد. ألا ترين كم هو صيف مثقل بالدم؟ كم هو صيف أصفر، وإن يكن ما زال فيه من الأخضر كثير؟ نمنوما: إذا كان البحر قد ضيق المطرح الأول، فإنني خائفة من ألا يكون لنا مطرح جديد، عندئذ لن يقرضك وحدك سرطان الليل وحده. عندئذ سيقرضنا معاً سرطان الليل والنهار.

سّمّور الليل والنّهار

هذه عتمة من القار، من الفحم، من أي سواد لزج وثقيل
ومُضْمَّنٌ: فكر راتب وهو يتسلل من البيت العتيق بالأحرى: من
أطلال البيت العتيق إلى الدغل الذي كان يتخفي فيه نهاراً،
ويتحاشاه ليلاً.

كان الطفل الذي يرفل في الخامسة أو السابعة أو العاشرة
يowاد أحلامه في الدغل، ويتقلب على البساط المغزول من
أوراق الأشجار والشجيرات، متنعماً بالطراوة، ومتناولاً من
منتصف حلم إلى نهاية آخر إلى بداية ثالث، لا يصبر على حلم
من البداية إلى النهاية، يقرب بين أجنفانه لينام النوم الغزلاني
الذي تصف به أمّه نوم أبيه وتضحك، فيضحك الأب الجهم
ويغمز، فتتلافت الأم حولها، وتحضن من يكون قريباً منها:
راتب أو راغب. أما إن كان راتب يتلخص لا يهم أين يكون
راغب فيتقدم الأب إلى غرفته، وتلحق به الأم، وترتج الباب:
لماذا أيها اللص الصغير؟

كان راتب يسرع بالسؤال إلى الدغل، وثمة ينساه. وقد
ينسى ما تغزل أجنفانه من حلم، فيطبقها، كما يوقف أنفاسه،
كي يصغي إلى جوقة العصافير التي تهدده بصوت أمّه عندما

توسّده فخذأً، وتوسّد راغب فخذأً، بعد أن تنتهي الحكايات كل ليلة.

حتى في أوباته المتباعدة إلى جسر الشغور بعدما رحل الأب بأسرته إلى حلب، لم يكن راتب يقترب من الدغل ليلاً، كما يفعل الآن، فتجفله العصافير التي تجفلها خبطات قدميه فوق التراب المسربيل بالحصى والعيдан والورق اليابس.

في الصباح كان قد ودع بنان والعاصي متكتلاً الابتسامة. وحين انزج في السرفيس المسافر إلى جسر الشغور، ودع حماة متكتلاً الابتسامة أيضاً. ولم تك جسر الشغور تتلامح حتى أرجفه الشعور بأنه قادم من مجهول، بل من ظلام، ليس فيه بنان، وليس فيه هذا الذي بدأت أسنانه تنبت، وكله لأبيه، ليس لأمه فيه شبه: العاصي. وعبر النهار تمكن منه ذلك الشعور الذي خلف له طعم الحموضة، بينما رأى نفسه مشبوحاً بين الغربة وبين الانتماء إلى هؤلاء الشباب الذين يتوزعون بين جوانب المدينة الصغيرة المتوفزة، وفيهم أنت يا سريع يا ابن عمي، وأنتم يا أبناء عمتي وأبناء خالي، وأنت يا تميم يا ابن جارنا سائق الشاحنة السكانية التي لا تزال ترابط خلف البيت العتيق، كما كانت ترابط قبل ثلاثين سنة.

مع من عرف ومن لم يعرف من الشباب خطط على جدران

شعبة الحزب ومدرسة البناء والفرن الآلي: لا إمارة ولا إخوان.
وكان غيرهم قد خطط على الواجهات المطلة على الساحة: لا
سلفية في جسر الشغور بل ثورة شعبية، وكان غيرهم قد خطط
على جدران البريد ومستودع الجيش الشعبي: لا بعثية ولا
سلفية، الشعب بده الحرية.

وعندما أعلن كل من كان من البعثيين استقالتهم من
الحزب أمام من احتشدوا في الساحة، رغط راتب فرحاً، كأنه
العاشي في رغطه كلما ارتمى في حضن بنان هرباً من لحية
الأب اللائب عليه.

في الطريق من الساحة إلى البيت العتيق، فكر راتب فيما
جعل رجال الأمن والشرطة يصبرون على ما تدافعت به هذه
الجمعة: آزادي، الحرية. ولما بلغ البيت العتيق اكتشف أنه
 جاء بيدين فارغتين، وأن معدته فارغة. وسرعان ما اكتشف
 أن البيت فارغ أيضاً. ولعله لذلك تسلل إلى الدغل، وقلب الليل
 نهاراً، والرجل طفلاً، يتقلب على ما ينبغي أن يكون بساطاً
 مغزولاً من أوراق الأشجار والشجيرات، فإذا به حصى وعيadan
 وورق يابس يسريلها التراب القاسي المدبب.

عندئذٍ حاول أن يهرب إلى حلم: بدايته أو نهايته أو أية
 نتفة منه. ولأنه لم يلق إلا الفراغ، خاف، وارتجمت ذقنه كأنها

موشكة على البكاء. وإذا بسمارة تترفع لصق رأسه، تبتسم ليذوب سكر النبات، ثم توسيده فخذها، وتروح أصابعها تمسح على جبينه ولحيته وشفتيه. وأخذت تهدده كأنها جوقة عصافير، ثم أخذت تحكي له حكاية فحكاية، كأنها أمه تطوي فوقه ليلة فليلة، وتترك له النهار، يلتقي فيه بالشباب، يهتف إلى بنان، يأكل سندويشة سودا من أي من العربات المترافقية قبيل النهر، يحمل إلى البيت العتيق في المساء كيساً مما يملأه به أحد الدكاكيين، يهتف إلى أخيه راغب الذي عاجله بالسؤال: ماذا تفعل عندك يا راتب؟

عندما تحضر سترى: أجاب راتب، ثم أسرع بالسؤال: وأنت، ماذا تفعل عندك؟

قال راغب إنه في البيت، يتفرج على التلفزيون: الشباب يتوزعون صفوفاً متباعدة وطويلة، أذرعهم متشابكة، وهم يتمايلون ويغفون،

كأنهم في عرس، وليس في مظاهرة. وقال راغب: إدلب شلّها الإضراب حداداً على من استشهدوا الجمعة والسبت. سأحضر غداً أو بعد غد. وانتظر راتب حتى حضر راغب عصر الخميس: صار لراغب كرش وخمس بنات لم يأت الذكر المنتظر بعد وشاربان فاحمأن بفعل الصبغة. بل صارت لراغب سيارة

حكومية تليق بعميد كلية من جامعة حلب، أقيمت في إدلب.

قال راتب:

السيارة الحكومية في جسر الشغور في هذه الأيام شبهة يا أخي. ومنصبك الذي لا يملأ إلا ذلاء مضمون، شبهة أكبر يا أخي.

ويمكرون ونمكر والله خير الماكرين.

قال راغب، وعنف راتب على إهماله: صحيح البيت مهجور، ولكن ببعض الهمة تنفرد هذه الكراسي المتراكبة، والسجادات الملفوفة، ويطير هذا الغبار عن الطاولة وعن الترابيزات وعن النوافذ. والحمد لله أن يبدأ لم تمتد إلى راديو أو لمبة أو كأس ماء، على الرغم من هجران السنين. أنت تعرف أنني وحدي من كان يتربد على البيت كل صيف أربعة أو خمسة أيام.

حضر ابن العم سريعاً بعد وصول راغب بقليل. وأدهشت راتب المودة الحارة بين أخيه وابن عمه الذي أطلق لحيته كشعره، شيئاً. وأقبل على راغب يتسلق أخبار الجيران يا دكتور.

قال راغب:

كنصفرة سبقتنا جميعاً، من هنا حتى آخر حجر في جبل الزاوية.

وكفر نبل يا ابن العم؟

كفر نبل تطلب الثأر يا سريع. أنا وأنت وراغب كنا صغاري
عام ١٩٨٢. أسأل والدك أمد الله في عمره: ضحايا بلا عد يا
سريع بين من قتل في المواجهات ومن سلم نفسه، فلم يظهر
له أثر. من بعد ما كان الجمر تحت الرماد اتقدّ يا ابن عمي،
والجمل لم تطفئه ثلاثون سنة، بعدما كان يا ما كان هنا أو في
كفر نبل أو في حماة أو...

ارتجمت ذقن راتب عندما اخترق اسم حماة سمعه. ولم
تهأ الذقن حتى التفت إلى الوراء، حيث النافذة المفتوحة
على الظلام، بل على الفراغ، بل على المجهول، فعاد إلى راغب
وسريع الذي كان صوته قد خفت وهو يتوعّد: وإن غداً لนาظره
قريب.

* * *

ولم يتأخر الغد الذي كان قد تسمى باسم أطفال الحرية،
وتزيين بصورة حمزة الخطيب، تتوسط صورة الفتى الذي سبّه
في جبلة، والطفلة التي تلته في تلبيسة، ولكن ما الذي جرى
يا راتب؟

ما الذي جرى يا راغب؟

ما الذي جرى يا سريع؟

مائات الشباب تسابقوا إلى الساحة، ورفعوا في ناحية منها

العلم التركي: شكروزال أردوغان. وفي ناحية مقابلة رفعوا
اللافتة الإنكليزية: شكرًا للاتحاد الأوروبي. وهذه سيدة منقبة
تخطب فيكم يا شباب جسر الشغور، وهذا شاب يخطب فيكم
يا شباب جسر الشغور، وهؤلاء رجال المفارز الأمنية جمِيعاً،
وهوئاء الذين يرفعون مثلهم الهراءات والبنادق البوэмباشن
والروسية، ويضربون مثلهم، ويطلقون الرصاص مثلهم، من
هم؟

يصرخ سريع، ويقطع صرخته سقوط الشهيد الأول،
ويتواصل الكرّ والفرّ حتى العصر، حين تلتف سيارة راغب
حول الساحة، وتعبر الجسر طالبة النجاة، فيواجهها منذ معمل
السكر عشرات الدراجات النارية، وعلى كل دراجة ملثم أو
اثنان، ومنهم من يحمل روسية أو بوэмباشن: وصلت النجدة
يا شباب.

فضل راتب أن ينام في الدغل، كي يعود البيت إلى الهجران،
فيضل الأمن إذا ما داهموه. وفي واحدة من يقطاته المجلفة
المرعوبة تلقت أذناه أثر تسلي، ثم تلقت عيناه في عتمة
السواد اللزج الثقيل المضمض شبحًا طويلاً يتسلل، فهمس:
سريع؟ تعال.

كانت يمنى سريع تقبض على البوэмباشن اللامعة. ولم

ينتظر سؤال راتب عنها، إذ همس أنه اشتراها بعد صلاة المغرب، ونصح راتب بشراء واحدة، أو بشراء روسية إذا كانت جبيه عامرة. وقبل أن يسأل راتب، همس سريع: البومبكشن والرصاص تهريب وسوق سودا، والروسية من المستودع.

أي مستودع يا سريع؟

بالضبط، لا أعرف، لكنه بالتأكيد ليس مستودع جرار الغاز ولا مستودع أكياس الطحين. يجب أن يكون مستودع السلاح لمفرزة من مقارز الأمن، أو للشرطة، أو للجيش الشعبي. وعلى الرغم من عتمة القار والفحم، قدر سريع أن الأمر قد استغلق على راتب، فهمس أن الشباب استولوا على أحد المستودعات بعد صلاة العشاء.

ما الذي ينتظرنا غداً إذن؟

* * *

حين أوفت العصافير زققة الصباح، وأضاءت الشمس الدغل، نهض راتب متيس الرقبة والكتفين والظهر والذراعين. من برودة الفجر وليلونة فراشك هذا: علل سريع ما براتب، بينما كانت كفه تمسمح على التراب والحسى والعيدان حوله. وما إن تسللا إلى البيت حتى اخترق اسم حماة فؤاد راتب:

عشرات الشهداء أمس في حماة يا ابن عمي، قال سريع، فانتفض راتب: لماذا لم تخبرني حتى الآن؟ وأسرع إلى الموبايل. وحين سمع صوت بنان ارتجفت ذقنه وصوته، ولم يهدا حتى بكيا، بينما كانت بنان تتعى ابن أخيها أبي، وتعلن خوفها مما ينتظر حماة هذا النهار.

هذا النهار للتشييع يا ابن عمي: قال سريع، ودفع راتب أمامه إلى الساحة، كأنهما ليسا من ناما في الدغل خوفاً من مداهمة الأمن.

من الجامع إلى المقبرة احتقت وثقلت الخطى، وسُورَ رجال الأمن والشرطة المشيعين، وتعالى الهاتف: لا إله إلا الله، والشهيد حبيب الله.

منذ تلك الظهيرة اشتبكت الساعات والأيام والأصوات والصلوات والجثث والدماء والعبوات والكلاشينات والسواطير والبومبكسنات والنيران والأخبار والأساطير والأكاذيب، فإذا بشهيدين يسرعان باللحاق بالحاج أبو سريع، كي يدفنوا معًا، وإذا بجريحين يغاليان الموت ريثما تنقلهما بيك آب إلى الحدود التركية، وإذا ببقية ذلك النهار تضطرم بمن يسيطرون على مفرزة أمن الدولة ومفرزة الأمن السياسي، وقد يكون رجال المفرزتين انسحبوا قبل أن يسيطر الشباب المهاجمون

عليهما، وقبل أو بعدهما انهمر الرصاص من مبني البريد على
هؤلاء، وقبل أو بعدهما أضرمت النيران في شعبية الحزب. ومن
ذلك النهار إلى ما تلاه تواصل القتال، وحومت الهليوكبتر مراراً
وطويلاً فوق المدينة. وبدلأ من جريحين أمس، نُقل عشرون
مساء الأحد إلى أنطاكية. أما ما لابد أنه من نسج الخيال فهو
ما تضمخ به نهار الاثنين: دماء مائة وعشرين من عناصر
الأمن!

في عتمة القار والفحm يفع راتب: سواء كانوا شهداء أم قتلة
فهذا الذي رأيته: حرام في حرام. للميت حرمه كائناً من كان.

رأس مقطوع يا ابن عمي يا سريع؟

والله ما نزلت في كتاب.

ما بقي إلا أن تفعلوا كما فعل غيركم بحمزة الخطيب.

وهذه الجثث من رمها في النهر؟

لماذا تهددون بالإعدام من يقترب منها؟

لماذا هذه الحفرة الأكبر من البلدوzer الذي يحفرها؟

للنهر حصته وللحفرة حصتها.

جثث جثث.

هذه تسترها الحجارة والأشواك والزيالة، وتلك يسترها
الطين.

وتلك الجثة المعلقة أمام شعبة الحزب، ماذَا ستفعلون بها؟
صار الأحد مثل الإثنين، والثلاثاء مثل الجمعة، والخميس
مثل الأربعاء، والزمن صار قانياً مثل عيني راتب، واسودّ الزمن
مثل قلب راتب، بينما كان مكّبر يحذّر من المئذنة: الجيش سُمِّ
المياه، وكانت قناة الجزيرة تقول: حاول مائة وعشرون من
الجنود الانشقاق فتمت تصفيتهم.

قال تميم ابن سائق السكاني:

سمعت؟ هذه هي الحقيقة.

قال راتب:

أنا وأنت نشرب من الحنفية. لماذا تخوّف الناس؟ أنا وأنت
نعرف أن المائة والعشرين هم عناصر المفارز الأمنية، وليسوا
جنوداً منشقين. لماذا الكذب يا تميم؟

قال سريع:

اسمع يا ابن عمِي يا راتب ما قال سبحانه وتعالى في
هؤلاء: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: فَلَيذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ، وَقَالَ:
فَذُوقُوا عذابي وَنُذُرِّ، وَقَالَ: خذوه فاعتلوه إِلَى سُوَاءِ الْجَهَنَّمِ ثُمَّ
صَبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، وَقَالَ: إِنَّمَا تَجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ. صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ. لَا تَجْعَلُنِي أَظُنُّ أَنَّكُ ضَعِيفُ الْقَلْبِ.
ما بَيْنَنَا مِنْ مَرْمُرٍ وَمَرْمَطُورٍ كَمَا فَعَلُوا بِكُ، فَكَيْفَ تَأْخُذُكُ

بهم شفقة الآن؟

قال راتب:

من يتحدث عن شفقة أو رحمة؟ أنا أتحدث عن الفرق بين الوحش والإنسان. إذا توحّش عدوك فهل تتلوّحش مثله؟ نحن لسنا وحوشاً يا ابن عمي. نحن لسنا وحوشاً يا تميم.

قال تميم:

أنت لم تكن هنا عندما قصفونا وحرقوا بيروتنا وأفلتوا علينا الوحدات الخاصة، سنة ١٩٨٠. لم تكن هنا عندما أعدموا من شبابنا من أعدموا. أنت لم تعش بيننا. أنت من جسر الشغور ولست منها.

قال راتب:

نحن في ثورة يا تميم، عيوننا معلقة بالمستقبل، لا بالماضي. ثورتنا حرية وكراهة، وليس ثارات.

قال سريع:

الماضي لا يموت يا ابن عمي. ومع ذلك، حتى لو سلّمت معك بأننا أولاد الـيـوـمـ، قـلـ ليـ: ماـ الـذـيـ جـرـىـ أـمـسـ؟ وماـذاـ فعلـناـ غيرـأنـناـ حـمـلـنـاـ أغـصـانـ الـزـيـتونـ، وـرـفـضـنـاـ دـخـولـ الـجـيـشـ؟ كـيفـ ردـواـ عـلـيـنـاـ؟ كـمـ قـتـلـوـاـ مـنـاـ؟

وربما كان الخلاف سيكبر بين راتب من جهة، وسريع

وتميم من جهة، لولا أنه آثر الصمت، وهو يغالب الإحساس
بأنه يزدرد لعاباً مراً، بينما انصرف تميم سريعاً عنه، وشرع
يتباهيان:

فكرة من تظن هي فكرة قطع الطرق بالدوالib وحرق
الدوالib؟ فكرة سريع يا تميم. هل تعرف لماذا؟ حتى نقطع
الطريق على الأمن والشرطة، وعلى الجيش لو حاول أن يدخل.
وفكرة من إذا هي فكرة تفجير مقرات المفارز؟ فكرة من
إحضار الديناميت من سد الشغر ومن سد الكفير؟ فكرة من
فكرة إحضار التريكس من المقلع وتحميله براميل البنزين
والديناميت؟ فكرة تميم يا سريع.

من يسمعك يظن أنه ما كان أحد في الميدان غيرك.

ومن يسمعك يا سريع مازا يظن؟

أنا حرقـت بـيت مدـير البرـيد.

وأنا حرقـت سيـاراتـين للـزيـالة وصـهـيرـجـ المـاء فـي مـرـآـب
مـجلسـ المـديـنة.

أنا حرقـت بـيت رئـيسـ المـجلسـ.

وأنا حرقـت بـيت مدـيرـ المـنـطـقةـ.

وربـماـ كانـ الخـلـافـ سـيـكـبـرـ بـيـنـ سـرـيعـ وـتـمـيمـ، أوـ بـيـنـهـماـ
معـاـ وـبـيـنـ رـاتـبـ، لـوـلاـ أـنـ المـقـدـمـ حـسـينـ هـرـموـشـ أـعـلـنـ اـنـشـاقـةـهـ

عن الجيش مع مئة عسكري، فانشغل سريع وتميم عن راتب بالهتاف للضباط الأحرار، بينما ازداد راتب بلبلة وهو يتساءل عما إذا كان ما يجري حوله بداية جديدة للثورة؟ هل هي بداية ثانية بعد ثلاثة أشهر من البداية الأولى؟

* * *

قبل أن يقع على جواب انقلب نهار جسر الشغور ليلاً وليلها نهاراً، فرابط راتب في الدغل، ليصير سرور النهار أيضاً، بعدها كان سرور الليل فقط، بينما كان الجيش قد اقتحم المدينة، وكانت النيران قد نشبت في بيت أبو سريع عدلة إثر مرور قذيفة من إحدى نوافذه. وكانت سيارة السكانيا قد احترقت أيضاً إثر سقوط قذيفة عليها، كما كانت الرشاشات قد ثقبت جدران بيت أبو راتب عدلة. وكانت الناس قد أخذت تغادر المدينة أفواجاً أفواجاً، منهم من لجأ إلى كنيسة بداما، ومنهم من تابع النزوح إلى المدينة الرياضية في اللاذقية، ومنهم من يم إلى الحدود التركية، وكان المقدم حسين هرموش ومن معه قد انسحبوا من المدينة.

في ثمان وأربعين ساعة بين الثلاثاء والأربعاء مثلاً أو فيما هو أطول من يوم الحشر بين السبت والأحد كان راتب قد انقلب حقاً إلى سرور الليل والنهار، لا وطن له إلا الدغل،

لا موبایل ولا صوت إلا صوت الساعات البطيئة القائمة التي
تصل الليل بالنهار، لا ضوء، لا عصافير، لا رائحة إلا رائحة
جثة هائمة على وجه النهر، أو تنسرب من بطن مقبرة يكاد
ينفجر بأسراره.

بين الجوع والسهد والحزن والرعب طوى يوماً أو أكثر، قبل
أن يصدع رأسه بالسؤال: لماذا أنت هنا؟
هل أنت متخفّ حقاً؟

من بيت سمارة إلى بيت بنان إلى هذا الدغل، تنقلت بسلام.
لو بقيت قريباً من التي سمتكم سمور الليل، أليس أهون مما أنت
فيه الآن؟

أليس الأولى بك أن تعود ذلك القط البري الذي كنته في
محمية التليلة، أو أن تعود ذلك القط البري الذي لم تكنه في
محمية البلعاس؟

لكن بنان في هذه، وظلّها في تلك، وأولى بك إذاً أن تعود
كما شاءتك سمارة: سمور الليل. أليس أهون مما أنت فيه الآن
في حضن المدينة أو المقبرة التي شاءتك سمور الليل والنهار؟
لو بقيت في بيتك، في حضن بنان، والعاصي في حضنك،
أليس أهون...؟

لكنه ليس بيتك. إنه بيت بنان، فهل أنت هارب من بنان؟

هل أنت هارب من سمارة؟ هل أنت هارب من حرب؟
ثم طوى يوماً أو أكثر قبل أن يصدع رأسه بجواب: أنت هنا
لتقوم بما لم تعد قادراً على القيام به، لا قرب سمارة ولا قرب
بنان. أنت هنا من أجل الثورة. أنت هنا من أجل مظاهرة، من
أجل اعتصام، وليس من أجل حرب.

ولأن الدغل صار دغل حرب، مثله مثل هذا الشارع وهذا
الزقاق وهذه الساحة وهذا البستان وهذا النهر، فما عليك إلا أن
تنجو برأسك، وتنط كما ينط السמור، كيلا يضبطك أي حاجز
من حاجز الجيش، وكيلا تضبطك أنت هذا الحاجز الذي قد
يكون سريع من أقامه، وهذا الذي قد يكون تميم من أقامه.
ولن تتوقف عن النط حتى تحط أمام بيت راغب في إدلب: افتح
يا راغب. أين أنت يا أخي؟ والله ما عدت قادراً على الوقوف.

* * *

قبل أن ينهي راتب قسمه كان قد تكون أمام الباب. ولأن
راغب لم يستطع أن يندهسه، فقد جره جراً إلى الصالون، بعون
زوجته التي ظلت تغالب ولولتها حتى أفاق راتب من إغماءته،
بعدما ضمخت أنفه شقة بصلة يابسة وكبيرة.
كان راتب قد صار سموراً حقاً، سوى أنه سمور ضعيف،
جائعاً ومنهك ونحسان وقدر. ولمّا تغلّب على ما به، كانت امرأة

راغب قد نامت، وكان راتب قد استغرق في نُتف حكايات راغب وأخباره: كان يا ما كان في سالف العصر والأوان، أي قبل سنة أو سنتين أو ثلاثة، كان الزرع والضرع من كل صنف ونوع، ما شاء الله، من أريحا إلى جسر الشغور، وإذ بالصواعق تنهر مثل المطر، فيبس الزرع ونشف الضرع. هل تعرف ماذا كانت تلك الصواعق؟

لم يجب راتب، ولم يكن راغب ليتظر جواباً، إذ تابع الحكاية الأولى: لم يكن رفع الدعم عن المازوت صاعقة واحدة. والفلاح بعد البياس ترك الأرض ليدور من أرض إلى أرض، يقطف الزيتون أو يوزع السماد أو ينتظر متعهدي البناء من ساحة إلى ساحة. أما من كانت أغنامه قطيعاً يحتاج إلى من يرد عنه كيد حاسد، إذا حسد، فقد انقلب إلى راع عند غيره، ومنهم من انقلب إلى مهرب دخان. والصناعي يا أخي راتب مثل صاحب ورشة الحداده أو ورشة النجارة، انقلب إلى عواطلي يقيس الطرقات ويلصق قفاه برصف الساحة أو سور الجامع. هل تعرف ما معنى هذا كله يا راتب؟

لم يجب راتب، ولم يكن راغب ليتظر جواباً، إذ ترك الحكاية الأولى معلقة، وأسرع إلى حكاية جديدة ضاقت فيها شوارع إدلب وساحاتها بمئات المتظاهرين وربما أقل الذين سورهم

الشباب المسلحون. هل تعرف لماذا؟

لم يجب راتب، ولم يكن راغب لينتظر جواباً، إذ تابع يشرح كما لا يليق بأكاديمي يدير فرعاً في إدلب لكلية في حلب: الشباب المسلحون لحماية المتظاهرين سلبياً من الأمن والشرطة، ومن الجيش نفسه إذا ما لزم الأمر. وأضاف راغب بعدهما رطّب حلقة مليأة، قبل أن يبلغه: السلاح من الآن فصاعداً لا بديل له في حماية المظاهرات السلمية، ولكن ألا تعرض هذه الحماية المتظاهرين إلى الخطر يا أخي؟ ويبدو أن نظرة من راتب قد غافلته، ورمت بشكوكها في أن يكون ما عاينت في جسر الشغور حماية مسلحة للمظاهرة السلمية. ولم يفت راغب ذلك، إذ قطع الحكاية الثانية ليقول: ما جرى في جسر الشغور هو هجوم انتقامي، وليس دفاعاً عن النفس ولا عن المتظاهرين السلميين. هل يرضيك هذا يا راتب؟

عندئذ هزَّ راتب رأسه، فترك راغب الحكاية الثانية معلقة، وأسرع إلى الحكاية الثالثة: أريحا هي الحكاية والرواية يا راتب. أهل الجبل دينهم وربهم لن يتظاهروا إلا في أريحا، وأهل أريحا ينشدون الستر. من حرقة الحليب يا راتب ينفح على اللبن. كل من في جبل الزاوية قاطع بازار السبت في أريحا، حتى استرضوا أهلها ورضيوا بالتظاهر فيها. أمام شعبه

الحزب تمثال للرئيس الخالد، أنت لم تره. هل تعرف أريحا؟
هذه المرة أوّما راتب بالنفي، فتابع راغب أن شباب الجبل
أسقطوا التمثال، وحرقوا شعبية الحزب، وهاجموا المخفر،
وحرروا السجناء، واستولوا على البواريد، وهم من هاجم بداما،
ومنهم من فخخ محطة كهرباء سد زيزون، ومنهم من نهب
أطنان الديناميت من منطقة سد وادي أبيض. وطبعاً منهم من
شارك بثورة جسر الشغور. احك لي أنت يا راتب: ماذَا فعلت في
هذه الثورة، بعدما افترقنا؟

هنا أجفل راتب، وتساءل عما يساوي أن يخرج رجل اسمه
راتب عدلة في مظاهره سلمية، ويهتف أو يحمل لافتة أو يلوح
بعلم.. مقابل رصاصة واحدة؟ ولعل الجواب قد أخجله، فآخر
أن يستمر في الخرس، وأضاف إليه الطرش وإطباقي الأجان،
فبقي راغب وحده يساهر نتف حكاياته وأخباره حتى أدركه
الصبح.

الحنجرة التي تبحث عن صاحبها

علوان هو آخر العنقود بين إخوة بنان كما يفضل أن يقول أو يقال عنه. أنهى الثلاثين والخدمة الإلزامية معاً في مطلع السنة، بعدما أنهى تخصصه في أمراض الأنف والأذن والحنجرة. وبسرعة ضوئية أي خلال الأشهر الثلاثة الأولى صار موظفاً في المشفى الوطني، وافتتح عيادة متواضعة في آخر الكيلانية، وتزوج. لكنه لم يكده بشيء من ذلك حتى أخذت حماة تميد، فعاد معها، وبخاصة منذ رأى المتظاهرين يحطمون كولبات الشرطة أمام المحافظة، ويرجّون بابها الرئيسي.

في عصر ذلك اليوم، وفي إحدى ردهات المشفى، قدم له أحد الممرضين المستعين هذا الشاب الذي كان قد رأه يلهب الحناجر والأكف أمام المحافظة: القاشوش.

صافح علوان القاشوش بحرارة وهو يلتف إلى الوراء محاذراً.

راح الخوف يا دكتور.

صدح القاشوش، ومضى بصحبة الممرض، بينما تابع علوان جولته الأخيرة ذلك النهار، على مريضاه. وفي الغرفة

المواجهة للدرج، فوجئ برجل يقيد رسغاً إلى السرير، وبآخر واقف عند قدم مقيدة إلى السرير، ويجانبه الممرضة التي أسرعت إلى الدكتور مشيرة إلى الرجلين:
الشباب من الأمن.

تساءل علوان عن سبب تقييد المريض إلى السرير، وتساءل عنم غطى وجه المريض بهذه الضمادات. وربما كانت تساؤلاته ستتواصل لو لا أن المريض حشrig وانتفض ثم همد، فأسرع علوان إلى رسفة المقيدة يجسها، بينما قال رجل الأمن الذي كان يقيد الرسغ:
انشالله فطس وريحنا منه.

ظل علوان أياماً بعد ذلك لا يذكر مما جرى إلا ما قد يتلامع خلف الغشاوة التي أرخت على عينيه، والتي لن تتبدد إلا عندما يرى القاشوش ثانيةً في القبو الفسيح الذي تحول إلى عيادة ميدانية شاملة. فالقاشوش سيحيي هذا الطبيب الشاب العريض الذي شتم رجلي الأمن، وأعلن ملء المشفى أنهما قتلا المريض، ورفض أن يوقع على الورقة التي تقرر أن العصابة المسلحة هي من قتل المريض الذي ظل مجهول الهوية. وسيحمل القاشوش خبر علوان إلى بنان، فالعروض لابد أن تكون قد عادت إلى أهلها بعد اختفاء العريض. وعلى

أخت العريض أن تطمئنها عليه وأن تُعنى بها.

* * *

عادت بنا ن بالعاصي إلى أمها، كما كانت تفعل قبل رحيل
راتب، في النهارات التي ينبغي أن تقضيها في المحمية.
لماذا رحل راتب؟
أنتِ السبب.

هو لم يعد الرجل الذي حملني على كتفيه أمام السفارة
الأمريكية. لم يعد الرجل الذي ظننت أنه وحده من يحميني
حتى الموت.

لكنه الآن بحاجة إلى من يحميه.
شيء ما فيه تبدل.
بل أنتِ تبدلت؟
من مثلك لم يتبدل؟
إذاً على ماذا تلومينه؟

كانت الهواجس تضاعف عليها عبء النهار الصيفي
الطويل الذي يصير شمساً متذبذباً تنفرد هي صباحاً بالمقعد
الخلفي في البيك آب الدوبل كابين.

كانت السماء نفسها تصير شمساً زرقاء قبل أن تتجاوز
البيك آب السلمية، ثم تصير شمساً صفراء ما إن تتجاوز

عقيريات، حيث تبدأ بالعرير وهي تلاقي جبل البلعاس الذي يذكرها بلقائه الأول براتب: في هذه البيك آب نفسها، إلى يمينك كان، بل إلى يسارك، وبعد غمرة همس مبتسمًا: جبل البلعاس حيّاك الحيا، فصحت له مبتسمة: جبل التوباد حيّاك الحيا، فسألوك: وما الفرق؟ كله جبل.

لم يزر راتب بنان في محمية البلعاس غير مرة، بينما زارته هي في محمية التليلة مرات. وفي كل مرة كان يفاخرها بما لم تره من قبل: تعالى شوفي غزال الريم، جئنا به من السعودية، قطيع بكامله ما شاء الله! مئات، أهدينا للأردن خمستعش فأهدونا خمستعش نعامة، تعالى شوفيها. تعالى شوفي المها العربية، جئنا بها من الأردن، وهذا الحمار السوري الفريد أيضًا، جئنا به من الأردن. وهذا أبو منجل، كان في القائمة الحمراء، يعني كان خلص، انقرض، هنا اكتشفناه كما اكتشفنا هذه الخنفسياء. هل رأيت مثلها؟ هذه خنفسياء التليلة يا حضرة المهندسة التي تظن أن محميتها أفضل. عندك مثل هذه الجمال؟ قطيع بكامله ما شاء الله! أكثر من ألف. وهذه الشجيرات القزمة التي لا تملأ العين، شوفيها: عجيبة من العجائب: هذه هي القيباء، وهذا هو الرمث، وهذه الطيور: عندك مثلها؟ عندك أبو بليقة؟ عندك الصرد؟ عندك الزقزاق؟

في زيارته الوحيدة لمحمية البلعاس، صارت الأشجار
شمساً خضراء، على الرغم من أن الصيف كان قد صار في
أواخره. يومئذ اعمرت بنان قبعة مثقلة بالشمس، وقالت
راتب: الحقني. وراحت تضرب في واحدة من طيات الجبل
التي تزيينها أشجار البطم، ثم ضربت راتب يتبعها في واحد
من مسارات الماء الجافة، ثم تشابكت أصابعهما، وضربا
متلاصقين في وادي أبو رياق أو وادي حوايا العمور أو وادي
ملوح المصقرة، إذ ضيّعت بنان الأسماء، كما ستضيّع ما
يفرق التين البري عن الخوخ البري وعن الثوم البري، وراتب
يقهقه: يا حبيبي على أحلى مهندسة زراعية! فتمعن بنان فيما
تضيّع: الطرفاء والقبار الشوكى والعلصلج، حتى القيصوم يا
بنان؟ كيف ستميزين إذاً بين الحمام البري واليمام البري؟
كيف ستميزين بين القطا والهدده؟ يسأل راتب ويقهقه، فتعزم
على أن تستعيد مهابتتها، ولا تضيّع من بعد فرقاً بين العقاب
والحجل، أو بين الضبع السوري والغزال السوري، ولا بين
المريمية والختمية البيضاء، أو بين الحرمل والخافور والروثا
والشنان: لا، من كل ذلك لم يكن في الزيارة اليتيمة إلا القط
البرى الذي قفز أمام بنان من واحدة من شجيرات السويد
الفلسطيني إلى أخرى، فكادت بنان أن تسقط لولا ساعد راتب.

هذه المرة هو أيضاً من حماك.

اتصلني به.

من قال إني لم أتصل؟

هاتفه مغلق، وجسر الشغور صارت نار الله الموقدة، كما
قال مدير المحمية وأخي أبي وسائق البيك آب.
يا رب احم راتب.

* * *

مع القاوش يحضر شاب في مثل سنه وطوله ورنّة صوته.
وعندما يتكلم الشاب تترافق نظرات بنان بين حنجرته
وحنجرة القاوش، وتؤخذ بتشبيه الشاب لعلوان: مثل نهر
العاصي، بينما حز مناحرها.

لكل ذلك، ولسواء مما غمض عليها، أو مض ليَّنان أن توحد
بين الشابين، ثم أومض لها أن توحدهما بعلوان، ثم أومض
لها أن توحدهما براتب، ثم قررت أن تسميهما معاً باسم
العاصي. وسيروي العاصي. أي سيروي القاوش أو الشاب أو
كلاهما لعلوان ما سيرويه ليَّنان: خرجنا الجمعة من الحاضر،
من جامع عمر بن الخطاب خرجنا بالآلاف، ومن جامع
السرجاوي خرجوا بالآلاف، من كل بيت خرجوا، من كل جامع
وحارة وزقاق وعمارة ومكتب ومدرسة خرجوا. لم نكن إلا

أنهاراً كلّ منها هو العاصي، وكلها تصب في ساحة العاصي.
ما عدت ترين إلا رؤوس الشباب.

سألت بنان لهفى:

ماذا هتفت؟

قال العاصي:

أنا لم أهتف. الله سبحانه وتعالى ألهمني، غنيت وغنو
معي، لكنه الرصاص. الرصاص يا علوان، الرصاص يا بنان،
بخمس دقائق سقط عشرات الشهداء وعشرات الجرحى: هكذا
كانت الجمعة، جمعة أطفال الحرية، وفي اليوم الثاني انسحب
الأمن من المدينة.

هنا تولت بنان الحكاية التي لن يسمعها علوان إلا عندما
يحكيها له العاصي:

أنا وعروس أخي علوان وأمي وأمها خرجنا مع من خرجن
في جنائز الشهداء. قرب المقبرة هجم الشباب على المفرزة
الأمنية، ولو وصلت أيدينا نحن النساء لما تركنا عنصراً منها
يبليط، لكنهم هربوا.

ما لم تره بنانرأي العين هو ما سيرويه العاصي لها
ولعلوان: تعرفين التمثال الهائل، جاءت الرافعة العملاقة
والناقلة العملاقة، التفت الحبال على التمثال، فتحي عين يا
بنان، غمض عين يا علوان، وإذا بالتمثال كأنه ما كان.

وفي عصر آخر سيريري العاصي ممالم تره بنا رأي العين
أيضاً لها ولعلون: واحد من العناصر رماه نحسه بين أيدي
الشباب، وصدر الشاب نار حراقة، للأسف ما اكتفوا بإعدامه.
وفي المقبرة أعلنا الحداد على الشهداء، وأعلنا الإضراب، ما عدا
المشافي والصيدليات، من السبت حتى الثلاثاء. وبالطبع، لا
الحداد يعني، ولا الإضراب، أن نلازم البيوت، فالساحة تنادينا
كل يوم، وكل يوم مظاهرة، حتى حضر من الشام رئيس مجلس
الأمن القومي، وخذ قرارات يا علون: جميع الضحايا شهداء،
سندفع التعويضات لذوي الشهداء والجرحى، خذ قرارات يا
بنان: خلال شهر سنعيد جميع العقارات المصادرية من سنة
١٩٨٢ إلى أصحابها. والرجل هو نفسه من طار إلى درعا
في بداية الثورة، سوى أنه أضاف هنا أن ثمة من يوزع على
المتظاهرين سندويشة فلافل وقنينة بقين، مقابل التظاهر: يا
رخص الفجل!

من الآن فصاعداً سوف يروي الشاب الذي انفرد باسم
ال العاصي لـ بنان وحدها، ليس لأن المشفى الميداني السري قد
نقل علون إلى مخبأ آخر، بل لأن القاشوش اختفى أخفى أم
تخفى؟ بينما صارت أغنياته تترجع في المظاهرات جميعاً،
من أقصى سوريا إلى أقصاها. وعلى الرغم من أن الخطر أسرع

أيضاً إلى العاصي، فقد بات لا يكاد يفوت يوماً دون أن يجد إلى بنان سبيلاً، عصراً غالباً، ليملأ عينيه منها، وتملاً عينيها منه، قبل أن تتبه إلى ما تبرق به نظراته، فتغضي وهي تكذب نفسها مرة، وتلومها على سوء الظن مرة، وتتنمي مرة بعدمرة أن يصدق حدسها، وأن يكون العاصي لا يأتي فقط ليحدثها عن المدينة، وينتظر رأيها، بل لأنه مشتاق إليها كما هي مشتاقة إليه. فلو لا ذلك ما كان لها أن تغامر باستقباله في البيت. ولو لا ذلك ما كان لل العاصي أن يغامر بزيارتها، حتى لو كان يحمل من علوان رسالة، فكيف إن كان لم يعد يلتقيه؟ عبر ذلك كانت المظاهرات لا تتوقف. وعندما اجتاح الموالون الساحة، روى العاصي: اشتربكنا معهم بالحجارة، وكان نصيبي هذه، وأشار إلى ندبة كبيرة في صدغه الأيمن. أما المظاهرة الأكبر يا بنان فهي مظاهرة جمعة ارحل: رسمنا بأجسادنا العلم وطار المحافظ، اعتقلوا منا المئات، وحلّ الأمن في الساحة محلّنا. قطعنا الطرق بالحاويات والقرميد والبلوك حتى لا يدخل الأمن إلى الحرارات، حرقنا الدوالib، شيعنا الشهداء، ويدأت كل حارة تحمي نفسها، وسمعنا أن الجيش سيدخل المدينة بين ساعة وساعة، أو بين يوم ويوم، وسمعنا أن الأمن أعدّ قوائم بأربعة وعشرين ألفاً كي يعتقلهم.

لماذا لا يعقل المدينة كلها؟

كانت نظرات بنان قد عادت إلى وقتهما، وأنفاسها عادت تتعرّض. كان شعرها قد أخذ يتذكر نعومته، ويطنّها قد راحت تستوي. وربما كان العاصي سيظل يروي لِبنان، وربما كان سيلتقي علوان ثانيةً ويروّي له، وربما كانت حكاية عشق ستوافي غزلها بين بنان وال العاصي، لوّلا أنّ الشيخ حماد غادر المسجد بعد صلاة الفجر، ومشى على رصيف العاصي خطوات قبل أن يلوّي خطواته وجه النهر المكمد الذي يترجّج بما لم يتبيّنه الشيخ، لذلك توقف، ثم قرّفص، وإذا بجسد طويل ممدد يقترب. ويعسر استطاعت عيناً الشيخ الكليلتان أن تلاحظاً انتفاخ صدر القميص الأبيض الذي يرتديه الجسد، وانتفاخ كميه الطويلين المقفلين فوق الرسغين، وانتفاخ ساقيه البنطلون الأسود. ولما وازى الجسد ضفة النهر، أوقفت المفاجأة الشيخ وأطلقت شهقته وبسملته، ثم أعادته إلى قرفصته كي يتيقن من أن الدم والماء يبقيان من تحت ذقن الجسد. ولأن يديه لم تستطعا أن تنتظره أكثر، فقد امتدتا إلى الجسد، وانتشلاه من الضفة، وعندئذ رأى الشيخ مطرح الحنجرة فراغاً، فحدق فيها، ثم حدق في الوجه، وشققت الفجر صيتها: القاوش يا ناس.

* * *

انتظرت بنان ظهور العاصي أيامًا قبل أن تصدق أو تكذب صحة الشيخ حماد، وبخاصة أن أمها نقلت من همس الحارة ما نقل أخوها أبي من همس السوق والجامع والقهوة: العنق ليس عنق القاوش، ولا الحنجرة التائهة حنجرته، وإنما هي حيلة لحماية القاوش الذي صار خارج الحدود.

لكن غياب العاصي تطاول، وثُقل، بينما أخذ همس المدينة ينفل من أوصاف صاحب الحنجرة المقلوبة ما تشربت بنان من أوصاف العاصي: رقة الحاجبين ودقة الأنف وملاسة الجبين وتراصف الشعر الخرنوبي وعسل العينين... حتى لم يبق إلا أن يقولوا: هذا هو العاصي الذي أحبته بنان عرجون، وربما أحبهما، بل لقد أحبهما، ولذلك بات لا يفارق نومها ولا يقطتها. وبعد ما توحد غياب القاوش مع غياب العاصي، كما توحد ظهورهما، طلبت إجازة من المحمية بلا راتب لمدة شهر، كيلا تفارق لحظة العاصي الصغير الذي ما عاد يتغثر في مشيته، والذي يزداد شبهًا بال العاصي الكبير أو الشهيد، كأنه ابنه، وليس ابن راتب عدلة. وحين تنبهت إلى أنها ما عادت تنادي العاصي الصغير: ماما، أو حبيبي، بل باسمه فقط، تبسمت أسى وهي تعترف أنها إنما تنادي العاصي الكبير أو الشهيد.

* * *

إلى طوفان حماة تنادوا بعد أيام: ليليا وحنيف وكوكب الصباح ونذير ولمي. خرجوا من دمشق في رحلة بولمان الشركة الأهلية الأولى: الخامسة من صباح الاثنين، وعادوا في الرحلة الأخيرة: العاشرة ليلاً.

كانوا جميعاً يزورون حماة لأول مرة. ومثل العاصي في طوفانه، كانت ساحته، وفيها غطى الغمر رؤوسهم كما غطى رؤوس مئات الآلاف: ماما، والله عرس، ما مثله عرس: همست ليليا في أذن نمنوما بصوٍت، ما ترك الهاتف منه غير بحة، بالكاد نُسمع.

وإلى الطوفان أو العرس تنادياً أيضاً: صباح ونمنوما. هو خرج من اللانقية بسيارته الكولت الصغيرة في الخامسة من صباح الأربعاء، وهي خرجت في الساعة نفسها من دمشق، في رحلة بولمان القديموس.

ولأنه الطوفان، أو لأنه العرس الذي لا ينتهي، في ساحة لا تنتهي، فقد تاها حتى أنعمت عليهما باللقاء واحدة من مصادفات التدافع، بعد أذان الظهر بقليل.

كان شعر نمنوما قد تشعّث، وكان العرق قد غسل جبينها وخدبيها، وحين صادفت صباح أو صادفها، كان صوتها قد بح، ولم تعبأ عيونهما ولا أصابعهما بمن حولهما، إذ تعانقت طويلاً، ثم اندగما مثل حنجرتين عاشقتين في فضاء متراً

ضاق بمئات الآلاف من الحناجر التي ما فتئت تصدح، منذ بدأ العصيان المدني، بحنجرة تبحث عن صاحبها في النهر، ربما كانت للعاصي، وربما كانت للقاوش، ولكن مازاً لو كانت لغيرهما؟

* * *

وفي واحدة أيضاً من مصادفات التدافع، في تمام الرابعة عصراً، كادت أن تلتهم نمنوماً ببنان، وإذا بصباح يصبح بإداهما، فتصحو الأخرى على من هي قبالتها وجهها لوجه. حين بدأ الليل يعود بآلافه إلى البيوت، تمكن صباح من النفاذ إلى حيث اختبات سيارته في مدخل المدينة. ثم تمكن الكولت من النفاذ إلى حيث انتظرتها نمنوماً وبينان، في نهاية الجسر. ولأن العاصي في حضن جده منذ الضحى، كان على الكولت أن تمضي إليه، كما كان على صباح ونمنوماً أن يلبوا دعوة الجدة إلى فنجان قهوة. ولم تتأخر المفاجأة بحضور أبي بعد قليل، فقدمت بنان والد الشهيد إلى الضيوفين الزوجين القادمين من دمشق، وغمزتلهما ليتواطأ مع الكذبة، وتجدد العزاء بالشهيد لدقائق قبل أن يخص أبي بالسؤال صباح، مستنكراً:

لماذا لا تزال دمشق نائمة؟

وابع بعدهما انتظر الجواب ثانية أو اثنتين:
سكت حلب ودمشق عجيب. حماة سبقت سورية كلها.
قالت نمنوما بِإعجاب:
لذلك جئنا لنرى كيف حققت كل هذا. ما رأينا في الساحة
هذا النهار معجزة.

فسرخ أبي لصباح دون أن يلتفت إلى نمنوما:
في كل حارة لجنة لتنظيم العصيان، من توزيع الخبز إلى
حماية الحرارة. الكبار من الشيوخ والوجهاء يقدمون النصح
والمشورة والرأي، والشباب، ما شاء الله، همتهم تفلىق الصخر.
تساءل صباح بينما نصحت نمنوما غمرة بنان بالسكت:
إلى متى يمكن أن يتحمل الناس؟ الوظائف والمعامل
والدكاكين والمدارس.. كل شيء معطل، وكل شيء بيد الدولة:
الطحين والمازوت والكهرباء والماء والهاتف... إلى متى يمكن
أن تتحمل الدولة هذا الوضع؟

قال أبي بانفعال:
صبرنا كبير، والدولة لا تستطيع أن تفعل شيئاً.
يمكن أن تضرب. القوة بيدها. الجيش بيدها.
ونحن جاهزون. معركة؟ يا سيدى معركة. وما النصر إلا
من عند الله.

فتسابقت بنان حاملة العاصي مع نمنوما وصباح في
الخروج، وفي الطريق إلى البيت تبادلت بنان ونمنوما الهمس
بما أبقى الهاتف من صوتيهما:

كنت على خصم مع أخي حتى استشهاد ابنه.
و قبل أن يسألها أضافت:

راتب في الجسر، هاتفه مغلق. ما عدت أعرف هل هو حي
أم ميت؟

إن شاء الله نجا ولجا إلى تركيا مع من لجاوا.
قالت بنان:

افترقنا على سوء. جدار ما ارتفع بيننا بعدما تخفي.
قالت نمنوما:

عندما يعود بالسلامة ستعودان أحلى مما كنتما.
قالت بنان:

لا أظن يا نمنوما.

أما صباح فلم يكن يصفي إليهما، إذ كان يسابق لهفته إلى
البيت، مردداً في سره كذبة الزوجين، ومنادياً من يوم ماطر
بات بعيداً جداً، هذه الغرفة التي هيأتها بنان للعاشقين، فإذا
بصباح يأمر صوفاً بأن تدارر صوفاً في الصالون. لكنه هذه
المرة سيفرش بنفسه الفراش على بلاط الغرفة، وسيعد العشاء

مع بنان بينما تتهيأ نمنوما بالدوش إلى ما واعد به صباح
الغرفة والفراش وغياب شهرين أو شهر أو يوم.

* * *

يحكى أن السفير الأمريكي روبرت فورد والسفير الفرنسي
إريك شوفالييه قد زارا المدينة، وتوجولا في أحياط عديدة كل
ما هو حول أوتيل أفاميا الشام، مثلاً وقد رفض إمام مسجد
السرجاوي لقاءهما.

ويحكى أنه في هذا الجامع يلتقي الشيوخ والوجهاء وجمع
من قادة المظاهرات، ويقررون ماذا سيبحثون مع المحافظ
وأمثاله. وغاية ذلك أيضاً كانت عندما اتفق هؤلاء على فضّ
العصيان، مقابل الاستجابة لمطالب شباب الحاجن، كما اتفق
على ألا يُطلق الرصاص على المتظاهرين، مقابل عدم التظاهر،
وهذا من عجائب الحكايات.

ومن عجائب ما يحكى أيضاً أن شباباً رموا زجاجات
المولوتوف على دبابة من المرابطات على جسر المزراب،
كما أناخوا جماعة من أعمدة الكهرباء، وجعلوا منها حاجزاً
غربي الجسر. ولما حلّت الجمعة أحفاد خالد بن الوليد تدفق
المتظاهرون إلى ساحة العاصي، راجلين، وعلى صهوات
المotorات والبيك آبات القادمة من مصياف والسلمية. ورشّ

المتظاهرون الماء على إسفلت الساحة «بالبرابيج» ليبردوا
اللہب المنصب على رؤوسهم من كبد السماء.

غير أن بنان كانت قد انتقلت إلى عالم آخر، تبدأ فيه نهارها
مع شروق الشمس، فتوذع العاصي عند أمها، وتسرع إلى النهر
قبل أن يزدحم بعيون الناس، فتقف حيث قيل إن الشيخ حماد
قد وقف، تقرفص كما قيل إن الشيخ حماد قد قرفص، وترى
جسداً طافياً كما رأى، فتستأنذن النهر لتخرج بالجسد إليها،
لكن النهر يرفض، فتكتفي بالتحديق والتدقيق، وإذا بفوهة
تفغر مطرح الحنجرة، كأنها ساهرة طوال الليل، تبقي بالماء
البارد والدم الساخن، بدلاً من أن تحيي بنان تحية الصباح.

بعد قليل ترك بنان الجسد للنهر، فيطويه في حنایاه،
بينما تظل هي تحدق فيه وتدقق حتى يزدحم بالعيون، فتیأس
من أن ترى حنجرة. وقد تعود بعدئذ إلى البيت، أو تتبع إلى
المحمية. وفي المساء تستعيد العاصي من أمها، وتظل تزجي
الوقت معه حتى يغفو، بينما المظاهرات تتواصل طوال الليل،
فلا تدع عيناً تغفو، لذلك تستعيد بنان ما كان يحكى في
المحمية، أو في بيت أمها، أو في التلفزيون، أو على درج العماره،
أو في السرفيس، فإذا بالموتورات تتدافع إلى القصر العدلي
في الشريعة، حيث ترمي بالملثمين كي يحرقوا القصر. وفي

وكنة أخرى من وكنات المدينة، حيث قسم شرطة الحميدية، يكون شباب آخرون قد رموه بأصابع الديناميت، ففر من فيه، فأحرقه الشباب، كما أحرق سواهم نادي الضباط، ورموا من قتل من العساكر في العاصي. وفي حكاية ثانية أن ساحة الصابونة ضاقت بأعمدة الكهرباء وحديد الحائق والبلوك، وأن قناصاً واحداً على الأقل قد رابط على سطح البناء الأولى الأعلى، يمين الساحة.

غير أن الحكايات لن تلبث أن تتبدل، فتنتزع بنان من نسيانها للدنيا، ما عدا حنجرة تبحث في النهر عن صاحبها، ذلك أن مدافع الدبابات ما عادت تهدأ، ففي حكاية أن عدداً من الدبابات اقتحم ساحة العاصي، وأن القصف قد تركز بعد ذلك على الحاضر وعلى المناخ وجنوبي الملعب. وفي حكاية أخرى أن مئة دبابة ومثلها أو أكثر من العربات المدرعة، قد وصلت إلى المدينة عن طريق حمص السلمية وعن طريق خان شيخون، وربما عن طريق رابع أو خامس. ولم تك تخلو حكاية من صوت الرصاص ومن جنونه وهو يرش نزلة الجذان أو العلمين أو الفراية أو طريق حلب. ولم تك تخلو حكاية أيضاً من نعش، بل إن حكاية قد تحدثت عنأربعين نعشًا في جنازة واحدة. كما تحدثت حكاية عن مصرع رقيب في الأمن خطأً،

فذهب وفد من المدينة للعزاء به في مسقط رأسه في ربیعۃ التی
تتوسط ما بین اللاذقیة وجسر الشغور.

* * *

جراء ذلك، ومنذ يومه الأول، لم يعد العاصي إلى جدته،
ولم تذهب بنان إلى المحمية، بل لم تعد تغادر البيت. ولذلك
أذهلتها المفاجأة حين اكتشفت أن الكثير من نساء وأطفال
الجيران قد نزح من المدينة. وحين تعود الكهرباء ولو لاماً،
مثل الهاتف، تصعقها المفاجأة إذ تكتشف أن أمها نزحت مع
أبي وأسرته إلى السلمية.

في عشية ذلك اليوم، وبعدما نام العاصي، تابعت بنان
ما تعيده أغلب الفضائيات من وقائع محاكمة حسني مبارك.
وأحسست لوهلة أن حرارة الليل المرتفعة تنزل عليها برداً،
 وأنها قادرة لأول مرة منذ تحطم عصيانت المدينة على أن
تبتسم. فما دام هذا الرئيس الأبدی بجلال قدره، وابناه بجلال
قدرهما وبخاصة جمال: الرئيس القايد ووريث الرئاسة خلف
القضبان، فالدنيا ما زالت بخير. وبينما باتت قادرة على أن
تنتفقد ما بقي في خزائن المطبخ مما يوكل، وعلى أن تطهو
برغل بشعيرية للعشاء لا خبن. وبعد الوجبة الدسمة سيمضي
جهاز التحكم إلى محطة الـ N. N. C. لتشاهد بنان طبيباً

سورياً مثل شقيقها علوان سبان من يخلق من الشبه أربعين
يقول إنه من مؤسسي شبكة الأطباء السوريين تمنت بنان:
وأخي علوان أيضاً وهم يغيرون أماكن العيادات، حتى أن
الطبيب نفسه لا يعرف أين سيكون غداً، فتمنت بنان: لذلك
ضيّع حبيبي أخي. لذلك ضيّع أخي حبيبي.

وحين رأت طبيب الـ C.N.N. يحضن طفلاً ويشرح أن
رخصة اخترقت صدر الطفل واستقرت في عموده الفقري،
فشلت، عندئذ أسرعت إلى سرير العاصي، لكن رنين الموبايل
أوقفها، ثم أعادها إليه: بنان.. كيفك حبيبي؟
ما دام النهر قد أخذ حنجرة العاصي، فمن هو هذا الذي
ينادي: حبيبي؟

أجاب الموبايل:

حبيبك راتب.

سكتت بنان.

خسائرنا في معركة جسر الشغور: موبايل.

...

من عند أخي راغب حاولت الاتصال بك: خارج التغطية، أو
يرن ولا تردin.
ظننت أنني ترملت.

لا أستطيع أن أموت.

...

أنا الآن في غوفيتسي، قرب الحدود، أكاد أرى خربة الجوز.

...

من المستحيل أن أصل إليك. الموت في كل خطوة. الموت
دفعني دفعاً من إدلب إلى الحدود.

...

رقم هاتفي ظهر عندك. كلامي. أجور المكالمات من تركيا
إلى سوريا مرتفعة.

...

...

ما سألك عن العاصي؟

...

ما بك يا حبيبي؟

لا شيء يا راتب إلا أنني أشعر أنك غريب، وأنني ما عدت
حبيبك، ولا عدت حبيبتي. هل ترسل لي ورقة الطلاق أم أرسلها
لك؟ ما رأيك بالطلاق بواسطة e.S.m.S

قالت بنان، ثم أنهت الاتصال وهي حائرة بين الضحك
والبكاء. وحين استعادت ما خاطبت به راتب، ملأت أنفاس

ذلك الشاب الذي سمته العاصي الصالون، فهفت إليه، وأكدت أنه من تحب، وأنها أرملته وإن لم يتزوجا، وهمت بالنهوض للتلاقيه، لكن العاصي الصغير غمغم ونادى بصوت راجف:
ماما.

كأنها حرب

بالعاصرة الغبارية التي ضربت المدينة، شبهه واصل نفسه
في الأيام التي ناء فيها صدره بخصام ليليا وجنون المدينة.
ولكن لم يا واصل؟ إلى متى ستظل تكذب على نفسك؟ أليس
خصام نمنوماً أصعب عليك من خصام ليليا؟
حسناً، وجنون درعا؟ جنون سوريا كلها؟ أصعب من ماذا
وأهون من ماذا؟

عن هذا لا تسأل، وإن سالت أو سئلت، فلا تنشغل بجواب.
استمع إلى الله. من جديد، فيه السؤال والجواب:
يا حيف، آخ ويَا حيف

زُخْ رصاص على الناس العزل يا حيف
وأطفال بعمر الورد تعقلن كيف؟

الآن أنت وهذه الأغنية، تلفع كما الكهرباء الصفراء الشاحبة
الهاجمة على سريرك من الشارع، ودقّات قلبك ترهف وتتوس،
بينما يجتاحك وجع غامض وقادم من أعماق السنين، من
بانياس، بل من البحر، بل من نمنوما، بل من نمنوما وليليا
معاً، فتتضرع للبكاء، لكنه لا يستجيب، بل يدفعك إلى هذا
الصوت وهذا العود اللذين ينشجان:

كيف وانت ابن بلادي
 تقتل بولادي
 وظهرك للعادى
 وعلى هاجم بالسيف!
 يا حيف.. يا حيف

سميح شقير هو السبب. لولاه ما كان لكل هذا الكرب أن
 يتتكلل عليك، لذلك حق على السويداء أن تتبرأ منه، كما حق
 عليها أن تتبرأ من انحدرت من صلب سلطان باشا الأطرش،
 ما دام لسانها يرشقك شخصياً بإبره، فما الفرق بينك وبين
 هذا الذي يسمونه النظام؟ أليس رأسك مطلوبأ كرأسه؟ أية بلوى
 إذاً أكبر من أن تطلب ليлиا رأسك ما دامت تطلب رأس النظام؟
 ونمnomما يا واصل؟

ما زال واصل يتلذذ إذ يلاقي السؤال بارتشاف ذلك الضحى
 الذي قذفه من مكتبه في درعا إلى مكتب رئيس مجلس الأمن
 القومي في دمشق الذي استدعاه للتشاور، ثم قذفه عصراً إلى
 الباب الذي فتحته نمنوما، وفغرت نظراتها دهشة، ثم استنكاراً،
 ثم ضحكاً، ثم تنحّت، فدخل دون أن يحيي، إذ كان لسانه قد
 شُلّ، ولعله كان لن يبراً من شلله لو لا أن فغرت نظرات ليлиا
 دهشة، ثم استنكاراً، ثم صيحاً: بابا؟ ثم عناقًا.

بلا عتاب إذاً، تبدد الخصام. لكن ليلياً أسمعتك أغنية
سميح شقير، وأهدتك الـ C.D.، ثم سألك: صحيح يا بابا
الشباب في خربة غزالة هتفوا: النظام اللي بيجي منه شبيح،
سقّطه واستريح؟ وضحكْتْ وضحكْتْ نمنوماً، لأنك لم تضحكْ
عاقبتك ليلياً بالسؤال عن درعا، فهربت إلى ما بنى الإغريق
منها، وإلى النفق الصخري الذي يخفي تحتها غرفه وأباره،
فابتسمتْ نظرة نمنوماً، ساخرةً بالتأكيد، فأمعنتَ في الهرب
إلى قطب حوران الأوحد الإمام محي الدين النووي، وأنشدتْ:
للله دُرُك يا نوى

فرمتك نمنوماً بنظرة راثية، فطلبت النجدة من أبي تمام
في جاسم، لكنه لم ينجدك، فضررت جناحيك إلى الراهب بحيرا
في بصرى، فلم ينجدك، فضررت جناحيك إلى بختنصر وإلى
ابنته وإلى عبد الملك بن مروان أيضاً، في دير البخت، لكنهم
رفضوا جميعاً أن ينجدوك، فماذا بقي لك إلا أن تطأطئ، بينما
تشبه نمنوماً أصابعك بعناصر الأمان: ليلياً والله العظيم يا
ماما، انظري، افرد أصابعك يا واصل على طولها، الإبهام
مدكوك كأنه رئيس الدورية التي اعتقلتك أول مرة، الوسطى
كأنها العنصر الذي اقتحم غرفتك، ولو استطاع لنکش بلاطها،
السبابة مثل من يا واصل؟ نمنوماً تسأل وليلياً تجيب: مثل

الشرطـي وحـيد، والـبنـصـر مـثـل الشـرـطـي هـيـثـمـ، ما زـالـا عـنـدـكـ يـا
بابـا؟

وـهـلـ لـيـ غـنـىـ عـنـهـماـ: أـجـابـ وـاـصـلـ، وـأـسـرـعـ بـالـخـرـوجـ طـلـبـاـ
لـلـنـجـاةـ، وـأـقـبـلـ عـلـىـ دـرـعاـ كـمـاـ لـمـ يـقـبـلـ عـلـيـهـاـ مـنـذـ جـنـ جـنـونـهاـ.
وـسـرـعـانـ مـاـ تـاهـ فـيـ مـتـاهـاتـهاـ، وـغـرـقـ فـيـ لـجـجـهاـ، لـأـنـ مـسـلـحـينـ
أـصـابـواـ أـرـبـعـةـ وـثـلـاثـيـنـ شـرـطـيـاـ بـيـنـ قـتـيلـ وـجـريـحـ أـمـامـ مدـيـرـيـةـ
الـكـهـرـيـاءـ، وـمـنـعـ الـمـسـلـحـونـ سـيـارـاتـ الإـسـعـافـ التـيـ حـمـلـتـ مـنـهـمـ
مـنـ حـمـلـتـ، مـنـ الـوـصـولـ إـلـىـ مـشـفـىـ الـوـطـنـيـ، وـلـاـ إـلـىـ مـشـفـىـ
الـصـنـمـينـ، فـابـتـدـأـ السـبـاقـ إـلـىـ السـوـيـدـاءـ مـعـ مـوـتـ مـنـ مـاتـواـ.

* * *

ذـلـكـ مـاـ كـانـ صـبـاحـ عـودـةـ وـاـصـلـ مـنـ لـقـائـهـ المـفـاجـئـ وـالـمـلـفـزـ
وـالـعـاجـلـ مـعـ نـمـنـومـاـ وـلـيـلـيـاـ. وـفـيـ الـيـوـمـ نـفـسـهـ أـطـاـشـهـ الرـصـاصـ
الـذـيـ دـوـىـ فـيـ حـيـ الـقـصـورـ، وـالـانـفـجـارـ الـذـيـ دـوـىـ فـيـ الـحـاوـيـةـ
مـقـابـلـ الـجـامـعـ الـعـمـرـيـ، وـالـدـخـانـ الـذـيـ دـوـىـ مـثـلـ الرـصـاصـ فـيـ
حـارـةـ أـبـاـ زـيدـ، وـالـعـبـوـةـ الـتـيـ لـمـ تـنـفـجـرـ فـيـ دـوـارـ الـبـانـوـرـاـمـاـ، بـلـ
أـمـامـ بـابـ الـجـامـعـةـ، بـلـ أـمـامـ الـمـدـيـنـةـ الـرـيـاضـيـةـ.

كـانـ يـوـمـاـ عـاصـفـاـ إـذـاـ، لـذـكـ نـسـيـ وـاـصـلـ الـd.cـ. الـذـيـ رـمـتهـ بـهـ
لـيـلـيـاـ. وـمـثـلـ ذـلـكـ الـيـوـمـ، سـتـتـوـالـىـ أـيـامـ وـاـصـلـ، لـاـ يـهـمـ أـيـهـاـ هـوـ السـابـقـ
وـأـيـهـاـ هـوـ الـلـاحـقـ: هـذـهـ هـيـ جـمـعـةـ الـعـشـائـرـ يـاـ سـيـادـةـ الـعـقـيدـ.

يظنون أن سيادة العقید واصل أبيضانی یجهل ألاعیبهم،
ولا یعرف أنهم تنابذوا حتی کان لهذه الجمعة اسمها، فكان
على العقید أن یغزل الغزول بینه وبين واحد من شیوخ عشيرة
الصیاد مثلاً وواحد من شیوخ الولد على مثلاً أيضاً لماذا؟
لأنهم ضد المؤامرة الكونية على سوريا. وعلى الرغم من أن
العقید واصل أبيضانی لا یريد أكثر من ذلك، فقد تابع الغزل ما
أمکنه مع حمولة البایزید واستجار بجدهم أبي یزید البسطامي
قدس سره ومع حمولة الدحادلة واستجار بأجدادهم الغساسنة
جميعاً ومع حمولة المسالمة. كما تابع الغزل بأقوى مما كان
مع الآخرين، مع عشائر المقداد والمحاميد والرفاعية وأبو
نبوت والطعانية، وختم بالحريرية مستجيراً بجدهم سیدنا
الحسین بن سیدنا علی بن أبي طالب. وعلى الرغم من ذلك كله،
تمتی العقید واصل في سره لو أن جمعة العشائر حملت الاسم
الذی كان مقترحاً لها: جمعة الدولة المدنیة. فالاسم الذي حل
 محله جاء من موقع الثورة السورية ضد بشار الأسد، أي من
موقع طائفی یھیمن عليه الإخوان المسلمين: هكذا خاطب
واصل ليليا ورئيس مكتب الأمن القومي معاً، بعدما جمعهما
في حلمه الأول منذ شهور.

وعلى الرغم من غبار العاصفة التي ضربت درعا في بداية

الحلم، فقد كان مزهواً بليلياً التي فاخرته قبل أن تنظر إليه
إلى رئيس المكتب متهدية، بالجملة القادمة التي ستتحمل
اسم الشيخ صالح العلي. لكن رئيس المكتب رد ساخراً: سيكون
الحلم قد تبدد، فنحن ما زلنا في مساء السبت، ولا يعقل أن
يدوم حلم يوماً بطوله، فكيف بستة أيام ما زالت تفصلك عن
الجمعة؟

بكل ما كان يعتمل في صدره من حب لليليا، ومن حنان،
قال: لا تنسني يا بابا أنهم كانوا سيسمون جمعة الشيخ صالح
العلی ب الجمعة أشراف العلوبيين. أليس هذا دغدغة للطائفية، كما
هو اسم جمعة العشائر دغدغة للعشائرية؟

تنمرت ليليا، فخاف وواصل من أن تبهله وتبهل رئيس
مكتب الأمن القومي معه، فأسرع يحثها عن زيارة السفير
الأمريكي روبرت فورد إلى جاسم، حيث وافيتها بنفسها يا
بابا، أنا وعمّو رئيس المكتب، إلى مضافة السيف أصدق أبناء
من الكتب، أبو تمام يا حبيبتي الذي عاد من بغداد ليشاركك
أنت ورفيقاتك ورفاقي في الثورة. لذلك كان سيطرد فورد
من المضافة لو لا شفاعتي وشفاعة عمّو رئيس مكتب الأمن
القومي.

أين كرم الضيافة إذا يا أبو تمام؟

لو رأيتِ المسكين فورد الذي كان المحامون قد طردوه من اعتصامهم أمام النقابة في الشام لابد أنك تعرفين. كان جائعاً وذليلاً.

قاطعت ليليا أباها متسائلة عما حشر مستر فورد في اعتصام المحامين، أو جاء به إلى جاسم، أو مضى به إلى حماة الشهر الماضي؟

الست أنت يا أبي؟ أم هو صاحبك هذا؟ وأشارت بهزء إلى رئيس مكتب الأمن القومي، ثم تابعت: أنت تريد يا أبي وهو يريد أن تظهر الثورة كصناعة أمريكية، كما حاول غيركما أن يُظهر الثورة التونسية أو الثورة المصرية أو الثورة اليمنية أو الثورة الليبية كصناعة أمريكية. الريبيع العربي كله صناعة أمريكية يا بابا الحبيب؛ صناعة أمريكية يا.. أليس لصاحبك هذا اسم؟ أسأله عما إذا كان سمع مرشد الثورة الإيرانية حبيبك علي الخامنئي يسمى هذه الثورات بالريبيع الإسلامي.

سألت وهي تكرر الإشارة الهازئة إلى رئيس المكتب، فغضب الرجل، وصب غضبه على واصل: إياك أن تعرف أحد أن هذه الجريانة ابنته، لا هنا ولا في الشام. أنت تعرف أنهن كلهم يحسدونك على علاقتك بي، كلهم يغارون منك ويحقرنوك. لو لاي لمزقوك، وإذا ظلت هذه الجريانة بنتك فسأرفع عنك

الغطاء، وسأحرمك من كل ما وعدتك به. لن ترى رتبة العميد حتى في المنام. والله كنت سأجعلك المحافظ على هذه المدينة في يوم من الأيام. بل لماذا لا تكون وزيراً في يوم في الأيام، شرط أن لا تكون هذه الجريانة بنتك.

اطلعي بره يا جريانة.

صاحب رئيس المكتب فصاحت به ليليا: ولك أنت الجريان، وصاح واصل بها: يلعن أبوك يا جريانة، ثم صاح برئيس المكتب: اطلع بره أنت يا جريان، وعندئذ امتلاً منخراه بالغبار، حتى كاد أن يختنق، وبخاصة أن الغبار جاء محملاً بالبرغش الناشط جداً جداً في هذا الصيف، في حوران من أقصاها إلى أقصاها، لا فرق بين البساتين وبين مصبات الصرف الصحي، فكلها تفقس البرغش كما في فيلم من الخيال العلمي. ولما تساءلت ليليا عن المبيدات وأجهزة الرش والتراكتورات التي تدور بعمال الرش من مفرق جاسم للصنمين، عندئذ ناح واصل: حاجي تهلي الدمع يا عيني، واحتضن ليليا وهو يعدها بحوران التي ليس مثلها حتى في الأحلام: سترين يا بنتي يا حبيبتي العنبر الأذرعاني والزيتون الفيقي واللوز البختي والليمون البصراوي والرمان الجاسي. ستذوب في حلقك راحة الصنمين قبل راحة طفس بعد راحة خربة غزالة قبل

راحة أي معلم من هذه المعامل التي ستتوقف إذا لم تتوقف هذه المضروبة الثورة. انتظريني فقط حتى أنتهي من هؤلاء الذين يملأون البراميل البلاستيكية بالرصاص، ويهربونها من الرمثا إلى خزانات المياه التي ترینها على كل هذه الأسطح، من نصيب إلى سطح هذا المكتب. انتظريني يا بابا حتى أنتهي من هؤلاء الذين صاروا يضعون أطفال الحضانات والرياض والصف الأول الابتدائي في صدر المظاهر، لأن هذه الحيلة ستمعني عنهم وعن أطفالهم. اسمعي يا ليلا، لا تقاطعني، عودي إلى مكانك.

لكن ليلا فتحت نافذة المكتب العريضة، وقطعت الكهرباء عن المدينة كلها، وأشارت إلى قمر التمام: قرب يا حبيبي، فاقترب حتى كاد يدخل إلى المكتب، وعندئذ أخذت ليلا تغنى

له:

سِمعْتَ هالشباب يمّا الحرية ع الباب
طلعوا يهتفوا
شافوا البواريد قالوا:
إخوتنا هنّ ومش رح يغدونا
فغنى القمر:
ضربوا بالرصاص الحي

متنا

بإيدٍ إخوتنا

باسم أمن الوطن

واحنا مين إحنا؟

و قبل أن تنتهي الأغنية أخذ القمر ليلياً ومضى بها، فبكى
واصل بكاءً مراً. وناج بالبيت الوحيد الذي حفظه طوال هذه
الستين التي طواها في درعا:

حمامة نوحى ع الجبل وأنا ابكيك

ولم يتوقف عن البكاء حتى عادت الكهرباء الشاحبة
الصفراء، فمسح دموعه، ولبث ينتظر معجزة لم تتأخر، إذ
دخلت نمنوما من حيث خرجت ليلياً والقمر، وكانت بشوشة
كما لم يرها من قبل أن ينفصل. كانت تتقد بياضًا وشقرة
وصبا، وهفا واصل إليها، ونهض، ومشى خطوتين، لكن
نمنوما تابعت سيرها حتى اختفت، فعاد إلى جلسته حائراً بين
أن يحزن ويندم ويستعطف، وبين أن ينتقم لرجلولته المهدورة
ولحبه المغدور، فینادي شمسة من القامشلي، ووهيبة من
بانیاس، أو ضحى من الشام، أو يسرى من درعا، ويقسم بينهن
بالقططاس ما مضى على غياب نمنوما، ثم يناديهم ليقسم
بينهن ما تبقى من عمره، مكرراً لكل منهن ما حذرها به قبل



أية قبلة: لا زواج بعد نمنوما، فصحن بصوت واحد: لا، ولأن الصيحة كانت أشبه بانفجار عبوة ناسفة، بل أشبه بانفجار قنبلة مدفع، أفاق واصل من حلمه هلوعاً، ونهض، وتمطى، ثم هز رأسه متوعداً، وهمهم: ترْوَجْ يا واصل. ترْوَجْ اليوم قبل بكرة. لا تنتظر هذه المضروبة الثورة حتى تنتهي. قد تموت قبل أن تنتهي. نمنوما خلصت يا واصل. ولكن ماذا لو كانت ما خلصت؟ كم قالوا عن هذه المضروبة الثورة خلصت، ولم تخلص؟

وأسرعت أصابعه إلى دُرْج المكتب لتأتي إليه بهذا المغلف، ولتنعم عليه بهذه الصور التي يخبيها هذا المغلف: اختز أية واحدة من هؤلاء اللواتي صرت تقص صورهن من الصفحة الأخيرة في جريدة الوطن، ليس لأنهن ممثلات هوليوديات، ولا لأنهن ملكات جمال، بل لأنهن شقراوات يا واصل: الشقراء أبيغل برسلين، الشقراء نيكول كيدمان، الشقراء درو باريمون، الشقراء ميغان هيلتني، الشقراء إيفون ستراهوفسكي، حتى لو كانت شقرة الواحدة منهن مصطنعة، ترْوَجْ. العمى، كأنها حرب يا سيادة العقيد.

نمنوما، أنت العيد وأنا النحر

صوت نمنوما مجبولاً من الخوف.

حبيبي: أنتظرك هنا.

السماء نفسها مفككة هنا، كأنها موجة تسرع إلى نهاياتها.

السماء تسبح هنا.

تعري وتعالي.

سوف نترك روحينا تصيران سبائب لهذه الأمواج. وحين تقر السبائب في نقا البحر، نعود جسداً بلا روح يسند جسداً بلا روح، فلا يهم أن نمضي إلى البيت أو أن نتمشى على الكورنيش أو أن ناوي مبكرين إلى المقهى، قبلة الشاشة الكبيرة التي لا تجرؤ على أن تغادر قناة الدنيا إلا إلى القناة الإخبارية. وعلى أية حال، سواء أقمنا في المقهى أم في البيت، في الحديقة أم في الشارع، فلن تكون أخطاؤنا فادحة في إحصاء من استشهدوا أو قتلوا أو ماتوا منذ الخامس عشر من آذار حتى الآن.

خلال ثلاثة أشهر، بالضبط، خلال خمسة وثمانين يوماً، قُتل ٢٣٥٥ سورياً، منهم مئة طفل، وست وسبعون امرأة. ويقال إن مئة وأربعة وثمانين منشقًا عن الجيش أعدموا ميدانياً، وكل



ذلك عدا عن قضاها من الجيش والشرطة ومن لف لفهما. كم هو المجموع يا نمنوما؟

والآن، كم بلغ العدد؟

كما أحصيتألفاً ستحصين ألفين. ثم سأضع الرقم ضعفين فتضاعفيه ثلاثة، كي يليق بالجرحى. ثم سأضع الرقم أربعة أضعاف، فتضاعفيه خمسة، كي يليق بالمعتقلين، وسندع لغيرنا إحصاء النازحين.

لا أعرف بالضبط متى بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي: منذ اخترت سمعي الرصاصية الأولى؟ منذ سمل عيني الشهيد الأول؟ منذ جمعة الشهداء أم منذ الجمعة العظيمة؟ منذ جمعة آزادي الحرية أم.. لكنني أعرف أن الخوف بدأ ينخر في عظامي يوم شيعت حماة عشرات التوابيت. أما يوم شيعت اللاذقية عشرات التوابيت القادمة من جسر الشغور، فقد أطبق الخوف علىي.

الآن لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، كما يردد أبو نوزات، حتى بت لا أجرؤ على أن أذكره بالسلامية.

هذا حق الصائل في الفقه والشرع: يقول.

صار أبو نوزات فقيهاً. ما عدت خائفاً فقط. صرت حائراً يا نمنوما. صرت مرتبكاً.

هذا حق الدفاع عن النفس: يقول أبو نوزات.
حتى بهنан بات يتساءل: هل نطلب من الشباب أن يتلقوا
الرصاص بصدور عارية؟

من المفهوم أن يرفض جنود وضباط رمي المتظاهرين
بالرصاص أو بالقنابل المسيلة للدموع، بل حتى أن يضربوهم
بعصاً: قلت مرة لأبو نوزات بعد شائع خبر لواء الضباط
الأحرار، فرد: ليس من المفهوم أن يرفضوا فقط، بل من المفهوم
والمطلوب أن ينشقوا. وعندما شاع نبأ الجيش السوري الحر
بت على يقين بأن زمن الهاتف سلمية، سلمية قد ولّى، لكنني لم
أجرؤ على أن أصرخ بذلك أمام أبو نوزات.

ماذا تقول نمنوما؟

صوت نمنوما صار مجبولاً من الحزن أيضاً، وليس من
الخوف وحده.

كلما غفوت، ليلاً أو نهاراً، أحلم بنمنوما: قميصها غريق
في عطر دوخني، حتى بعد أن صحوت.

الآن سأراوغ حرارة الصيف كما أفعل في كل صباح.
سأذهب إلى أبو نوزات لأطمئن عليه وعلى ابنه. كل واحد
منهما أكبر حماسة، بل وتهوراً، من الآخر. الابن عازم على

أن يتطلع في الجيش الحر. وأبو نوزات يحرضه على التطوع،
كاماً الخوف في صدره. أنا أعرف أبو نوزات جيداً. حين يكون
في دخلته ممزقاً، يظهر متماسكاً وصلباً، كأنه لا يشكو من
شيء.

نمنوما: جسد من مرايا.

نمنوما: جسد من فضة.

نمنوما صارت خيالي بعد كل هذا الغياب. كلما عزمت على
أن أذهب إليها، يخور عزمي، لكن حماة أنعمت علىي بذلك اللقاء
الخاطف والعاصف.

يا حماة حنا معاكي للموت: يهتف أبو نوزات وابنه مع من
يهتفون كل مساء في الرمل الجنوبي، وهم يستضيئون بعلم
الاستقلال الطويل المخيّم على الرؤوس.

الآن ما عدت قادراً على أن أكذب أذني: هذا صباح آخر من
الرصاص. هذا صباح آخر من أصابع الديnamit، والساحة هي
الرمل الجنوبي، رمل الفلسطينيين يا أبو نوزات.

رمل أبو نوزات: سيقول بهنان حين نلتقي في مكتبه في
الجامعة. سيقول الحاجب وهو يقدم الشاي لنا:
أنا ساكن مقابل مسبح الشعب، أحاول الاتصال بزوجتي

فلا ترد. ما كان لي أن أتركها. أخي كنّاس في البلدية، وبنته
في الغراف، أخذ زوجته وأولاده وسافر بهم إلى القرية.
من أين أنت؟ سأله بنهان.

من دركوش يا دكتور؟ أجاب.
دركوش أيضاً خطرة: قلت.

لكنها قرب الحدود، إذا صار ما صار مخيم اللاجئين
قريب: قال الحاجب وخرج، فخرجت، وقبل أن أصل إلى مكتبي
حاولت الاتصال بأبو نوزات، فلم يرد.

وظل لا يرد حتى المساء، حين سألني بجهاء عما إذا كنت
في البيت، ثم أخبرني أنه قادم مع أسرته، وقطع الاتصال.
والآن ما عدت قادراً على أن أكذب عيني ولا أذني، فما لا
يرويه أبو نوزات ترويه أم نوزات، وما ينساه أبو نوزات أو أم
نوزات يرويه نوزات، كما يرويه ذهول الفتاتين وهلعهما:

في بيوت التنك خلف محطة القطار ابتدأ حاصرني
الرصاص. اندسست بين الماعز والدجاجات التي أخرسها
الخوف كما أخرسني. كان مخبأي يطل على مطبخ في البناء
المقابلة من مساكن المحطة. في المطبخ تكون رجل وامرأة،
ثم انضم إليهما شاب. فجأة أريث صرخة المرأة على صوت
الرصاص. رأيت الشاب ينتقل بين الرجل والمرأة، ويضرب

على جبينه، ولا بد أنه كان يصرخ، ثم رأيته يمدد الرجل على الأرض ويغطيه بقطاء الطاولة. لابد أن الرجل مات. فجأة هدا الرصاص فحمل الشاب المرأة على ذراعيه، لا بد أنها جريحة، وانطلقت، فانطلقت قوقة الدجاجات ومأمأة الماعز.

وقال نوزات:

مائات من رجال الأمن، وأكثر من مئة عسكري يا أستاذ. كأنها جبهة: من بستان الحمامي إلى الغراف إلى السكنتورى إلى المخيم، وتابع إلى معسكر للطلائع، إلى الشاليهات، رغم أن الحاجز والسواتر قد أزيلت.

وقال أبو نوزات:

الاعتقالات بالمئات، والباصات تنقل العائلات إلى المدينة الرياضية.

هل ترك النازحون من جسر الشغور لغيرهم مطحراً في المدينة الرياضية: سألت، ولما ظل سؤالي معلقاً، خجلت، وأسرعت بالخروج.

قادتنـي الكولـت نحو أوتـيل السـمانـ. حـاولـتـ أنـ أـقـنـعـهاـ بالـذـهـابـ إـلـىـ حـيـ الغـرـيبـةـ لـأـقـضـيـ لـيـلـتـيـ فـيـ بـيـتـ بـهـنـانـ، رـفـضـتـ. حـاولـتـ أنـ أـقـنـعـهاـ بالـذـهـابـ إـلـىـ جـبـلـةـ، فـأـقـضـيـ لـيـلـتـيـ فـيـ بـيـتـ أـخـيـ وـلـيدـ، وـأـرـىـ أـمـيـ بـعـدـ غـيـابـ طـوـيلـ، رـفـضـتـ. فـكـرـتـ

أن دمشق نفسها ليست بعيدة، فبعد أربع ساعات يمكن أن أكون في أوتيل برج الفردوس، بل يمكن أن أذهب مباشرة إلى بيت أم كوز ممیز وأم كوز أنطوان، بعد أن أهتف لنمنوما مقلداً أم كلثوم: أنا بانتظارك مليت، بل مقلداً نجاة الصغيرة: أنا بستنّاك أنا. لكن الكولت سخرت مني، فرفضت المبيت في أوتيل السمان، ومضت بي إلى الصليبة، ووقفت قريباً من مطعم لا زادة، فترددت في النزول، لأن الشارع شبه خال، وصدى الرصاص يترجع غير بعيد.

انتظرت حتى تلاشى الصدى، ثم أسرعت أسابق ريقى الذي يتحلّب ما إن يتذكر صحن الفول أو الفتّة في مطعم لا زادة. وبدلأً مما عهدت من بهجته، رأيته جاهماً. ولما خطفت نظرة من الطاولات، رأيت الوجوه جاهمة. وقبل أن أبلغ لقمتي الأولى دوى انفجار، فانفجر، فثالث، فوقفت مثل الآخرين، وانحشرت بينهم في الباب وأمامه. ولم يكدر صدى الانفجار يتبدد حتى لعلت رشقات الرصاص، لا يكاد يفصل بين رشقة ورشقة نفس قصرين، فبدأ بعضهم ينصرف، وفكرت في أن الخطر يتربص بي أينما قدت الكولت أو قادتنى هذه الليلة، فعدت إلى الطاولة، وهتفت إلى أبو نوزات: لن أعود الليلة إلى البيت، ولم أستمع إلى صياحه. وفجأة هاجمتني الضحكه،

فلجمتها: لماذا لا أنام في السيارة؟

نمنوما: صار خوفي مسخرا.

نمنوما: أعيدي إلى شجاعتي.

* * *

صار صوت نمنوما مجبولاً من الصلادة.

مات سراج يا صباح: نطقْتُ أخيراً في الساعة الثامنة
والنصف من هذا الصباح، قبل أن أتوجه إلى الجامعة.

نمنوما: طوال هذا النهار وأنا أفكِّر في أن حبي لك لا شبِّيه
له إلا الموت. كلامها بلا رجعة. لا تحدثيني عن التقمص ولا
عن يوم الحساب. أنا مؤمن بك.

مات سراج إذا؟

وماذا عن ليلاً؟

يخرس الصوت الصد، فألجا إلى البحر، أشكو إليه عرام
هذه الأيام، فيتلغَّز مثل هذه الأيام، بعدما صارت مجبولة
بالدم.

لماذا؟

* * *

نمنوما:

منذ لجأ أبو نوزات وأسرته إلى بيتي، فلجمأت إلى حضن أمي

في بيت وليد، وأنا لا أفكِر إلا في الديكتاتورية، لكان فيها سر خوفكِ وخوفي، سر هذا القتل، هذه المظاهره، هذه الهتفات، هذه الأغاني، هذه السلمية، هذه العسكرة، هذه المدينة الرياضية التي تحولت إلى ملجاً قبالة البحر، هذه الخيام التي تحولت إلى ملجاً على الحدود التركية، هذه اللاخيمات التي تحولت إلى ملجاً من وادي خالد إلى طرابلس، ومن درعاً إلى... عندما وصلت إلى جبلة ناداني الكورنيش الذي لا أستطيع أن أرد له طلباً. لكن الكورنيش كان يعج بشباب وصبايا وأطفال يمدون جذوعهم من نوافذ السيارات، أو يملأون أقفاصها، أو يتمايلون على الموتورات، ولا يكاد يلمح بينهم من لا يلبس التيشيرت الأبيض المصدر بصورة، ولا يكاد يلمح بين الأطفال والصبايا خد أو جبهة لم يتلوّنا بالعلم، أو بكلمة (منحبك). انسحبت بصعوبة. ولما شكوت لوليد ما لقيت، قال إنها بقايا مظاهره لدعم الإصلاح، واستنكار العصابات المسلحة، وقد طافت في جبلة من الدريبة والعزة والفيض إلى الكورنيش والجببيات، ثم تجمعت عند المجمع الحكومي. وكرر وليد مراراً أن المظاهره عفوية، بلا تدبیر من الحزب أو الأمن.

رأيت كيف أن المریب لا يکاد يقول: خذوني.

نمـت وأنا أفكـر في الـديكتـاتـوريـة. وفيـ الـيـومـ الثـانـيـ، عـدـتـ منـ

الجامعة مبكراً، فسألتني سما أن أرافقها إلى المركز الثقافي
لنزور معرض (أطفال، فنانون، كولاج). وقد أدهشتني الكثير
من اللوحات التي رسمها عشرات الأطفال للبحر، بالمائي،
وبالباستيل، وبينها ما استخدم بقايا مجلات أو جرائد. غير
أنني ما إن عدت وسما إلى البيت حتى وجدت أمي تمسح
دموعها، ووليد يعتنّ بها: لماذا يا أمي؟ لماذا يا وليد؟
بما استعادت من صوتها، استعادت ما رأت للتو: الضماد
على أصابعه منقوع بالدم، صدره عار والسحاجات تملأه كما
تملا وجهه. يا إلهي! ما بقي في القلوب رحمة!
سألت: من هو يا أمي؟

قال وليد: على فرزات، ولعن الفضائيات المغرضة، فلعلت
أمي الوحش الذين فعلوا بالمسكين ما فعلوه.
إنها هي يا نمنوما: الديكتاتورية.

ستقولين: سكت صباح دهراً ونطق كفراً. سترتساءلين: ما
هذا الاكتشاف العبرى؟ أنا نفسي قلت لنفسي بعدما عاد
أبو نوزات وأسرته إلى ما تبقى من بيته، فعدت إلى بيتي:
لولا الديكتاتورية ما كنا وصلنا إلى هنا يا عقلق زمانك.
لكن إسماعيل كadarie لم يسخر مني كما سخرت أنا مني،
ولم يسخر مني كما سخرت أنت مني، بل تناول كتابه (ربيع

الباني) من الرف الأعلى في مكتبتي تذكرينها وأنشد يقول،
وعمر السامعين يطول:

* * *

هرقل قتل الهايدرا. الديكتاتورية يا صباح مثلها مثل
الهايدرا، كلما قطعت لها رأساً نما بديله. وهذه الأفعى، هذه
الديكتاتورية، تولّد خلائها التي بها تكون، وبها تتأبد:
قوانين، فنون، أخلاق، روايات، أحاسيس، أصنام، قيم..

هزّت رأسي مؤمناً فسألني إسماعيل:
هل تعلم أن للديكتاتورية، مثلها مثله، طفولتها،
وشيحوختها، وشبابها؟

قلت وأنا أداري خوفي من أن يكون بيني وبين الديكتاتورية
أيّ شبه: لكنني أموت ولا تموت.

قال مشقاً: دعك من هذا. حكاية الموت حكاية أخرى. موتك أو موتي
أو موتها حكاية أخرى. ولكن لا تنس أن العنف هو الروح
التي تحييا بها الديكتاتورية. عنف ملموس، عنف رمزي، عنف
مادي، سُمّ أيّ عنف تشاء.

قلت متعالماً:

لذلك كتبت أن الديكتاتورية في ذروتها تصبح أكثر ليونة.

قال بحنين:

دعك من هذا الآن، وخلّك بما هو أهم. الديكتاتورية يا أستاذ صباح تبدأ منذ سنتها العاشرة تفكّر في الاستمرارية. قل: في التأبيد، في التخليل، فترتكب فظائعها الأبشع. مازاً كنت أنت في مثل ذلك العمر؟

قلت وأنا أتفرج على فتى في الخامسة عشرة أو في السادسة

عشرة:

كنت في بذلة الفتوة أرضع حليب الديكتاتورية، بينما كانت هي تهدم مدينة حماة على من فيها.

قال مقاطعاً:

يا سلام عليك يا أستاذ صباح! الآن أراك تودع الأربعين، أمد الله في عمرك، وجهك يطفح بالصحة، أما الديكتاتورية في مثل سنك، فتظهر عليها علامات الاحتضار، ولذلك تصبح مهوسّة بالموت. لذلك لا تواجه المعارضة في مثل هذا العمر إلا بالإبادة.

في الأربعين تبدو الديكتاتورية كأنها ترى نهايتها الوشيكة والأكيدة، ولذلك لا تتوانى عن إبادة المعارضة. لماذا؟ كيلا تهناً بموتها هي. وبال مقابل تصاب المعارضة بالعدوى،

أي تصبح مهووسة بالموت، بالنهاية الدموية للديكتاتورية.
قل: مهووسة بالاستشهاد.

قلت شارحاً، فهزّ رأسه مؤمناً، وتابع:
وهكذا، بفضل العنف والدم، تضمن الديكتاتورية استمرارها،
بصيغة ما، وبأي ثمن، ولكن بأيدي معارضيها هذه المرة.
تمتّمت أسيان:

هذا هو الهاوس بالموت، بدلاً من الهاوس بالحياة.
قال إسماعيل:

سيبرز لك من «يتفيهق»: الهاوس بالموت من أجل الهاوس
بالحياة. ولكن المهم هو أنه إذا ظهرت أية علامات على
الديكتاتورية للمرونة، للتخلّي عن الهاوس بالموت، لوقف
القتل أو للتراجع أو للضعف، فعلينا أن نساعدها على ذلك.
فهمت يا صباح؟ علينا أن نساعدها على ذلك، وأن تكون في
الوقت نفسه في أقصى درجات اليقظة، كيلا نقع في أفخاخها
أو في مغرياتها. لا ينبغي أن تخدعنا الديكتاتورية بما
تجود به من نعم الإصلاحات أو التنازلات، وفي الوقت نفسه
علينا أن نساعدها على المرونة، من أجل أن نخفف من ثمن
سقوطها علينا، وليس عليها. أمامك يا أستاذ صباح شبه واحد
لمساعدتنا للديكتاتورية على التخلص من الهاوس بالموت،

هل تعرف ما هو؟

للأسف لا أعرف. ما هو؟

هذه المساعدة تشبه انتزاع السم من الحية. إذا نجحنا فهذا هو انتصارنا الأول المهم. يا أستاذ صباح: عندما تأتي ساعة الديكتاتورية الأقل هوساً بالموت، والأكثر مرونة، سوف تكوننا بنيرانها، لكنها ستسقط وحدها في الجحيم، ولن نسقط معها فيه.

هل هي السلمية إذا يا أستاذ كاداريه؟

نعم، هي السلمية، وأحياناً هو الحوار، وهذا لا يقل خطراً عن العنف. أنت بالحوار أمام خصمين متخاصمين: الديكتاتورية من جهة، ومعارضوها الذين يريدون إسقاطها فوراً، وبأي ثمن، من جهة ثانية. وعلى كل حال: إسقاطك الديكتاتورية لا يعني موتها. موتها يا أستاذ صباح يعني تحويل الينابيع عن جذورها. مفهوم؟

أعرف أنك تنادي بتبييس الديكتاتورية، وليس بإسقاطها بالعنف. أعرف أنك تفضل تجفيف الديكتاتورية على تقويضها بالقوة، وأنا أؤيدك. لكن دعوتك إلى الحوار معها من أجل التبييس والتجفيف، دعوة ملتبسة، دعوة خطرة وغامضة. أنا أفضل أن تقول بالسلمية في مقاومة الديكتاتورية. وقد يكون

الحوار من السلمية، بحسب موازين القوى، بحسب الظروف.
اسمع يا مسْتَرْ غاندي: اسمحوا للديكتاتورية أن تتنفس، بدلاً
من أن تساعدوها على تحقيق ما تريد، بدلاً من أن تساعدوها
على حرق الأخضر واليابس. عندما تسقط الديكتatorية بالقوة
يا مسْتَرْ غاندي، يكون ديكتاتور آخر واقفاً بالباب. أظن أن
ترجمة كل ذلك إلى العربية قد بدأت في هذا الذي تسمونه:
الربيع العربي.

* * *

باختفاء إسماعيل كاداريه أثقلت الوحدة على صباح،
فتناول كتاب (ربيع ألباني)، وقلب فيه، وتمني لو أنه يستطيع
أن يؤلف صنوأله، وليكن عنوانه (ربيع عربي) أو على الأقل
(ربيع سوري). وبما أن الوقت كان لا يزال مبكراً، فقد أغمض
عينيه وشرع بالتاليف، ابتداء بالديكتاتور، وهو ما لم يُعن
إسماعيل كاداريه به. ولكي يكون استدراكه لما فات كاداريه
أوفى، فكر في أن يبدأ كتابه هو، أو ينتهي، بما يعتبره من عيون
الشعر. وأخذ يترنم بما يخطط، متقمصاً شخص الديكتاتور:

الم أجد الناس جوعى.. فأطعمت
وعارية فكسوت
وتائهة فهديت؟

وأما بنعمة الحكم، حكمي،
 فحدث
 وحكَ صدغه الأيمن بحثاً عما هو أقوى، ثم عاد يتربّن:
 ساختار أفراد شعبي
 ساختاركم كي تكونوا جديرين بي
 سأمنحكم حق أن تخدموني
 وأن ترفعوا صوري فوق جدرانكم
 وأن تشکرونني لأنني رضيت بكم أمّة لي.
 وحكَ صدغه الأيسر بحثاً عما هو أقوى، ثم استوى في
 جلسته، والتمعت عيناه كمن ظفر بلقيا وهو يفك فيما قالت
 العوام في الديكتاتور: العوام في سوريا يا عزيزي إسماعيل
 كاداري، اسمع أو اقرأ: الديكتاتور ختيت^(١)، غشمشم^(٢)،
 طرمّاذ^(٣)، طرونو^(٤)، فففاق^(٥)، شرقوط^(٦)، جنباظ^(٧)، بوحمار^(٨)،
 فوشاش^(٩)، سِقْح^(١٠).

(١). خسيس.

(٢). من يركب رأسه، لا يثنيه شيء عما يريد، وإنه لذو غشممشة.

(٣). صلف، مفاحف ونفخ.

(٤). طاغية (بالسريانية).

(٥). أحمق.

(٦). هائج ومحتدٌ غبيظاً.

(٧). محثال.

(٨). نوع من الحيات، بطيء الحركة.

(٩). ضخم بغير مادة ولا قوة.

(١٠). جسر في الكلام.

هل اكتفيت أم أزيد؟

وريما كان صباح سيأتي بضعف ذلك أو أكثر من قول العوام
السوريين في الديكتاتور، لو لا أن صوتاً صاح به: الناس تموت
وأنت تلهو؟ بدلاً من هذه الألاعيب يا ألعان قم انزل إلى ساحة
العلبي، انزل إلى ساحة اليمن، انزل إلى ساحة الشيشخاه،
انزل إلى ساحة أوغاريت، انزل إلى المدينة الرياضية. إذا كنت
لا تتظاهر ولن تدافع عن مظاهرة، لا برصاصة ولا بعصا،
فعلى الأقل قم بعمل من أعمال الإغاثة.

مات سراج يا صباح. هل تسمع؟
مات سراج.

وهو صوت نمنوما إذا، هو حزنها، هو خوفها، هي صلادتها
أيضاً، لذلك يحزن صباح، يخاف ويصلد، ولكن بلا صوت.
وبالصمت المبعّ بالدم والشوق يتسلل من البيت، وتقوده
قدماه إلى حي الغريبة، ينشد بصحبة بهنان عوناً.

لكن بهنان وزوجته شهدان يعزيان الجيران في البناء
المقابلة باستشهاد ابنهم في دير الزور، كما قال دمر بعد ما
رحب بعمّو صباح، وقبل أن يسرع إلى الموبايل مجيباً نداءه،
بينما راح صباح يفكّر في أنه وبهنان وأبو نوزات، ما عادوا

ينتقلون من خيمة إلى خيمة معزّين منذ أسابيع، وبلا قرار:
ترى لأننا ما عدنا قادرين على اللحاق بالموت من حارة إلى
ضيعة، ومن قرنة إلى قرنة؟

عندما انتهى دمر من المويائل تدفق متباهياً: اليوم
ذهبت يا عمّو إلى حرف المسيترة، وشاركت بتطيير العلم
بين تلّة قطعين وتلّة حمبارو، أول علم طيار في سوريا يا
عمّو، وأمس اشتريت أنا وعدد من أصدقائي ثلاثة بروتيل
وكلسون، وزعندها على الجنود في ساحة أوغاريت وفي
ساحة الشيخ ضاهر، كل عسكري غيار داخلي، لو رأيت الفرحة
بعيونهم يا عمّو.

وانقطع تدفق دمر بانقطاع الكهرباء، فسأل عما إذا كان
عمّو صباح يفضل ضوء الشموع أم ضوء الكاز؟
دمر يعرف أن عمو صباح معارض، على الأقل هو يعرف
أن عمو صباح ليس مثل بابا بهنان، فلماذا يخبره كل مرة
بأنشطته؟ تراه يستفزك يا عمّو؟

تساءل صباح وهو ينتظر الضوء، ولما اقترب دمر بالشمعة
وبالسراج معًا، أسرع صباح بالوداع، وترك قدميه تقود أنه
حيث تشاءان، فعبرتا به أمام حديقة الأطفال، وإذا بجمهرة
من الفتيان واقفة أمام باب الحديقة تهتف: خلصت خلصت.

وَفَكْرُ صَبَّاحٍ وَهُوَ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الدَّوَارِ فِي أَنْهَى مَا مِنْ نَهَايَةَ تَلُوحُ
لَا سَعِيدَةَ

وَلَا بَئِيسَةَ، حَتَّى يَهْتَفَ أَحَدٌ: خَلَصْتُ. وَفَكْرٌ فِي أَنْ مَنْ حَقَّ
هُؤْلَاءِ الْفَتَيَانَ أَنْ يَهْتَفُوا بِمَا يَشَاءُونَ؟ وَلَكِنْ لِمَاذَا لَيْسَ مِنْ حَقَّ
أَيِّ مَوْاطِنٍ أَنْ يَهْتَفَ بِمَا يَشَاءُ؟
لَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَقَّكَ أَنْتَ أَوْ غَيْرِكَ أَنْ تَهْتَفَ مُثْلًا ضَدَ الْأَكْرَادَ،
أَوْ ضَدَ السُّنَّةَ، أَوْ ضَدَ الْمُسِيَّحِيِّينَ، أَوْ ضَدَ الْعَلَوِيِّينَ، أَوْ ضَدَ أَيِّ
طَائِفَةَ أَوْ قَوْمِيَّةَ: فَكْرُ صَبَّاحٍ وَهُوَ يَمْشِي مَطْرَقاً، إِذَا بَصُوتٍ
يَنْقُضُ عَلَيْهِ بِتَحْيَةٍ حَارَّة، ثُمَّ بِعَنْاقٍ حَارٍ، ثُمَّ بِعَتَابٍ حَارٍ: نَسِيتَ
أَنْ لَكَ أَخْتًا فِي حَيِّ الْغَرِيبَةِ؟ نَسِيتَ صَهْرَكَ طَيْبَ قَشَابَ أَكْدَعَ
مِنْ فِي حَيِّ الْغَرِيبَةِ، وَمِنْ فِي الْلَّادِنَقِيَّةِ، لَا تَزَعُلُ.

كَانَ صَبَّاحٌ قَدْ عَلِمَ مِنْذُ أَسَابِيعٍ، مِنْ أَمْهُ وَمِنْ بَهْنَانَ، أَنَّ
طَيْبَ صَارَ فَجَأَةً نَجْمًا مِنْ نَجْوَمِ الشَّبِيَّةِ، وَلَذِكَّ صَارَ صَبَّاحٌ
يَكْتَفِي بِالْأَطْمَئْنَانِ عَلَى أَخْتِهِ جَهِيدَةَ وَأَوْلَادِهَا هَاتِفِيَّاً. وَلَذِكَّ
أَيْضًا قَابِلَ طَيْبٍ بِفَتُورٍ. لَكِنْ طَيْبٌ اندْفَعَ يَلْوُمَ:

لِمَاذَا لَمْ أَرْكِ فِي حَفْلٍ تَكْرِيمَ الشَّهَدَاءِ؟ أَنَا قَادِمٌ مِنْ هَنَاكَ،
مِنْ أَمَامِ قِيَادَةِ القَوْيِ الْبَحْرِيَّةِ. مَجْمُوعَةٌ (سُورِيٌّ لِلْأَبْدِ) نَظَمَتْ
التَّكْرِيمَ. أَلْسْتُ عَضْوًا فِيهَا؟ قَرَرَتِ المَجْمُوعَةُ إِقَامَةً مَهْرَجَانَاتٍ
تَكْرِيمًا لِلشَّهَدَاءِ فِي الْحَارَاتِ وَالْقَرَى. يَوْمِ الْأَحَدِ أَقَامَتْ مَهْرَجَانَاتٍ

في حي المنتزه، وكرمت خمسة شهداء وأربعة جرحى. لماذا لم أرك هناك؟ أهل الشهداء كان نصيبهم شهادات استثمار بنحو ٢٠٠٠٠ ليرة، والجرحى كان نصيبهم بثلاثين ألف ليرة. ألم تتبّع لهم؟

أطلق صباح ضيقه بزفير حران، لكن طيب تابع متابهياً: صهرك طيب شارك في مسيرة السيارات التي انطلقت من اللاذقية بالعشرات إلى حلب. استقبلونا عند دوار أبي فراس الحمداني، شي بيرفع الراس.

ولماذا كل هذا؟ سأل صباح باستفزاز، فرد طيب بجفاء: لنقوى وحدتنا الوطنية، فمد صباح قدمه بخطوة ملواحاً بالوداع، لكن طيب سأله ساخراً: سمعت أنك من المعارضة، صحيح؟ فرد ساخراً أيضاً: وأنا سمعت أنك من الشبيحة، صحيح؟

وكان رجلان يقتربان، فهمس طيب وحاجبه يشيران إليهما:

هل تعرف من هما؟
قال صباح:
القصير هو نبيل سليمان، كاتب، والأخر زميلي في الجامعة: الدكتور منذر خدام.

انتظر طيب حتى عبر الرجال، ثم قال كأنما يتوعد:
كلكم معارضة.

أليس أفضل من أن نكون شبيحة؟

سؤال صباح، بينما راح يفكر فيما بدأ طيب كل هذا التبدل
خلال شهور معدودة!

لماذا لم تحضر معهما مؤتمر المعارضة في أوتيل سمير
اميس؟

سؤال طيب، فأجاب صباح مبتسمًا:
إذاً أنت تتبع أخبارهما وأخباري.

قال طيب باستعلاء:

وأعرف أنك مثل نبيل سليمان، لم تنضم إلى حركة (معاً).

قال صباح متصنعاً بالإعجاب:

إذاً أنت لست من الشبيحة فقط، بل من المخابرات أيضاً.
وأنا على رأس من هاجموا بيت نبيل سليمان في قريته.
دمّرنا سيارته، وهدمنا سور الحديقة، ولعنة «سلسفيله». وأنا
كنت أيضاً على رأس من هاجموا بيت منذر خدام في قريته،
ولكن اكتفينا بالحجارة. لابد أنك سمعت.

سمعت بالاعتداء، ولكن لم أسمع ببطولاتك. لماذا يا طيب؟
اسمع يا أستاذ صباح: صحيح أنا صهرك، ولكنك لا تعرفي

جيداً. هذه المرة سأكلمك بالعربي الفصيح. أنت سني وأنا علوي، ولو لاك ما كان أهلك أعطوني جهيدة. أنت معارض وأنا مؤيد. ماشي الحال. نصف مصيبة، أما نبيل سليمان ومنذر خدام فمنا وفيينا. بيانات ومؤتمرات ومعارضة، لا يا أستاذ، ما ماشي الحال. ممنوع. ستقول لي: ممنوع على الجميع. صحيح، ولكن على جماعتنا بشكل خاص ممنوع وألف ممنوع.

ما أعرفه أن الرجلين يقولان إنهم من منبت علوي، ولكنهما لا يعدان نفسيهما علويين. الرجلان ضد الطائفية، علمانيان. هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر. كان يجب أن يعاقبا، وهذا قد عاقبناهما. أما أنت، فلم يأت دورك بعد، وأرجو ألا يأتي، وألا يكون على يدي.

يا صهري العزيز: أنا لا أحب منذر خدام ولا كتاباته، وليس بيسي ويبينه حتى كلمة مرحبا. ولا أحب نبيل سليمان ولا روایاته، وليس بيسي ويبينه حتى كلمة مرحبا. بكرة يفافقنا برواية عن اعتدائكم على بيته، ولكن هذا التشبيح على الناس آخرته خراب البلد. وستنالون جراءكم في الدنيا وفي الآخرة. سلم على جهيدة وعلى الأولاد.

قال صباح، وأسرع مبتعداً كأنه في سباق، حتى تجاوز الدوار الذي كان هادئاً وشبهه حال على غير عادته في مثل هذا الوقت.

ولم تهدأ خطوته ولا أنفاسه حتى أطلَّ على البحر، فخيل
إليه أن البحر ينسق عن الليل، وأنه هو مشبوب بينهما، وسوف
يظل مشبوباً بينهما حتى تحضر نمنوما. عندئذٍ ستتفتت زرقة
البحر، وسيتفتت سواد الليل، وستتوقف أمواجهما، وسيغطس
صباح ونمنوما بهذا الذي سيصير ماء عقيقياً، وربما أرجوانياً،
وسيكون مثلهما ماء عاريَا: يا للغبطة!
تهجد صباح، وإذا بصوت نمنوما يملأ البحر والليل وهو
يسأل: من قتل سراج؟

ميدان السبع بحرات الدمشقي:

من أخيولات ليليا

الزمن هو النسيان: كانت تلك هي العبارة التي سكنت ليليا
منذ قلبَت في الترجمة الفرنسية لرواية توماس مان (الجبل
السحري)، عندما أهداها إياها سراج في عيد ميلادها الأول
بعد الإعلان التاريخي هكذا كان يفضل أن يقول لحبهما.
في انتظار أربعينية سراج قلبَت ليليا في الرواية، فقدمت
لها الترياق: أستطيع أن أنتج النسيان، كما يفعل الزمن.
لولا الترياق تقول ليليا لنمنوما صباح أربعينية سراج
ل كانت ظلت تذوَّي، حتى يظفر بها قاتلها، كما ظفر بسراج.
في الأيام الأولى أشبهت المضيرية عن الطعام أو النوم:
ربع كأس من الحليب إن لم يكن أقل، ربع كعكة إن لم يكن
أقل، ربع كأس من عصير البرتقال إن لم يكن أقل، ساعة من
النوم المكوابس، إن لم يكن أقل، وصمتٌ مسمم، نظرة مسممة،
وي خاصة لحنيف الذي جاءها بنباً سراج.

آخرُ: صاحت ليليا بحنيف بعدما تتعَّد باسم الشهيد
الذي لم يُعرف له قبر. وعلى الرغم من أن كوكب الصباح
أكَّدت النبأ، فقد كان على حنيف أن يلقى جزاءه، كما لم يخطر

على باله، ولا على بال ليليا، ولا على بال لمى ونذير عندما
شكالهما ما رمته ليليا به: أنت تغار من سراج، أنت تتمنى
أن يستشهد لتخلو الساحة لك. وبعد أيام تعزز ليليا عقويتها
بالعبارة المدوية: أنت واهم، أنا لن أكون لك ولا لغيرك. لن
أكون لأحد بعد سراج.

ما تخلو منه شكوى حنيف لذير ولمى هو أن عقاب ليليا
كشف له أنه كان يحبها طوال الوقت، وكان سعيداً بسعادتها
في حبها لأعز أصدقائه: سراج رحمة الله. والآن ليس حنيف
طاماً بشيء، ولا متعجلاً على شيء. الآن سينتظر حتى تتعافى
ثم سيكشف لها كل ذلك. لكنه نسي كل ذلك عندما رآها معافاة
في عصر أربعينية سراج، وهي تدعوا من تحلقوا حولها في
مقهى أحوال في سوق ساروجة: يلله يا شباب، يلله يا صبايا،
بكرة على ساحة السبع بحرات.

* * *

بالمليونية الموالية كانت ساحة السبع بحرات قد امتلأت
حقاً، هي والأنهار التي تصب فيها. لكنها ديكاتورية العدد
كما تقول الدكتورة اتحاد حميده بفخامة، وديكتاتورية السلطة
والدولة اللتين تسيّران المسيرات، كما أضافت ليليا. وفي
العودة إلى البيت، أصرّت ليليا على أن تكون وحيدة، وعلى أن

تقطع المسافة الطويلة مشياً، ولم تج بسر ذلك الذي اكتشفته وهي خارجة من البيت، عندما صادفت سيارة للأمن تصالب الرصيف، ويجلس فيها السائق مكانه، بينما يقف أمامها ثلاثة مسلحين حدقوا فيها جميعاً، فحدقت فيهم واحداً واحداً، وعندما تجاوزتهم همهمت: لا، ليس أحدهم من قتل سراج. لكنها قررت أن تمضي إلى مقهى أحوال مشياً، وأن تتحقق في أي مسلح تصادفه، شرطياً كان أم عسكرياً أم رجل أمن، بحثاً عن قتل سراج. وفي العودة فكرت في أن تذهب إلى دوما، وتبحث هناك عن القاتل، وأحسست أنها تضطرم حقداً وقدرة على الانتقام. حتى إذا اقتربت في العودة من البيت، صادفت سيارة للأمن تصالب رصيفاً آخر، ويقف أمامها شابان بلا سلاح ظاهر، لم يأبهَا بها، فظلت تتحقق فيهما حتى صارت على خطوة منهم، فصاح بها أحدهما: شِبْكُ ولَيْه؟ ليس عم تتطلع فينا بالورب؟ لا نكون ماناً عاجبينك؟ فقالت ساخرة: بالعكس، عاجبني كتير، فصاح الآخر: إي انقلعي أحسن ما تشوفي اللي ما راح يعجبك ولا يعجب اللي خلفوك. واندفع صدره نحوها، فردته كف زميله، وسمّر الذعر ليليا هنيهة، ثم أخذ يجري بها إلى باب العمارة. ولعل ذلك ما جعلها تنسي أو تتناسي البحث عن قاتل سراج، عدا عما تشغله به ساحة السبع بحرات التي لم تفسح لألفية ولا لمئوية ولا لعشريمة من

غير الموالين، إذ كانت أعداد غفيرة من الشرطة والأمن ومن شبان مدنيين حولهم وبينهم قد أخذت ترابط منذ أيام في مفارق الأنهار التي تصب في الساحة.

* * *

لذلك عادت ليلاً إلى ما فعلت عندما سمت ساحة الأمويين ميدان الأمويين، وسمت ساحة السبع بحرات ميدان السبع بحرات، وافتتحت الاعتصام بما عدته تحية إلى سراج:

رجع الخَيِّ يا عين لا تدميلو
فوق كتاف رفقاتو ومحبينو
رجع الخَيِّ يا أمي زغريلو
هالشهيد دماتو دين علينا

أثناء أداء التحية كانت الشاشة العملاقة التي غطت واجهة البنك المركزي قد بدأت تعرض شريط الفيديو القصير الذي أعدته مجموعة أبو نصارة السينيمائية عن سراج. وبعد التحية توالي عرض الأشرطة التي عرضتها المجموعة على التويتر كل يوم جمعة، بالتزامن مع المظاهرات، وكل شريط لشهيد. قبل أن ينتهي العرض بدأت قناة الدنيا تقتحم الشاشة العملاقة، وهي تبث برومو غرافيكى: إنها الفتنة الجوالة من تونس ومصر إلى حيث هي قيد الإنجاز في اليمن ولبيبا، إلى حيث ستتحطم في سوريا.



حين أوفت القناة بثها، تلاطمت أمواج ميدان السبع بحرات
كما تلاطمت أمواج الشاشة: طائرات الناتو تغير على مصراته،
والشيخ عدنان العرعور يرسل الإشارة من قناة وصال فيبدأ
النقر على الدربكات، أي القرع على الطناجر والصوانى مليء
الشرفات، مقرونة بالتكبير. لكن قناة وصال، مثل قناة صفا،
جعلت همها منذ شهور في الدعوة إلى تطهير البلاد آية بلاد؟
من الروافض والشيعة والعلويين وكل مخالف لما استنت
القنوات من السنن، حتى نفذ صبر قمر النيل سات، فأأندرهما
بإيقاف بثهما إن لم توقفا التحرير الطائفي. ولكن لا هما
توقفتا، ولا النيل سات نفذ إنذاره، لذلك قالت الشاشة العملاقة
للقناتين: باي باي، وإذا بمجموعات صغيرة تتقدم إلى الميدان
تباعاً، في الواحدة منها ثلاثة أو أربعة رجال، منهم من يرتدي
معطفاً في حرّ أيار أو حزيران أو تموز أو آب اللهاب، ويختفي
المعطف البندقية الروسية الساحرة: الكلاشينكوف، ومنهم من
يشهر قناصته: شبيحة اليمن؟ يا مرحبا يا مرحبا!

هتف حنيف، فصحح له نذير:

البلاطجة.

فرد حنيف:

كله واحد، بلطجي، شبيح، كله عند العرب صابون.

وكان فرسان الشبيحة البلاطجة يعبرون شارع العدل باتجاه دوار الجامعة، حيث انضمت النساء للمتظاهرين، وكل ذلك في صنعاء يا حبيبتي أعدت لي كرامتي، على وزن الأغنية السورية الشهيرة. سورية يا حبيبتي أعدت لي كرامتي!

لم يتأخر الرصاص عن الشاشة العملاقة، وأوله أوقع خمسة طلاب، واحد منهم اخترق الرصاصة نخاعه الشوكى، وأآخر لم يستطع الصبر على الرصاصات التي ثقبته تثقيباً، فأسلم الروح فوراً، ثم جن الرصاص بجانب إدارة المباحث الجنائية وإدارة أمن صنعاء، حيث أسرع البلاطجة الشبيحة باتجاه ساحة الجامعة.

أين الشرطة؟

لم يأبه أحد بالسؤال، إذ انشغل الجميع بالقناصة الذين قتلوا قرب الجامعة، بعد صلاة الجمعة، أكثر من خمسين متظاهراً، وجرحوا المئات، فانشق عن الرئيس ابن عمه، لكنه لم يعلن عن لواء الضباط الأحرار، كما أعلن المقدم حسين هرموش في جسر الشغور، ولم يعلن عن الجيش السوري الحر، كما أعلن العقيد رياض الأسعد من خلف الحدود التركية. وكان العلماء اليمانية قد أفتوا بتحريم الاعتداء على المتظاهرين المسلمين، وعدّت الفتوى التظاهرة شكلاً من أشكال الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر. هل صحيح إذاً أن الشيخ سارية
الرافعي حرم التظاهر في الشام؟

لم يأبه أحد بالسؤال، إذ انشغل الجميع ب الجمعة (النصر
لشامناً ويمتنا)، فاقتصرت التوجيهات للمتظاهرين شاشات
الموبایلات والكمبيوترات وما شاكلهما: الدوالib يا بلاش..
احرقوها أغلقوا مفارق الساحات والحرارات، اقطعوا الشوارع
بما يتوافر من الخشب ومن البلوك وما شاكل. وأبرقت الشاشة
بالعبارة العملاقة القانية: أحد الوفاء للقابون، فرابط الجيش
أمام المساجد ودوهمت المنازل، وجرى تفتيشها العشوائي،
وبدأ التدقيق في هويات من يدخل ومن يخرج إلى الحي، وعلى
الرغم من ذلك سمع من يهتف في القابون:

يا قطنا نحنا معاكي للموت
يا بوكمال نحنا معاكي للموت.

وبعد حين لم يطل قررت جماعة معارضة من إعلان دمشق
ومن الإخوان المسلمين أن تعقد مؤتمراً في قاعة قابونية،
بالتزامن مع مؤتمر مماثل في استنبول، فوّقعت معركة دامية
سقط فيها حول القاعة ثمانية عشر قتيلاً. ومثل حي القابون
تفجر حي الميدان بالمتظاهرين الذين دوّت حناجرهم بعد
الترويج ب خاصة:

قولوا الله قولوا الله

هَنِي سُورِيَة مُو حَا يَلَه.

وَهَكْذَا أَخْذَت الشَّاشَة الْعَمَلَقَة تَنْطُوح بَيْن شَامَنَا وَيَمْنَانَا،
فَهَتَّفَت النِّسَاء فِي دَارِيَا أَمَام جَامِع الْمُصْطَفَى: نَرِيد أَبْنَاءنَا،
وَهَتَّفْنَا: اللَّه أَكْبَر عَظَمَ الظَّالِم. وَأَعْلَنَت النِّسَاء فِي دُوَّمَا الاعتصام
أَمَام الْبَلْدِيَّة حَتَّى تَحرِير الْمُعْتَقَلِينَ، لَكُنْ كُوكِ الصَّبَاح لَمْ تَظَهُرْ
بَيْنَهُنَّ. وَأَقْبَل رِجَالُ الْأَمْن يَهَدِّدُونَ النِّسَاء بِفَضْلِ الاعتصام،
فَطَوَّقْنَهُنَّ شَابِ الْمَظَاهِرَات حَمَاءَ لَهُنَّ، وَلَكُنْ سَرَاج لَمْ يَظَهُرْ
بَيْنَهُمْ، بَلْ نَهَضَ أَخْوَهُ الشَّهِيد الشَّيْخ شَرْفُ الدِّين مِنْ ضَرِيحِهِ
وَأَمْرَ النِّسَاء بِالسَّيْر، فَسَرَنَ وَحَولَهُنَّ الشَّابِبُ فِي شَارِعِ الْجَلَاء.
وَفِي الْحَجَرِ الْأَسْوَد خَرَجَت مَظَاهِرَة مَسَائِيَّة مِنْ جَامِعِ الرَّحْمَنِ

بِاتِّجَاهِ شَارِعِ الثُّورَة، رَدَا عَلَى الاعْتِقَالَاتِ التِّي جَرَتْ ظَهِيرَاً.

أَثْنَاء ذَلِكَ كَانَ ذِيلُ الشَّاشَة مَرَّة، وَرَأَسُهَا مَرَّة يَبْرُقَانْ بِأَسْمَاءِ
الْجَمَعَاتِ بِلَا تَرْتِيبٍ: جَمَعَةُ الثَّبَاتِ وَالنَّصْرِ جَمَعَةُ الْحَمَاءِ
الْدُّولِيَّةِ جَمَعَةُ وَحدَةِ الْمَعَارِضَةِ جَمَعَةُ الجَامِعَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَقْتَلُنَا
جَمَعَةُ الْجَيْشِ السُّورِيِّ الْحَرِيْمِيَّ جَمَعَةُ الْمَجَلسِ الْوَطَنِيِّ
يَمْثُلُنِي...
يَمْثُلُنِي...

أَمَا فِي يَمْنَانَا فَقَدْ نَصَبَ الشَّابِبُونَ خِيَامَ فِي سَاحَةِ الْحُرْيَةِ
هَلْ هَذَا مَا صَارَ إِلَيْهِ اسْمَاهَا؟ أَوْ سَاحَةُ التَّغْيِيرِ هَلْ هَذَا مَا كَانَهُ
اسْمَاهَا؟ وَازْدَانَتْ جِبَاهُ الْأَطْفَالِ وَالْفَتَيَاتِ بِكَلْمَةِ (اْرْحِل)، كَمَا
ازْدَانَتْ خَدُودَهُمْ وَخَدُودَهُنَّ بِالْأَلْوَانِ الْعَلَمِيَّةِ، وَصَارَتِ الْحَنَاجِرُ

أغنية واحدة:

بإرادة والعزم والجهاد
اليمن أشعلها ثورة ع الفساد
ثورة اليمن السعيد
ثورة الشعب المجيد
ثورة النار وال الحديد.

أما في تعز فقد أنتج شباب ساحة التحرير نشيد (ارحل)
الذي صارت به الحناجر حنجرة واحدة:

من أجل الطالب والعامل: ارحل
والجندى والشعب العاطل: ارحل
وكما في صنعاء، كذلك في تعز، أهدى المتظاهرون الورود
للجنود. لكن البلطجة الشبيحة لم يوفروا حبراً ولا عصا
ولا فأساً في مهاجمة الطلاب أمام الجامعة، بينما أخذ ميدان
السبع بحارات يتوزع إلى بحرة عراقية وبحرة يمنية وبحرة
بحرينية وبحرة عمانية، وجاءت البحارات الأربع صغيرة،
لتكون الباقيات الأكبر. بحرة مصرية وبحرة تونسية وبحرة
سورية. وحين تم ذلك ظهر محمد منير في زاوية الشاشة العليا
اليسرى يصدح:

يابن العرب يلله يا ويكا

اعرف مين أعاديك

و قبل أن ينتهي محمد منير من أغنيته سأل صوت سماوي:
ميدان السبع بحرات إذاً هو ميدان الربيع العربي، ولكن لماذا
نسيتم المغرب؟ لماذا نسيتم لبنان؟

فكرة ليلاً أن الصوت لسراج، فأودعته في صدرها،
و قررت أن تقترح على الشباب والصبايا أن يحفروا بحرة ليبية
و بحرة مغربية و بحرة فلسطينية، وأن يحفروا ولو بحرة صغيرة
أخرى، احتياطاً لأي بلد عربي قد يعبر به الربيع العربي، وإن
يكن الوقت الآن للصيف. و فكرت ليلاً في أن تشترط أن يبقى
لميدان السبع بحرات اسمه هذا، مهما يبلغ عدد بحيراته. وفي
الآن نفسه كان أكثر من صوت يضم ميدان السبع بحرات أو
الربيع السوري بالمؤامرة الصهيونية الأمريكية. وكانت أكفر
تضرب أكفاً عجباً من أن تطلب وت Zimmerman للربيع العربي دول مثل
قطر، بل مثل بريطانيا أو فرنسا. ومنذئذٍ أخذ ميدان السبع
بحرات يتشكل، تقرباً، على النحو التالي:

* في مساء شامي ناعش تنتهي أعمال المؤتمر الأول
لل المعارضة في قاعة الروابي في أوتيل سمير أميس. وكما
تحدث نمنوما ليلاً وكوكب الصباح وحنيف وندير ولمنى
وماما سلوى القاضية التي حضرت لتنسق أخبار المؤتمر

من داخله: ناديت بـإيقاف الحل الأمني الذي سيؤدي إلى تدمير سورية، كما ناديت بفسخ تبعية القضاء لوزير العدل. وضاقت القاعة بنداء لتعطيل المادة الثامنة من الدستور التي تسيد حزب البعث على الدولة والمجتمع، وبنداء لترخيص المظاهرات المؤيدة والمعارضة. ونعت صوت آشوري من الحسكة المادة الثالثة من الدستور بالمادة الطائفية، كما نعت الدستور بالدستور الطائفي، بسبب تحديد دين رئيس الدولة. وحدد صوت كردي الطامة الأولى بالإسلام الشعبي، كما حدد البوصلة بتنامي التظاهر الشعبي السلمي.

لم تقل نمنوما إنها كانت تتوقع أن تلاقي صباح في المؤتمر، وإنها ندمت على أنها أخلفت عنه مشاركتها طمعاً في لقاء مفاجئ. لكن نمنوما أضافت يا ماما ليليا بجماعة كوكب اللاعنف: في الخميس الثاني من كل شهر يلتقون، وقد توقفت اللقاءات منذ أيام كيلا تُصنف أنها ضد الدولة. لكن الجماعة تعد اللاعنف الفريضة السادسة، وتدعوه إلى تشكيل هيئة اللاعنف. كما أضافت نمنوما يا ماما كوكب بالشيخ الذي اقترح العمل بدستور الاستقلال ريثما يوضع دستور جديد، وطالب علماء الشام بالوقوف على الحق وإيضاح الثورة، كيلا يتبس الأمر على أحد، وأوضح الشيخ لم تقل نمنوما إنه يشبه صباح ريمًا أكثر من أخيه إنه لا يعني بعلماء الشام أيًّا من مشايخ النظام.

وما كادت نمنوما تسكت حتى عاجلتها ليليا بسخط:
مؤتمر غاب عنه شعار الشعب يريد إسقاط النظام.
فردت نمنوما:

شعار المؤتمر كان: سورية للجميع في ظل دولة مدنية
ديمقراطية، ألا يعني ذلك إسقاط النظام؟
فعاجلتها كوكب الصباح كأنها شامنة أو تتشفّى:
اتحاد تنسيقيات الثورة أدان أي مؤتمر أو لقاء من ناحية
المبدأ والنتيجة، عندما يتم عقده تحت مظلة النظام.
فأضاف حنيف:

ولكن دون تخوين.

وقال نذير:

ائتلاف شباب الثورة السورية الحرة أدان المؤتمر وعده من
صنع النظام. بصراحة؟ أنا شاركت في التجمع أمام الأوتيل
ضد المؤتمر.

قالت نمنوما:

وهتفت مع من هتفوا ضدنا واتهمونا بالخيانة؟ شكراً.

ثم التفت إلى القاضية سلوى وتابعت:

في المؤتمر من ذهب بعيداً، فتساءل عما إذا كانت
ديمقراطية اليوم هي ديمقراطية درعا وبيانيس وحمص
ودوما، ديمقراطية الدم؟ وفي المؤتمر من دعا إلى التخطيط

للعلاج النفسي للأطفال في المناطق الساخنة، فبمثل هذا نستعد للانتصار: قالوا. وبعد المؤتمر تلقيت دعوة إلى المشاركة في إعلان ميثاق شرف يلتزم فيه المثقفون والناشطون بعدم الإساءة إلى أية شخصيات أو جمعيات أو أحزاب، ما دامت ملتزمة ببناء الديمقراطية والتحرك السلمي.

وما إن سكتت نمنوما حتى دنت منها ماما سلوى لتهمس في أذنها:

حبيبتي قولي لهذا الذي يخطط لما بعد الانتصار: لا يزال الوقت مبكراً.

أما ليلاً، فلم تسمع كلمة بعد كلمتي دوماً والدم، إذا إن سراج أقبل من السماء ينقط دماً، ليظلل ميدان السبع بحرات. ورأت ليلاً الميدان رأي العين يتلون هو ومن فيه وما فيه بالدم الطري، لكن سراج قد قتل الآن. وحين ما عادت عيناً ليلاً تريان غير الأحمر، خافت من أن تكونا قد تفجرتا بالدم، فأغمضتهما، وأمرت بالنوم الذي يشبه الإغماءة، وبالإغماءة التي تشبه النوم، ولم تفق حتى صدحت حناجر الميدان:

لي صديق من كردستان

اسمه شيفان

غنْ لي باشيفان

فتباعدت أجنان ليليا لترى على الشاشة العملاقة شاباً
باللباس الكردي الشعبي يغنى، وخلفه صورة حمزة الخطيب،
بجوار قبضة مدماء، وتحتها تبرق عبارة واحدة: البركة في
الشباب وليس في النخبة. وسرّ ليليا ما رأت. وما إن انتهت
الأغنية الكردية حتى ملأت الشاشة فرقة أحرار الشام، وأخذت

حناجر الميدان تصدق:

شوفو شو صار بحماة

شوفو شو صار بدرعا

الله يعالی سماه

شاف الجرحى والصرعى

ما بنخاف من الآجال

كرمالك يا حرية

كرمالك يا سوريا

وبانتهاء الأغنية تمت ليليا بصوت مسموع: حبيبي
سراج: الزمن هو النسيان، فتمتم سراج بصوت سماوي جريح،
لكنه رضيّ: أبارك لك حكمتك يا حبيبتي، يللها، لا تتلهي، إلى
الميدان.

* أحاطت بليليا ثلاثة من أصدقاء المظاهرات والاعتصامات،
يتقدمهم: معاذ طرطوش الذي لا يفوت ساعة كي يتبااهي: أنا



من دير الزور. ومن هؤلاء الأصدقاء الجدد الدكتورة اتحاد حميدو التي لا تفوت ساعة كي تتباهى بأنها أصغر طبيبة شرعية في سوريا، ورفاه أحمد التي لا تفوت ساعة كي تتباهى بطول شعرها وسرحانه على هواه.

من أمام تمثال يوسف العظمة أسرعت ليليا إلى الميدان، فاعتبرضتها البحرة الليبية التي ما زالت طائرات الناتو تغير عليها.

تنحت ليليا يميناً فاعتبرضتها البحرة البحرينية وقد تحول دوار اللؤلؤة في وسطها إلى أنقاض.

مالت ليليا يساراً فاعتبرضتها البحرة العراقية الصاحبة: مثقفون يرسلون نداء الانفراط العراقية الخضراء من أجل الحقوق، مظاهرة في شارع المتنبي، موقع كتابات يغدو مدونة الاحتجاج العراقية الأولى، مجموعة (بغداد لن تكون قندهار) الفيسبوκية، شباب وصبايا بالعشرات فقط، قنابل صوتية، هتاف ضد المحاصصة، رصاص، هتاف ضد الطائفية، هراوات، ممنوع التجول، ليس لنا إلا الفيسبوκ، شاب ينطف الشارع، صبية توزع قناني الماء، مايكروفون هائل يهدئ: هؤلاء مندسون يحاولون الترويج للنظام السابق، إلى ساحة التحرير سيراً على الأقدام المايكروفون الهائل: هذه

مظاهره بعثية، اجتثوها، ويانخطافه البصر حلّت كردستان
العراق بقضّها وقضيضاها محل بغداد، فإذا بالقوات الخاصة
التابعة لأسرة وعشيرة الرئيس الكردي تندفع إلى ميدان السبع
بحرات الدهوكى والأربيلى والسليمانى، وتطلق الرصاص على
المظاهرات التي أصابتها عدوى مؤامرة الربيع العربى: هل
هذه هي جمعة الغضب العراقية؟

تساءلت ليلاً وهي تلتف على البحرة العراقية لتلاقي
البحرة المغربية في فم شارع العابد.

كانت البحيرة في هيجان مفزع: حركة ٢٠ فبراير تنادي
ملء ثلاثة وخمسين مدينة بالملكية الدستورية، ويمحاسبة
الفساد، ويتقايسن صلاحيات الملك، وبالتغيير السلمي، حسناً،
ولكن لمَ هي هذه السيارات المحروقة في طنجة؟ ولمَ هي
هذه المحلات التجارية مسروقة في العرائس؟ وهذه الوكالات
المصرفية في مراكش، من دمّرها؟

تابعت ليلاً سيرها خائفة، لكن الشاشة العملاقة استلت
خوفها سريعاً، إذ صدحت بأغنية (إرادة الحياة) التي استعادت
فيها فرقة (هو با هو با سبيريت) قصيدة (إذا الشعب يوماً أراد
الحياة) بتوزيع جديد، فسرّى عن ليلاً، وتقدمت إلى فم شارع
الباكستان لتلاقي لهف البحرة الفلسطينية التي كانت في

هيجان مفزع أيضاً، وقد اندغمت ليليا بمن يهتفون ويهتفن:
الشعب يريد إنتهاء الانقسام. وسرعان ما صار الهاتف: من رفع
لجنين بلد وحدة مش اثنين، ثم صار الهاتف: يا هنية ويا عباس
وحدثنا هي الأساس. وبعدما هدا الهاتف قليلاً أخذت الشاشة
العلقة تبرق: شاب مشبوح، يقيد يديه المثبتتين عاليًا شال
مطرز باللون العلم الفلسطيني، ويقف على ساق واحدة، بينما
ثبّتت الأخرى عاليًا، حتى ليكاد الشاب أن يُفسخ، وأمام وجهه
الشاب أشهر شاب ملتح ورقة، وأخذ يقرأ منها بصوت راعد:
أتعهد التزام الأخلاق الحميدة وحسن السير والسلوك والبعد عن
الرذيلة، وأقر وأعترف بأنّي أمتنع عن ممارسة مهنتي كوافيير
سيدات.

حرر الشاب الملتحي يمنى الكوافيير ليوقع على الورقة،
بينما أبرقت الشاشة بورقة أكبر، تأمر بخط أغفلظ المحاميات
وطالبات المدارس وسائر الموظفات بارتداء الحجاب، وتلا
أمر يمنع النساء من تدخين النارجيلة، ثم تلا أمر يمنع عرض
الملابس الداخلية في محلات بيع الملابس النسائية، ثم تلا
أمر يمنع اختلاط الرجال والنساء في المحلات العامة: غزة
الحساوية ترحب بليليا أبيضاني. ماناً تفعلين هنا يا عاهرة
يا بنت العاهرة؟

أطاشت الشتيمة ليليا، واجتاحها الخوف، فهمّت بالفرار،
لكن الشاشة العملاقة استوقفتها التشارك في الاحتفالية الكبرى
بذكرى اتفاقيات أوسلو التي ستقام في هذا اليوم الأغر من
أيلول سبتمبر ٢٠١١ في العاصمة المؤقتة للدولة الفلسطينية.
وهكذا انتظرت ليليا أيامًا وليلي حتى ابتدأ الاحتفال بفيديو
كلip سبق لليليا أن شاهدته على التويتر ر بما، وصدق شاب:

دولتنا دولة حرية

وأمن وراحة واستقرار

ما فيها سجون وحرامية

بنّام ومفتوحة الدار

ما فيه حدّ بيعرض عنا

إلا ومستشفى على حسابه

ما في إنسان بدولتنا

إلا وحامل بِأيديه كتابه

* فترت حماسة ليليا، وفي الآن نفسه حتّى إلى الشام،
فعجلت إلى البحرة السورية وسط الميدان، وإذا. بحنيف يلاقيها
مشوقاً، فتزور عنه وتتلع إلى سلسلة من الأبواق تتصدر البحرة.
ولم ينتظر حنيف أن تسأل عما أدهشها، إذ أقصى كتفه بكتفها،
ودنا من أذنها هاماً، بينما ذراعه تشير: هذا بوق زمور الهواء،

تعرفينه، أسوأ الأبواق، وهذا بوق الفوفوزيلا: زعيقه قد يؤدي إلى الصمم، وهذا هو البوق الروماني، لا يستطيع أن يعزف إلا معزوفة المؤامرة، وهذا بوق الترومبيت الأنثيق الذهبي كما ترين، لكنه بوق، لا أكثر ولا أقل.

عندما أسدل ذراعه سألت ليليا باستخفاف:
وماذا تفعل هذه الأبواق هنا؟

جاء بها شابينا ليستقبلوا من سيصل بعد قليل من المؤيدين للسلطة.

وماذا سيفعل المؤيدون هنا؟

في غيابك جاء من يطالب بأن يكون لهم ركن ويوم في الميدان. في البداية رفضنا. قالوا: أين ديمقراطيتكم إذا؟ نحن أيضاً لنا حق التعبير. باختصار: خوفاً من أن يفتعلوا معركة تركنا لهم هذا الركن لهذا النهار.
هذا خطأ يا حنيف. خطأ كبير. لهم كل الساحات، هذا الميدان لنا.

قالت وهي تدبر ظهرها، وأحسّ حنيف أنها لم تعن إلا أن الخطأ الكبير خطأه هو وحده. وبينما مشى هو خلفها، تقدم عشرات الشباب والشابات، وأخذوا يعلقون صوراً تمثل ما عاشته البلاد منذ ١٥ آذار، وتحت الصور علقو اللافتة باسمهم:

(حملة سورية بخير)، وفوق الصور، عالياً جداً، علمأً عملاً. ثم تقدمت مجموعة أخرى من الشباب والشابات، وحولوا ذلك الركن من البحرة إلى مسرح حديقة تشرين في ساحة الأمويين، وبدأوا الاحتفالية بالعرضة الشامية، ثم رقصت فرقة العشق الإلهي المولوية، ثم قدم أبطال الكاراتيه عرضاً طويلاً، ثم بدأوا يتعاقبون: شاعر، زجال، مطربة، خطيب، مطرب، زجال، شاعر.. وهكذا دواليك، حتى غابت الشمس، وبردت النسمات. حيث لبدت ليلاً، وبين يديها حنيف مطرق كسيراً، في بداية شارع بغداد، كانت أصوات الاحتفالية تصلها. وكلما تقدم النهار كان إحساسها بالضعف يكبر. كانت تخشى أنها قد بدأت تنهرم، وكانت تنظر أحياناً إلى حنيف مشفقة، ويقينها يكبر بأنه لا يصلح أن يكون سندأ لها. وفي الغروب الصيفي الشامي الساحر اجتاحتها الشك في أن يكون ترياق روایة (الجبل السحري) قد بطل، كما اجتاحتها الشك في أنها تستطيع أن تنسى سراح. ولعل ذلك ما جعلها تجر خططاً نحو الميدان، وحنيف يتبعها صامتاً.

عندئذٍ حلّت مجموعة (تحيا سورية حرّة) محلّ مجموعة (سورية بخير). وأعلنت الشاشة أن المجموعة الجديدة قامت خصيصاً لكل من يريد أن يقسم القسم العظيم لحماية سورية

وقائد سورية. ثم دعا داعي المجموعة إلى ترديد القسم خلفه: «أقسم بالله العظيم أن أقتل أي أمريكي في أيام دولة في العالم.. عسكري أو مدني أو دبلوماسي.. وعجائز قبل الرجال.. وسوف أدمم جميع الممتلكات العامة والخاصة الأمريكية.. سفارات.. قنصليات.. مشاريع.. أبنية.. منازل.. شركات.. وأقسم بالله العظيم أنني سوف أدمم كلمة أمريكا مهما كان الثمن.. إن حصل مكروه على سيادة الرئيس».

ما كاد ارتجاج الميدان بالقسم أن يهدأ حتى حلت مجموعة (بصمة شباب سورية) محل مجموعة (تحيا سورية حرة). وأعلنت الشاشة أن المجموعة الجديدة قد تأسست في ٢٦ آذار من ستة شباب وفتاتين، وبلغت الآن أحد عشر ألف عضو فيسيبوكى. وهدرت الشابة: «إليكم مهرجان قسم الوفاء للوطن: «نقسم بالله العظيم رب الناس أجمعين، أن نبقى لله عابدين، ولحدودنا حارسين، ولوحدتنا حافظين، ويتعايشنا متحدين، ولجلواننا محرين، وفي وجه أعدائنا صامدين، ولتراب أرضنا مخلصين، ولقدسنا عائدين... وقبل أن يهدأ ارتجاج الميدان بالقسم كانت الألعاب النارية قد أشعلت جبل قاسيون. ومن قمته بدأت طائرات شراعية تنطلق لتحط في ساحة الأمويين، ثم بدأت المظللات تشكل العلم ثم تطوير ألف

منطاد، وعلى كل منطاد خطت مجموعة من الشباب والشابات
أمنية، ثم بدأت مجموعة الباراغلайдر بالقفز من قمة قاسيون،
ثم ملأت الشاشة العملاقة قامات رجال الأعمال الشباب الذين
أعلنوا إطلاق حملة دعم الليرة، ولوح كل منهم بدفعري شيكات،
وقالوا معاً: الشيكات موقعة على بياض، بتصرف الحكومة،
ويمكن سحب أي شيك من أي مصرف محترم في أوروبا أو
أمريكا حسراً. وفي الآن نفسه كان مئات الكشافة والرياضيين
قد انطلقوا بالدراجات في سباق على أوتوستراد المزة، واختتم
المهرجان بالعبارةتين الملغزتين اللتين أومضت بهما الشاشة
ماراً.

* عادت ليلاً إلى البحرة اليمنية، وكان الكرنفال قد بلغ
أقصاه: الخيام ترامت من مقابل الجامعة لتغطي الخط الدائري
حتى كلية الآداب، عدا الشوارع المتفرعة من الخط الدائري، وعدا
أجزاء واسعة من الدائري الشمالي وشارع العدل. ومن الخيام
ما أبرق اسمها (العاطلون عن العمل) أو (أساتذة الجامعة) أو
(العمود) أو (أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري)... ومن
الخيام ما امتلأ بالمقاعد والكراسي، ومنها ما امتلأ بالقعدة
العربيّة. وتوزع هنا وهناك وهنالك الجامع، والمستشفى
الميداني، والمطبخ، ومخيّم المرح، ومخيّم الندوات السياسية،

ومخيم الندوات الثقافية، والمنصبة، والمنشدون الشعبيون، والمطربون، والشعراء، والجماعة المتقطعة لجمع المخلفات ونقلها إلى سيارات الزبالة، ورش المبيدات، ورش المياه على المعتصمين ظهراً لتخفيض حدة الشمس. ولعل كل ذلك هو ما دفع بنان عرجون إلى الظهور وسط ساحة العاصي في حماة، منادية بأن يكون الاعتصام القائم فيها كرنفالاً حموياً على غرار الكرنفال اليمني. ثم ظهرت نمنوما وسط ساحة الساعة في حمص، ونادت بأن يكون الاعتصام القائم كرنفالاً حموياً على غرار الكرنفال اليمني والحموي. وبعد أكثر من ساعة ظهر الرئيس علي عبد الله صالح باللباس التقليدي، وبين ابنيه وأخيه بلباسهما العسكري، وانتظر حتى هذا الصبح، ثم صاح: هذه ليست ثورة، هذه مؤامرة تحاك في البيت الأبيض وفي تل أبيب. ثم أفتى بتحريم الاختلاط في المظاهرات، فدعت قهقهات وسخرية المعتصمين والمعتصمات، وتدافعت صيحات: صار الرئيس هو المفتي! فعاد الرئيس إلى مسجده الخاص في قصره الخاص، وإذا بدويّ هائل يعتم الشاشة العملاقة ثوانٍ، ظهر بعدها الرئيس محروق الوجه وملفووف اليدين: لقد نجا من الاغتيال إذاً، لكنه صار خارج اليمن. وعلى الرغم من أن ابنيه كان بالمرصاد على رأس الحرس

الجمهوري، إلا أن الحناجر المعتصمة صدحت: حرية حرية، اليوم عيد الحرية، وحرمت على الرئيس العودة، بينما عاد من فرقهم الرصاص والغاز المسيل للدموع في تعزيز إلى الاعتصام، ولم تستطع تفريقهم هذه المرة القنابل الصوتية، ولا اعتداءات الباطلية على المعتصمات وتمزيق عباءاتهن.

* بثقة أكبر تقدمت ليليا، حتى توهتها الفرجة بين البحرة الليبية والبحرة المصرية، إذ كان معمر القذافي يحتل الشطر الأكبر من الشاشة العملاقة، وفجأة انفعل وصاح وهو يكاد ينقدف من الشاشة العملاقة: يا جرذان والله لأصفيفكم واحداً واحداً.

وأعمت الشاشة هنيهة، أسفرت عن لافتة معلقة في السماء وعليها: جراثيم سورية تحيي جرذان ليبيا. وما إن اختفت اللافتة حتى ظهر حسني مبارك ممدداً على سرير، وإلى يمينه يقف من كان ينتظر موته ليرثه: ابنه الأصغر حاملاً مصحفاً صغيراً بيمينه، وإلى يسار السرير يقف الابن الأكبر حاملاً مصحفاً صغيراً بيمينه أيضاً، والجميع خلف القضبان. وفي أعلى الشاشة العملاقة ظهرت منصة وقضاة ومحامون، وهذا هو الرئيس إذاً في الجلسة الأولى لمحاكمته: هل هذا حلم يا حنيف؟

تساءلت ليليا. ولأن حنيف كان مثلاها غير مصدق، فقد ظل
صامتاً، حتى التفتت إليه، وهمسـت:
هذا يقوينا يا حنـيف. هل أنا مخطئـة؟

وبدلـاً من أن يجيبـ، امتدـت كـفـه إلى كـفـها، وإذا بـحسـني
مبـارـكـ وابـنـيهـ يـختـفـونـ، فـارتـدتـ كلـ كـفـ عنـ الأـخـرىـ، ثـمـ أـعـتمـتـ
الـشـاشـةـ ثـوـانـيـ، لـتـنـفـجـرـ بـعـدـهـاـ: مـعـمـرـ القـذـافـيـ صـرـيـعـاـ. عـنـدـئـذـ
عـادـتـ كـلـ كـفـ تـبـحـثـ عنـ الأـخـرىـ. وـلـمـ تـعـانـقـتـاـ، تـقـدـمـ حـنـيفـ
ولـلـيلـيـاـ نـحـوـ قـلـبـ الـمـيدـانـ: الـبـحـرـةـ السـورـيـةـ.

ما هذا الذي نحن فيه؟

قدمت نمنوما لماما سلوى، بأنامل راجفة وصوت مقهور،
القرار الذي دعكته حين طالعها في البريد اليومي، ورمته في
سلة المهملات، ثم تناولته منها في نهاية الدوام، وأعادت
تسويته، وغادرت مكتبها وهو يتارجح بين أصابعها.

قرأت ماما سلوى القرار بصوت خافت، ابتدأ متأنياً وبارداً،
ثم أسرع وهو يعلو وينفع. وصممت طويلاً بعدما أنهت القراءة،
دون أن ترفع عينيها عنه، ثم رمته على الترابيزة أمام نمنوما،
قائلةً:

تكليف مثلك بمنصب رئيس احتياطي لمحكمة الأحداث،
بعد كل هذه السنين في القضاء، هو عقوبة.

حاولت نمنوما أن تنتزع ابتسامة وهي تقول:
أعرف، ولكن عقوبة على ماذا؟

نظرت ماما سلوى بحثّ لابنتها التي لم تلدها، وبصوتٍ
حان أيضاً قالت:

فيما أعلم ليس من سبب في عملك لأية عقوبة، إن لم يكن
العكس. مثلك تستحق الثناء. فتشي إذا عن سبب خارج العمل.
نشاطك السياسي مثلاً؟

وكما لو أنها طفلة تستزيد من الحنان، قالت:
نشاط مازا؟ أنا بالكاد أحرك هذا.

وأشارت إلى لسانها، فابتسمت ماما سلوى مثل أم أسعدها
أن طفلتها تتخايل، وقالت:

لكنه لسان يلسع ويكون في السياسة. بين زميلاتك من
يحدثنني عنه.

ما نعيشه صار يفلق الصخر.

قالت نمنوما وهي تهم بالخروج، لكن ماما سلوى أخرتها
ريثما حدثتها عما أعدت لاستقبال حبيبتي رفقة وصهري
لوثر وحفيدتي الذي لم أره بعد، سيصلون من حلب هذا المساء.
تعاليِّ غداً للنهر معاً.

* * *

من خلف جامع الأكرم إلى الفيلات الغربية، آثرت نمنوما
المشي وهي تتساءل عما ستفعل: هل تعترض على التكليف
بمنصب رئيس احتياطي لمحكمة الأحداث؟ وماذا يساوي
الاعتراض؟ هل تستنكف؟ شو يعني؟ هل تستقيل؟ مستحيل.
لماذا لا تأخذ استراحة مرضية لشهر مثلاً؟ العلة في الرقبة
موجودة، وربما في غيرها. هاتي التقرير الطبي، وبعد ذلك
الحلّل.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما وصلت إلى البيت، أهداً. وسرّها أن تجد ليليا وكوكب الصباح في المطبخ تتناولان الغداء، فأسرعت تشاركتهما وقد قررت أن تكتم عقوبتها عن ليليا.

وعن صباح؟ تسألت وهي تسرق من كوكب الصباح نظرة: وجنتان قد اختفتا، رهق ينضح به الصوت والعينان، لكانها قد ازدادت ضعفاً بعدها آخر مرة في أربعينية سراج. عن صباح أيضاً سأكم خبر العقوبة: قررت وهي تنفس لتلبي نداء الباب: وهذه لمى، وهذا نذير، وبعد قليل حضر حنيف.

* * *

غيب المطبخ نمنوما طويلاً. ولما عادت إلى الصالون كان قد حضر آخرون لأول مرة: الدكتورة اتحاد حميدو التي ما عادت أصغر طبيبة شرعية في سوريا، بل في عموم الشرق الأوسط، الأستاذ معاذ طرطوش: سكرتير في غرفة الصناعة، عمرك سمعت بسكرتير تحت التمرين؟ هذا هو. والأستاذة رفاه أحmed من مكتب اللجنة الدولية للصليب الأحمر. وهذه يا سادة يا كرام سيادة القاضية نمنوما زكي، ماماتي القمر: قالت ليليا، وأفسحت لنمنوما بجانبها، وتتابع حنيف ما انقطع من



حديثه وهو يوزع نظراته بين الجميع:

ثورتنا مثل الثورة التونسية والثورة المصرية، ومثل الثورة اليمنية أيضاً، تختلف عما سبقها من ثورات قبل عشرين أو ثلاثين سنة. نحن نستخدم الفيسبوك والتويتر واليوتيوب، نستخدم الصورة والرمن، ولا نثرث بالخطب المطولة والمفوهة. هذا ما يسمونه الثورة الفائقة. هذه هي الثورة الجديدة، أم مازا؟

قالت ليлиا:
أم مازا.

(حلوة مناكفتك: فكرت نمنوما)

وسأل نذير:
والثورة الليبية يا حنيف، مازا تعدها؟
ثورة تقليدية، حرب.

قال حنيف، فعقبت ليлиا ساخرة:
ثورتنا بلا بطولات، بلا تضحيات، ثورة بيضاء، ناعمة، يا نوسا يا نوسا، لماذا لا تكمل؟

التفت حنيف إلى نمنوما وخصّها بالقول:
ليس تماماً كما تقول ليлиا، لكننا أبناء عصر جديد، نحن أبناء عصر الاتصالات والمعلوماتية أدواتنا مختلفة، تركيبنا

مختلف.

قالت اتحاد وهي تحدق إلى حنيف:

يقولون هذه ثورات رقمية، فرضتها التكنولوجيا المتطرفة والعلمة، ثورات فيسبوكية، لا علاقة لها بالدين، ولا بالأيديولوجية، ولا بمارسات السلطات. لماذا قامت ثورتنا إذا؟

من أين تخرج المظاهرات؟ من اللابتوب؟ من التلفزيون؟
أم من الجوامع؟

تساءل نذير بحرارة، مؤيداً اتحاد التي تابعت:
لولا ما هو عليه هذا النظام، هل كنا ثرنا ضده؟
قال معاذ:

المظاهرات تخرج بفضل اللابتوب والإنتernet والموبايل واليوتيوب والفيسبوك والفضائيات، تمام؟ كما تخرج بفضل الجوامع. أنا أؤيد حنيف، ولا أنسى أن المظاهرات كانت ستخرج من الساحات قبل الجوامع، لولا أن النظام حرم الساحات على الناس من قبل أن نخلق. ثورة فيسبوكية؟ ليكن، ليس عيباً.
ثورة جوامع؟ ليكن، ليس عيباً.

قالت لمى:

لا أحد يتحدث عن العيب، ولكن يمكن للجوامع أن تسرق

الثورة منكم. بل أظن أن هذا قد بدأ (دققوا في اللافتات في الأسابيع الأخيرة. دققوا فيما يفعل الإخوان المسلمين، ليس في استنبول فقط، بل في عبّكم هنا: فكرت نمنوما).
أنتِ وكوكب الصباح تعرفان جيداً أنني حذر في استعمال
كلمة ثورة لـما نحن فيه.

قال معاذ وهو ينقل نظراته بين كوكب الصباح وليليا التي
قالت:

وأنت تعرف جيداً أنني لا أُوافقك. لم تعد كلمتا الانتفاضة
والحراك تكفي لوصف ما نحن فيه.
(لماذا هي ساكتة؟ تساءلت نمنوما وهي ترمي كوكب
الصباح).

قالت رفاه:

سموها حتى: قومة، فزعـة، تمرد، احتجاج، انطلاقة، مدّ..
قال معاذ مقاطعاً:

في كل الأحوال هي أقل من ثورة.

قالت رفاه:

ما نعيشـه هو حركة عفوية، حركة شعبية، نشكر الله أنها
بـلا أحـزاب، خصوصـاً كل ما عرفناه من أحـزاب. لا إـخوان
ولا غـيرهم. حـركة حتى بلا قـيادات، إـلا ما خـرج منها في

التنسيقيات.

(وما ركبها من خارج البلاد. ولكن على ماذا أنتم مختلفون؟
فكرة نمنوما).

قالت ليليا:

أستاذ معاذ يريد ثورة على المسطورة، ونسى أن الثورة يمكن أن يكون فيها فوضى وأخطاء ومتطرفون ومعتدلون، يمكن أن تكون سلمية ويمكن أن تكون مسلحة، ويمكن أن تكون سلمية ومسلحة، كهذا الذي صرنا فيه.

(والله وكبرت يا ملعونة وكبر حكك أكثر منك: فكرت
نمنوما).

قال حنيف:

إذا كانت الثورة تخطئ فهي ليست مقدسة، ونقدتها ليس حراماً. لماذا تغضبين إذاً عندما يتحدث واحدنا عن أي خطأ؟ القتل الطائفي جريمة، أيّاً يكن من يرتكبها. ما جرى في جسر الشغور جريمة أم لا؟ مقبرة جماعية وتشويه أم لا؟ الوحشية هي هي، كائناً من يكون من يرتكبها، أما الادعاء بأن النظام قتل جنوده ليثبت وجود العصابات الإرهابية فليس غير تضليل. للأسف الإعلام في هذا دوره سيء. علينا أن نتحمل المسؤولية.

التفتت لمى يميناً إلى حنيف قائمة:

اسمح لي بالعودة إليك. كما ترى، ما عاد يُسمع إلا صوت الرصاص. هل هذا ثورة رقمية؟ هل هذا ثورة فائقة؟ ناعمة أم خشنة؟ وهذه المطولات التلفزيونية والصحفية: خطب، ندوات، مقالات، ماذًا تسميه؟

قال نذير وهو ينظر إلى نمنوما:

من قال: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة؟ طالما سمعت أبي يردد هذا الشعار.

قالت نمنوما بصوت كأنه يختنق:

جمال عبد الناصر.

تابع نذير وهو ينقل نظره بين الآخرين:

سنة ٢٠٠٣ كانت الحرب في العراق، وبعدها الحرب في لبنان سنة ٢٠٠٦ من مشاهد القيامة، ولكن جاء من يقول: هذه حرب تلفزيونية. نحن تفرجنا عليها بفضل التلفزيون، مثل العالم كله، هذا صحيح، ولكن البشر الذين ماتوا، هل كانوا يمثلون في مسلسل تلفزيوني؟ أنا أقول: ثورتنا هي بعض ما ي قوله حنيف ومن يؤيد حنيف، وبعض ما تقولونه. أما ما هو أهم من كل هذه الفذلكرة فهو أن ثورتنا تحول يوماً بعد يوم إلى ثورة تقليدية، إذا شئت يا صديقي حنيف. أقصد إلى معارك

وحرب، متخصمة بالدين والأيديولوجية، متخصمة بالطائفية والمذهبية، متخصمة بالعصبيات من كل صفت ولون، كأن لا علاقة لها بما تقول، سوى أنها تستخدم هواتف الثريا، وينقلها التلفزيون.

قال معاذ:

قبل أربعين سنة غنى جيل سكوت هيروف: الثورة لا تنقل عبر التلفزيون.

(أين هي السلمية الآن؟ ألا تتراجع كل يوم؟ فكرت نمنوما).

قالت اتحاد متجاهلة إشارة معاذ:

ماذا كان بوسع الثوار أن يفعلوا إلا أن يقاتلوا؟

قالت لمى:

ما زالت السلمية هي الغالبة.

قال حنيف محتدأ:

عن آية سلمية تتحدىن؟ منذ كان القتال في جسر الشغور ودُعْنا السلمية. جسر الشغور أعلنت العسكرية في الثورة، كما أعلنت النزوح واللجوء. منذ صار لدينا لواء الضباط الأحرار والجيش السوري الحر، ودُعْنا السلمية. الآن ما من حدث في الغوطة إلا تهريب السلاح وبيع السلاح وغلاء السلاح. الآن ما عدنا قادرين على إحصاء الشهداء، ولا على إحصاء الجرحى.

علا صوت ليلاً كأنها في شجار:

النظام هو من فرض العسكرية على الثورة، هو من فرض القتال، ومع ذلك ما زالت المظاهرات السلمية تخرج كل جمعة، بل كل يوم، فكيف يلاقيها النظام؟
(لم تكونا يوماً مختلفين وعنيفين كما أنتما الآن. هذا ليس حواراً بين أصدقاء. ما الذي بذلكما؟ فكرت نمنوما).

قال معاذ:

لو اضطر هذا النظام إلى أن يهدم المعبد عليه وعلى من فيه، فلن يتأخر.

قالت ليلاً:

إذا لابد من حمل السلاح، على الأقل من أجل الدفاع عن المظاهرات السلمية.

قالت رفاه:

على من يوضح من يقول مثل هذا الكلام؟ إذا كنت سأدفع عن المظاهرة السلمية بالسلاح، فأنا أفحخ في النار، في القتال، وفي القتال النظام هو الأقوى. لكانه جرّنا إلى ملعبه. النظام نصب الفخ ونحن وقعنا فيه.

قالت لمى:

صار الدلائل يصبح: الكفن بمية، واللي ما بدبه، عنا إله

ملاية. عن أية سلمية تتحدثون؟

قال حنيف:

ع الجنة رايحين، شهدا بالملائين. أليس هذا الهايف
هو الأقوى اليوم؟ حتى لو كان نقىضه هو الأقوى: ع جهنم
رايحين، شبيحة بالملائين، فالمعنى واحد: وداعاً للسلمية.

ونهض كأنه يهرب مما ينتظره من ليليا، لكنها خاطبته
بلهجة ملغزة، ربما فيها من المودة ومن العتاب ومن الدلال
ومن الأمان، ولكن ليس فيها من الخصام:

اجلس، إلى أين؟

(والله لو عاشقتيه ما بتحاكيه هييك! شو صار؟ فكرت
نمونما).

وبينما كان يبحث عما يقوله وقف معاذ قائلاً:

أدعوكم إلى أن يكون لقاونا القادر في بيتي. ومع أنني
عاذب فسأكركم. أنا لست بخيلاً مثل ليليا.

وبينما نهض الآخرون فكرت نمونما بأنها قد كبرت كثيراً،
على الرغم من أن اتحاد ومعاذ يبدوان ثلاثينيين.

حكمة المحكمة ..

ليست هذه رفقة مسواح، أي ليست بنت الأستاذة سلوى كاف. وليس هذا لوثر عرمتاوي المعتقل الذي ذهبت نمنوما إلى حلب كي تحضر محاكمةه، برفقة حماته سلوى، ماما سلوى، القاضية سلوى. أما هذا الطفل الأعجل ما شاء الله الذي ذهب بعقل جدته، فهو وحده من قد تكون رأته نمنوما من قبل، وبالضبط في حماة، في بيت راتب وبنان، سوى أن اسمه هناك كان العاصي، بينما اسمه هنا سحبان، على اسم والد لوثر، ربما تبدلت رفقة كثيراً: شعرها الآن خرنوبي وقصير جداً، أقصر من شعر لوثر الذي انزاح إلى الوراء كثيراً، فانكشف نصف رأسه. وربما تضاعفت سماكة زجاج نظارة رفقة، كما تضاعفت سماكة شاريبي لوثر. لكن ذلك وسواه مما قد تكون السنون بدلته من رفقة ومن لوثر، ليس ما شوش ذاكرة نمنوما، بل هو انشغالها بالعقوبة التي أيقنت أنها سياسية وكيدية، بعدما رفع النائب العام التقرير الطبي الذي أحضرته إلى الوزير، فأحاله الوزير إلى اللجنة الطبية، والقاضية نمنوما زكي ليست موضع ثقة إذاً، لأن اللجنة لن تأخذ بالتقريرين، ولن يكون للمتمارضة استراحة، لا لشهر ولا ليوم، هذا إذا لم تهبط

عليها عقوبة أخرى، جزاء على كذبة المرض، كما خمنت ماما سلوى، قبل أن ترجو لوثر أن يصل ما قطع حضور نمنوما من حكايات حلب، فتولت رفقة الحكي وهي تخص نمنوما بنظراتها:

حلب كانت دائمًا مدينة الغنى الذي تجود به عليها الأزمات والاضطرابات، وحتى الحروب. عشراتآلاف النازحين من حماة وإدلب ومن ريفهما، هم الآن في حلب التي تستفيد منهم، حتى في الحد الأدنى: أجراة سكن وتنقل، وثمن الأكل واللباس .. المطاعم ازدهرت، المولات في مهرجان دائم.

قالت سلوى مقاطعة:

عكس هنا. في الشام لا تسمعين إلا الشكوى.
فتولى لوثر الحكي متابعاً:

أخي الأكبر معمر الذي سماه أبي تيمناً بمعمر القذافي، رفع على بنايته في الصاخور طابقين مخالفين. أصهاري الثلاثة يتسابقون على مخالفات البناء، واحد في الجابرية، واثنان في الـهـلـكـ التي انتعشـتـ فيهاـ السـوقـ، بعدـ رـكـودـهاـ الـذـيـ زـادـ سـنةـ بـعـدـ سـنةـ، فالـعـمـالـ فيـ مـعـاملـ الـأـحـذـيـةـ صـارـواـ قـادـرـينـ عـلـىـ التـسـوـقـ فـيـ العـيـدـ الصـغـيـرـ، وـالـآنـ صـارـواـ أـقـدـرـ فـيـ العـيـدـ الـكـبـيرـ عـمـالـ الـبـنـاءـ تـضـاعـفـتـ أـجـورـهـمـ، أـسـعـارـ الرـمـلـ وـالـبـحـصـ وـالـحـدـيدـ

والبلوك والإِسمنت، كلها نار، مئات الألوف تحسنت أحوالهم،
نجار الخشب ونجار الألمنيوم والباطونجي والجبار ومعلم
العمار والناطور والحمّال... حتى التهريب صار في عرس من
أول الصيف. من قرية كلبيت وقرية بابسقا القريبتين من باب
الهوى، إلى الحدود التركية، تهرب المرأة في اليوم خمسين
كروز من الدخان الأجنبي. اطلبني وتمني، أي نوع. الحمار ينقل
يومياً من مئة إلى مئتي لি�تر من المازوت، ومثله البغل. الشاب
ينقل بيدون المازوت على كتفه ويمشي على ضفة العاصي.
ولا تسألي من أين يشترون المازوت. محطات الوقود في سر마다
قريبة، يشتري المهربيون بالقوة، ويدفعون السعر الأعلى، وكل
شيء فلتان، لا حكومة ولا ..

قاطع الحفيد الأعلم أباه بالتلويح بالبكاء، فتناوله من
جذته وخرج به إلى الشرفة، بينما استعادت رفقة الحكى:
أنتم هنا تسمون: جمعة حماة الديار وجمعة لا للحوار،
ونحن في حلب نسمى: جمعة العمار وبعدها جمعة الإِكساء،
وبعدها جمعة الديكون، وهكذا.

قالت ماما سلوى:

لكن لوثر تحدث عن مظاهرات مؤيدة ومظاهرات معارضة.

قالت رفقة:

المظاهرات المؤيدة أكثر وأكبر. طبعاً هم يسمونها مسيرات.
ساحة سعد الله الجابري مكانهم المفضل. حتى الحزب
الشيوعي جماعة خالد بقدام نظموا في الساحة مظاهرة
تأييد. أحياناً يشارك في المسيرة مئات الآلاف. أنا رأيت العلم
الذي مدوه من دوار الباسل إلى دوار الليرمون طوله ٢٣٠٠
متر وعرضه خمسين متراً.

سألت نمنوما بحذر:

والمعارضة؟

قالت رفقة:

لو رأيت كيف تحولت أكثر من مظاهرة معارضة إلى
مظاهرة مؤيدة.

قالت نمنوما:

قرأت مرة على الفيسبوك نداءً إلى جميع الثوار في ريف
حلب وإدلب، أظن هكذا كان عنوان النداء الذي يحضر الناس
على التوجه إلى حلب.

قالت رفقة:

ازحفوا إلى حلب لإنجاح مليونية، أذكر كلاماً كهذا من
ذلك النداء. لأن استجابة المدينة ضعيفة جاء طلب النجدة
من الريف، ولكن المليونية صارت بضعة آلاف، بينما نظم



فيه، فهو أن تبدأ امتنان في أول الشهر إجازة طويلة ستمتد حتى نهاية السنة.

بلا حماسة حملت نمنوما إلى البيت الملف الذي استوقفها وهي تتصفح ما سلمتها امتنان من ملفات، كلها نحيفة، ما عدا هذا الملف الراخ بالضبط والبيانات: أربعة وثلاثون حدثاً، قبض عليهم في خمس مظاهرات، منهم من مضى على توقيفه في برزة ثمانية أشهر، وأخرهم أوقف منذ ستة وثلاثين يوماً في داريا.

في تلك الليلة تعرفت نمنوما على أكبر الموقوفين ١٧ سنة وعلى أصغرهم ١٢ سنة وعلى من اعترفوا بالتهمة الموجهة لهم: كما تعرفت على من أنكروا: تخريب الممتلكات العامة والنيل من هيبة الدولة. وفي النهارات التالية التقت الموقوفين واحداً واحداً. ومن ثم استشارت أكثر من زميل وزميلة، ليكون للحكم الذي ستصدره دويّه، ليس إحقاقاً للحق فقط، بل رداً على العقوبة السياسية الكيدية، وعلى رفض الوزير للتقرير الطبي.

بقاضي الإحالة الأستاذ ميخائيل يعقوب بدأت نمنوما الاستشارة. وبعد أن لخصت له القضية، سالت: برأيك لماذا لم يشمل هؤلاء الأحداث ما أصدر رئيس

ضاع فين القانون
أكبر مصيبة ضياع القانون
وتوقفت فجأة، ونظرت إلى الآذان التي كانت تصغي لها،
واستدارت لتخفي وجهها حياءً، بينما تدافت ضحكات نمنوما
ورفةة ولوثر، وعبارات إعجابهم.
وحيين عادت نمنوما مشياً إلى بيتها للمرة الثانية فكرت
طوال الطريق فيما يجعل الحراك في حلب ضعيفاً، كما هو في
الشام، وفيما إذا كان في حراك الريف ما يعوض.

* * *

هذه حمص وحماء واللانقية بدأت تشبه الشام وحلب،
بعدما نزل بها من ضربات النظام. وهذا هو العباء الأكبر الآن
ينهض به الريف: ستقول نمنوما لزميلتها امتنان زامللي،
الرئيسة الأصلية لمحكمة الأحداث. لكن امتنان ستشدد على أن
الحراك في الريف الشمالي مسلح، وهذا هي عدوى السلاح بدأت
تفشو في ريف الشام.

كانت نمنوما قد عرفت امتنان جيداً ومنذ سنوات، في
القصر العدل: مستقيمة، ومؤيدة للنظام، ولكن باعتدال. لكن
نمنوما بالغت في الجفاء في الأيام الأولى لعقوبتها، ثم بالغت
في الحذر بعدما تعثر التقرير الطبي. أما ما لم تفكر نمنوما

المؤيدون في تشرين الأول مليونية حقيقة، وكان اعتمادهم على الريف أيضاً كبيراً.

قالت سلوى:

لوثر تحدث عن المحامين خصوصاً.

قالت رفقة:

المحامون اعتضموا في حزيران في القصر العدلي، أكثر من ثلاثة محام، وكانت بينهم أخت لوثر وزوجها. طالبوا بالإفراج عن المعتقلين، وهتفوا: الدم السوري غالٍ، وفي القاعة المقابلة لقائهم اعتضم المحامون المؤيدون وهتفوا للرئيس. أما الاعتصام الأهم فقد كان في منتدى النقابة، وحاول المحامون المؤيدون إفشال الاعتصام، فهتف صهر لوثر: النقابة حرة حرة. لكن نقيب المحامين أمر بفرض الاعتصام وإغلاق المنتدى. أخت لوثر كسر الأمن الكرسي على رأسها، كما كسر غيرها على رؤوس غيرها أمام الشرطة الجنائية، عندما هاجم الأمن المحامين، وضربيهم بالعصي الكهربائية، واعتقلوا بعضهم، ومنهم من لا يزال معتقلأً حتى الآن.

وحين عاد لوثر وطفله من الشرفة، شبت ماما سلوى لتتلقف حفيدها، وراحـت تدندن له:

يا هل القانون

الجمهورية من عفو بعد العفو؟

أجاب بسخرية:

سياسة.

وبرأيك، ما هي العقوبة التي يستحقونها؟
كقاضي إحالة: أطلق سراحهم فوراً. أما كمواطن، وكمسيحي
ترعبني هذه الأصوات الإسلامية الطائفية التي تتعالى،
فعقوبتي لهؤلاء الأحداث هي الإعدام.

عندئذ قررت نمنوما أن تكتفي من الاستشارات. وفي الغادة
حكمت ببراءة جمع المتهمين من جميع التهم المنسوبة إليهم.
وبعد أن رفت النبا إلى ماما سلوى، وإلى صباح، راحت تعد
الأيام بانتظار عقوبة جديدة. ولما لم تأت العقوبة، بينما عيد
رأس السنة يقترب، سالت صباح: هل تدعوني إلى الاحتفال
بالعيد أم أدعوك؟



الصديقان

ربما كان صباح مضاعف الحساسية بالفصول. فالحر، كالبرد، قد يرميه بالعطس أو بظل من الحرقة أثناء التبول. لكن الأهم كان دوماً أن أعماقه كانت تستشرف تبدل الفصول، وتتلمسه برهافة، فيورثه الانقلاب الصيفي مثلاً ظلاً من الحزن أو الانكفاء، وهو ما اطّرد هذا الصيف باطراد القتل والخوف والاعتقال والنزوح والاغتيال. حتى إذا حلّ الخريف، تراءى لصبح أن الفصول تتبدل، لكن الصيف ما عاد يريد أن يغادر، أو ليس قادراً على أن يغادر، وكأن الخريف يأتي مكرهاً أو لا مبالياً، بل لكانه والصيف ما عادا صيفاً وخريفاً، ولا عادا فصلاً أو فصلين. ولعل ذلك ما أرخى على صباح ظلاً من الكآبة، أدركته نمنوماً من صوت وهاتف، كما لم يدركه صباح. وكما أمرت نمنوماً كي يتبدد ذلك الظل الآن الآن، أخذ صباح يكثر من تردداته على المقهى، ومن زيارة بهنان، وأمه في جبلة، وأخته في بانياس. وحين دعته حملة (عبر عن نفسك بالعربي) إلى احتفاليتها، لبّى، وقد كان من الشخصيات التي اجتمع بها شباب وشابات الحملة منذ بداية الصيف.

أحيا الاحتفالية الرباعي الموسيقي اللاذقي، وأنعشَت

صباح البلوز المزينة بعبارات كان قد ساهم في اختيارها:

لصديقي موسيقاه ولـي موسيقاي

الاختلاف دعامة تقوى القرار

ختم الأفكار بالشمع الأحمر تحدـ هام يواجه الشباب

القرار المسبق يخنق صداقتـ مع الآخر...

وكانت الإعلانات الطرقية قد حملت عبارات أخرى:

المواطنة روح في أجساد عديدة،

العمل إشعال لمصباح الذات...

عاد صباح تلك الليلة إلى البيت مبكراً ليجد بانتظاره

رسالة نصـية من بهنان: ساعدني يا صديقي، فأجابـه بالرسالة

نفسـها، ولـبـثـ يـحدـقـ فيـ المـوـبـاـيلـ وـهـوـ يـتسـأـلـ: منـ يـسـاعـدـ منـ؟

* * *

منذ حينـ كانـ بهـنـانـ يـتـلقـىـ صـمـتـ صـبـاحـ أـحـيـانـاـ،ـ نـظـرـاتـهـ

أـحـيـانـاـ،ـ طـولـ غـيـبـاتـهـ أـحـيـانـاـ،ـ كـاحـتـجـاجـ عـلـىـ ماـ عـلـيـكـ أـنـ تـفـعـلـهـ

يـاـ صـدـيـقـيـ الـآنـ،ـ بلـ كـانـ عـلـيـكـ أـنـ تـفـعـلـهـ مـنـذـ سـقطـ أـوـلـ شـهـيدـ فـيـ

الـلـاذـقـيـةـ:ـ أـنـ تـتـوقـفـ عـنـ إـعـدـادـ الـأـبـحـاثـ وـالـدـرـاسـاتـ لـذـوـيـ الـقـرارـ

دعـكـ مـنـ أـمـثـالـيـ.ـ دـعـكـ حـتـىـ مـنـ الشـبـابـ الـذـينـ لـيـسـ لـأـحـدـ

عـنـهـمـ ذـقـنـ مـمـشـطـةـ،ـ وـقـلـ لـيـ:ـ كـيـفـ سـتـواـجـهـ نـفـسـكـ؟ـ

صـبـاحـاـ،ـ وـعـلـىـ مشـهـدـ مـنـ الـبـحـرـ،ـ وـهـمـاـ يـتـمـشـيـانـ عـلـىـ

الكورنيش الجنوبي، كرر بهنان الرجاء:
ساعدني يا صديقي.

ومن أجل أن يساعدته صديقه، روى بهنان كيف داور الدكتور بهيج في زيارتيه الأخيرتين له، كي يعفيه من البحث الذي كان قد طلبه منه، ثم كرر مكتب الأمن القومي طلبَ بعد شهر: (تحليل لما يجري في البلاد منذ ١٥ آذار ٢٠١١)، واستشراف لسبل الخروج الآمنة). لكن الدكتور بهيج قال محذراً وناصحاً ومشفقاً: إياك أن تستعفي الآن. سوف يفسرون ذلك ميلاً منك إلى المعارضة، بل انحيازاً.

قال صباح بقصوة:

ليس لبقائك على صلة معهم من معنى إلا أنك معهم. لا تقل: أنا من الكتلة الصامدة، لا تقل كتلة حائرة. لا حياد ولا فرجة. ما عادت الأمور كما كانت منذ سبعة أشهر أو ثمانية. الآن أنت أمام آلاف الشهداء. أنت أمام آلاف مؤلفة من الجرحى، وألاف مؤلفة من المعتقلين، وأضعافهم من النازحين.

وبعد صمت امتد أياماً، تواتطاً عليه، سأله صباح على مشهد من البحر، ولكن في وادي قنديل هذه المرة: ماذا فعلت بكتابك الذي جلدتنني بقراءاته منذ سنة؟
قال بهنان وكأنه يبحث عن جواب:

نام في دار الفارابي في بيروت عدة أشهر، ثم طلبت التوقف
عن نشره.

سأل صباح عن السبب، لكنه لم ينتظر جواباً، بل تابع
ممتداً:

كانت صياغتك المكسكة والذئاب الجديدة دقيقة وهامة.
الشبان الرائعون: صياغة موقفة.

قال بهنان مبتسماً:

كقولك أنت: **الصيننة**، نسيت؟ تعبير ممتاز عن الحزب الواحد
والقائد، وعن هذه الرأسمالية الصينية العجيبة: اقتصاد السوق
الاجتماعي!

وأضاف بعد صمت عابر:

ما رأيك بالأمننة؟ كنا في الصيننة صرنا في الأممنة.

قال صباح وهو يفكر فيما بدت عليه صفحة البحر من
درج «الحاواكي»:

للشارع الآن لغة أخرى. يا سيدى: لغات أخرى.

قال بهنان:

للشارع دائماً لغته أو لغاته، للشارع دائماً مصطلحاته
وصياغاته، ولكن هذا لا يعفيانا ولا يعفي أمثالنا من أن
يبحثوا ويفكروا ويكتبوا، وإلا كيف يمكن أن يُصاغ الوعي

الجديد؟ ما رأيك لو صارتتك بأن واحدة من مصائب هذه الانفاضة هو أنها بلا مفكرين؟ بلا فكر؟ صحيح أن لها إعلاماً هائلاً وصحافيين كثيرين، لكن ذلك يبقى يومياً وعابراً. هذا النقار التلفزيوني الذي تراه، هو غوغائية مؤيدة أو معارضة. وهؤلاء العباقرة الذين ملأوا الشاشات بالتفتقة الفكرية كما ملأوها بتفتفات لعابهم، غوغائيون، معارضين كانوا أم مواليين.

* * *

كان بهنان هو من دعا صباح إلى وداع البحر في ذلك النهار التشريني الرائق. وكان صباح هو من اختار وادي قنديل. لكن بهنان جدد الدعوة بعد أيام، وحدد المكان: مجمع الرمال الذهبية. وعلى الطريق اعترف بأن هدف هذه الرحلة الطويلة إلى مشارف طرطوس، ليس وداع البحر الذي ابتردت مياهه، بل هو لقاء الدكتور بهيج عباد في الرمال الذهبية. وقبل أن يغصب صباح من هذه الخديعة، أسرع بهنان: اتخذت قراراً. لن أكتب لهم بعد اليوم أبحاثاً ولا دراسات، ولا تظن أني سأكون معارضًا مثلك الآن. أنا بحاجة إلى أن تساعدني في التنفيذ. للدكتور بهيج دالة كبيرة علىّ، لا أدرى سبباً لها. لا تقل: بسبب مكانته في القصر الرئاسي أو في

الدولة. على الأقل، ليس هذا السبب الوحيد. طالما ذكرني بوالدي. بعد قليل سترى وستغفرني.

وبعد قليل لاقى الدكتور بهيج وزوجته وابنته ضيفيه بحرارة. وأدهش صباح أن الدكتور بهيج لم يؤثر بهنان عليه، إن لم يكن العكس. وعلى الشرفة الفسيحة التي تركت مدةً من الرمل الزاهي بينها وبين البحر، تدفق الدكتور بهيج، بعدما انصرفت زوجته وابنته، كأنه يصل حدثاً انقطع للتو:

مجموعة الأزمات الدولية منظمة مستقلة، لا ربحية ولا حكومية، قوامها: البحث الميداني، وهذا هوak يا بهنان. دون أن أستشيرك، اقترحت اسمك لتكون في الفريق الميداني لسوريا. هل اطلعت على الإحاطة الأخيرة التي أصدرتها المجموعة؟ نفي بهنان، فكرر الدكتور بهيج السؤال لصباح، فنفى،

فتابع:

في هذه الإحاطة عنوان لافت: انتحار النظام السوري على إيقاع بطيء. مع أنني لا أوفق على هذا الرأي، أتسائل: ألم تبدأ المعارضة مبكراً بالانتحار البطيء؟ ماذا يمكن أن نسمى هذا اللجوء إلى السلاح؟ ماذا يعني أن تفجر قطار حلب اللاذقية، أو قطار حلب حمص؟ ماذا يعني أن تفجر خط نقل للغاز أو خط نقل للنفط؟ وهذه الحمى من المؤتمرات والهياكل خلال شهور

معدودة: المجلس الوطني الانتقالي، المجلس الوطني السوري،
هيئة التنسيق، مؤتمر الإنقاذ الوطني، مؤتمر سمير اميس،
حركة معاً، المجلس الوطني الكردي، عدا التنسيقيات وهذه
الحركة وهذا التجمع و... هل هذا كله علامة صحة أم مازا؟
فكر صباح في أن صمته سوف يسهل على بهنان أن ينفذ
قراره، لكن لسانه أفلت منه، فقال:

لماذا نسيت يا دكتور الحمى الرسمية أيضاً؟ هل يكفي
أن أذكرك باللقاء التشاوري؟ ماذا تنتظر يا دكتور من بلاد
مخنوقه طوال نصف قرن؟ قد يكون فيما ذكرت تسرّع أو
ارتباك أو فوضى، لكنه ليس علامة انتشار، لا بطيء ولا عاجل.
أما النظام فتراه يخوضها معركة حياة أو موت، وفي هذا من
الانتحار البطيء أو السريع ما فيه. في أقل من شهرين بعد ١٥
آذار يسقط ألف قتيل! ما هذا؟

تابع الدكتور بهيج بمودة أكبر:

أعرف أنك يا أخي صباح لست معنا، ومع ذلك أقول لك: نحن
أقوياء في السياسة، لكننا أعترف لك ضعفاء في القانون،
ضعفاء في محاربة الفساد، ضعفاء...

قال صباح مقاطعاً:

أظن أنكم كنتم أحياناً أقوياء في السياسة الخارجية. أظن

أنكم الآن ضعفاء في السياسة الخارجية والداخلية. وعلى كل حال: الضعف في القانون وفي محاربة الفساد يتطلب الإصلاح، وأنتم رفضتم الإصلاح. ت يريدون أن ننتظر الجيل القادم لتحقيق الإصلاح؟ ما معنى هذا؟ ت يريدون الإصلاح الاقتصادي، ثم ستنتظرون في الإصلاح السياسي، ما معنى هذا؟ قانون للأحزاب هنا ولجنة للدستور هناك وقانون للإعلام هنا وقانون للتظاهر هناك... هذا كله ما عاد ينفع في شيء.

تساءل الدكتور بهيج مبتسماً:

إذاً هو إسقاط النظام؟

قال صباح:

هل من حل آخر؟ أظن أن الدكتور يتبع ما يفعل الغاضبون في أمريكا وفي أوروبا. هناك يهتفون: احتلوا وول ستريت، احتلوا بورصة لندن. وهنا، هل أقول لك ماذا يهتف الغاضبون أيضاً؟ إذا كان صوت التغيير قد بدأ يعلو في نيويورك، إذا كان قد بدأ يعلو في إسرائيل، فالأخواني به أن يعلو في بلادنا. التغيير يا دكتور، وليس الترقيع.

قال الدكتور بهيج:

الخلاف هو على أساليب التغيير، وعلى درجاته، وليس

في ارتفاع أو انخفاض الأصوات التي تنادي به. إذا كانت الديمقراطية هي الغاية، إذا كانت الحرية هي الغاية، فقد تأتي مع الرشاشات والمدافع. أحياناً تأتي حتى مع الاحتلال، ومع ذلك لا بد أن تتوجها الانتخابات. الآن الجيش والشرطة والأمن في معركة حياة أو موت، كما قلت أنت. بعد النصر ستأتي الديمقراطية والحرية، ستأتي الانتخابات. وعلى كل حال، قل لي أليس الأدق أن نتحدث عن معارضات وليس عن معارضة؟ هل تضع في سلة واحدة المعارضة السلمية والمعارضة المسلحة؟ المعارضة الدينية والطائفية والمعارضة العلمانية؟ المعارضة الداخلية والمعارضة الخارجية؟ بل قل لي: هل هي واحدة كل معارضة من هذه المعارضات؟

قال بنهان مستغيثاً:

اسمح لي أن أتنفس. اسمح لي بكلمة.

والتفت حيث التفت عنه الدكتور بهيج وصباح إلى القادمات من البحر: الأم المبللة تجري و«توحوح»، تتقدمها بنت وتتبعها بنت وهما تضحكان وتشكونان معاً لأبيهما ضعف زوجته. وربما كان ذلك ما أنسى صباح سبب مجئه وبنهان، إذ بوغت بنهان يستأذن الدكتور بهيج في الانسحاب من العمل معه، وكانت الأم تسرع إلى داخل الشاليه، كأنها تهرب من نظرات

صباح، بينما كانت البنتان تحيطان بأبيهما، حيث لم تجرؤ نظرات صباح على الاقتراب، وربما كانتا هما ما أرجمف أيضاً صوت بهنان، وليس استرضاؤه الدكتور بهيج الذي أغضبه قرار الانسحاب.



هل هذه هي سوريّة المصغّرة حقاً؟

أنا خائفة من أن أكون قد أخطأت بترك ليليا في رأس السنة.

بعدما دوى الرصاص وطرطش في كلية الهندسة الميكانيكية، ظلت أياماً ذاهلة، لا تكاد تتكلم، ولا تكاد تأكل، وأظن أنها كانت لا تكاد تنام. ماذا غير الأنانية يجعلني أسافر إليك وأتركها وحيدة؟ هل ستسرّه مع أصدقائها وصديقاتها؟ في البيت؟ خارج البيت؟ وسراج؟ هل صارت قادرة على أن تسهر ليلة رأس السنة من دونه؟ أحياناً يسعدني أن أراها قد توازنت مع ذكرها، أقصد مع نسيانها، وأحياناً يوجعني ذلك، ويلتبس علي بالنكران وقلة الوفاء. ولكن حتى لولم يكن سراج سبباً، فمن سيحتفل برأس السنة بعدما بلغنا ما بلغنا من الدم والحزن والرعب والدمار؟

حمص الآن من هذه الشرفة عروس غارقة في البياض الذي تؤطره العتمة، فتوقده بياضاً ويوقدها سواداً.

الهواء الحمصي قد سكن منذ العصر، وهم يتحلقون حول أمي، بالأحرى حول مدفأة الحطب الجديدة التي حلّت محل مدفأة المازوت. لا مازوت لهذا الشتاء، بل مناشر لا توفر شجرة،

وشاحنات محملة بالحطب المفصل على قدّ حوض المدفأة
الحديدية التي جعلت أمي تترحم على أمها، لما أورثتها من
هذا الولع بالطبع على الحطب.

أنا خائفة من أن يحبسني الثلج هنا. كان عليّ أن أتابع إلى
اللاذقية، لكن هذا النديف الذي لم يتوقف منذ الصباح، جعل
البولمان يسير ر بما بسرعة أربعين أو أقل، وجعل الدواليب
تزلق مرات ومرات لترعدني شهقاتهن وشهقاتهم وشهقاتي.
والخوف إذاً هو ما عرّج بي على حمص، وليس الشوق لأمي
التي ستسألني عنه غداً عندما أودعها وأتابع إلى اللاذقية.

لماذا تركنا وتركنا بيتها وتذهب إلى اللاذقية؟

ستسأل أمي أسيمة، وستسأل أسيمة ملحم. أرجو لا يسألني
أحد منهم، لأنني لن أجرو على أن أعرف: مشتاقة لصباح. هل
أقول: أكافي نفسي على ما حكمت به على الأطفال؟ سأقول:
مشتاقة لبحر الشتاء، مشتاقة لبحر الثلج، وإن يكن صباح قد
خيّبني: الثلج على الجبال فقط. والبحر يا صباح؟ يندر أن تثلج
على البحر. من أجلي يا صباح، دعها تثلج هذه المرة. قل لها:
سنسر ليلة رأس السنة في البحر أنت تقول: في البحر وفي
الثلج، في آن معًا.

لماذا تناديني أسيمة؟

* * *

أنا خائفة على أسيمة من ملحم، ومن ملحم على أسيمة. أنا
خائفة عليهم معاً من حمص الغارقة في الثلج، ثلج أحمر دم
هو، ثلج أسود، ثلج معجون بالوحش وتنف اللحم التي خلفتها
قذيفة أو خلفها باطون السقف الذي انCDF إلى أعلى علبيين
قبل أن ينCDF إلى أسفل سافلين، فيسوى الدماغ والأضلاع
والأمعاء والبراز والقلب والظام بالبلاط: تحكي أسيمة وهي
تؤشر، فتخترق أصابعها الزجاج والشرفة والظهيرة والثلج
والهواء الحمصي الذي كان يؤجّ أجّا.

تسكت أسيمة، بالأحرى تعجز عن النطق، تخرس أو تنبّلها،
فينتظر ملحم زمناً لا يقاس، ربما كان ثواني، وربما كان
دقائق، ثم يحكى حكاية المسلمين الذين هاجموا الباص
العتيق موديل ١٩٧٧ على طريق حمص جب عباس، وقتلوا
الركاب الأحد عشر: العلوبيين، سيضيف ملحم بعد زمن لا
يقاس، ربما كان ثواني، وربما كان دقائق، ثم يحكى حكاية
المسلمين الموالين الذين انتقموا للباص إذاً كان مهاجموه
معارضين فهاجموا المعمل في كفرلاها، وقتلوا أحد عشر
عاملاً سنياً.

وما إن يصمت ملحم حتى تحكي أسيمة حكاية الموالين
الذين هاجموا الخالدية أثناء تشيع كوكبة من الشهداء،

فسقطت كوكبة جديدة، وسقط جرحى بالعشرات، نقلهم الشباب إلى مستشفى البر في الوعر. ثم تحكي أسيمة حكاية الرصاص الذي لم يهدا طوال ليلتي الاثنين والثلاثاء، فلم تغف عين. ومنذ ليلة الأربعاء أعلنت مجموعات عديدة الجهاد، ولطت في الأزقة والشوارع الفرعية الضيقة، فقتللت وقنصت وخطفت، سواء في باب الدربيب أم النزهة أم باب السباع أم الزاهرة أم شارع عكرمة أم الإنشاءات أم شارع الحضارة أم القرابيص، إذ لا فرق في الجنون الطائفي إلا بعد القتل وطرائق القتل، وما سوف يعقب القتل مما لا يفعله الضبع بالضبع، ولا السبع بالسبع.

بعد زمن لا يقاس، ربما كان ثواني، وربما كان دقائق، سوف تندغم الحكايات، وسوف تتشال، لذلك سيحكي ملحم وأسيمة في آن معاً حكاية الجار المسيحي الذي قُتل البارحة مثل هذا الوقت، فأخرّ الثلج دفنه حتى قبيل وصولك يا نمنوما. وستلي حكاية الملصقات التي ملأت الجدران من هي عكرمة إلى هي جورة الشياح لتصرخ بعبارة واحدة: سورية طائفتي، ثم تقتتحم عشر سيارات للأمن هي الإنشاءات ويلله يا اعتقالات، بينما تبدأ الرشاشات الثقيلة صلياتها على السلطانية قريباً من بابا عمرو، وفي داخله، ثم تتمركز ببابا

ودباباتان وثلاث في البياضة وفي شارع الستين، ثم يطلق مسلحون الآر بي جي على المشفى العسكري، ثم تبدأ حكاية الاغتيالات: نائب مدير كلية الكيمياء العسكرية. نبق له من بين الأشجار سبعة ملثمين بعد قريته زيدل، ونائب عميد كلية هندسة العمارة ووكيلها العلمي: نبق له ملثم واحد، ضربه على يافوخه بما شقه، في دوار المهندسين بالغوطة، الأول مسيحي والثاني علوي أو شيعي الله أعلم، وهو على أية حال من قاد حملة إغاثة العائلات اللبنانية التي لجأت إلى حمص سنة ٢٠٠٦. وهذا رئيس قسم الصدرية في المشفى الوطني، وهذا المهندس النموي و..

من التُّنف التي تطايرت من حكاية وحطت في حكاية أن أحيا عكرمة الجديدة وعكرمة الجنوبية وضاحية الوليد ووادي الذهب قد استقطبت الزبائن في العيد من جنوبي المدينة، وأن فنانة شابة علوية هربت من طرطوس والتحقت بالثوار في بابا عمرو، واعتلت المنصة بين الشباب، وهتفت ولوحت بذراعيها، فألهبت الأكف والحناجر والعيون والأذرع.

* * *

صباح: جراء كل ما تقدم ما عدت قادرة على الانتظار،
لذلك أفلت مني السؤال النائج: الطائفية يا ملحم؟ الطائفية يا
أسيمة؟

قالت أسمية: اغتالوا هذا الدكتور لأنه ممثل لحزب الله،
واغتالوا هذا الدكتور لأنه يقتل الجرحى المعارضين في
المشفى الوطني أو العسكري. الله أعلم.

أنا خائفة من أن تذهب أسمية أبعد في الطائفية، أو تذهب
الطائفية فيها أبعد. وأنا خائفة من أن يكون ملحم كذلك أيضاً،
فترق النار حكاية الحب الذي ظلت جامعة البعث تحكيها
ملء حمص سنوات بين ملحم عبد الجليل وأسمية زكي.

هي: الكوافيرة، هذه المرة بدلت العادة، فرجحت حصة ملحم
من الحكي على حصتها. وأنا خائفة من أن تتحول الحكايات
إلى كوابيس، فأسمية كأنما تنادي بسلطة سنية بدلاً لسلطة
علوية، فهل قامت الثورة إذاً كي تحل سلطة طائفة أو سلطة
طائفية محل سلطة طائفة أو محل سلطة طائفية؟
سألت وأنا خائفة من أن تكون الطائفية صارت أقوى من
الوطنية: ولماذا ننسى العشائرية؟

أنا خائفة من هذه الطائفية التي بدأ يتداولها معارضون
ومثقفون وسياسيون ملونون بسائر الألوان. لماذا أعتبر إذاً
على عامة الناس، من متظاهرين وغير متظاهرين؟
صحيح أن هذا النظام هو من أنعش الطائفية كما أنعش
العشائرية والجهوية والعائلية، ولكن إلى أين سنمضي إذا
طفت هذه اللغة؟ إلى عراق ثانٍ أم إلى لبنان ثالث؟

حبست الأسئلة في صدري لأن صوت أسيمة علا: لو أننا
طائفيون كما تلمح وكما تصرح يا أستاذ ملحم، لما كانت
المظاهرات هتفت: يا بوطي وبيا حسّون شيل اللفة وحط قرون.
ويبدو أن كلاماً هاماً أو حاداً كان قد فاتني، إذ علا صوت
ملحم:

الناس في الرستن رشوا الرز على الجيش، الجيش النظامي،
عندما طرد الجيش الحر ودخل المدينة.
فازداد صوت أسيمة علوأ:

منذ أيام كنت تبكي: الحرائق أكلت الرستن يا أسيمة، الطيران
قصف حتى خزانات المياه يا أسيمة. بيت والدي وجدي في
السجر الجنوبي راح، مولدات الأفران توقفت يا أسيمة، والآن
تحذثني عن رش الرز؟ مبروك عليك جيشك النظامي.

صاحب ملحم: وأنت مبروك عليك جيشك الحر.

قالت أسيمة متحدية: الجيش الحر يمثلني.

قال ملحم متحدياً: وأنا الجيش الحر لا يمثلني، والمجلس
الوطني لا يمثلني.

وقف، وهو بالخروج، فأرغمه على الجلوس، وأمرت
أسيمة بالخرس، ويدأت أدندن، لعلّي أهدهما: يا زمان
الطائفية.. لكن الكلمات ضاعت مني، فسألت ملحم العون، وهو

المرجع في أغاني الحرب الأهلية اللبنانية، لكنه حرن، فتابعت
الدندنة حتى عثرت على شذرة من الأغنية:

خلي إيدك ع الهوية

شد عليها قدّ ما فيك

ثم أمرتهما بأن يترحّما على سيد درويش وأن يغريا معاً:

لا تقول سني ولا علوبي

ولا مسيحي يا شيخ اتعلّم

اللي أوطانهم تجمعهم

اللي الحب يجمعهم

عمر الأديان ما تفرقهم

فجازيانى كلُّ بشطر ابتسامة، ثم بابتسامة، وكان صوت

يامن ينادينا: متى أتى؟

* * *

يامن: أنا مشتاقة لك، وأنت مشتاق لي، لا تكابر. تعال إليني،
أضمك وأقبلك كما كنت أفعل كلما غبت عنّي، قبل أن تبعد
بيننا هذه الأيام، بدلاً من أن تقرّينا. ليلياً أيضاً باعدت بيننا،
فاخر باشا باعد بيننا، وأنت تهرب مني، أنت تهرب مما يمكن
أن نتحدث به عن هذه الأيام، لذلك تسألني الرأي في الدوري
النسائي الفلسطيني لكرة القدم، سيشارك في الدوري ستة

عشر فريقاً، ستة منها ستلعب في ملاعب مفتوحة، أمام عيون الجماهير، والباقي ستلعب في صالات مغلقة، أمام عيون جماهير أخرى، خبر كهذا يسعدني، وأنت تعرف رأيي دون أن تسمعه مني. لماذا تمعن في الهرب إذا؟ كرمي لك: ميسى هو نجمي المفضل، وريال مدريد هو فريقي، وسنلعب في ملقة، ستكون ضربة كريم بنزيما أحلى، لا، ستكون ضربة أنخل دي ماريا أحلى، لا، ستكون ضربة مارسيلو أحلى، وميسى هو الأحلى وأحلى، سأكتم إعجابي برونالدو كرمي لك، وكرمي لك سأصفق لفريق فيريرا عندما يتقدم على مضيفه ناسيونال، ولكن هل تظن يا أخي ويا ابني أن هذا الهرب كله سينجو بك من حبي لك ومن اختلافي معك؟

يامن حزين على فراق فاخر باشا، وحزنه أكبر لأن فاخر باشا صار المعارض رقم واحد بين تجار حمص، وربما بين تجار سورية: ستتحكي لي أسمية كما يليق بالكافير والكافيرية. فالحلاق أخ الحلاقة في الحكي.

لماذا هرب فاخر باشا؟

أنا خائفة من تقلباته، وخوفي أكبر من أن يكون الآن يتنعم في دفء حضن المعارضة، بينما العاصفة الثلوجية تتصف استنبول فاخر تحدث مع أمي وحدها من استنبول:

تحكي أسيمة وأنا خائفة من أن تقصف العاصفة هنا، كأنها طائرة تقصف، أو مدفع يقصف، فتحترق هذه الشجرة العارية وهذه الشجرة الكاسية اللتين تظللان الشرفة بالبياض المحمّر والمسود والمبيض، وعندئذ سيصير البحر أبعد منه الآن، مثله مثل رأس السنة، مثل صباح، طيب وأنا؟

نمنوما، أنت العيد وأنا النحر

نقرت أنامل نمنوما على الكيبورد:
قبل أن أنام أزاحت الستارة عن النافذة. عريتها لتتدفأ بهذا
الثلج.

على الرغم من العتمة الحارقة كنت أرى الثلج. غفوت على
بياضه وسود الليل.
صحوت على بياضه.

أين ذهب الليل إذا؟
بهذه الأغنية سنبدأ بالاحتفال:

«قد تقضي حياتك وأنت تبني من لا شيء، فتأتي العاصفة
وتهدم ما بنيت. ولكن ابن على أية حال.
قد تحلم بشيء، والأكيد أنه بعيد المتناول، وقد يمضي العمر
ولا تحصل عليه. ولكن احلم على أية حال.

قد تحبين شخصاً بكل جوارحك، وكل الأسباب المناسبة
وغير المناسبة، يختار الحبيب أن يمشي في لحظة ويتركك،
ولكن أحبي على أية حال.

وقد تسكب روحك في قالب أغنية، مؤمناً بها، فيأتي الغد،
ويُنسى أنك غنيتها، ولكن غنٌ على أية حال.

هذا العالم مجنون إلى درجة يصعب معها أن تصدق أنَّ غداً
أفضل من اليوم، ولكن آمن على أية حال».

ليليا ترجمت الأغنية وأسمعتني إياها بالفرنسية، ثم غنت
ترجمتها على الإيقاع نفسه. يلعن أبوها ما أحلاها.

* * *

على الإيميل الأول أجاب صباح:
أيَّ حال بدك يمشي؟
ليش إنتِ تركتِ لي حال؟
على أية حال اسمحي لي أنت وليليا أن أتصرف بخاتمة
أغنتكما لتصبح:
«سورية مجنونة إلى درجة يصعب معها أن تصدق أنَّ غداً
أفضل من اليوم، ولكن آمني على أية حال».
والآن، وإلى أن تصلي بالسلامة، سأضفر لك من هذا الثلج
بلورة فبلورة، كي يكون لك الليلة سرير من خيال، سأنصب
قوائمه في البحر، وسأظلله بأمواج رخية ورضية بلا زيد.
لكن البحر يستنقع يا نمنوما.

* * *

إلى أن يتقيا سيكتب أنه زار أخاه محرم في بانياس الذي
عاد من ليبيا عندما كان سيف الإسلام القذافي «يطقطن» في

أمريكا وفي المحكمة الجنائية، كما «طزطن» الموالون هنا في العروبة عندما علقت الجامعة العربية عضوية سورية فيها. ومن خلف بيت أخي في رأس النبع جرني إلى الخليج الصغير الحاد العاري، وأمرني أن أنظر حيث أشارت أصابعه: هذا أنا، هذا أنت، هذا نحن جميعاً، منا الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض، وسوف يطردنا من البحر ليكون له وحده. هل عرفت من هو؟

قال محرم جازماً: أنت دائم التشكل من قبل ميلادك إلى ما بعد موتك، مثلك مثله. جُلُّك ماء، وإبرك سامة، مثلك مثله، فما الفرق بين أن يكون بلا عقل وأن تكون أنت العاقل؟ هل عرفت ما هو؟

تفضلي: هذا هو قنديل البحر. الثالث محرم بعدما شطرت رصاصة أذن طفلته شام البحر، فأصابتها بالصمم وبالالتياث، وأصابت بين الثديين حضن أمها الذي افتداها. الطفلة ولدت في البحر، حين كانت الباخرة تائهة بين طرابلس واللاذقية، ومنذ شطرت الرصاصة أذنها وثبتت صدر أمها، صارت قناديل البحر كابوس أخي محرم، والآن صارت كابوسي.

البحر يستنقع بقناديله يا نمنوما.

* * *

إلى أن يلتقيا ستكتب له: كرمى لشام البحر سنبدأ
الاحتفال بهذه الأغنية التي شاهدتها على قناة الأوريانز
مرفقة بلوحات لعلي فرزات وغيتار واحد:

يُملّ

من والدِ ومن ولدٍ

يُملّ

يُملّ من أمك ومن أبوك

من أختك ومن أخوك يُملّ

أسرع صباح بالعودة من بانياس خوفاً من أن تسبقه
نمنوما إلى اللاذقية. لكنه الثلج، ساعة ونصف وأنا والكولت
مصلوبان بانتظارك: قال وهو يعانقها ويدعوها إلى السباق
من باب الكراج إلى الكولت على مسافة عشرين متراً. وقبل أن
يتجاوز ساحة اليمن قالت متشهية: البحر يا صباح.

البحر يستنقع: فكر صباح والسيارة تنزلق إلى الكورنيش
الجنوبي. وسرق من خد نمنوما نظرة، فضيّبته وقالت: بردانة،
فسرق من شعرها نظرة، وهجس: أنقى من الثلج وأنعم، ثم سرق
نظرة مما يُظهر ذراعها من صدرها، وهجس: نهدان يتلائنان،
وتمنى لو يمكنه أن يسرق نظرة من ساقيها، لكنه البنطلون

وقصبة البوط الطويلة، فتمنى لو يمكنه أن يسرق مما يخفي
المقعد: طرية هي، وندية، ومضيئة، هجس، فضيّطته نمنوما،
وزجرته بنظرة.

ما بي من سر عليك: فكر، وخاف من أن يكون ذلك صحيحاً،
بينما لا يعلم هو بما تخفي أمراً. وإلى أن يبدأ الاحتفال
سيتسلل إلى شوّقهما الراديو في السيارة، والتلفزيون في
البيت: إعادة لمشاهد انفجار السيارة المفخخة في إدارة أمن
الدولة، وانفجار السيارة المفخخة في فرع المنطقة، وهذا هو
الإعلان الأول عن جبهة النصرة، وهذا نثار هائل ولزج من
الدماء والأشلاء والكلمات، ويدا نمنوما تزيحان الستارة عن
النافذة، لتحقّق عبر الشرفة في البحر البعيد، ثم ترتد بنظراتها
إلى السماء بينها وبينه: ما هذا؟

تهمس مرتابعة، فيسرع صباح إليها، ويرُوّعه أن الثلج قد
بدل بياضه وخفته، كأنما هو يستنقع. واذ تلتّصق به نمنوما
يجفّه أن الشوق يبهر، ثم يباغته أنها تناهى عنه، وتهمس: هل
ترى ما أرى؟

كان شعاع وان يرسم في الأفق: ٢٠١١ ١٢٣١، كأنه يومئ
إلى هاوية. وكان البحر بعيد يحصن الفراغ اللامع بينه وبين
نمنوما وصباح، فيبدو مرحأ في لحظة، وفي لحظة مثل طفل

يتقلب في نومه.

بعد قليل رأى صباح البحر يقدم لنمنوما حفنة من ماساته،
فقبض على ذراعها بقسوة وسأل: ما الذي يجري؟ فحررت
ذراعها منه بعنف، وسألت: ما الذي يجري؟

نبيل سليمان - سيرة ذاتية

- ولد عام ١٩٤٥.
- تخرج في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٦٧.
- عمل في التدريس بين ١٩٦٣ و ١٩٧٩.
- أسس دار الحوار للنشر والتوزيع عام ١٩٨٢ في اللاذقية.
- متفرغ للكتابة منذ عام ١٩٨٩.
- شارك وحاضر في العديد من المؤتمرات والندوات والجامعات، ومنها في: واشنطن سياق أوستن إسبانيا السويد مصر تونس الجزائر المغرب اليمان الإمارات العربية المتحدة البحرين سلطنة عمان الكويت الأردن لبنان، سوريا.
- حاز على جائزة غالب هلسا للإبداع الثقافي (الأردن).
- حاز على جائزة باشراحيل للإبداع الروائي (القاهرة).

المؤلفات:

أ. في الرواية:

- ينداح الطوفان: ١٩٧٠ م.
- السجن: ١٩٧٢ م.
- ثلج الصيف: ١٩٧٣ م.
- جرماتي: ١٩٧٧ م.
- المسلة: ١٩٨٠ م.
- هزائم مبكرة: ١٩٨٥ م.
- قيس يبكي: ١٩٨٨ م.
- مدارات الشرق: الجزء الأول: الأشوعة ١٩٩٠ م.
- مدارات الشرق: الجزء الثاني: بنات نعش ١٩٩٠ م.
- مدارات الشرق: الجزء الثالث: التيجان ١٩٩٣.
- مدارات الشرق: الجزء الرابع: الشقائق ١٩٩٣.

- أطياف العرش: ١٩٩٥ م.
- مجاز العشق: ١٩٩٨ م.
- سمر الليالي: ٢٠٠٠.
- في غيابها ٢٠٠٣.
- درج الليل... درج النهار ٢٠٠٥.
- دلعون ٢٠٠٦.
- حجر السرائر ٢٠١٠.
- مدائن الأرجوان ٢٠١٣.

بـ. في النقد الأدبي والثقافي:

١. الأدب والأيديولوجيا في سوريا (بالاشتراك مع بوعلی ياسين) ١٩٧٤ م.
٢. أيديولوجية السلطة ١٩٧٧ م.
٣. النقد الأدبي في سوريا ١٩٨٢ م.
٤. مساهمة في نقد النقد الأدبي ١٩٨٢ م.
٥. أسلمة الواقعية والالتزام ١٩٨٥ م.
٦. وعي الذات والعالم ١٩٨٨ م.
٧. الماركسية والتراث العربي الإسلامي ١٩٨٨ م.
٨. في الإبداع والنقد ١٩٨٩ م.
٩. فتنة السرد والنقد ١٩٩٤ م.
١٠. سيرة القارئ: ١٩٩٦ م.
١١. حوارات وشهادات: ١٩٩٥.
١٢. الثقافة بين السلام والظلام: ١٩٩٦.
١٣. حوارية الواقع والخطاب الروائي: ١٩٩٨.
١٤. بمثابة البيان الروائي: ١٩٩٨.
١٥. الرواية وال الحرب: ١٩٩٩.
١٦. الرواية العربية رسوم وقراءات: ١٩٩٩.
١٧. المتن المثلث: ١٩٩٩.
١٨. الكتابة والاستجابة: ٢٠٠٠.

١٩. أقواس في الحياة الثقافية .٢٠٠١
٢٠. بدوي الجبل منتخبات: إعداد وتقديم، ٢٠٠٢
٢١. كتاب الاحتفاء، ٢٠٠٣
٢٢. جماليات وشواغل روائية، ٢٠٠٣
٢٣. السيرة النصية والسير المجمتعية ٢٠٠٤
٢٤. أسرار التخييل الروائي ٢٠٠٦
٢٥. شهرزاد المعاصرة ٢٠٠٨
٢٦. الرواية العربية والمجتمع المدني ٢٠١٠
٢٧. المساهمة الروائية للكاتبة العربية ٢٠١٣

الترجمات :

- ترجمت (ينداح الطوفان) للروسية، وقام بالترجمة زغيرسكي وصدرت عن دار رادوغا عام ١٩٨٧.
- ترجمت (قيس يبكي) إلى الإسبانية وصدرت عن دار كانتا آرابيا في مدريد، عام ١٩٩٣ وقامت بالترجمة: بيلين فيرناندز ديل بينو وملك صهيوني.
- ترجم الجزء الأول من مدارات الشرق (الأشرعية) إلى الفارسية.
- نشرت مجلة بابنبايال (لندن) ترجمة فصول من رواية (درج الليل .. درج النهار) إلى الانكليزية.

السينما والتلفزيون:

- ١- قصة (الغضب): المؤسسة العامة للسينما السورية ١٩٧٣
- ٢- سيناريو الفيلم التلفزيوني (فهيم) التلفزيون السوري ١٩٨٥
- ٣- عن رواية (أطيااف العرش) أنتجت شركة الشام مسلسل (الطوبي) والفيلم السينمائي (الرسالة) عام ١٩٩٩

دراسات حول أعمال الكاتب:

- نحو ملحمة روائية عربية محسن يوسف ١٩٩١
- الرواية والتاريخ محمد جمال باروت وعبد الرزاق عيد ١٩٩١

- قراءات في تجربة روائية سمر روحى الفيصل .١٩٩٢
- المعالجة الفنية للتاريخ محمد عادل عرب .١٩٩٣
- الرواية بين النظرية والتطبيق راكز أحمد .١٩٩٤
- فضاء النص الروائي في أدب نبيل سليمان محمد عزام .١٩٩٦
- نبيل سليمان أو ربع قرن من الكتابة مجموعة .١٩٩٦
- تشكل المكونات الروائية المويقن مصطفى .٢٠٠١
- جماليات التشكيل الروائي محمد صابر عبيد وسوسن البياتي .٢٠٠٨
- الصائد الخفي ابراهيم محمود .٢٠١٠

المحتويات

٩	عازية وناعمة مثل الشفارة
١١	لهر العاصي يتفرج على شرق العروسين
١٢	هذه نعنوا... وهذه هي حكاية اللقاء الأول
٢١	نعنوا تتحدث عن رجالها بينما تطير وسباح إلى حماة
٣١	راتب عذلة ويتان عزجون.. من أوقع بهمن؟
٤٠	يطير إلى من حماة
٤٦	الصديقان
٥١	العاشرة
٦٢	الجمعة ٤٠١٢/١١/١٤
٦٩	هرمنا هرمنا من أجل هذه اللحظة والشعب السوري الحر
٧٨	الصديقان
٨٤	سباح في البيات الشتوي مطلع ٢٠١١
٩٦	نعنوا... كل الأسماء
٩٧	تماماً يا سراج
١٠٤	راتب منظفينا
١١٣	ميدان الأمويين الدمشقي
١٢٥	عناقيد نعنوا
١٢٨	العقلاني ليس
١٤٣	الألم واينتها التي تم تقادها
١٤٤	بمناسبة مثل
١٤٧	أنا لبحبك، يا نعنوا
١٦٧	بحر نعنوا
١٧٥	فخر بيتك
١٨٢	يا من على جرفك
١٨٩	الثلاثاء ١٤/١٢/٢٠١٢

٢٩٩	جمعة الفرقعة
٣٠٠	العقيد وأصل أعيانه؟! ينطلق
٣٠١	صواريخ الليل والنهار
٣٠٢	ما يعيش على حلم
٣٠٣	من مرويات صباح خليل
٣٠٤	جمعة الشهداء
٣٠٥	هل هذه هي سوريا المصفرة حقاً؟
٣٠٦	الجمعة العظيمة
٣٠٧	يامن على جرف
٣٠٨	كانها حرب
٣٠٩	حوارية حنيف وليانا وشتموا
٣١٠	سفنون الليل
٣١١	المدنية
٣١٢	ما فيها سوريا يا جبوري وسمادي؟
٣١٣	شبك يا روح أمته؟
٣١٤	هل هذه هي سوريا المصفرة حقاً؟
٣١٥	من مرويات صباح خليل
٣١٦	سفنون الليل والنهار
٣١٧	المحتجزة التي لبحث عن صاحبها
٣١٨	كانها حرب
٣١٩	لعنواها، أنت العيد، ولذا التحر
٣٢٠	هذا النبع يحرات الدمشقي من أخيوكلات فيها
٣٢١	ما هذا الذي تحزن فيه؟
٣٢٢	حكمت المحكمة
٣٢٣	الصديقان
٣٢٤	هل هذه هي سوريا المصفرة حقاً؟
٣٢٥	لعنواها أنت العيد، ولذا التحر
٣٢٦	نيل سليمان - سيرة ذاتية



كتاب «دبي الثقافية»

سلسلة دورية تصدر عن مجلة دبي الثقافية

- ١- «نجيب محفوظ.. قيسر الرواية العربية» - ١٩٩٩.
- ٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.
- ٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.
- ٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.
- ٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.
- ٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.
- ٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.
- ٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.
- ٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.
- ١٠- «السماء تخفي أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.
- ١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.
- ١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.
- ١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للابداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.



نبيل سليمان

ما نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للناقد والروائي نبيل سليمان، وأضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنوع في شتى مشارينا الثقافية، تعميمًا للنفع، وحرصًا على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألّ جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري